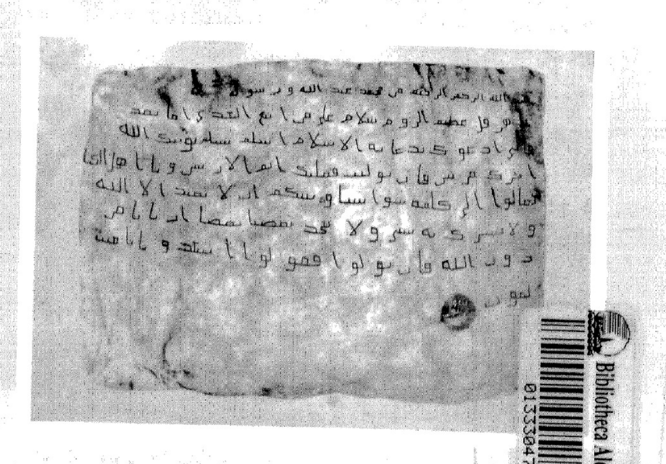
إبراهيم حركات

السياسة والمجتمع في العصر النبوي



بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى
هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد
فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله
أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم الأريسيين و يا أهل الكتاب
تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله
ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من
دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسـ
لمون

منشورات دار الآفاق الجديدة
المغرب

إبراهيم حركات

السياسة والمجتمع في العصر النبوي

منشورات دار الآفاق الجديدة
المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله وسلم على من بعث لهداية البشر
إلى الطريق المستقيم

مقدمة

لماذا دراسة جديدة عن العصر النبوي ؟

لقد كتبت عن السيرة النبوية مؤلفات كثيرة بلغات عديدة وخلال قرون متلاحقة منذ القرن الثاني الهجري حتى يومنا هذا ، فأما المؤلفات القديمة ، فإما أن تكون كتبا عامة في التاريخ غالبا ككتاب الطبري واما كتبا خصصت للسيرة كالتي كتبها ابن اسحق وابن هشام ، ومعظم هذه الكتب تتميز بعرض عدة روايات للحَدَث الواحد مع اختلاف يبعد أو يتقارب في التفاصيل بحيث لا يهتدي القارئ إلى الحقيقة بوضوح وقد لا يهتدي إليها بالمرة ، وهذه المصنَّفات القديمة تفتقد المنهجية وبعضها مما خصص للسيرة يهتم بسرد مجموعة كبيرة من أسماء الأشياء المتصلة بحياة الرسول كأسماء خيله وسيوفه إلخ ... فيكرر بعضها بعضا من غير تشويق او التفات إلى ابعاد الرسالة المحمدية في جل الاحيان .

واما الدراسات الحديثة فتستأثر بها العاطفة أو الهوى حسب مشارب وأديان ومذاهب من كتبوها ، وبعضها مجرد تلخيص وتبسيط لما كتبه الاقدمون ، ولكن ليس كل ما كتب من قديم أو جديد باطلاً أو غير ذي جدوى ، فلا غنى مطلقا لمن يكتب السيرة ان يرجع إلى بعض التفاسير المهمة وكتب الحديث النبوي أو صحيحه ، ومؤلفات ابن اسحق والبلاذري ، والواقدي وابن هشام والطبري وغيرهم ، ممن استوثقوا من المعلومات قبل تقديمها أو جمعوا مختلف الروايات عنها مع محاولة ترجيح بعضها أحيانا ، وبقطع النظر عما ينتقد على بعضها أيضا .

وكذلك لا يمكن أن نستهين بالدراسة القيمة التي وضعها قبل بضعة عقود من

السنين عمر أبو النصر ضمن سلسلته الرائعة : العرب ، ولا بالدراسات المفيدة التي كتبها ككل أو كجزء من السيرة ، عدد من الأساتذة والباحثين ابتداءً من الهند والباكستان وأندونيسيا إلى المغرب .

فمـا الفائـدة والحـالة هذه ، من معالجة جديدة للعصر النبوي ؟

ان محمدا الرسول ، لا يمكن أن يدرس منهجيا لشخصه فحسب ، بل يجب أن يدرس أيضا المحيط الدولي الذي فتح عليه عينيه ، ومحيطه العربي : لأنه رسول عربي أولا ، وأرسل إلى كل البشر ثانيا . ومبررات رسالة بشرية لا تثبت بتفوق العرب ، بل بسمو الدعوة المحمدية نفسها والتي دخل فيها على الفور زنوج وفرس وبيزنطيون وغيرهم ، وبذلك بَطَلَ الاعتبار السلالي وحل محله الاعتبار العقائدي .

إن وجهة هذه الدراسة هي العصر النبوي ككل . بما تميز به من ديناميكية المجتمع العربي الذي وجهته الرسالة المحمدية توجيها رائعا بدأ يؤتي اكله ناضجا منذ هذا العصر .

ولذلك أوضحت هذه الدراسة مقام هذه الرسالة بمقارنتها مع الديانات والعقائد الرئيسية التي عاصرها الاسلام أو وجدها قائمة فحل محلها .

ونادرا ما يتضح في كتب السيرة والمغازي موقف الكتل القَبَلِيَّة أوْ تُحَدَّدُ مراكز القوى المناهضة للاسلام في عهد الرسول بشكل مُقْنِع ، وقد تلافت هذه الدراسة ذلك النقص وبينت بجلاء الدوافع الخفية التي جعلت كل كتلة قبلية أو زعامة معينة أو مركز قوى محدد تناهض الاسلام ، وهكذا تبرز الاسباب المعقولة التي دفعت بالرسول إلى إرسال سرية او تقرير حملة يقودها ، وحددت مواقع القبائل والمعارك ووضعت تخطيطات الدعوة المحمدية بمختلف جوانبها .

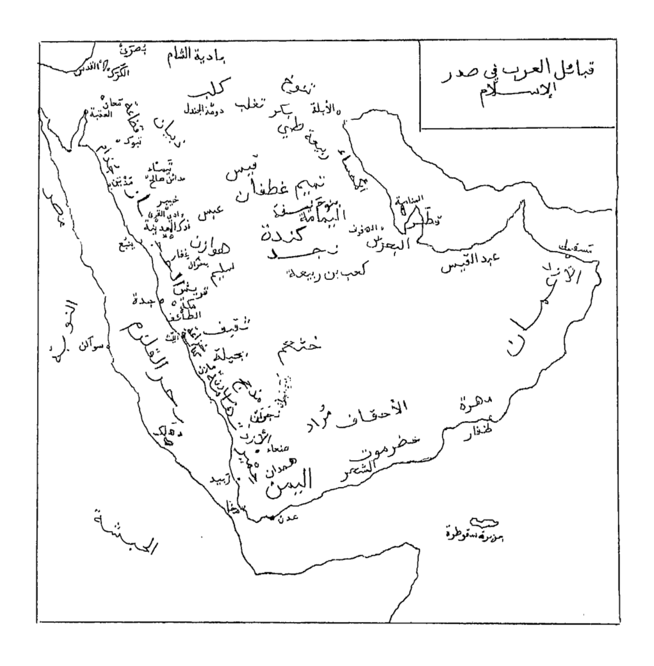
ولما كانت المصنفات التقليدية في السيرة قد أوفت المعجزات النبوية حقها فان هذه الدراسة قد توجهت إلى المعجزة الرئيسية للرسول وهي القرآن الكريم فقارنته بكتب الديانات السماوية الباقية ، واستخلصت منه ، ومن العمل النبوي وسنة الرسول عموما وكذا نشاطه في المجالات العامة من تشريع وادارة وتنظيم اقتصادي وعسكري ، ابرز مقومات

النظام الاسلامي في العهد النبوي نفسه ، وذلك أن تطبيق الشريعة في مجالات الحياة في العهد النبوي وحده لم يحظ بدراسة أصيلة بينما معظم ما لدينا بهذا الصدد روايات وأسانيد وأخبار متناثرة وغير متزامنة بسياسة واسعة المدى ، وهذا ضعف كبير في التعرف على العهد المحمدي كما أصبح بعد البعثة ، مثلما يجب أن يعرف قبل البعثة .

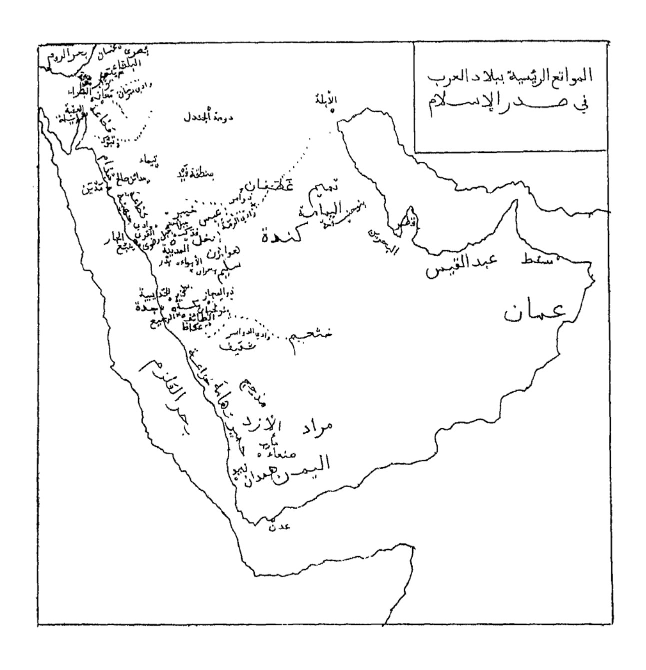
وكذلك فان هناك مؤثرات فكرية ثقافية جديدة تبرز فيما جد من مصطلحات وتعابير أخذت تتداول بفضل القرآن ، في العهد النبوي ، كما تبرز في الشعر والنثر والجَدَل الديني وفي دراسة الشريعة من خلال القرآن والحديث .

تلك جملة من الخطوط التي التفتت اليها الدراسة التي هي بين يدي القارئ الكريم ، ولا يدعي صاحبها انه قدم عملا نهائيا أو فريدا في بابه ، فالحكم بمثل هذا انما هو ادعاء كمال لا يبلغه احد ، غير أن صاحب الدراسة لا يجد حرجا في أن يتقبل كل ملاحظة وجيهة أو نقد سليم ، أو ليست كتابة السيرة بمثابة الكتابة عن تخطيط لمستقبل الانسانية وُضِعَ قبل قرون عديدة ؟ أو ليس مُنَفِّذ هذا التخطيط هو محمد بن عبد الله الذي كان ظهوره هو نفسه معجزة إلهية ؟

المؤلف / 1309/ 1989

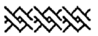


قبائل العرب في صدر الإسلام
بصرى
بادية الشام
الكرك
القدس
كلب
تنوخ
تغلب
دومة الجندل
بكر
الأبلة
طيء
ربيعة
تبوك
تيماء
مدائن صالح
قيس
تميم
غطفان
عبس
خيبر
وادي القرى
المدينة
ينبع
هوازن
غفار
سليم
قريش
جدة
مكة
الطائف
ثقيف
بجيلة
خثعم
اليمامة
كندة
نجد
البحرين
قطر
عبد القيس
كعب بن ربيعة
مسقط
عمان
مهرة
ظفار
الأحقاف
مراد
نجران
حضرموت
الشحر
صنعاء
همدان
زبيد
اليمن
عدن
جزيرة سقوطرة
الحبشة
النوبة
سواكن


المواقع الرئيسية ببلاد العرب
في صدر الإسلام
بحر الروم
دومة الجندل
الأبلة
تيماء
غطفان
تميم
اليمامة
كندة
عبد القيس
عمان
المدينة
مكة
جدة
الطائف
عكاظ
خثعم
ثقيف
مذحج
مراد
الأزد
صنعاء
اليمن
همدان
عدن
بحر القلزم

القســـم الأول

المجتمـع العربي وحـياة الـرسـول (ص) قبـــل الهــجرة



الفصل الاول : المجتمع العربي قبيل الاسلام

الفصل الثاني : محمد (ص) في طفولته وشبابه

الفصل الثالث : البعثة النبوية وحياة المسلمين قبل الهجرة

الفصل الأول

المجتمع العربي قبيل الاسلام

الأوضاع الدولية

لمعرفة مبررات ظهور دين جديد اكتسح جزءا كبيرا من العالم في سرعة خارقة لابد من التعرف قبل كل شئ ، على الظروف السياسية والاجتماعية والعقائدية التي اكتَنَفَتْ ظهور هذا الدين في هذه المناطق التي اكتسحها وغير معالمها بصفة جذرية ، فلم يكن الاسلام خاصا بشبه جزيرة العرب ، ولم يبعث محمد الرسول (ص) إلى العرب وحدهم ، وليس كافيا أن نعرف ظروف المجتمع العربي دون غيره في المرحلة التي مهدت للاسلام تاريخيا . ولقد كان عمل الرسول عليه السلام هو احياء رسالة إبراهيم الخليل التي هي اصل الرسالات الموسوية والمسيحية وغيرها ، ثم تقوية هذه الرسالة بعطاءات جديدة من الوحي الإلهي والسنة المحمدية .

كان العراق موطن ابراهيم الخليل يشكل في العهد الساساني نقطة ارتكاز في الامبراطورية الفارسية الشاسعة ، وهو يضم مجموعة كبرى من العرب وبقايا العناصر السامية القديمة ، وقبل مولد الرسول (ص) بثلاثة عقود من السنين ، أي عام 540 م تمكن كسرى أنوشروان من اقتحام اجزاء من امبراطورية جوسْتينْيان البزنطية وأرغم الامبراطور البزنطي على أداء جزية سنوية مقابل انسحاب قواته ووقف كل دعاية للمسيحية في الامبراطورية الفارسية ، واستولت القوات الفارسية سنة 570 على اليمن ، وهي سنة مولد الرسول (ص) ، واشتهر انوشروان بعدْلِه وحكمته ، وتَطْفَح كتب الأدب العربي القديم بأخباره ، وكانت وفاته سنة 579 . لكن كسرى الثاني المعروف بكسرى أبرويز (590 - 628 م) والذي عاصر الرسول (ص) عرف ببطشه ، وكان عهده مرحلة انتقال نحو انهيار الامبراطورية الساسانية وهو الذي مزق خطاب الدعوة النبوية ،

وبعد أن تمكن من قهر جيوش هرقل البزنطي والاستيلاء على بيت المقدس سنة 614 أعاد البزنطيون الكرة على الفرس فنكص هؤلاء على أعقابهم وتنبأ الرسول بوحي إلهي ، بنكبة الفرس «الم ، غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » ، كما أن أبرويز لقي مصرعه إثْر مؤامرة داخلية ، وتكررت مؤامرات العرش بعدَهُ إلى ان انهارت الامبراطورية الفارسية على يد الجيوش العربية في عهد عمر وبذلك تحقق دعاء الرسول عليه بتمزيق ملكه .

وكانت فارس تعيش مرحلة تناقضات عقائدية عميقة الجذور ، ولها انعكاسات على النظام الاجتماعي بكامله . وهكذا اختلطت تعاليم زرادشت التي ظهر صاحبها في القرن السادس ق . م بالمانويّة التي شقت طريقها عبر البلاد خلال القرن الثالث الميلادي والمزدكية التي سيطرت على المعتقدات في القرن الخامس وأصبحت دينا رسميا للدولة فبينما يدعو زرادشت إلى الزواج وتكثير النسل ويرفض الصوم الذي هو من أبرز أركان الديانات الكبرى نرى ماني يدعو إلى الرهبانية والصلاة باستمرار ، بينما تقوم دعوة مزدك على الشيوعية في المال والنساء .

أما طبقة الفلاحين التي . .رن معظم الشعب فتعيش عيشة البؤس والضنك في الوقت الذي تتقوى طبقة النبلاء من العسكريين ، ويتضخم نفوذ الكهنة الذين أنشأوا تسلسلا كبيرا من الدرجات الدينية ، مع تسامح الملوك المتأخرين تجاه الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية . وعلى كل ، فوجود المزدكية كدين رسمي ، مع بقايا المانوية والزرادشتية ، ووجود أتباع الدِّيانة البوذية جعل الغلبة لفكرة الصراع بين الخير والشر ، وبين الظلمة والنور ، حيث تكون النهاية غلبة الخير على الشر والنور على الظلمة ، وما من شك في أن مؤثرات ايرانية عميقة صبغت الكثير من الصيغ العقائدية التي ظهرت في الاسلام كجملة من الافكار الشيعية والاعتزالية .

وشهدت الامبراطورية البيزنطية تطورات سلبية في عدة ميادين ، ففي منتصف القرن السادس الميلادي اكتسحت قبائل الأبار القادمة من آسيا الوسطى أقطار الامبراطورية البزنطية ، وكان لهجومهم انعكاسات اقتصادية وسياسية خطيرة وتولى هرقل معاصر

الرسول (ص) الحكم فيما بين 610 - 641 . وكانت وفاته في السنة الهجرية 21 وقد فكر في الانتقال إلى قرطاجنة ليوجه منها الزحف المضاد نحو المهاجمين ، لولا معارضة الكنيسة . وبعد عمليات تخريب واسعة النطاق ، عاد جل الأبار إلى حوض الدانوب شمالا ، بينما استقر الصقالبة في أقطار البلقان ومالبثوا ان انشأوا ببعضها حكما مستقلا . والدارس لتاريخ الزحف الاسلامي على الامبراطورية البزنطية لا بد أن يدخل في الاعتبار هذا الضعف السياسي الخطير الذي أحدثه داخل هذه الامبراطورية كل من الأبار والصقالبة الذين حطموا إلى حد كبير القوة العسكرية والاقتصادية لدى البزنطيين قبل ان يجهز المسلمون على أكثر ما بقي من أقطار تحت حكمهم ، كذلك ينبغي ان نلاحظ هنا ان الشعوب السلافية (الصقالبة) إذا كانت قد أسهمت بنصيب كبير في تحطيم الامبراطورية البزنطية فقد كان لها دور مماثل بل أخطر في إضعاف الدولة العثمانية فيما بعد .

وخلافا لما رددته اكثر الروايات التاريخية عن جوستينيان الذي وقع في عهده اكتساح الشعوب الجرمانية والصقلبية من ان عهده كان عهد حضارة راقية ، خصوصا ما اشتهر عنه من تدوين القوانين فانه لم يمت حتى ترك الامبراطورية على حافة الافلاس ، وتمتّعَ رجال الكنيسة بامتيازات لا حدود لها ، فكانت كلمتهم نافذة في البلاط وازدادت نفوذا في عهد هرقل وجمعوا الثروات الطائلة وأصبحت جل الأراضي الزراعية بايديهم من طريق الهبات والتفويت والاستغلال ، وبعد فترة من الرخاء والانكباب على تشييد المنشآت العامة عرفت امبراطورية جوستينيان انهيارا اقتصاديا مهولا وفُرضت ضرائب باهظة على الشعب ، ولم يستطع البزنطيون ان يزحزحوا الفرس عن مكانتهم في احتكار التجارة الدولية مع الاقطار المتاخمة للمحيط الهندي بالرغم من اعتماد البزنطيين على نصارى اليمن والحبشة كوسطاء ، وقام الفرس بهجوم كاسح على البزنطيين فاحتلوا فيما بين 612 - 619 أجزاء من الشام ومصر وآسيا الصغرى ، كانطاكية وبيت المقدس والاسكندرية ، وفيما بين 622 - 628 استعاد هرقل كل ما استولى عليه الفرس من البيزنطيين .

واخذت الخلافات الدينية من رجال الدين زمنا طويلا استمر إلى اضمحلال الدولة البيزنطية فان نسْطوريوس بطريق القسطنطينية (438 - 431) حوكم ونفي من القسطنطينية بسبَب انه كان يقول بان لعيسى طبيعتين الهية وبشرية ، ومن ثم فله شخصيتان بشرية والهية ، وهكذا طورد أتباعه الذين تمكنوا مع ذلك من نشر مذهبهم بفارس والشام وحتى بين القبائل التركية والصينية (1) .

---

1 - راجع عن اوضاع الفرس والبيزنطيين : ابن الاثير كامل ، 1 ، 293

Ostrogorsky , Histoire de l'Etat byzantin , pp , 121 - 124 . De L'Andelyn, Histoire universelle, pp 221 et 240. Paul Lemerle, Histoire de Byzance (Col. Que sais -je), pp 28 -52 . 63 - 66 .

وكانت الأوضاع في اوربا الوسطى والغربية تعبر في مظهرها وجذورها عن مدى الانحطاط الاجتماعي والتخلف الشامل الذي كانت عليه شعوبها فباستثناء القوط الذين كانت لهم قابلية حضارية نجد عامة المناطق في وضع سياسي واقتصادي وعقائدي متخلف . فقد كانت الوثنية تضرب أطنابها بين الشعوب السكسونية والنرمندية . وظلت الفكرة الوطنية او القومية بعيدة عن أفكار السكان الذين يتجمعون في المدن والقرى وكل مدينة او قرية تعد نفسها وطنا مستقلا [1] .

وعاشت شعوب افريقيا في وضع متخلّف ايضا ، فالمسيحية لم تتخطَّ الأقطار المحادية للبحر المتوسط جنوبا فيما عدا الحبشة ، وفي افريقيا الشمالية كان اثر المسيحية محدودا مع ان المعتقدات القرطاجنية تمكنت من التغلغل في الصحراء الكبرى ، وهكذا وجد الاسلام السبيل إلى عدد كبير من اقطار افريقيا اما عن طريق العرب او سكان القارة انفسهم . وفي الواقع لم تستطع المسيحية ان تحقق نصرا يذكر بالقارة الافريقية ، لانها لا تنسجم مع عقلية شعوبها كما ان حماتها لم يحققوا مبدأ المساواة والعدالة في معاملة المجتمعات التي حلوا بها .

كانت المسيحية في الواقع ضد الطلاق وتعدد الزوجات ، لانها وجدت المجتمع الروماني عند ظهورها وقد انهارت فيه الحياة العائلية والسلطة الأبوية مما أدى إلى إهمال تربية الابناء ثم إلى تشجيع انتشار المسيحية بين الرومان ، غير أن المسيحية ابتليت بانقسامات داخلية خطيرة ، وكانت الكاثوليكية اهم مَظْهر لابتعاد المسيحية عن اصلها كدين توحيد وكان المذهب الاريوسي الذي انتشر بالمشرق والشمال الافريقي يصارع بشدة كل سيادة للبابا الروماني ولا يتفق مع الكاثوليكية في معتقداتها ، فالمسيحية تقدس الاشخاص اكثر من أي دين سماوي آخر ، ولكل قديس عيد أو موسم ، حتى كان لذلك اثر واضح في المجتمعات الاسلامية بعد فترة من الاسلام . وقد تنبأ الرسول (ص) بان المسلمين سيلجأون إلى تقديس الاولياء على غرار المسيحيين حتى ان الاحتفال بذكرى مولد النبي مع قيمته التاريخية والدينية ، لم يبدأ تنظيمه إلا على يد الفاطميين وتقليدا للأقباط بمصر في احتفالهم بالمسيح عليه السلام .

---

1 - يمكن أخذ نظرة مركزة عن حياة العصر الوسيط سلبا وإيجابا في أوربا في :

La vie au moyen âge ; (Col. Que sais - je) , de Geneviève d'Haucourt .

واستطاعت المسيحية مع هذا ان تكثر من انصارها بفضل التبشير ، كما ان اباطرة الرومان المتأخرين اتخذوها دينا رسميا وكان معظم العالم المعروف تحت سيطرتهم ومن جهة اخرى فقد أقبل عليها الرقيق وهم يكونون طبقة عظمى من الشعوب الخاضعة للرومان لانهم كانوا يعتقدون أن اعتناقهم لهذا الدين فيه خلاص لهم من اضطهاد الحكام والطبقة الارستقراطية .

اما اليهودية فمع اقدميتها الطويلة واعتمادها على وحدانية الله وانطوائها على جوانب تجدها ايضا اساسية في الاسلام كالصلاة والصوم والطهارة مع خلاف كلي في التفاصيل ، جعلت من العبرانيين شعب الله المختار فوضعت بذلك حاجزا بينها وبين العدل والمساواة ، كما ان في كثير من أحكامها ضَيِّقا لا يسمح باجتذاب الناس اليها بسهولة .

بلاد العرب

شبه جزيرة العرب او بلاد العرب كما كانت تعرف لدى العرب انفسهم تقع في أقصى الجنوب الغربي للقارة الاسيوية ، والواقع ان شبه جزيرة العرب ما هو إلا الوطن الاصلي الاول للشعوب السامية أو معظمها بما فيها العرب ، لكن البلاد المحيطة بشبه الجزيرة هي مهجر قديم جدا للعرب ، وتشمل العراق واقطار الشام وحتى شواطئ البحر الأحمر من جهة ومن جهة أخرى افريقيا .

وشبه الجزيرة الذي انفصل بالتأكيد عن افريقيا في العهد الجيولوجي الثالث يكون هضبة شاسعة تمتد من سهول سوريا ما بين النَّهرين وتتكون في اغلبها من التربة الجيرية ، ويحتوي كل من الحجاز واليمن على جبال يبلغ اقصى ارتفاعها 2500 م بالحجاز و3760 باليمن . وتبلغ مساحة شبه الجزيرة حوالي ثلاثة ملايين كم 2 اغلبها بيداء . وإذا كان جو شبه الجزيرة متنوعا حسب المناطق فهو في الأعم قائظ صيفا بارد شتاء ، وتحظى المناطق الساحلية جنوبا وغربا بمطر يغزر على الخصوص في اليمن التي تتوفر بها كل المعطيات الزراعية ، وتَسُدُّ المياه الجوفية القليلة من بحيرات عميقة وعيون وآبار بعض النقص في الماء . والحق أن الماء يمثل قيمة لا حد لها في حياة الانسان العربي قبل الاسلام وبعده ، فهو

وان افتقد الخصب في الارض لا يمكن أن يستغني عن الحياة الرعوية التي لا بد فيها من كلأ للماشية وماء لشربها فضلا عن حاجة الإنسان نفسه ، وهكذا فان العرب الذين عرفوا جيدا قيمة الماء خاضوا معظم حروبهم حول المواقع المائية ، سواء في ذلك الحروب الداخلية او الخارجية ، وأول مجابهة رئيسية في الاسلام بين المسلمين والمشركين كانت حول بئر هو بئر بدر .

وبحكم الامتداد الجغرافي والبشري للسكان العرب ، فان العراق والشام اللتين احتفظ العرب فيهمًا باستقلال ذاتي تراقبه السلطات الفارسية والبيزنطية كانتا بالنسبة للعرب جزءا من بلادهم ، حيث تعايشهم من قديم مجتمعات اقل منهم عددا فيما عدا المجتمع الفارسي الذي هيمن حكامه على العرب انفسهم بالعراق منذ القرن الثالث للميلاد ، لكن الحماية التي بسطها الفرس على ملوك الحيرة الذين كانوا كنُظَرائهم الغساسنة بالشام حراسا للحدود مع شبه الجزيرة وبالاخص للبدو الذين كانوا يغيرون على الاراضي المجاورة ، لم تخل من نتائج خطيرة على الساسانيين ، فان الحارث بن جَبَلة الغساني تمكن من قتل المنذر الثالث اللخمي سنة 554 م خلال معركة حليمة التي جرى بها المثل العربي : " ما يوم حَليمَة بِسرٍّ " . واحرق المنذر بن الحارث عاصمة اللخميين سنة 582 وكان اميرهم في ذلك الوقت النعمان الثالث الذي لم يكن على وفاق مع البلاط الساساني فأُقْصِي عن العرش وادى ذلك إلى معركة ذي قار داخل العراق سنة 610 م وكانت الهزيمة فيها على الفُرْس .

ولم يكن حظ الغساسنة اقل سوءا فان البزنطيين تخلصوا من المنذر الغساني بنفيه إلى القسطنطينية ثم إلى صقلية ، ثم نفوا نجله وخلفه النُعمان ايضا لما كان لهما من طموح الى الاستقلال وفرض الشخصية العربية ، وبِنَفْيِ النعمان سنة 584 م لم تعد المملكة الغسانية سوى مجموعة من الامارات الصغيرة المتفتتة التي تخضع بعضها للسلطة البيزنطية وبعضهما مستقل عنها إلى حين انطلاق الزحف الاسلامي . (1)

---

1 - بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص 22 - 24 فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، 1 . 446 - 450

المجتمع العربي

نُسِب العرب لاول مرة في العصر الحديث إلى الشعوب السامية ، وصفة السامية خصصت للغات ما بين النهرين وجزيرة من لدن الالماني " تشوزير Schozer" حسب ما يرويه هنري فليش في "مدخل الى دراسة اللغات السامية" . وبذلك يعتبر العرب والسريان والعبرانيون والبابليون شعبا واحدا في الاصل .

على ان أقرب النظريات الحديثة إلى المنطق ان شبه جزيرة العرب هو موطن كل هذه الشعوب التي وصفت بالسامية ، وكانت هجراتها في ظروف متفاوتة لاسباب اقتصادية او سياسية ، وبالنظر لزحف الصحراء وانتشار الجفاف ، فقد كانت هذه الهجرات تتجه عادة نحو المجاري المائية التي تساعد على ضمان الري والرعي ، وكانت باقي مناطق الشرق الاوسط هي مقصد كل هذه الموجات تقريبا ، والتي تلاحقت على المنطقة خلال آلاف من السنين قبل المسيح ، ثم كانت كل مجموعة تنضم إلى السكان المحليين فيما بين النهرين ، ثم تنصهر فيهم احيانا ، وهكذا فان اتساع رقعة الجزيرة العربية لم يمنع اللغة العربية من المحافظة على وحدتها في عين المكان بالرغم من وجود لهجات متعددة وتطورات في الكتابة تحدثت عنها مختلف المصادر اعتمادا على النقوش السبئية والمَعينية والنبطية وغيرها مما تناوله بالدرس ، اسرائيل ولفنجستون ، وكوهن ، وبرترام وآخرون ، وفي الوقت الذي اعطى المجتمع السامي الأصيل جزءا من سكانه ومؤثراته اللغوية والاجتماعية لمجتمعات ما بين النهرين كانت هذه المنطقة بفضل مياهها الغزيرة وتربتها الخصبة ذات قابلية نموذجية للحضارات المتفاعلة التي نشأت على أرضها ، وكان يعوِزُ هذه الحضارات في أغلبها تلك الشحنة الروحية التي تدفع بها إلى الإيمان بوحدة الله وتدبير امورها على اساس التعاطف والتعاون لا على اساس التسلط الفردي أو العسكري أو العنصري .

وليس لكلمة عرب أو عربي معنى محدد ومجمع عليه ، وقد ذكر مصدر معاصر هو (عصر ما قبل الاسلام) لمحمد مبروك نافع عددا من المعاني ، منها تفسير نولدك بمعنى الصحراء ، وتفسيره بمعنى البدوي ، ونسبه العرب إلى يعرب بن قحطان .

وهناك تفسير بمعنى الفصحاء وهو يتقارب مع الواقع الاجتماعي العربي في العصر

الجاهلي المتأخر على الأقل ، حيث كانت فصاحة اللسان هي أهم ما يتباهى به العرب في هذه الفترة التي لا تتجاوز قرنين قبل الاسلام ، وجاء في القرآن الكريم : "آعْجَمِيٌّ وعَرَبِيٌّ ؟" . فالعربي الذي هو فصيح اللسان يقابله الاعجمي الذي لغته اجنبية ، وفي اللغة : أعرب عن أفكاره أيْ افصح وأبان .

وكان العربي في شبه الجزيرة يشعر بانتمائه إلى قومية لا يعلم بأن لها إطارا جغرافيا معينا . ولكنه بحكم اللغة المشتركة بين العديد من القبائل التي تضمها الجزيرة العربية ، وبالاستناد إلى السلالية التي كان العربي يقدسها إلى حد التعصب وتجاهل غير العربي ، كان يتضامن مع أخيه العربي عندما يكون على العرب أن يواجهوا خطرا اجنبيا وان لم تكن الظروف التاريخية تثبت هذه الظاهرة باستمرار .

والواقع أن المصادر العربية قد أكدت وجود كتلتين ضخمتين من العرب احداهما تنتمي إلى يعرب بن قحطان ، والذين منهم على الخصوص عرب الجنوب ، والثانية تنتمي إلى عدنان ، وهم عرب الشمال وكلاهما من نسل ابراهيم حسب الرواية التقليدية وقد أغفل هذا التقسيم وجود عرب بائدة كعاد وطسم وجديس وثمود ولربما ادرجوا في لائحة العرب العاربة الذين هم عرب الجنوب .

ودون ان نتناول هذه التقسيمات التي تتكرر او تتوسع في عدد من الدراسات المعاصرة والقديمة نرى ان هذا التصنيف التقليدي الذي يلغي من الحساب مجموع العناصر العربية التي سكنت الجزيرة العربية قبل إبراهيم الخليل والتي هلك معظمها لاسباب دينية حسب القرآن الكريم ، لا يتعارض مع النظرية الحديثة التي لا تجعل من الجزيرة العربية منطلقا للشعوب السامية على اختلافها عبر ازمان متوالية .

وليس للعرب تاريخ أصيل مكتوب قبل الاسلام ، وان كان فهو لم يصلنا قط ، ولكن هناك نقوشا عديدة سيما في الجنوب بدأت محاولات التعرف عليها منذ أواسط القرن الثامن عشر ، على يد بعثات وافراد من الدانمارك والالمان والفرنسيين والانجليز وغيرهم ، وهذه النفوش تتضمنها المعابد والتماثيل والاختام والنقود وما سواها .

ووجدت نقوش في الطريق التجاري المار من اليمن الى الشمال باتجاه الشام فضلا عن جهات خالية من الصحراء ، ويرى مؤلفو التاريخ العربي القديم (Ditlef Weilsen) ورفيقاه ان عربية الجنوب لا تخضع لمؤثرات اجنبية قط ، أي أنها اصيلة ووليدة المكان نفسه ، بل هي أثرت تأثيرا ملموسا في الحبشية ، بينما عربية الشمال تخضع لمؤثرات آرامية عميقة . وينبغي ان تدخل في اطار الشمال تلك المراكز الحضارية المنعزلة في الشام كتدمر والبتراء ، وعلى كل فيبقى أن عربية الجنوب اسبق من غيرها .

ويذهب نيلسن إلى أن تاثير الديانات القديمة في شبه الجزيرة مهَّدَ للموسوية نفسها ولفكرة التوحيد التي عرفتها المسيحية القديمة أيضا ، وهكذا فلم يكن لشبه الجزيرة دور سلبي في مقومات الحضارة القديمة ولا في الاشعاع الحضاري سواء من حيث اللغة والدين او المؤثرات الاقتصادية .

ولم يحدد لا قدم النقوش المعينية والسبئية تاريخ مضبوط ، فهو يقدر ب 500 الى 1500 سنة قبل المسيح ، اي ان الحقبة التي مرت من التاريخ قبل هذه الفترة ، والتي لا بد ان تكون طويلة ، لا نعرف عنها شيئا اذا استثنينا ما ورد في القرآن والتوراة وربما نضيف إشارات من إنجيل برنابا الذي لا يعترف به عامة رجال الدين المسيحيين .

ويؤكد فْليش ان اللهجات المهْرية والشُّخَورية (بضم الشين وفتح الخاء) ولهجة سقوطرة كلها تمثل بقايا لهجات الجنوب القديمة .

وبعض لهجات الشمال كاللحيانية والصفوية والثمودية قد عثر على نقوش لها ، لا سيما الثمودية التي تعد من اقدمها ، وحروفها مستمدة من المعينية والسَّبئِية الجنوبيتين ، ومحتواها من الفاظ الشمال .

واقدم اثر للفصحى الشمالية عثر عليه سنة 1901 بالنمارة في حوران ويعود إلى 328 م وهو نقش على ضريح امرئ القيس بن عمرو ، ولعله من ملوك الحيرة ، وحروفه قريبة من الخط النبطي .

اما الحروف العربية الحالية ، والتي ظلت بدون نقط مدة طويلة بعد الإسلام فقد

وجدت منقوشة بشرقي حلب ومعها ترجمة سريانية ويونانية ، وترجع إلى 512 و 513 م .

ويدل تعدد اللهجات على مدى تعدد القبائل والمجتمعات وقدرتها على المحافظة على كيانها ومع ذلك نجد البون شاسعا بين لهجات الشمال والجنوب حتى ليمكننا ان نتساءل كيف كان الفريقان يتفاهمان بالرغم من هذا الاختلاف !

بل أن صعوبة التفاهم لا بد أن تكون عاملا نفسانيا في خلق العداء القديم بين العدنانية والقحطانية ، ذلك العداء الذي امتدت ذيوله بل احتدم وطيسه بعد الاسلام بقرون في بعض الاقطار التي استقر بها العرب كالاندلس ، وما من شك في ان الاحتكاك الاقتصادي والهجرات الجماعية ، ثم ما كان للشعر الجاهلي من اسهام في نشر لغة مشتركة في أغلب أنحاء الجزيرة ، كلُّ أولئك ترك روابط قومية واجتماعية متينة على الرغم من العصبيات الطبقيَّـة التي كان يذكيها رجال السياسة بالدرجة الأولى .

وإذا استندنا إلى النصوص القرآنية والشعرية والنقوش العربية ثم إلى روايات الاخباريين والظروف التي انتشر فيها الاسلام داخل الجزيرة نستطيع ان نستخلص من كل ذلك ان عرب الجزيرة ظلوا لِأجيال عديدة قبل الإسلام ، يكونون ثلاثة مجتمعات رئيسية :

1- مجتمع الرعـاة

وهو يمثل فيما يبدو اغلبية السكان الذين ينتقلون مؤقتا بمواشيهم الى أماكن الخصب بحثا عن الماء والكلأ وهنا نتذكر اشعار الجاهلية التي تبكي الاطلال ومبارحة الديار ، فالعامل ، عامل النزوح ، يظل اقتصاديا ، وقد يكون سياسيا (غارات الاعداء) وأغلبية القبائل تنتمي إلى هذه الفئة التي يستحيل ان يوضَعَ لتطوراتها تاريخ دقيق ، فهي وان تركت احيانا نقوشا في القديم ، فإن تنقلاتها المتوالية تمنع تتبع اطوارها التاريخية . ويعيش هذا المجتمع في خيام متقاربة تُكَوِّنُ حياً لَهُ شيخ ومستشارون ، ثم تتعدد الاحياء متباعدة أو متقاربة ، فتكون قبيلة او فخذة من القبيلة حسب الاهمية العددية والظروف المكانية . ومجتمع الرعاة هُو مجتمع سذّج ، وقد لا يخلو من غِلظَة في الطبع وخشونة في السلوك ولكن لا يعدم نساؤه رقة العاطفة وعفة النفس ، والمراة في هذا

المجتمع شريكة الرجل في حياته تتحمل معه شظف العيش وتناقشه شؤون الأسرة . وللقبيلة أعراف وعادات خاصة في الزواج والحفلات والمطعم وما إلى ذلك [1] ، لكن المواشي التي تعد ملكا جماعيا للحي أو للأسرة أو للأفراد حسب نظام القبيلة ، لاتخضع ملكيتها لضريبة مقررة تستغل لصالح الجماعة وان كان على القبيلة ان تتحمل دية المقتول احيانا بصفة جماعية .

وكان لمجتمع الرعاة انعكاسات ذات أهمية بالغة على مستقبل الاسلام والمجتمع العربي :

1- نقلوا نزاعاتهم الداخلية التي اساسها الكلأ والماء والدواب الى مواطن النزوح بعد الإسلام وفي فترات مختلفة (القيسية واليمانية بالعراق والشام والاندلس وافريقية ، بنو هلال بالشمال الإفريقي ، إلخ ...) .

2- كانوا يرفضون الخضوع للسلطة الادارية خصوصا إذا انحرفت عن الجادة .

3- تكونت منهم جمهوريات وإمارات من الخوارج بحثا عن وضع ديموقراطي اسلامي أفضل .

4- شكل مجتمع الرعاة عنصر صراع طبقي ضد المدن عندما تمصرت واستبدت بخيرات الفتوح وموارد الثروة ، ومن ثم عم الاضطراب وانعدم الامن (التعرض لقوافل الحجاج والتجار والهجوم على المدن والمراكز الحضرية .)

إن غضب المجتمع الرعوي واستسلامه منذ عصر ما قبل الاسلام للقدر ، ويأسه من جود السّماء ، هيأ هذا المجتمع بالذات لخوض معارك داخلية طاحنة في شكل غارات من اجل كسب القوت اليومي ، فضلا عن عوامل اخرى ، كما هيأهُ ليخوض حروب الفتح الاسلامي بشجاعة واستماتة ، وواضح أن الاثر العميق للعقيدة الجديدة في تحقيق هذه الفتوح يحتل المقام الأول لمدة هامة من تاريخ الإسلام .

1- من الكتب الكثيرة عن المراة العربية ، دراسة مطولة عن المراة في الشعر الجاهلي للأستاذ احمد محمد الحوفي ، وهي وان لم تكن تعكس اوضاع المراة الجاهلية باعتبار تعدد القبائل وانماط الحياة فهي تقدم معلومات هامة ومفصلة .

ولن نثير هنا مكارم أخلاق ولا المثالب السلوكية بتفصيل لهذا المجتمع الرعوي الذي لم يحظ من الدول الإسلامية في أغلب الفترات والبلاد بالاهتمام الذي يستحقه ، من حيث ضمان العيش الكريم والعناية بأوضاعه الخاصة ، فقد تحدث عن اخلاق العرب أكثر من مصدر ، وأهم المصادر دون شك ، هو الشعر الجاهلي .

وكم يكون من المفيد ان يشتغل الباحثون باعداد دراسة في علم النفس الاجتماعي تؤرخ للتطورات النفسانية التي خضع لها هذا المجتمع الذي اشتغل ابن خلدون بدراسته جزئيا من حيث المكان والزمان والتجربة .

2- مجتمع الواحات والفلاحين

يتميز هذا المجتمع قبل كل شئ بطبيعته الصحراوية ، فالواحات التي تزدهر بنخيلها الذي قد يبلغ آلافا عديدة ، كثيرا ما تقع في اعماق الصحراء منقطعة عن العمارة لمسافة بعيدة وهي تمثل على أية حال ، نموذج النشاط الزراعي الذي تقل مناطقه بجزيرة العرب لاسباب مناخية ، وهكذا فالواحات توجد بقرب مواقع المياه ، لا سيما الجوفية التي يتم استنباطها من طريق الحفر ، ومن بين مناطق الواحات والنشاط الزراعي على العموم ، الطائف وضواحي المدينة ، فضلا عن المراكز الجنوبية وتدمر ومنطقة وادي الاردن .

ويتميز سكان الواحات بالتعلق بالارض والرغبة في الامن حبا في تنظيم الانتاج وسلامته ، ومجتمع الواحات مع ذلك وسَطٌ بين الرعاة ومراكز الاستقطاب الحضاري التي سياتي الحديث عنها ، فالزراع هم في ذات الوقت مربو مواشٍ وإن كانوا بدرجة اقل من الرعاة ، وهم ينظمون أسواقا محلية يقدم إليها سكان الصحراء رعاة وغيرهم يتم تسويق المنتجات المحلية وتبادل المنافع بين فآت المجتمع بما فيهم سكان المدن ، وقد نقل العرب قبل الاسلام (تحت الحكم الروماني) وبعده طرقهم الزراعية بما في ذلك انتاج النخيل إلى الجهات المفتوحة (البصرة الجريد ، سجلماسة ، إلخ ...) ولا شك ان بقايا النشاط الزراعي القديم ساهمت في تحقيق توازن هام قبل الاسلام بين حاجيات المجتمع الرعوي وحاجيات المجتمع التجاري الذي يقوم على التسويق وترويج البضائع من مكان إلى آخر .

واهتم الاسلام اهتماما فائقا بشؤون الزراعة وخص الماء بتقدير بالغ ، فهناك آيات

كثيرة تتعلق بالسحاب ونزول المطر وجريان الماء في انهار الجنة ، ويختصر القرآن دور الماء في الحياة بقوله تعالى : "وجعلنا من الماء كل شئ حي" وهي آية ذات إعجاز علمي تتجاوز الاهتمام بالإنسان ومحيطه الخاص إلى دقائق أصول الكون كله .

ولمجد مُجتمع الواحات الزراعية يبحث عن الاستقرار قبل الفتوح وبعدها فدوره الطبيعي أن يحافظ على الإنتاج الزراعي وينميه ، وهو ليس دور الرعاة ولا التجار أو الصناع .

3- مجتمع الاستقطاب الحضاري

هذا هو مجتمع المدن والمراكز ذات الكيان السياسي المتكامل ، إنه مجتمع يمثل تطورا عالياً للفئتين السابق ذكرهما ، فإذا كانت "الواحة" الزراعية والمجتمعات الرعوية تعيش في ظل نظام قبلي يتميز فيه المجتمع الزراعي خصوصا بحسن التعايش والانضباط اكثر من المجتمع الرعوي ، فإن مجتمع الاستقطاب الحضاري يشكل مصبا لروافد ذلك الكيان الذي يضم خليطاً من العناصر المتساكنة ، والتي تمارس انشطة مختلفة ، فهناك من جهة ، سكان من روافد متعددة وعلى سبيل المثال ، فان مكة لم تكن تضم قبل الاسلام العنصر القرشي وحده ، فهناك أخلاط من الحبشة وشرقي افريقيا وعناصر من العرب خارج قريش وغيرهم ، ومن جهة أخرى فمراكز الاستقطاب الحضاري ، يتجه إليها المزارع لمبادلة منتجاته ويعمل بها الصانع والتاجر المكلف باعمال المجموعة المتساكنة .

وبقطع النظر عن بلاد اليمن التي عرفت عبر تاريخها الطويل بوجود كيان سياسي خاص بها ، ودول منفردة أو متعاصرة حكمتها طبقا لانظمة شورية احيانا ، فهناك يثرب التي يبدأ تاريخها على الأرجح منذ القرن الأول للميلاد حيث يلتحق بها عناصر من اليهود المهاجرين من بطش الرومان في الشام ، ثم من الاوس والخزرج الذين هاجروا من الجنوب . وضمت يثرب بورجوازية حقيقية من اليهود الذين هيمنوا بنفوذهم وذكائهم على اقتصاد المنطقة . وعندما ظهر الاسلام وعززت يثرب محمداً عليه السلام ضاق اليهود بها ذرعا وشعروا بأنهم سيفقدون الكثير من طغيانهم الاقتصادي ، ومن ثم كادوا للمؤمنين كما تتحدث عن ذلك كل كتب السيرة .

وصارت مكة ذات شأن في حضارة العرب الاقتصادية وفي أهميتها الدينية منذ عهد ابراهيم الخليل ، أي حوالي أَلْفَيْ سنة ق . م ، وعلى مقربة منها كانت جرْهم التي صاهرها اسمعيل جد العرب ، وكانت هناك قبيلة اخرى هاجرت فيما بعد من اليمن على إثر انهيار سد مأرب .

وبدأت شعائر الحج حول الكعبة التي شاد قواعدها ابراهيم تؤدّى بعده ، ولكن تطور هذه الشعائر ، بل تاريخ مكة يظل غامضا تكتنفه الاساطير ، حتى نسمع عن اسرة قصي ابن كلاب التي تكونت منها قريش ، غير أن قريشا بالرغم من تبوئها الزعامة الدينية بمكة لم تكن تمارس الشعائر الحنيفية على صورتها الاصيلة ، بل هي كَخُزَاعَة ، انحرفت عن هذه الشعائر انحرافا تؤكده الاصنام التي كانت تحتل فِناء الكعبة إلى عهد الرسول أي إلى حين فتح مكة ، ومهما يكن من امر ، فقد تركت الحنيفية اثرا عميقا في المجتمعات العربية ، لا سيما منطقة القوافل التجارية بين اليمن والشام ، وإذا كانت ديانة ابراهيم غير معروفة في خطوطها العامة ، فضلا عن تفاصيلها ، فإنها كديانة توحيد لله ، وتوحيد عقائدي للمجتمع العربي بل والمجتمعات السامية عموما من حيث المبدأ ، قد هيأت العرب بشكل غير مباشر ، وعلى غرار المسيحية وحتى اليهودية ، لتقبُّلِ الإسلام .

وحوالي قرنين قبل الاسلام نشأت بنجد دولة مكونة من عدة قبائل تتزعمها كندة ويمتد نفوذها إلى عمان جنوبا ، وبادية الشام شمالا . وكندة حسب أقوى الاحتمالات من عرب الجنوب لجأوا إلى نجد في ظروف غامضة ، والأرجح لظروف اقتصادية كمعظم الهجرات الجنوبية . وكانوا خاضعين للتبابعة ملوك اليمن ، ومن أشهر ملوكهم امرؤ القيس احد شعراء المعلقات . وتدخل القبائل الكندية ضمن المجتمعين الرعوي والزراعي ، واستطاعوا ان ينافسوا المناذرة سياسيا لفترة قصيرة بل ازاحوهم مدة عن الحيرة .

وهاجر من وسط الجزيرة في أوائل القرن الخامس ق . م جماعة من السكان استقروا فيما بين العقبة والبحر الميت وأنشأوا مركزا تجاريا وحضاريا كبيرا هو البتراء التي قامت بدور نشيط في التبادل التجاري بين منطقة الخليج وبلاد العرب والشام ، وحيث إن البتراء نحتت من الصخر و فقد اخذ اسمها هذا من الاغريقية (بطرة) بمعنى الصخرة واطلق عليها

العرب اسم الرقيم التي تشتهر بقصة اصحاب الكهف ، وامتد نفوذ الانباط الى قسم كبير من الشام على حساب دولة السلوقيين المنهارة ، كما امتد جنوبا في ازهى عهودهم حتى منتصف القرن الأول للميلاد ، إلى مدائن صالح ، حيث ديارثمود القديمة . وفي القرن الثاني خضعت البتراء للرومان .

واستعمل الانباط العربية في مخاطباتهم والآرامية في مكاتباتهم ، شان مراكز أخرى بشمال بلاد العرب ، ثم أنشأوا الخط النبطي الذي هو تطوير للخط الآرامي ، والذي هو مرحلة تكاد تكون نهائية للخط العربي الذي عرف في صدر الاسلام .

كذلك نشأت بالشمال حكومة عربية شمال شرقي دمشق لا تعرف اصول استقرارها على وجه التحقيق ، وإنما كَوَّنها مهاجرون من التجار المزارعين وسط واحة شاسعة ، وسموها بَتَدْمر وهي تمتد عدة قرون قبل الميلاد ، وكانت البتراء ترد غارات البدو بعد هيمنة الامبراطورية الرومانية واصبحت خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد مركزا تجاريا عظيما ، واستعمل اهلها الآرامية كلغة كتابة ، وضمنوها الفاظا يونانية ولاتينية ، وفضلا عن المؤثرات العربية الأصيلة فقد خضعت تدمر للمؤثرات الحضارية الفارسية واليونانية والرومانية ، ومن ملوكها الزباء التي تشغل اخبارها حيزا أسطوريا في كتب الأدب .

وحوالي القرن الثاني للميلاد نزل بشرقي الأردن جماعة من ازد اليمن في وقت غير محدّد ، حيث أقصوا الضجاعمة اصحاب المنطقة ، [1] ولما كان منزل هؤلاء الازد بوادي غسان فقد دعوا بالغساسنة ، ثم أنشأوا مملكة حقيقية ، وبنوا العديد من المدن والحصون متأثرين بالحضارة البيزنطية التي خضعت هي نفسها لعدد من المؤثرات الشرقية القديمة ، وأنشأ الغساسنة علاقات تبعية مع الروم ، فكانوا لهم درعا واقيا ضد الفرس وغارات البدو ، وآخر ملوكهم جَبَلَة بن الأيهم الذي اسلم ثم عاد إلى النصرانية .

1- القلقشندي ، قلائد الجمان ، ص 92 .

واقامت مجموعة من المهاجرين العرب الذين يبدو ان اغلبيتهم كانت من الشمال بالإضافة إلى مجموعة من عرب الجنوب ، مركزا حضاريا باسم الحيرة ، ولفظ الحيرة سرياني بمعنى الحصن ، ويقع هذا المركز بالعراق على نهر الفرات ، وبقربها جنوبا بنيت الكوفة في عهد الخليفة عمر ، ويتضح تاريخ الحيرة بشكل أوثق ، ابتداء من اواخر القرن الثالث للميلاد ، وشملت مملكة الحيرة جزءا كبيرا من العراق الحالي غربي الفرات وتأثرت كثيرا بالحضارة الفارسية ، واعتنق كثير من اهلها المسيحية شان مملكة تدمر وغسان ، ومع أن أغلبية الفرس لم يكونوا يدينون بالمسيحية فقد تسامحوا مع الحيريين في اعتناق النسطورية التي كانت اقل مذهب يلقى اعتراضا من الفرس كما يقول محمد مبروك نافع في دراسته عن (عصر ما قبل الإسلام) .

إن هـذا العـرض الخاطـف عن مجتـمـع الاستقطـاب الحـضاري ومراكزه قد توسعـت فيه دراسات مطـولة وضعها كثـيرون كـفـيلـيب حـتي : (تـاريـخ العرب)(وتاريخ سـوريا) وبرترام (العـرب) و (The Background of Islam) : Phiby و (Les Arabes en Syrie avant l'Islam) René Dussand ، والتاريخ العربي القديم الذي سبق ذكره ، وهذه الدراسات ، اما نتائج للتقنيات المباشرة أو اعمال تعتمد على هذه الدراسات .

مظاهر الوحدة ومظاهر التمزق

قد يفاجأ القارئ عندما يسمع عن مظاهر الوحدة في عصر دعاه العرب انفسهم بالعصر الجاهلي ، لكن هذه مظاهر كانت موجودة على كل حال وان لم يكن العرب في مستوى استغلالها وتحقيقها والنهوض بها :

1- **الأرض** : فجزيرة العرب والجهات المجاورة لها كالشام والعراق ليست بينها حدود طبيعية ولا سياسية بالمعنى الدقيق (آنذاك) ، وهذه الأرض تتقاسم في معظمها جفاف الطقس وبؤس الطبيعة .

2- **الانسان** : فهو هو ، سواء أكان بنجد أم بالحجاز أم في حضر موت او مكة يتأثر

بطبيعة الأرض التي يعيش عليها ويستمد من قسوتها صلابة عوده وشظف عيشه ، ومن مهّادها وقفارها بساطة تفكيره ووضوح سلوكه .

3- **اللغة** : فهي عربية في كل مكان مهما اختلفت اللهجات وتعذر التفاهم في بعض الجهات .

4- **تقارب انماط الحياة** : فالأخلاق المثالية عند العرب يشترك فيها او الكثير منها كل فئاتهم الاجتماعية ، سواء أكانوا بدواً رحّلا ، أم مزارعين ، ام تجارا في مدن ذات فن وعمران ، ومن هذه الاخلاق او الصفات ، الكرم والشجاعة والانفة وحماية الجار . وهم يختلفون بطبيعة الحال في اشياء اخرى بالنظر لاختلاف وسائل العيش والانتاج التي بين أيديهم ، ولكن العرب في مجملهم لهم قدر مشترك وافر من المحاسن والمثالب ، وهذا ما اكده تاريخهم السياسي والاجتماعي عبر الأجيال .

ولكن مظاهر التمزق في العصر الجاهلي تظل في جذورها وآثارها اعمق بُعْداً وابلغ من مظاهر الوحدة التي كانت تنقصها مقومات أساسية امكن احداثها او ابرازها فيما بعد ، بفضل الإسلام .

وهكذا فان أهم مظاهر الفرقة في المجتمع العربي :

1- **تعذر الاتصال** : حيث ان جل النقط السكينة تتباعد فيما بينها تباعدا كبيرا وتفصل فيما بينها أراضٍ قفراء وكثبان رملية لاتستقر في جهة ، أو وهاد وجهات وعرة . وكل هذه المسافات لا تجتاز الا في قوافل قد تتعرض هي نفسها للنهب وحتى للقتل أو السبي . ويقوم الجمل بدور أساسي في تنقلات الناس وأمتعتهم وسلعهم ، كما يقوم الفرس بدور رئيسي في الحروب والحفلات والتنقلات القصيرة وفي داخل الجهات الأقل حرارة .

وهذا الاتصال المحدود يشعر الجماعات المتباعدة بالغربة ويخلق تقاليد وانماطا من الحياة مستقلة ، ويشجع الجماعات على ان تحرص على حريتها واستقلالها ، ولولا تنظيم بعض الاسواق الدورية التي تكون فرصة للتبادل والتعارف لعاشت كل قبيلة او حي في عُلبة مغلقة ولكان التفاهم اللساني نفسه عسيرا ، إن لم يكن مستحيلا .

2- **انعدام السلطة :** فالسلطة الرحيدة الي يخضع لها الفرد هي سلطة شيوخ القبيلة وكبار الأسرة حيث لا توجد سلطة مركزية للتنسيق وضمان امن الجميع . ومادام كل شخص يحمل سلاحه وينتقم مباشرة من قاتل قريبه فلا حدود لسلطة الفرد وحريته ، وعلى العموم هناك تخلف حضاري شديد في اوساط الجماعات البدوية التي لا تؤمن بالسلطة السياسية والادارية وهي بالمقابل لا تقدم بديلا للنظام السياسي المعروف في الحيرة مثلا ، أو حتى في مكة حيث لا يوجد هنا امراء ، وإنما شيوخ يتشاورون وأسر تتقاسم ادارة الكعبة وشؤون الحج . إن دين الاسلام على الرغم من مناعته ومرونته كشريعة ، لم يستغله العرب استعلالاً طيبا لتنظيم وحدتهم السياسية بشكل يشعرهم بانهم قبل كل شئ جماعة لها نفس الماضي والحاضر ونمط التفكير ، ثم هم مع ذلك شعب ضمن عشرات الشعوب التي كونتها الامة الاسلامية . وينبغي ان نستثني هنا بطبيعة الحال جهود الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين الذين إذا لم يبرزوا المجموعة العربية كوحدة متميزة عن باقي المجموعة الاسلامية فقد زودوا بلاد العرب باحسن الاطارات والقيادات الادارية ، وكان هذا عملا طبيعيا تماما ، ولذلك احست اقاليم العرب لأول مرة في التاريخ بانها كلها تخضع لتنظيم قيادي موحد نابع من صفوفها وقاعدتها .

ولكن الشعب العربي الذي تمزق شمله سياسيا قبل الإسلام بعدة قرون عاد ليشهد نفس التمزق تحت غطاء آخر مع مجئ بني أمية .

3- **انعدام الشعور بالمسؤولية :** هذا الجانب من مظاهر التمزق الاجتماعي لدى العرب يعود إلى الحرية الفردية والجماعية التي يتمتع بها الافراد والقبائل ، وهذه الحرية المطلقة التي غذتها الأنانية والانفة وعدم الاكتراث بالمصير والاخطار ، حالت دون الانسان العربي وتحمل مسؤوليته هذه . كذلك زاد من تفاقم روح انعدام المسؤولية عدم وجود قانون أو شريعة يطبق على الجميع ، فالأخذ بالثأر عملية لم تكن معتادة فقط ، بل هي من سمات الشهامة وضمان الاطمئنان النفسي والاجتماعي .

وإذا كان انعدام المسؤولية من مظاهر السلوك العربي في الجاهلية ، فقد قوبل بروح مماثلة بعد خلافة الراشدين ، من بعض هؤلاء الذين تحملوا مسؤولية الحكم بصورة أتاحت

لهذا المظهر من السلوك أن يهيمن على القاعدة والقمة في الوسط العربي ، وان يخلق ذلك الصراع القوي بين الطبقات من جهة ، وبينها وبين الجهاز الحاكم من جهة ثانية ، وهو صراع ليس من النوع الذي تخلف فيه البروليتاريا طبقة البورجوازية الرأسمالية ، بل من نوع الصراع المتعدد الوجوه ، والذي يبحث اما عن تحقيق العدل الاجتماعي المطلق او عن تفسير جديد للاسلام لم يكن مألوفا في صدر الاسلام .

4- **انعدام عقيدة مشتركة صالحة** : لم يكن غريبا ان تتعدد المعتقدات في شبه جزيرة العرب ، ولدى العرب عامة ، ففي بلد لا توجد به سلطة سياسية عليا تفرض عقيدة أو تنشرها كان العرب في شبه الجزيرة يتمتعون بحرية المعتقد ، حتى لقد تعايشت ببلادهم معظم الديانات المعروفة في العالم حينذاك ، أي قبل الإسلام ، ومن أهمها :

1- **الوثنية** : وهي ضاربة الجذور في ماضي الإنسان العربي والإنسان بوجه عام ، وترتبط الوثنية في جل اشكالها ومظاهرها بحياة الانسان اليومية وبمعاشه . ومن المفروض ان كل الديانات لا تقتصر على الجانب الروحي وحده ، ولا سيما الديانات السماوية وهكذا فمن وراء عبادة النجوم والقمر والشمس وغيرها من ظواهر الطبيعة ، رغبة لدى الإنسان اكيدة في ان يحقق معاشه ويستمد قوته الروحية من طريقها طالما ان لها تأثيرا في نظره ، او من حيث المبدأ ، وذلك في استنبات زرعه او هَدْيه إلى الطريق اواعانته على تمييز الظروف الزمانية والمكانية التي تلابسه وما إلى ذلك .

غير أن الوثنية لم تحقق شيئا ذا بال في تنظيم علاقات الناس فيما بينهم او في تطويرها ، كما تنقصها شمولية القوى الروحية التي تتميز بها الديانات السماوية . ويبدو أن ديانة ابراهيم عليه السلام لم تلق انتشارا كبيرا ولا عميقا في شبه جزيرة العرب التي ورد عليها وهو شيخ طاعن في السن عاجز عن تحقيق رسالته بكيفية مباشرة على الاقل وان قام اسمعيل بجهد في هذا الصدد لا نعلم عنه شيئا كافيا ، ولكن مؤثراته أكيدة من خلال النصوص الدينية .

2- **اليهودية** : وسيرد عن دخولها تفصيلات اوفى في فصول لاحقة . وكان المفروض ان العبرانية ستجد طريقا واسعا إلى لسان العرب ولكن العكس هو الذي حدث ، فلا اللغة

العبرانية ولا مؤثرات العبرانيين طغت على الاصالة العربية .

ودخلت اليهودية إلى الجنوب في وقت موغل في القدم ، ثم اعتنقها عدد من التبابعة ، وآخرهم ذو نواس الذي تُنْسبُ إليه قصة أصحاب الاخدود الواردة في القرآن ، حيث اضطَهَدَ نصارى نجران ، وارغم عدداً منهم على اعتناق اليهودية ، ثم تدخل الامبراطور جوستنيان واخضع اليمن لاشراف الحبشة فيما بين 525 - 575 م ، حتى تدخل الفرس لطرد الاحباش بناء على طلب سيف بن ذي يزن .

ولقد اثار عدد من الباحثين موضوع انتشار اليهودية إلى المسيحية في بلاد العرب ، ومنهم اندري طور صاحب Les origines de l'Islam et le Christianisme. ومؤلفو التاريخ العربي القديم ، واعتبروا ان تشجيعها في الجنوب يعود لاسباب سياسية قبل كل شئ ، لأن الاحباش ازعجوا الحكومات اليمنية وحلوا مكانها ، وبما أن البزنطيين كانوا يؤيدونهم بحكم ان ملوك الحبشة وقسما هاما منها قد دخل في النصرانية ، فإن ملوك اليمن تعصبوا ضد المسيحية ، فكان من ذلك كسب للموسوية وهي لا تحمل في هذه الحقبة المتأخرة اية اطماع سياسية . والواقع أن العرب كرهوا البزنطيين سواء في ذلك عرب الشمال او الجنوب ، ولذلك وجدنا اليهودية تجد في بلاد العرب متنفَّساً وصوتا مسموعا من حيث لم تنجح المسيحية في زحزحتها عن هذه المكانة .

3- **المسيحية** : وقد وجدت هذه الديانة حلفاء لها في كل من الحيرة والمملكة الغسانية وقرية نجران باليمن ، وهكذا انتشر في هذه الجهات مذهبان :

أ - النسطورية ، وهي لا تنتسب إلى نسطور الذي ظهر في أيام المامون العباسي كما يقول الشهرستاني ، بل إلى نسطوريوس ، من مواليد تركيا ، والذي تولى اسقفية القسطنطينة لمدة قصيرة ابتداء من 427 م ، وهو القائل بأن للمسيح طبيعتين وشخصيتين ، إلهية وبشرية ، وامتدت النسطورية على نطاق واسع في كل من فارس والهند والصين ، فضلا عن الحيرة واليمن ، وهي كلها ذات انظمة ملكية أو امبراطورية ، حيث يلعب العاهل دوراً سياسيا وروحيا ، مما يوازي فكرة الإرادتين أو الطبيعتين لدى النساطرة .

ب - اليعقوبية . فقد انشق عن النساطرة فريق قال بالمونوفيزية ، أي بالطبيعة الواحدة ، أي ان المظهر البشري والالهي في المسيح كما يقول فيليب حتّي لا يشكل سوى طبيعة واحدة ، وانتشر مذهب هذا الفريق على يد الراهب السوري برصوما (Ber Sauma) وتحقق تنظيم كنيسة لاصحاب فكرة الطبيعة الواحدة ، على يد يعقوب البرادعي السوري ايضا في منتصف القرن السادس الميلادي ، حيث توفي يعقوب 578 ، واليه نسبت الكنيسة اليعقوبية التي اخذ بها الغساسنة والقبط والارمن .

4- **ديانة الصابئة :** وهم قوم نشأوا بمنطقة ما بين النهرين في عهود قديمة جدا ، فقد سبقوا الموسوية المسيحية ، وعاصروا ابراهيم الخليل فكان منهم عَبَدَةُ الكواكب وعندما دخل دينه جماعة من المومنين الذين اخذوا بمذهب التوحيد سموا بالحنفاء .

وكانت للحنفاء مع الصابئة بعد ذلك ، حروب شديدة عبر القرون .

والصابئة فرق متعددة بعضها لا يزال موجودا حتى الآن بالعراق وايران ، وهم يؤمنون بوجود الخالق ، وبينهم المندائيون الذين غالوا في الروحيات ، واعتبروا الملائكة وسطاء بينهم وبين الله كما يقول الباحث العراقي رشدي عليان في دراسته : " الصابئون حَرّانيين ومندائيين " والحرانيون نسبة إلى حران على الحدود التركية السورية ، وهم يعبدون الكواكب السبعة ، ويعتقدون بحلول الذات الإلهية في كل منها . وليس لهؤلاء الصابئة علاقة بالصابئة الذين تناولهم القرآن .

وعالج كثيرون من علماء الاجتماع الديني ومؤرخي الحضارة الاسلامية ، موضوع الصابئة وظهرت دراسات كثيرة عنهم بالشرق والغرب ومع ذلك لا يزال اصلهم غامضا وكيفما كان الامر فعقيدتهم من مخلفات الديانات السامية القديمة جدا والتي امتزجت على ما يظهر ، ببعض الافكار المستمدة من ديانات عدد من الأنبياء ، كادريس ، ونوح ، وابراهيم .

والصابئة على أي حال ، لم تكن لهم اهمية كبيرة بشبه الجزيرة كأهمية اليهود مثلا . وتحدث الشهرستاني المتوفى سنة 548 هـ عن فريق الصابئة من بلاد العرب فقال انه : ". . . يعتقد في الأنواء اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يتحرك ولا

يسكن ولا يسافر ولا يقيم ، إلا بنوء من الانواء ويقول : مطرنا بنوء كذا . . . ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم ، بل كانوا يعبدون الجن ويعتقدون انهم بنات الله واشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى : « **ام خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون** » .

وإلى هذه المجموعة الدينية يضاف افراد يومنون بوجود إله خالق ، وبأنه يبعث الناس ليوم الحساب ، وبينهم حنفاء وغيرهم ، كزيد بن عمرو بن نفيل وزهير بن أبي سلمى وقُس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل ، وهم من القلة بحيث لم يكن لهم تاثير كبير في المجتمع العربي من الوجهة الدينية .

قـــريــــش

كانت مكة قبل حلول ابراهيم الخليل بها مَعْبَراً للقوافل نشأت به حياة رعوية على يد العماليق ثم علّى يد قبيلة جُرْهم اليمنية التي صاهرها النبي اسمعيل عليه السلام وما لبثت جُرْهُم ان بسطت سلطانها على المنطقة الحجازية باسرها وانشات حياة استقرار جديدة بمكة ، وطال الزمن على نفوذها فتحول إلى استحلال اموال الكعبة واستغلالها على حساب السكان الآخرين ومصالح الحج والحجاج .

وسبقت الاشارة الى حلول خزاعة بجوار مكة حوالي القرن الثالث قبل الميلاد قادمة هي ايضا من اليمن على إثر انهيار سد مارب ، على ان تحديد تواريخ الهجرات اليمنية واسبابها يكتنفه التناقض والغموض والتأويلات الاسطورية احيانا . وقامت خزاعة باقصاء جرهم عن شؤون الكعبة وتولتها هي مدة قرون قبل ان تقصيها قريش عن هذه السلطة بينما واصلت خزاعة استقرارها حول مكة ، ولم تكن قريش قبل أوائل القرن الخامس للميلاد مؤطّرة في كتلة اجتماعية او سياسية موحدة ، بل كانت مجرد اسر كبيرة منبثة بين أنحاء شبه جزيرة العرب ، وكان قسم كبير منها يستوطن ضواحي مكة ، وقسم المؤرخون قريشا بعد تجمعها قبل الإسلام إلى قريش البطاح ، وقريش الظواهر ، والاولون في الشعب بين أَخْشَبَيْ مكة والآخرون خارج الشعب [1] .

1- كحالة ، معجم قبائل العرب ، مادة قريش

وكان الفضل في توحيد الكتلة القرشية التي تناسلت من النضر بن مالك إلى احد اعقاب هذا الجد البعيد للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قصي بن كلاب الذي عاصر المنذرين النعمان ملك الحيرة ، وبهرام جور [1] (بهرام الخامس) امبراطور الفرس الذي كان من اقوى أباطرتهم (421 - 438 م) ونشا هو نفسه بالحيرة وتعلم العربية حتى كان يقرض بها الشعر ويتكلم عدة لغات [2] .

وقيل ان لفظ (قريش) جاء من التقريش وهو التجميع ، كما قيل فيه معان اخرى [3] ومهما يكن من امر فان قصي بن كلاب عمل على تكوين عصبية واسعة من الاسر التي تناسلت من النضر وكونت المجموعة القرشية التي زحزحت خزاعة بدورها عن مراكز النفوذ بمكة ومنطقة الحجاز ، وهكذا انتقل النشاط التجاري الذي كانت تمارسه خزاعة إلى قريش بعد أن انتقلت اسرها الرئيسية إلى مكة في ظل التجمع الجديد ، وفي الواقع فإن شؤون الحج قد تسلمتها قبيلة عدوان من خزاعة قبل أن تتولاها اسرة قصي [4] .

غير أن التكتل القرشي بالرغم من كونه عاد على قريش بمزايا السلطة الروحية والنفوذ الاقتصادي بمنطقة الحجاز ، ظل يخفي ذلك الضعف العميق في الوسط القرشي وهو حزازات الأسر وعصبياتها الخاصة ، ولذلك نجد موقف بني أمية من الرسول والمومنين يختلف عن موقف بني هاشم ، وأن هذا الاختلاف في مواقف الاسر قد انعكس إلى حد كبير على التحولات السياسية التي طرأت منذ فتنة عثمان ، وفي أواخر أيام قصي وبعده نشا نزاع حاد بشان الاشراف على شؤون الحج من سقاية ووفادة وما إلى ذلك وتم الاتفاق على توزيع المسؤوليات بين بني عبد الدار وبني عبد مناف ثم انتقل الاشراف إلى بني هاشم .

ويبدو ان قصيا قام بعملية تخطيط شامل لمكة حيث قسمها ارباعا وانشا بها دار الندوة التي كانت تقوم بدور المسجد كما أصبح في صدر الاسلام ، باستثناء الجانب الروحي

1- المقدسي ، البدء التاريخ ، 4 . 126

2- المسعودي ، مروج 1 . 261

3- راجع تاج العروس للزبيدي والصحاح للجوهري ولسان العرب لابن منظور (مادة قريش)

4- كحالة ، م . س مادة خزاعة (تعليق)

وهكذا كانت منتدى للتجمعات والاستشارات السياسية ، وبها تعقد الألويه و يُعذَرُ الأطفال ويزوج النساء [1] ، وكان عبد الدار اكبر الجال قصي فخصه بدار الندوة وبالحجابة والسقاية والرفادة ، وفي عهد الرسول (ص) أخذ منهم مفتاحها ورغب العباس عبد المطلب في توليها فنزل قوله تعالى : «**إن الله يامركم ان تؤدوا الامانات إلى اهلها** » [2] وعندئذ تولى امرها عثمان بن طلحة ثم ابن عمه شيبة بن عثمان حيث لا زالت في عقبه .

وكانت الكعبة معظمة لدى سائر العرب بل يذكر المسعودي ان الفرس كانوا ايضا يعظمونها وان هناك من ينسب الساسانيين الى اسحق بن ابراهيم ، ومن ثم فإن جد الساسانيين وهو ساسان بن بابك قام هو نفسه بالحج إلى الكعبة حسب المسعوذي وانه كان آخر من حج من الفرس قبل الاسلام [3] ، ومهما كان من مناقضة هذه الروايات لفكرة انتماء الفرس القدامى إلى المجموعة الهندية الاوروبية المعروفة في العصر الحديث فان شهرة الكعبة والحج اليها اخذ بعداً دوليا حقيقيا كما دلت على ذلك هَجَمَات الاحباش التي سبقها محاولات التبابعة للاستيلاء على مكة ، وكان لِلْيَد البيزنطية والفارسية دور في ازعاج العرب .

ويظهر أن انتشار الحنيفيّة دين الخليل لم يتغلغل إلى الأوساط المحيطة بمكة نفسها فضلا عن الجهات البعيدة من شبه الجزيرة ، وهكذا اخذت الوثنية طريقها باكرا إلى بني إسمعيل من طريق اقتطاع حجارة الحرم واتخاذها اوثانا تعبد حيثما حل اصحابها [4] ، ولكن هذا لم يمنع من تعايش افراد او مجموعات من الحنفاء مع الوثنيين الذين تكاثرت اعدادهم ، وقال الازرقي ان خزاعة اليمنية كانت ذات معرفة باخبار اهل الكتاب ، لكن الاصنام كانت قد أخذت مكانا حصينا حول الكعبة بوقت طويل قبل ان تتولى قريش شؤونها [5] . وفي الوقت ذاته كانت قريش كمعظم العرب تؤمن بوجود إله يتحكم في مصير الكون ولا تؤمن بالبعث الذي انكره مشركوها بتحد واصرار امام الرسول (ص) ، لكن عقلاء قريش على الأقل كانوا يؤمنون بان للّه قدرة على سحق المعتدين لا يمكن لمخلوق ان يتحداها، وهذا كان شان عبد المطلب بن هاشم الذي قال كلمته المشهورة عندما هاجم الاحباش مكة " إن للبيت ربا يحميه" .

1- ابن هشام : السيرة 1 . 116

2- لمقدسي البدء والتاريخ ، 127.4 ، وانظر اخبار قصي ايضا في تاريخ الطهري، 2 . 181 - 118 .
واخبار مكة 103.1 -115 وقد أتى بتفصيلات وافية هنا عن توزيع مسؤوليات الحج .

3- المسعودي ، مروج 1 . 238 و 242 .

4- ازرقي ، 1 ، 116

5- ن . م . ص 111

الفصل الثاني

محمد (ص) في طفولته وشبابه

عبد المطلب واسرته

عبد المطلب هو الجد المباشر للرسول (ص) من جهة الاب ، ولد ونشأ بالمدينة من اسرة بني النجار ، وكان اسمه شيبة ، فلما قدم به عمه المطلب إلى مكة وهو في طور المراهقة ظنت قريش أن شيبة عبد له فَسُمِّيَ عبد المطلب ، اما والده فهو هاشم الذي تنتسب إليه اسرة بني هاشم [1] . وكان المطلب يتولى السقاية والرفادة ويحظى بتقدير كبير بين قريش ، فلما هلك (بأرض اليمن) تأثر اهل الحجاز لفقده ورثاه شعراؤهم رثاء مؤثرا [2] ، ثم تولى عبد المطلب مكانه في سقاية الحاج ورفادتهم " وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله ... وشرف في قومه شرفا لم يبلغه احد من آبائه واحبه قومه وعظم خطره فيهم " [3] .

وتتميز ولاية عبد المطلب هاته بثلاثة احداث بارزة قبل مولد الرسول (ص) :

1- حفر بئر زمزم

2- زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب والدة النبي عليه السلام .

3- محاولة هجوم الاحباش على مكة وما اكتنفها من قصة الفيل .

فاما حفر بئر زمزم فلم يَكن مجرد حدث بسيط في حياة عبد المطلب ، فقد كان الماء عزيزا بمكة إلى حد أنه كان هاجسا لكل سكان المنطقة وبخاصة المسؤولين عن شؤون الحج والكعبة . وفي الواقع كان حفر بئر بمنطقة الحجاز مشروعا اجتماعيا واقتصاديا في منتهى الاهمية بالنظر لعزة الماء في منطقة تعد اربعون درجة حرارية بها في بعض المناطق جوا معتدلا أو قريبا من الاعتدال .

وكان قصي بن كلاب قد انجز مشروعات كبيرة القيمة بمكة وما حولها فحفر جملة من الآبار وأضاف اليها هاشم آبارا أخرى ذكر اسماءها واماكنها الازرقي [4] . ومن آبار

1- ابن هشام ، 1 . 126 - 127
2- ن . م ، ص 127 - 131
3- ن . م ، ص 131
4- ازرقي ، اخبار مكة ، 1 . 112 - 113

هاشم الذي كان هو نفسه يلي سقاية الحاج قبل المطلب ، بئر تحولت بعده إلى المطعم بن عدي من اسرة قريش ، وكان هناك نظام جماعي حقيقي لادارة شؤون مكة والحج بعد أن تم تشكيل التنظيم القرشي على يد قصي ، وواصل أعقابه هذه الإدارة الجماعية بالرغم من حدوث خلافات داخلية بين الأسر ، وتتفق المصادر على أن حفر بئر زمزم كان في الحقيقة إحياء لهذه البئر التي عرفت من زمن ابراهيم الخليل اثناء ارساء قواعد الكعبة . ثم لما استولت جرهم على المنطقة واخذت عناصرها تسرق مدخرات الكعبة وما يُهدى اليها من تحف غالية ، عمد مضاض بن عمرو الجرهمي زعيم جرهم إلى البئر ، وكان ماؤها قد نضب فدفن فيها غزالين من ذهب وأسيافا وطمرها حتى حدثت عملية احياء البئر على يد عبد المطلب ، وهي عملية تمت بناء على رؤيا في المنام رآها عبد المطلب كما حكى بنفسه امام قريش ، وكان موقع البئر قد اختفى أثره تماما وكان يتوسط وثنين باسم اساف ونائله وكانت قريش تنحر حولهما ، وحسب الرؤيا المذكورة فان عبد المطلب تعرف على الموقع من خلال الامارات التي دله عليها من دله في الرؤيا ، وبعد ممانعة من قريش التي رفضت المس بمقام الصنمين استجابت لرغبة عبد المطلب الذي صمم على حفر البئر باصرار حتى إذا اكتشف مكانه ووصل الحفر إلى مدفن الغزالين والسيوف واستخراجها طالبت قريش بحق استغلال البئر وبحقها في التحف الثمينة ، غير أن عبد المطلب اصر على ان تكون زمزم للحجاج والمعتمرين وأن يتولى هو مسؤوليتها بوصفه مكلفا بالسقاية . ولقي عبد المطلب تصلبا شديدا من بعض عناصر قريش التي كانت تحطم البئر ، فيقوم عبد المطلب ونجله الحارث بترميمه . ثم قرر عبد المطلب وخصماؤه التحاكم إلى كاهنة بني سعد هذيم بتخوم الشام ، فلما كانوا بمفاوز المنطقة ادركهم عطش شديد وكادوا يهلكون . وهنا تضيف الرواية حدثاً جديدا ، وهو ان الارض تفجرت ماء تحت ناقة عبد المطلب فشرب القوم وسقوا إبلهم ثم قالوا لعبد المطلب : " إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم ، انطلق ، فهي لك ، فما نحن بمخاصميك . "

اما الغزالان والسيوف فيذكر ابن اسحق ان عبد المطلب ضرب القداح عليها امام قريش وجعل نفسه طرفا وقريشا طرفا والكعبة طرفا ، فخرج الغزالان للكعبة فصاغهما

حلية لبابها وخرجت السيوف (وقيل الأدرع ايضا) لعبد المطلب فاخذها . ونذر عبد المطلب اثناء حفر زمزم ان ينحر أحد ولده إن بلغوا عشرة ذكور . وكانت عملية تقديم القرابين البشرية للآلهة معروفة لدى الإغريق والرومان من الشعوب القديمة . وعندما عمد ابراهيم الخليل عليه السلام الى تقديم ابنه اسمعيل (وفي التوراة الحالية اسحق) للذبح طبقا لرؤيا في المنام ، عوضه الله عنه بكبش ضحى به مكانه واصبح نحر الأضحية من عمليات الحج ثم شريعة في الاسلام . حتى اذا اكتمل ابناؤه عشرة وعبد الله من بينهم وهو اصغرهم عزم على الوفاء بنذره وبدأ بتنفيذه عند الوثنين ، اساف ونائلة ، فاعترضه جماعة من قريش وحالوا بينه وبين نحر عبد الله ثم اشاروا عليه باخذ رأي عرافة تدعى سجاح فاتصل بها في خيبر فأشارت عليه بضرب الأقداح على عبد الله وعلى عشرة من الابل ، كلما خرجت القداح على عبد الله زاد عشرة إلى أن خرجت القداح على الابل ، وعمل عبد المطلب برأي العرافة فخرجت القداح على عبد الله عشر مرات ثم على الابل ثلاث مرات فذبحت الابل ببطحاء مكة وشعابها .

وليس في هذه القصة من اختراع كما أرتأى بعض الباحثين (1) لان قريشا قالت لعبد المطلب منذ ان قدم ولده ليذبحه : والله لا تذبحه ابدا ونحن احياء حتى نعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال رجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على ذلك ؟

وهذا يعني أن قريشا لم تعتد تقديم القرابين البشرية كبعض الشعوب القديمة بما فيها الشعوب السامية ، فاستغربت ان يخرج رجل منها عن اعرافها وتقاليدها واشارت عليه بما اشارت من لجوء إلى العرافة ، وكان اللجوء إلى الكهان والعرافين من تقاليد العرب ، اما ما نسب من شعر إلى عبد المطلب وهو يرتجل مقاطعه كلما ضربت القداح فهو حقا موضع نظر ولا غناء في مناقشته هنا لان ابن هشام نفسه عده غير صحيح (2) .

1- ابن اسحق : السير والمغازي ، ص 24 ، 25 ،68 ابن هشام 1 . 101 . 131 . أزرقي 1 . 114 . 2 . 42 . ابن الأثير ، كامل 2 . 7 . المقدسي ، البدء والتاريخ 4 . 113

1- د. سهيل زكار في تعليقه على السير والمغازي لابن اسحق ، ص 41

2- ابن هشام ، 1 . 143

وكان العثور على بئر زمزم واعادة حفره موضع فخر لبني عبد مناف ومن اجل ذلك ردد شعرائهم القصائد وعدوا سقاية الحجيج منه شرفا لا مزيد عليه (1) .

وكان عبد الله احب أبناء والده إليه ، مارس التجارة وهو حدث ، ولا ريب انه كان يساعد عبد المطلب في رعاية الحجاج الوافدين على الكعبة ، ورغب عبد المطلب في تزويجه فما وجد خيراً من آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، أي انها تنتمي إلى نفس عمود النسب النبوي ابتداء من كلاب بن مرة (وكل من قصي وزهرة وهما اخوان سمّى لجله عبد مناف) ، وامها برة بنت عبد العزّى وهي ايضا يتصل نسبها بالنسب النبوي ابتداء من قصي .

وتردّد كل المصادر القديمة قصة تكتنف زواج عبد الله بن عبد المطلب ، وهي ان امراة عرضت عليه مضاجعتها او كان العكس وكان في الطريق الى بيت آمنة بنت وهب وهو مع والده ، وتأبى الشاب متعللا حسب القصة بانه لا يفارق والده ولا يخالفه ، وتضيف القصة انها رأت في وجهه نورا ، فلما زفت اليه آمنة بنت وهب وعاد من طريقه إلى بيت المرأة قال : " مالك لا تعرضين على مثل الذي عرضت علي امس ؟ فقالت : فارقك النور الذي كان فيك ، فليس لي بك اليوم حاجة . وبينما يتفق ابن اسحق وابن هشام واليعمري (2) على ان هذه المرأة هي أخت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى يذكر ابن عباس حسب الطبري الذي يتفق معه ابن الأثير (3) ان المرأة كاهنة يهودية من خثعم تقطن تبالة اليمن وانها كانت تريد ان تحمل من عبد الله لتشرف بحمل صاحب الرسالة . وسواء أكانت الرواية بهذه الصفة أم بتلك فهناك أصبع غير إسلامية لها تأثير في حبك القصة فاخت ورقة نصرانية أو هي أخت نصراني ، والكاهنة يهودية أو مسيحية وهي من خثعم التي تنصرت على يد أبرهة . وحتى مع هذا الحبك في الاتجاهين فإن القصة إرهاص بمولد شخص يكون له دور عظيم ، أي انها تزكية لمحمد (ص) ومحاولة تشويه لسمعة والده الذي خرج في النهاية نقيا من غير سوء .

ولم يطل عمر عبد الله بن عبد المطلب حتى يشهد مولد محمد ويسهر على تربيته ، فقد أدركته المنية وهو لما يبلُغ أشدُّه ، وتوفي وزوجه آمنة حامل وقيل بعد مولد

1- م .س . ص 139

2- ابن اسحق ص 42 ، ابن هشام ، 1 . 144 ، اليعمري عيون الاثر ، ص 31

3- طبري تاريخ ، 2 . 175 - ابن الاثير ، كامل ، 2 . 4

محمد بشهرين أو اكثر ، وكان عبد الله في طريقه بتجارة من الشام إلى المدينة حيث اسرة آمنة بنت وهب من جهة الام ، وهم بنو النجار ، وبالمدينة مرض واشتد عليه المرض إلى ان توفي ودفن بإحدى دور بني عدى بن النجار بيثرب [1] ، وهي دار النابغة الجعدي، ولم يضبط سن وفاته .

أصحاب الفيـــل

« الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ الم يجعل كيدهم فــي تضليل ، وأرسل عليهم طيرا ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف ماكول »

(قرآن كريم)

كانت محاولة الاحباش الهجوم على مكة ، حدثا بارزاً لا في حياة عبد المطلب فحسب بل في تاريخ العرب اجمع ، وفي الواقع كانت الكعبة قبل الإسلام موضع هجمات من الغاضبين على مكانتها لدى القبائل العربية ثم اصبحت كذلك بعد الإسلام لدواع سياسية ، وهكذا فاثناء ولاية خزاعة عرفت مكة هجوما عليها من التبابعة تكرر مرة ثانية ثم ثالثة في اول ولاية قريش ، وكان للمؤثرات اليهودية والمسيحية باليمن دور حقيقي في موقف حكام اليمن في العهـد الجاهلي ، [2] وقد اعتنق اليهودية ذو نواس الحميري ثم عمد إلى نصارى نجران فاراد تهويدهم وخيرهم بين الموت حرقا واعتناق اليهودية ، وكان ذلك سنة 523 م فاختاروا الموت حرقا وهم اصحاب الاخذود والمذكورون في القرآن الكريم . ثم تعاون البزنطيون والاحباش على قتاله فأمدّ جوستنيان النجاشي كالب (ت 575 م) باسطول لنقل الاحباش الى ساحل اليمن ، وهلك ذونواس بالقاء نفسه في البحر بعد ان تحقق من الهزيمة سنة 524 وهو آخر ملك عام لحمير وكانت قيادة الاحباش لأرياط ، فملـك

1- ابن كثير ، شرح سورة الفيل

2- تذكر مختلف المصادر ان عبد المطلب دعا الله عند باب البيت حتى يرد عنه الاحباش وانه قال في ذلك شعرا صح عند ابن هشام منه ثلاثة ابيات .

حسب الرواية العربية [1] عشرين سنة باليمن ، والحقيقة ان حكمه لم يتجاوز السنتين [2] ثم ثار عليه أبرهة الأشرم وفرض نفسه حاكما بموافقة كالب . وقام ابرهة باخضاع القبائل في شبه الجزيرة وبالاخص قبائل معد ذات الاصول اليمنية ، وبنى كنيسة في صنعاء سماها العرب بالقليس ، وهي تحريف اللفظ اللاتيني اكليسيا Ecclésia أي الكنيسة ، وتذكر النقوش الحميرية يكسوم ابنه كخلف له [3] وابرهة هذا هو الذي قرر هدم الكعبة على اثر قيام اعرابي بتنجيس القليس ، ونسب تدبير هذه العملية الى قريش وذلك لان بناء القليس لم يكن مجرد عملية تمجيد للمسيحية بصنعاء بل كان محاولة لتحويل العرب إلى النصرانية خارج اليمن ، ومن ناحية أخرى فان هيبة قريش ومصالحها التجارية والاقتصادية اصبحت معرضة للخطـر لمجرد ما أشيع عن عـــزم ابرهة على ارغام العرب على ان يحجوا إلى كنيسة صنعاء بدل الكعبة [4] . ولم يقف اليمنيون موقف المتفرج على تطاول ابرهة ، بل ثار زعماؤهم ومعهم انصارهم ضده فقمع ثورتهم ثم صانعته خثعم وثقيف ، وهذه قدمت اليه دليلا اسمه ابو رغال ليقود الجيش إلى مكة ثم توقف ابرهة عند المغمس قرب مكة وبعث بطلائع من الجيش ويقود الطلائع عربي اسمه الاسود بن مقصود ، فاستاق اموال تهامة وضمنها مائتا بعير ، لعبد المطلب ، وإثر ذلك بعث حناطة الحميري إلى عبد المطلب يستقدمه ويخبره انه لم يات للحرب وانما لهدم الكعبة ، وقال عبد المطلب : والله ما نريد حربه ولا طاقة لنا به ، ثم رافق عبد المطلب رسول ابرهة فاستقبله ابرهة باحترام ثم سأله عن حاجته فطالب برد ابله وكان جواب أبرهة : لقد اكبرت شانك إذْ رأيتك ، ثم زهدت فيك وانت تطلب مائتي بعير وتترك بيتا هو معبد آبائك وأجدادك وجئت لاهدمه فلم تكلمني فيه . فقال عبد المطلب : أنا رب الابل وإن للبيت ربا يحميه وقال أبرهة : ما كان ليمتنع مني ، فاجاب أنت وشأنك .

1- حسب سيد قطب (تفسير سورة الفيل) في كتابه (في ظلال القرآن)

2- يوجد توضيح ذلك بعد قليل

3- محمد بن عبد القادر بافقيه ، تاريخ اليمن القديم ، ص 171

4- ابن كثير ، شرح سورة الفيل

ثم رُدت على عبد المطلب إبله وقامت قريش بمغادرة مكة والتحصن برؤوس الجبال [1] وتقدم ابرهة على رأس جيش ضخم ، وسبقته مجموعة من الفيلة كانت ثلاثة عشر ، منها واحد عرف باسم محمود ، ورفض الفيل محمود ان يتقدم خطوة وقد اصبح على مشارف الكعبة ، وتعزو الرواية العربية الى نفيل بن حبيب من زعماء خثعم انه اسر إلى هذا الفيل ان يرجع على اعقابه فهرول نحو اليمن فرده السائس فبرك ثم حاولوا ارغامه على السير باتجاه الكعبة ، فاصر على ان يبرك مكانه ، اما الفيلة الاخرى فيظهر انها مع الجيش ، وهنا يأتي العقاب الالهي الذي تسلط على الجيش الحبشي وقائده وفيلته غير (محمود) حيث ارسل الله عليهم طيرا أبابيل ، أي أسرابا من الطيور او الحشرات الطيارة اسرابا مجتمعة تقذفهم بحجارة دقيقة تفنن المفسرون والإخباريون في وصفها شكلا وحجما ومفعولا ، وحسب ابن هشام فإن "سجين" كلمة فارسية مركبة بمعنى حجر وطين أي الحجر الطيني ، وتركهم هذا الحجر الدقيق وهو في حجم الحمصة أو العدسة كما زعموا ، كالتبن أو ورق الشجر المتحات ، وبعضهم هلك على الفور وآخرون ومنهم ابرهة تساقطت اطرافهم عضوا عضوا بعد ايام .

ويرى الامام محمد عبده [2] أن ما اصاب الاحباش كان جدريا وحصبة [3] وان الجُدري كان أول ما حل ببلاد العرب (الكن كيف عرف لفظ الجدري وهو معروف قبل الإسلام).

ويرى سيد قطب ان الحادث جرى على انه من الخوارق غير المعهودة ، لأن الطير الأبابيل غير معهودة والاحجار التي تقذف بها غير معهودة . غير أنه حسب السورة القرآنية نفسها نهتدي إلى ان الأمر يتعلق في النهاية بنوع من الأمراض الجرثومية التي تجعل الكائن البشري يتلاشى ويتساقط لحمه كما يتحات التبن أو ورق الشجر .

وحدثت هجومات لاحقة على الكعبة في ظل الاسلام فكيف نجا المهاجمون من عقاب الهي مباشر؟ كيف نجا الحجاج والقرامطة وحتى الذين هاجموا مؤخرا البيت الحرام ؟(في الثمانينات من القرن العشرين م .) الواقع هو ان هؤلاء المهاجمين جميعا لم يكن هدفهم تخريب الكعبة بل أسباب مختلفة ، بينما هب الأحباش لتخريب الكعبة والبيت الحرام قصدا .

1- تذكر مختلف المصادر ان عبد المطلب دعا الله عند باب البيت حتى يرد عنه الاحباش وانه قال في ذلك شعرا صح عند ابن هشام منه ثلاث ابيات .

2- حسب سيد قطب (تفسير سورة الفيل) في كتابه (في ظلال القرآن)

3- ينقل عن ابن اسحق ، ص 65 .

وحسب الأزرقي فقد تبقى من فلول الأحباش جنود سلموا وخدموا رعاة وعمالا بمكة [1] وقضى ابرهة في حكم اليمن ثلاثا واربعين سنة حسب المسعودي ، فإذا اضفناها إلى سنتين أو سنتين ونيف منذ دخول الاحباش سنة 524 م بقيادة أرْياط تنتهي فترة ابرهة عند 570 وهي عام الفيل ، أي عام مولد النبي (ص) [2] .

وانتقل حكم اليمن بعد ابرهة الى ابنه يكسوم ثم مسروق اخي يكسوم وكان يكسوم هذا ظالما ، ولكنه لم يستأنف محاولة الهجوم على البيت الحرام ، كما انه لم يملك عشرين سنة كما يقول المسعودي [3] فان حكم الاخوين لم يتجاوز خمس سنوات أو ستا حيث انتهى عام 575 ، واستولى على السلطة سيف بن ذي يزن بمعونة الفرس ، غير ان ابن ذي يزن احتفظ ببعض الاحباش فقتلوه غيلة ، وعندئذ حكم الفرس المنطقة حكما مباشرا ، وآخر عمالهم باذان الذي اسلم في عهد النبي (ص) واقر حاكما على اليمن حتى وفاته .

مولد خاتم النبيئين

« الم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فاغنى ؟ »

(قرآن كريم)

ولد محمد عليه السلام بإجماع المصادر الأساسية عام الفيل . وحسب المقدسي [4] فان قدوم الفيل كان في 17 محرم وان مولده كان في ثامن ربيع الاول ولكن المؤرخين اعتمدوا ابن اسحق الذي ذكر ان مولده (ص) كان في ثاني عشر ربيع الاول ، وكان يوم اثنين وجلهم ذكروا ان مولده كان بدار عند الصفا تحولت فيما بعد من ورثة عقيل بن ابي طالب إلى محمد بن يوسف اخي الحجاج بن يوسف الثقفي ، ولذلك عرفت بدار ابن يوسف .

1- ازرقي ، 1 ، 147 .

2- راجع حول قصة اصحاب الفيل ابن اسحق ، ص 60 . ابن هشام . 1 1 40 ازرقي ، 1 ، 134 - 157 ابن الاثير ، كامل 1 . 260 - 266 . مقدسي 4 0 131 . يعمري 35 7. مسعودي ، 2 127 . بافقيه ، م. س . ص . 171 .

3- مسعودي ، مروج ، 2 ، 80 .

4- مقدسي ، م . س . ص 132 .

واقترن مولد الرسول بخوارق خاصة . وكان لظروف مولد موسى وعيسى خوارقها الخاصة ايضا ، فقد سلم موسى من الذبح ورد الى امه لترضعه ، وولد عيسى من مريم العذراء وكلم الناس وهو في مهده . اما محمد (ص) فان آمنة أمه حين حملت به رات في منامها نوراً انبعث منها وأشعَّ على قصور بُصْرى من سوريا ، وقصت احدى سيدات قريش وهي والدة عثمان بن ابي العاص انها رأت نورا أضاء بيت آمنة ليلا وهي تضع الوليد محمد (ص) ، وذكر ان الرسول ولد مختونا مقطوع السرة وأنه وقع على الأرض وأصابع يده مقبوضة وهو يشير بالسَّبابة كالمسبح بها .

وفي ليلة مولده تزلزل ايوان كسرى وتساقطت منه عدة شرفات ، واضاف الرواة ان نيران عبدة النار بفارس خمدت بعد الف عام لم تخمد خلالها (لا تزال اطلال الإيوان قائمة) .

وبكل تأكيد فإن عبد المطلب الذي كان له أبناء كثيرون وبنات اهتم لمولد الصبي اليتيم لا لأنه فقد والده فحسب بل لان شيئا ما كان يحبب هذا الصبي الرضيع الى نفس عبد المطلب فما ان بلغ اليه نبأه مولده حتى حمله إلى الكعبة شاكرا لله داعيا للصبي ثم استرضع الوليد لفترة قليلة عند ثويبة مولاة ابي لهب ، فلما كبر الرسول كان يكرمها وظل على ذلك حتى هاجر إلى المدينة .

والتمست الأسرة للرسول مرضعا من البادية حتى يشب الصبي قويا فما تقدم منهن واحدة لان الصبي يتيم . وكان من عادة المراضع ان يبحثن بأنفسهن عن الرضعاء وتقدمت شابة هي حليمة بنت أبي ذؤيب من بني سعد بن بكر بن هوازن ، وهي زوج الحارث بن عبد العزى وهو ايضا من بني سعد . وهو رب اسرة فقيرة ، وكانت المراضع يؤجرن او ياملن في كرم اسرة الرضيع فلما علمت حليمة ان الصبي يتيم تأخرت عن قبوله في بادئ الامر وقالت (حسب رواية ابن اسحق) : "والله اني لم آخذه إلا اني لم اجد غيره" ، وحكت حليمة بعد ذلك ان بركة الصبي الرضيع جعلت شُويهات الاسرة تعود بطانا مع ان الأرض جدباء غير معطاء ، وان لبنها غزر .

وعاشر محمد اليتيم إخوته من الرضاع ، فلما قدمت به حليمة على آمنة بعد سنتين واقام معها اسابيع ، الحت على آمنة في ان تعود به إلى البادية حتى وافقت . وفي هذه

الفترة وقعت قصة شق بطن الرسول كما رواها اخ له من الرضاع وكما رواها بنفسه فيما بعد ، ومضمنها ان ملكين في صفة رجلين أضجعا الصبي الصغير ثم شقا بطنه واستخرجا قلبه فشقاه وطرحا منه علقة سوداء وتكررت هذه العملية مرة ثانية قبل العروج بالرسول الى السماء . . . وان كان لنا ان نفسر هذا الحدث فان شق قلب الرسول بعد مرور سنتين على مولده فيه دلالة على ان الصبي استكمل مؤثرات الرضاع طبيا وبدنيا [1] . وان عملية غسل القلب وتنقيته شحنة روحية قدمت لهذا الصبي الذي اشرف على مرحلة جديدة من حياته بتجاوز فترة الرضاع . وتنقية القلب من كل المؤثرات البيولوجية التي يمكن ان تكون لها انعكاسات سلبية على مستقبل شخص مهيأ للنبوة عمل لا يمكن ان يكون بشريا . اما تكرار العملية قبل العروج بالرسول (ص) إلى السماء فَلقُدْسِيَّة المهمة التي ستناط به ولآن رحلته السماوية تقتضي ان يكون من الطهر قلبا ونفساً وبدنا بحيث يؤهل نفسانيا وروحيا بشكل يصفو فيه سلوكه ويسمو شخصه في اعلى الكون الالهي .

وبعد حادثة شق بطن الرسول في صباه عاد إلى أسرته وكان يرعى غنم والده (من الرضاع) مع اخوته وظل يتردد على بيت مرضعته ، كما مارس حياة الرعي ماشاء الله بمكة . ولم تطل الحياة بآمنة بعد مولد الرسول (ص) فإنها ذهبت به لزيارة اخواله بالمدينة فلما كانت راجعة توفيت بالأبواء فيما بين مكة والمدينة وسنُّ الرسول (ص) لا تتجاوز ستة أعوام على الارجح . وكانت له حاضنة هي أم أيمن الحبشية التي رافقته مع امه ، فلما توفيت آمنة عادت به الحاضنة إلى بيت عبد المطلب [2] .

عبد المطلب بعد عام الفيل ، ووفاته

كان للمصير الذي لقيه الاحباش وقائدهم ابرهة وسلامة البيت الحرام من الخراب آثار مباشرة على ارتفاع مقام عبد المطلب والمجموعة القرشية ، إلا أن قريشا ابتدعت اشياء لا بد أن يكون عبد المطلب قد أخذ بشأنها موقفا لا نعلم كُنْهَه ، وذلك ان قريش ارتات ان تتحالف على اشياء تتركها من الحج واخرى تضيفها وتتسامح فيها ، وهكذا تركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها بعد عام الفيل ، ومنعوا على من جاء من منطقة الحل أي خارج الحرم

1- حسب بعض الروايات كان شق بطنه وهو في الرابعة (مسعردي .2. 281)

2- راجع عن مولد الرسول حتى وفاة آمنة امه ، ما تقدم من المصادر

المكي أن يأكل بالحرم من طعام جاء به من منطقته ، وفرضوا ثيابا معينة على الحجاج والزموهم أن يشتروا مأكلهم من الحرم ، ومن لم يجد ثياب قريش التي سموها الحمس طاف عريانا . وترك النساء الثياب إلا لباسا مفرجا وقالت قائلتهم :

اليـــوم يَبْدُو كُلُّــهُ أو بعضُــهُ   و مـــا بدا منـــه فَلَا أحِلُّـــهُ

وبقيت الاحوال هكذا حتى بعث الرسول وأعيدت شعائر الحج إلى أصلها . [1] وبعد مولد الرسول ببضع سنوات اي حوالي عام 575 م وليس بعد سنتين كما ذكر الازرقي [2] ، استقبل سيف بن ذي يزن وفود قريش وشعراءها وهم يهنئونه بطرد الاحباش وتولى الملك وكان بينهم امية بن عبد شمس وخويلد بن اسد وعبد المطلب الذي استقبله ابن ذي يزن في قصر غُمْدَان بصنعاء وخطب عبد المطلب أمامه باسم قريش وكان بدون شك أسنَّها واحظاها مكانة . ويضيف الازرقي أن ابن ذي يزن أسرَّ إلى عبد المطلب أنه " إذا ولد بتهامة غلام به علامة كانت لكم به الامامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة " ثم ذكر سيف بن ذي يزن (حسب الرواية) ان المولود سيكون اسمه محمدا وان والديه يموتان فيكْفُلُه جده وعمه ، وأعجب ما في مسارة ابن ذي يزن لزائره انه حذره من اليهود واوصاه بكتمان هذا السر على قومه ، وتأسف على ان الموت ستعصف به قبل مبعث محمد (ص) ، ثم انصرف عبد المطلب وقد نال من صلات الملك اليمني شيئا كثيرا ، ومدح الشعراء القرشيون وغيرهم سيف بن ذي يزن كما تغنوا بحادث الفيل ونتائجه [3] .

وتقدم العمر بعبد المطلب حتى هلك على الأرجح بعد أن تجاوز المائة سنين بكثير وأوصى ان يقوم ابنه ابو طالب بكفالة الصبي محمد ، وذكر ابن اسحق وابن هشام ان عبد المطلب عندما دنت وفاته طلب من بناته الست ان يرثينه ، ونقل الراويان مراثيهن مع خلاف ، ورثاه آخرون كحذيفة بن غانم ومطرود الخزاعي [4] .

1- ابن الأثير ، كامل 2 ، 226 .

2- بافقيه ، تاريخ اليمن القديم ، ص 171 . الأزرقي ، م . س . 149 .

3- ازرقي ، 1 ، 154 - 157 .

4- ابن اسحق : ص 67 - 70 . ابن هشام ، 1 ,156 - 163 .

وكانت وفاة عبد المطلب بعد ثماني سنوات على الارجح من مولد الرسول وخلفه في السقاية والرفادة والرئاسة الشرفية حرب بن أمية ، فاطعم الناس وحاط العشيرة وشرف قومه ونصب قبة مكة للضيف يطعم فيها من جاء . [1]

وقد أصبح الرسول عليه السلام بعد موت عبد المطلب في وضعية جديدة تماما : انتقل السؤدُدُ والزعامة على قريش من بيت عبد المطلب بن هاشم إلى بيت حرب بن أمية واصبح محمد اليتم يعيش بين عائلة فقيرة كبيرة العدد لا تملك الاظلا من الجاه ولا مال لها .

والحق ان عبد المطلب قد جعل من محمد أعز ابن في أسرته ، حتى ان محمدا كان ذات يوم يرعى ابل جدِّه فضل عن الطريق حتى عاد به جده واوصى حاضنته ان لا تغفل عنه وقال : إن اهل الكتاب يزعمون ان ابني هذا نبي هذه الامة وانا لاآمن عليه منهم ، وكان لا يأكل طعامه حتى يحضر اليتيم محمد ، ويقول : علي بابني ، وإذا جلس عبد المطلب حول الكعبة تحاشى أبناؤه ان يجلسوا على فراشه اجلالا له ، فإذا جلس عليه الرسول وهو صبي منعوه فيقول لهم عبد المطلب : دعوا ابني فوالله ان له لشأنا ، ثم يمسح ظهره بيده غبطة وسرورا .

محمد (ص) في كفالة ابي طالب

كان لعبد المطلب من الابناء الذكور عشرة ومنهم ابو طالب وحمزة وابو لهب . وأبو طالب اخ شقيق لعبد الله ، ولذلك اوصاه عبد المطلب خيرا بمحمد (ص) وكان ابو طالب عند حسن الظن به ، فقد رعاه ورفع مكانه فوق مكان بنيه على فقره وحاجته ، مع أنه كان تاجرا لكن كثرة عياله مع مرور سنوات عجاف على سكان مكة في اواخر عهد عبد المطلب كان لَهُ تأثير على تواضع حاله .

1- ابن اسحق ، ص 69

وحسب جل الروايات فان ابا طالب تهيأ لأحد اسفاره إلى الشام والرسول يومئذ في التاسعة فتعلق به يريد مرافقته ، وقال : إلى من تكلني ولا أب لي ولا ام ؟ فرق له عمه واصطحبه ، فلما حط الركب ببُصرى وهي يومئذ من اهم مدن سوريا واكبر عواصمها الدينية حسب فيليب حتى[1] ، اطل احد الرهبان من صومعته وتُسميه الرواية الاسلامية ببَحيرا فلاحظ ان غمامة كانت تظلل الرسول من بين القوم كما قال ابن اسحق ، ونزل الراهب على غير عادته مرحبا بالركب واستضافهم ، وكان الصبي محمد بعيدا عنهم خجلا فالح الراهب في حضوره ، ثم اخذ يتفرس فيه وينظر إلى علامات في جسده قيل ان بحيرا تعرف عليها من بعض الكتب الدينية القديمة ولعلها بعض نسخ الانجيل غير المتداولة او كتاب غيره ، وكان مما لاحظه خاتم النبوة بين كتفي الرسول (ص) ، وتتفق جميع الروايات على ان بحيرا نبأ ابا طالب بمستقبل الرسول وحذره من اليهود حتى لا يصلوا الصبي محمد باذى ، وغَير صحيح ان غالبية علماء السيرة يعتبرون قصة بحيرا مختلقة كما ذكر الدكتور زكار [2] فقد ذكرها غير ابن اسحق ، عدد كبير كالطبري وابن هشام والمسعودي وابن الاثير والسُّهيلي واليعمري والمقدسي الذي روى بيتا (بدون شك من قصيدة) وهو [3] .

ألم يكن لقريش آية عَجَـبٌ فيما يقول بحيْراء وعدّاسُ ؟

ويعلق فيليب حتى [4] على زيارة الرسول إلى بُصرى بقوله : «وهناك اطلع على الكثير مما عرفه عن المسيحية » لكن لا يوجد دليل واضح على ان الرسول تلقى اصولا مسيحية في الوقت الذي جاء بدين ينقضُ انحرافات رهبانها ويضع قواعد جديدة للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية غير موجودة في المسيحية ، كما ان التصوير المسيحي للحياة الاخرى يختلف عنه في الإسلام .

محمد الشاب زوجا وتاجرا

بعيدا عن مكة وقريش كانت تجري احداث دامية داخل شبه جزيرة العرب ، وبين العرب : احداث بسبب الأرض والماشية ، وأحداث من أجل الشرف او من أجل حماية لاجئ وكانت الوقائع بين القبائل او ضد العدو الخارجي تدعى اياما ، لان الصراع الدموي يجري

1- فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، 1 . 448
2- تعليق على ابن اسحق ، ص 76
3- مقدسي ، بدء 4 - 134
4- حتى ، م . س . ن . ص

يوما او بعض يوم . وجرى كثير من هذه الاحداث في حياة الرسول (ص) طفلا وشابا وكهلا ، أي إلى حين ألقت القبائل السلاح امام الزحف الاسلامي ودعوته الملحاح الى الأخوة ونبذ العدوان .

واخبار هذه الأيام ذكرتها كتب التاريخ ، وتاريخ الأدب كالأغاني والكامل للمبرد والكامل لابن الاثير ، وبدون شك كانت الصراعات الداخلية بين العرب تفتح عيون العقلاء من العرب على تخلفهم السياسي والاجتماعي ، وبدون شك فإن محمد الصبي الذي أصبح الآن مراهقا كان يسمع عما يجري حوله فيما يروج من سمرٍ يحضره اترابه ويردده آخرون ، لكن محمداً شهد شيئا من هذه الأحداث بنفسه وهو في طور المراهقة ، وهكذا تحدث المسعودي عن وقائع كانت قريش طرفاً فيها وسماها المسعودي [1] كما عرفت اصلا بالفجارات (بكسر الفاء) وهي اربعة فجارات ، اي اربع معارك او مناوشات كل منها (فجار) والفجار بمعنى الانحراف عن بعض شعائر الحج هنا ، ويظهر ان اهمها كان الفجار الثالث والرابع ، ولذلك فإن مؤرخين كابن الاثير يتحدثون عن الفجار الثالث والرابع كفجارٍ أول وثانٍ ، والأول (الثالث عند المسعودي ، حدث بسبب استهزاء شباب من قريش بسيدة من بني عامر حيث شقوا لباسها من خلف دون ان تشعر ، فارتجت لذلك بنو عامر وكاد يقع الاشتباك الدموي بينهم ، وبين قريش داخل الحرم المكي كما يفهم من كلام الرواه [2] ، ثم تدخل العقلاء واصطلح الطرفان .

ولكن الفجار الثاني الذي يذكر احيانا باسم الفجار فقط كان اهم مما تقدمه وأوسع مدى ، واغلب المؤخين كالمسعودي وابن الاثير اليعمري يذكرون ان الرسول كان إذ ذاك في العشرين من عمره ، وبعضهم كابن هشام يجعله مباشرا لما قبله (اي لفجار المرأة كما سماه المسعودي) ، وعلى كل فان حرب الفجار الكبرى هذه لم تكن معركة يوم واحد على ما يبدو من سياق الاحداث بل ان ابن هشام [3] يقول : "ثم التقوا بعد هذا اليوم اياما ... الخ) كما ان الاصبهاني [4] يتحدث عن حروب استمرت خمسة ايام ويسمي كل يوم باسمه ، وملخص احداث هذه الحروب التي لا فائدة في الإسهاب فيها بعد ان رددتها عدة

1- المسعودي مروج ، 2 . 277
2- ابن الاثير م . س . ج . 1 ، 359 وحسب الاصبهاني وقع قتال شديد بين الفريقين (صالحاني رنات ج 222) .
3- ابن هشام ، 1 ، 170
4- الصالحاني ، رنات ، م . س .

مصادر ، وسميت بفجار البراض ، ان النعمان بن المنذر امير الحيرة في عهد ابرويز كان يبعث ببضائع كل سنة الى سوق عكاظ ، وكان يتصل به تاجر عربي هو عروة بن عتبة الرحال ، وصادف ان حضر مجلس النعمان عربي مشهور باعتداءاته وشره ، وهو البُراض بن قيس الكناني وكان قد تخلى عنه قومه وتبرأوا من دمه ، ثم رشح النعمان عروة ليشرف على مرور القافلة بين القبائل ، ورشح البراض نفسه فرفضه النعمان وأهانه عروة ، ولذلك كمن البراض لعروة في الطريق فقتله في الشهر الحرام ، وهاجت الحرب بين قريش وكنانة من جهة وهي تطلب بثأر عروة ، وبين قيس عيلان التي تحركت عندئذ للدفاع عن البراض من جهة اخرى وكان القتال بسوق عكاظ في الشهر الحرام (شهر شوال) وراح ضحية القتال عدد من شباب ورجالات الفريقين ، وحضرها عامة زعماء قريش وعلى راسهم حرب ابن امية ومعه العاص بن وائل وخويلد بن اسد والد خديجة (زوج الرسول عليه السلام) وكثيرون غيرهم ، ثم تداعوا للصلح وكانت قتلى قريش اكبر عددا ، وحضر الرسول (ص) هذه الحرب وتحدث عنها بعد مبعثه وكان بجانب اعمامه يجهز نبالهم دون ان يقاتل بنفسه ولكنه لم يكن بالتأكيد راضيا عن هذه الحرب ولا عن مكانها أو زمانها لأن البيئة التي نشأ فيها بيئة أمن وسلام ، وقريش تشتغل بالتجارة وشؤون الحج ، فلا أَرَبَ لها في الحروب مالم تكن دفاعا عن مصالحها لا مفر منه ، ومحمد عاش في حداثته مسالما : يرعى غنم اسرته ويساعدها كواحد منها ، ثم يشتغل بالتجارة فترة غير قصيرة من شبابه فهو يفرح للامن والتوادد والتعاطف البشري حتى ولو شاءت الصُّدف ان يحضر حربا لا يَسفك فيها دماً وليس له فيها دور يذكر [1] ، وإن كان في بعض الروايات انه رَمَى باسْهُمٍ وانه لم يكن كارها لموقفه هذا . [2]

وخلفت حرب الفجار فيضاً غزيرا من الشعر اسهم فيه خداش بن زهير بوفير حظ كما ورد في الاغاني وغيره .

وما ان فرغت القبائل المتحاربة من حرب الفجار في شوال حتى اتت قريشا الفرصة لتعقد حلفا فيما بينها سمته بحلف الفضول وتحدث عنه الرسول (ص) فيما بعد ، لانه كان

1- انظر عن معارك (الفجار) المسعودي 2 . 277 ابن الاثير كامل 1 . 358 المقدسي ، 4 . 135 . ابن هشام 1 . 168 . اليعمري ص 58 صالحالي ، رنات المثالث والمثاني 2 . 221 .
2- اليعمري 1 ص 58 .

ممّن شهده ، وكان في ذي القعدة أي مباشرة بعد الفجار لكن بطريق الصدفة ، فان عربيا من زبيد (باليمن) علا جبل ابي قبَيْس شرقي مكة وانشد شعرا يستضرح به قريشا على من ظلمه وكان هذا اليمني قد باع سلعة للعاص بن وائل السهمي فماطله ، وعندئذ تحركت قريش بمبادرة من الزبير بن عبد المطلب عم الرسول فتحالفت على ان تنصر المظلوم على الظالم ، وتعاقدت على ان يساعد بعضها بعضا في معاشها وقال الناس : لقد دخل هؤلاء في فضل من الامر ، ثم ألزموا العاص برد السلعة إلى ربها ، واعتبر هذا الحلف اشرف حلف عقدته العرب وكان عقده في دار عبد الله بن جَدْعان من سراة قريش [1] . وقال الرسول (ص) عنه :

« لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ماأحب ان لي به حمر النّعم ، ولو ادُّعي به في الاسلام لأجَبْتُ »

وهذا يؤكد ميل الرسول منذ كان حدثا إلى المثالية في اخلاقه وسلوكه وفي تصوره للعلاقات الانسانية بوجه عام ، وكان لحلف الفضول نظيرٌ في الاسم وسابقة في عهد جُرْهُم ، ولكن مفعوله تلاشى مع الايام فلم يبق بين قريش إلا ذكره [2] حتى جددته والرسول في سن العشرين .

وتمر حوالي خمس سنوات من حياة الرسول بعد حرب الفجار لا نعلم عنها شيئا ولكن في نطاق السياسة الدولية شهدت هذه الفترة وما بعدها بسنوات ، احداثا جساما فقد تخلى الفرس سنة 591 م عن أرمينيا الفارسية لبيزنطة ، وعقدوا معها معاهدة سِلم بفضل حكمة الملك الشاب برويز الثاني حفيد كسرى الأكبر ، وكذلك بفضل عزيمة الامبراطور البيزنطي موريس (602 م) وفي سنة 592 بدا الزحف البيزنطي المضاد على الجموع السلافية التي كونت فيما بعد شعوب البلقان [3] لكن هذا الزحف لم يكلل بنجاح يذكر وهكذا فإن تناحر الامبراطوريتين والانتفاضات المضادة لهما هيأت جوا ملائما لظهور الاسلام كقوة جديدة . وبدون شك لم يكن محمد الشاب بمعزل كلي عما يجري من احداث

1- ابن هشام ص 122 المسعودي 2 . 179 . المقدسي 4 . 136 ابن الاثير ، 2 . 25 اليعمري ، ص 58 .
2- ابن الاثير ، 2 . 25 .
3- Ostrogorsky, Histoire de l'Etat hyantin, pp, II0 - III

داخلية وخارجية ، فمهما كان من عدم تلقيه قسطا من التعليم فهو يسمع من التجار واليهود الذين يتحركون من اقصى اليمن إلى الشام وفارس عبر مكة اشياء كثيرة عما يروج في محيط الشرق الاوسط غير أن محمدا اصبح بدون ريب في أمس الحاجة إلى عمل حر يتعيش منه ، وهو بالطبع لا يطمح إلى ثروة اوجاه ولكنه لم يكن راضيا عن وضعه فيما بينه وبين نفسه من حيث شعوره بالحَرَج من الارتباط في معاشه باسرة فقيرة وهو أعف نفسا من ان يضيف همومهُ إلى همومها حتى وان كان مدينًا بالرعاية والكفالة لعمه الفاضل ، وجاءت الفرصة محمدا عليه السلام بمبادرة من ابي طالب نفسه حيث جلس واياه في نقاش هادئ ليعرض عليه تجربة العمل التجاري كانه قد أدرك همومه وهواجسه وقال [1] : يا ابن اخي انا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان علنا وألحَّت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة (وهذا يفسر توقف ابي طالب عن السفر الى الشام واصطحاب الرسول مرة ثانية) . وهذه عيرُ قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة تبعث رجالا من قومك في عيرها فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع فلو جئتها لاسرعت اليك وفضلتك على غيرك لما يلغها عنك من طهارتك ، وان كنت لأكره ان تأتي الشام واخاف عليك اليهود .

وعرض الرسول بذكائه وشرف همته ان تكوَن المبادرة من خديجة نفسها ، وحيث ان محمدا الشاب سبقته شهرته في الاوساط القُرَشيّة كشاب أمين ذي عفة ونزاهة حتى كان لا يُعرف إلا بالامين ، فقد ابلغ خديجة من ابلغها ما راج بين محمد وعمه ابي طالب من حديث وبدأ عند ذلك طور جديد من حياة الشاب محمد ، فعهدت اليه خديجة بتجارتها وكانت تقوم بمضاربات ناجحة يتولاها عنها تجار من قريش . وعاد الرسول هذه المرة الى سوق بُصْرَى تاجرا يصحبه ميسرة غلامها ، واوصى اعمامه قافلة قريش خيرا بالتاجر الشاب ، وراقب ميسرة عن كثب نشاط النبي وصدقه في المعاملة ورفضه ان يحلف على بضاعته باللات والعزى . وقيل ان الرسول (ص) نزل تحت شجرة فلاحظه راهب اسمه نسطور وكان

1- اليعمري 1 ، ص 60

يعرف ميسرة فقال : ما نزل تحت هذه الشجرة الا نبي (اي لم ينزل تحتها في ذلك الوقت إلا نبي) [1] وسأل نسطور عن علامات في الشاب ليطمئن الى انطباقها على صفة النبي المنتظر وهكذا تصر الروايات العربية على ان تكون العلامات البدنية التي يكتشفها أحبار ورهبان في جسد النبي (ص) هي قبل غيرها قبل مصداق لنبوته ، لكن مما لا نقاش فيه ان المحيط الاجتماعي بوجه عام كان يعتبر المميزات الفيزيولوجية المادية إذا أثبتها رجال الدين أسبق من غيرها حجة .

وربحت تجارة خديجة اضعافا بفضل الرسول (ص) وثبت لديها صدقه وطهر نفسه وخلقه فرغبت في زواجه وهي يومئذ في جاه من قومها لان والدها خويلد كان من زعماء قريش . ولا يمكن ان تكون خديجة قد عرضت الزواج على الرسول بشكل مباشر ، لان هذا يتنافى مع طبيعة المراة العربية في وضعية كوضعية خديجة ، ولذلك اسندت الى احدى السيدات هذه المهمة لتتولى مباشرة ترغيب النبي في الزواج من خديجة وهذه السيدة هي- نفيسة بيت منية التي احسنت القيام بمهمتها ، وقد اسلمت قبل فتح مكة واكرمها الرسول (ص) [2] وقام الرسول (ص) بالتشاور مع أعمامه وتولى الخطبة احدهم ، إما حمزة أو أبو طالب ، وأغلب الروايات على أن اباها خويلد كان قد توفي قبل الفجار ، فكانت الخطبة إلى أخيه عمرو . وقالت الروايات انه اثناء الخطبة كان ثملا ، فقبل تزويج خديجة ، فلما صحا من سكره اظهر تعجبه او ندمه ، ولكنه امضى الخطبة ، وكان عمر خديجة اربعين عاما وعمر الرسول خمسة وعشرين عاما .

وبدخول الرسول (ص) في حياة الزوجية يسدل ستار مطبق على نشاطه لمدة عقد من السنين ، وهي فترة طويلة جدا من حياة فرد عادي ، فكيف بمن هيئ لاعظم رسالة سماوية ؟

1- م . س . ص 61 .. ابن هشام 1 . 172 .

2- الكامل لابن الاثير .2 25 ، وانظر عن زواج الرسول : مذهب الروضة الفيحاء لابن ياسين العمري ، 95

ولكن لنا ان نفترض وهذا كل ما يمكن ان نفعل في ظل صمت المؤرخين ، ان الرسول قد صرف جل وقته إلى نشاطه التجاري واعباء اسرته في هذه الفترة وكذلك خلال الخمس سنوات اللاحقة التي سبقت البعثة ، لكن خلال هذه الخمس السنوات الاخيرة هناك تطورات جديدة في حياة الرسول نتركها لما بعد .

وهكذا فان محمداً (ص) اصبح رب اسرة كبيرة فقد صار له من خديجة اربع بنات وولده منها القاسم الذي توفي رضيعا ، وخلال السنوات المذكورة خبر الرسول حياة التجارة والمعاملة مع اشخاص من حيثيات وملل مختلفة ، وأخذ فكرة دقيقة عن مزايا العمل التجاري وما يكتنفه من صعوبات ومساوئ ايضا ، ولذلك نجد صدى لاهتمامات الرسول هذه والتي عادت في الواقع مجرد ذكرى بعد البعثة بقليل ، فيما تلقاه من وحي الهي يحث الناس على الضرب في الارض والابتغاء من رزق الله والتنويه بالمنافع الروحية والمادية للحج ، وكذلك عرف الرسول أخطار الربا في التجارة وما كان له من مكانة لدى اليهود والبيزنطيين . وهؤلاء زكوه بنسب عالية على الرغم من مناهضة الكنيسة .

وبالرغم من ان الرسول عليه السلام ، اشتغل بالتجارة وقتا طويلا فانه لاشئ يدل على انه نال من تجارته ثروة طائلة وذلك لأنه لم يكن يتخذ من التجارة طريقا للثروة وإنما وسيلة للكسب وضمان العيش اليومي ، وهو على أي حال عاش مع خديجة في رفاهٍ نسبي بالقياس الى الفترة السابقة من حياته وكذلك بالقياس الى فترة ما بعد وفاتها .

إعادة بناء الكعبة

حينما بلغ الرسول عليه السلام الخامسة والثلاثين اي قبل الهجرة بثمان عشرة سنة[1] وقع بين قريش نزاع بشأن هدم الكعبة وإعادة بنائها ، فقد كانت الكعبة قصيرة الجدران غير مسقفة ، وكانت الجدران رضيمة ، أي أن حجارتها كانت مصفوفة من غير ملاط وكانت كسوة الكعبة تُلقى على جدرانها التي كان ارتفاعها تسع اذراع من عهد اسمعيل . وحسب المسعودي فان سيلا هدم الكعبة فقررت قريش بناءها ، واتفق ان سفينة بيزنطية

1- الكامل لابن الاثير . 2 25 ، وانظر عن زواج الرسول : مهذّب الروضة الفيحاء لابن ياسين العمري ، 95

قذفت بها العواصف في عرض البحر الأحمر وهي تقصد سواحل الحبشة وكانت محملة بالخشب ، فتحطمت عند ميناء الشُعيبة (بضم الشين) جنوب جدة ، فابتاعت قريش خشبها وكان بمكة لجار قبطي ربما كان من ركاب السفينة واسمه باقوم ، وكان خبيراً في شؤون البناء ايضا فقرروا عندئذ ان يستعينوا به على اعادة بناء الكعبة ، واتفقوا بعد جدال على هدم الجدران وكانوا يريدون نقض القواعد فتعذر عليهم ذلك لمتانتها وان كانت بعض الروايات تطبع هذا الحادث بطابع أسطوري ، وقيل ايضا في سبب هدم الكعبة انها احترقت على اثر عملية إجمار (تبخير) قامت بها سيدة من قريش .

وساهم الرسول عليه السلام في نقل الحجر من ضواحي مكة ، وتمت عملية الهدم بمبادرة من الوليد ابن المغيرة وهو شيخ كبير من وجوه قريش التي هابت ان تقدم على هدم الكعبة حتى تقدم الوليد بنفسه ليكون ضحية وحيدة للعقاب الإلهي عند الاقتضاء ولكن الأمور سارت عادية بمشيئة الله ، وضوعف ارتفاع الجدران كما رفع باب الكعبة عن مستوى الارض تجنبا لفعل السيول وعمدوا الى تسقيفها ولما بلغوا وقت اعادة الركن إلى مكانه وقع بينهم نزاع شديد ، ثم تراضوا أن يحكموا بينهم بعد اشتداد النزاع اول من يظهر حولهم من باب بني شيبة ، فظهر محمد (ص) فقالوا هذا الامين رضينا بحكمه فبسط رداءه وامر ان يمسك رجل من كل بطن من بطون قريش الحاضرة بطرف منه ووضع فيه الحجر ثم رفع الى مكانه ووضعه الرسول (ص) بيده وانتهى النزاع .

وقامت قريش باعادة تصوير رسوم الملائكة والانبياء على يد الأقباط والروم إلى أن عمل الرسول على محوها وهدم الاصنام حول الكعبة بعد فتح مكة .

وخلال خمس سنوات قبل الوحي بدأت الارهاصات الاولى للنبوة تظهر في وعي الرسول نفسه حيث يرى الرؤيا فتكون مطابقة للحقيقة . [1]

1- اسحق ، ص . 103 . ابن هشام ، 1 . 172 . الطبري 2 . 202 الازرقي ، 1 ، 157 . المسعودي ، 2 . 278 . ابن الاثير كامل ، 2 ، 27 . المقدسي بدء 4 . 139 . اليعمري ، 1 ، صفحة 63 .

⁂ الفصل الثالث ⁂

البعثة النبوية وحياة المسلمين قبل الهجرة

الشرق الأوسط والانبياء

ان الدارس لتاريخ الرسالات السماوية يلاحظ ان منطقة الشرق الاوسط اختصت وحدها تقريبا بظهور الانبياء ، وعلى سبيل المثال فان نوحا وابراهيم ظهرا فيما بين النهرين ، وبعث موسى في مصر ، وعيسى في فلسطين ، وهودٌ وصالح في جزيرة العرب . فمن جهة ، تقع منطقة الشرق الأوسط ، في مركز وسط بالنسبة للعالم القديم وحتى بين هذا والقارة الاميريكية ومن جهة ثانية اختصت هذه المنطقة بنشأة وتطور اقدم حضارات العالم بها ، وهذه الحضارات كان لمعظمها اشعاع مباشر تجاوز محيطها الأصلي .

ولا بد ان يظهر النبي في قوم هم مستعدون حضاريا لتقبل الرسالة التي من شانها ان تخاطب العقل والشعور معا ، ولم يعرف في تاريخ الرسالات السماوية ان نبيا بعث في شعب متوحش يفتقر الى ادنى حد من القابلية الحضارية ولا يعني هذا عدم احتمال ظهور انبياء في جهات اخرى من العالم قد يكون لهم دور محدود زمنا ومكانا ، كما انّه لا يعني ان الرسالة السماوية لا تقوم بمهمتها في كل وسط بشري تصل اليه ، غير اننا نفهم من ظهور الديانات السماوية الرئيسية والباقية : (اليهودية والمسيحية والاسلام) في بلاد مصر والشام وجزيرة العرب والعراق ، ان العوامل السياسية والجغرافية والدينية تضافرت كلها على ان تجعل من الشرق الاوسط نقطة ارتكاز لتوجيه التاريخ العالمي بالنسبة للاجيال اللاحقة ،. ونلاحظ هنا :

1- أن اليهودية لم تحقق لا التحاما سياسيا ما بعد النبيّيْن سليمان وداود ولا انتشالاً للشعوب الوثنية التي عاشت تحت قهر الرومان من جهالتها وعبوديتها للطبقة الحاكمة .

2- ان المسيحية مارست دورا اجتماعيا وسياسا كبير ا في توحيد وتنظيم عدد من الشعوب اللاتينية والجرمانية ، ولكن انقساماتها المذهبية وتنازع السلطة بين الكنيسة

والحكام ، وتضعضع الامبراطوريتين الفارسية والبزنطية دينيا وسياسيا لتناحرهما وتضارب التيارات العقائدية بهما جعل ظهور ديانة سماوية جديدة امرا محتوما .

3- ظهور الاسلام بالذات في شبه جزيرة العرب ليس مجرد تشريف للعرب ولا لقريش وانما ايضا لضرورات منها الضرورة السياسة (والله اعلم حيث يجعل رسالاته) وذلك ان الحجاز حيث بعث محمد عليه السلام خلا من كل نفوذ سياسي خارجي مباشر وما كان للفرس وقت البعثة من نفوذ في الجنوب فضعيف حتى ان حكام الفرس هناك دخلوا في الاسلام اول مادعوا اليه من غير مقاومة ، وبمعنى آخر ، فالرسالة المحمدية نشات داخل شبه الجزيرة من غير مضايقة خارجية ، كما ان المقاومة الداخلية للاسلام لم تنبثق من سلطة سياسية مركزية بل من عدة مراكز قوى اقتصادية وعقائدية انشأت تحالفات عابرة ، ومع ذلك فان براعة الاسلام ليست فقط في انه انتشر بين عدة اوساط داخل الامبراطورتين الكبيرتين وعلى مشهد من حكامهمِا ، بل كذلك في انه زحزح سلطتهما وحل محلهما علي يد جماعات تتركب في اغلبها من الفلاحين والرعاة والصعاليك الذين غير الدين الجديد نمط تفكيرهم وعيشهم .

وهكذا فان معظم شبه جزيرة العرب مجرد قبائل لا تتحد إلا في ظروف قصيرة ومحدودة ، ثم تتفرق بسرعة ، ثم كان هذا الجزء الشاسع من جنوب غربي آسيا لا يخضع لتيار مذهبي واحد ، ولا توجهه مصالح مشتركة ، ولذلك تمكنت الرسالة المحمدية من تحقيق انتشار سريع نسبيا داخل شبه الجزيرة . ولو افترضنا ان محمدا عليه السلام بعث في ظل الحكم الفارسي او البيزنطي بصفة مباشرة لوجدت الدعوة صعوبة اشدّ في نشر دعوة الإسلام .

نـــزول الوحـــي

« ياأيـــها المدثـــر قـــم فانـــذر .... »

الوحي تبليغ أخبار او تعاليم إلهيــة بواسطة مـلـك الى نبي او رسـول ، وقـد ورد في القرآن ذكـر الوحي في حـق اشخاص ليسـوا بأنبياء : «وأوحـينا إلى ام موسى ان أرضعيه ...» بل استعمل الوحي في حق مخلوقات حيوانية ، «وأوحى ربك إلى النحل

ان اتخذي من الجبال بيوتا » وإذا لم يكن الوحي لغير الانبياء فهو إلهام من شأنه تقوية مدركات حسية او غريزية أو غيرها من اجل تحقيق فعل لم يهتد اليه الكائن بمبادرة منه ، وليس من ورائه اداء رسالة سماوية الى البشر ، بينما الوحي الى الأنبياء يضع شرائع سماوية أو يذكر ببعض ما حرّف منها ويعيده إلى اصوله ، وفي الناس من ادعوا النبوة عبر التاريخ وبينهم كهان ومشعوذون وسحرة ، كما ان في الناس من تصدر عنهم خوارق وهم أشخاص عاديون وترجع هذه الخوارق إلى اسباب قلما يمكن البت فيها علميا بصورة نهائية .

فالنبي يجب ان يتلقى الوحي ، والرسول يجب ان يتلقى الوحي ويبلغه ، وان تكون له معجزة او اكثر تلائم المحيط البشري الذي يعايشه ، ومن شان المعجزة أن يكون لها تاثير واسع وقد يكون هذا التأثير مستمرا . والرسالة السماوية تخاطب العقل والروح وتضع قضية الايمان بالله وقدرته في أسمى مكان .

وإذا كان الوحي ينزل بطريق ملك الوحي ، فهو ينزل متدرجاً وتسبقه خطوات في حياة الرسول . على ان رسول الاسلام (ص) قد سبقت دعوته إرهاصات كثيرة بعضها سبق مولده بزمن بعيد وبعضها قبيل مولده واخرى فيما بين مولده وبعثه .

اما الإرهاصات البعيدة قبل المولد فهي اكثر من ذلك تبشير به في الانجيل . وإذا كان الانجيل قد كتب في نصوص متعددة وان اربعة نصوص فقط قبلها البابوات فإن إنجيل برنابا الذي اكتشفت نسخته الاصلية بالايطالية في اوائل القرن 18 م أحدث دويا في الاوساط المسيحية ثم نقل إلى العربية مع تحفظ من ناقله القبطي خليل سعاده . وتحدث انجيل برنابا مرارا عن رسالة محمد (ص) وسماه عدة مرات ايضا ، ومن اقواله بشأن مبعث محمد [1] .

«إني على يقين من ان من يبيعني يقتل باسمي ، لان الله سيصعدني من الارض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي ، ومع ذلك فانه لما يموت شر ميتة امكث في ذلك العار زمنا طويلا في العالم ، ولكن ، متى جاء محمد رسول الله المقدس ازال عني هذه الوصمة ...

وقبل مبعث الرسول (ص) تحدث عدد من احبار اليهود ورهبان النصارى عن قرب

1- انجيل برنابا ، ترجمة . خليل سعاده ، ص 172 . وانظر ايضاص 109 . 126 . 146 . 147 . 149 . 170 ، 210 . 211 . 216 . 252 . 300 . 318 .

ظهوره استنادا التى كتبهم الدينية والاناجيل التي منع تداولها بين الجماهير ، وذكرت الروايات الاسلامية بعض هؤلاء كابن الهَيِّبَان وهو يهودي من الشام [1] ، وورقة بن نوفل ابن اسد بن عبد العزى وهو نصراني ضليع في المسيحية وكان ابن عم خديجة ، والنعمان الساري وهو من احبار اليمن [2] ، وزيد بن عمرو بن نفيل وهو ممن حاول ان يرجع الى اصول الحنيفية [3] والراهبان بحيرا ونسطور . وكان من الارهاصات المباشرة ماذكرته عدة روايات بشان تصدع ايوان كسرى وغير ذلك مما ياخذ حيزا مهما من كتب السيرة القديمة التي اهتمت ايضا بقصة سلمان الفارسي وهي تجربة نادرا ما كان لها شبيه في ذلك العصر ، حيث نبذ الشاب سلمان المجوسية وحاول ان يتعرف على المسيحية فنصحه سرا بعض رهبان العراق وآسيا الصغرى ان ينتظر قرب مبعث نبي يعيد دين ابراهيم . ثم كان اتصال سلمان الفارسي بمحمد (ص) بالمدينة ، وهناك اعتنق الاسلام بعد تأمل وتجربة .

اما كيف مهد الله الوحي للرسول ثم كيف كان الوحي ، فان عائشة التي تزوجها الرسول عليه السلام فيما بعد تحدثت عن ذلك بتفصيل وقالت حسبما أورده مسند الامام احمد ثم الصحيحان :

أول مابُدئ (بضم الباء) به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي ، الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، فكان ياتي حراء ويتحنث فيه (يتعبد) الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فاجأه الوحي وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه ، فقال : اقرأ ، قال رسول الله (ص) ماأنا بقارئ ، فأخذني ، فغطني (ضغط علي) حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال : اقرأ ، فقلت ماانا بقارئ ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم ارسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم ارسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق - حتى بلغ مالم يعلم - فرجع بها ترجف بوادره

1- ابن اسحق ، ص 85 . ابن هشام ، 1 . 190 .
2- اليعمري ، س . 74 .
3- الطبري ، 2 . 204 . اسحق ، ص 115 ، 119 ، وانظر ايضا ص 141 .

(اعضاء جسده) حتى دخل على خديجة فقال : زملوني ، زملوني . فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال : ياخديجة مالي ؟ واخبرها الخبر ، وقال : خشيت على نفسي ، فقالت له : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله ابدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل (بفتح الكاف ، المحتاج) ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى اتت به ورقة بن نوفل بن اسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة اخي ابيها ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، وكتب بالعربية من الانجيل ما شاء الله ان يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمي ، فقالت خديجة : اي ابن عم ، اسمع من أخيك ، فقال ورقة : يا ابن اخي ، ما ترى ؟ فاخبره رسول الله (ص) بما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذي انزل على موسى ، ليتني فيها جدعا ، ليتني اكون حيا حين يخرجك قومك ، فقال رسول الله (ص) : أو مخرجي هم ؟ فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به الاعودي ، وان يدركني يومي أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم يلبث أن توفي ، وفتر الوحي .

ونستخلص من هذه الوثيقة ذات الأهمية :

1- ان الرسول قضى فترة طويلة يتفرغ فيها للعبادة ، وكان من عادة قريش ان يتعبد رجالها بحراء في رمضان [1] وكان الرسول يتعبد بهذا الغار ايضا ، ثم استمر على ذلك بعد البعثة لمدة وبهذا يكون الرسول عليه السلام قد شق اول منفذ للتصوف السني وهو بعد في مرحلة إرهاصات الوحي .

2- ان خديجة زوج النبي(ص) اعطت مثالا رائعا في تشجيع الرسول والاخذ بيده .

3- ان أول سورة نزلت من القرآن تناولت وجوب اكتساب المعرفة والقراءة والكتابة ، ولا يوجد هذا مدخلا لأي مذهب أو دين او دستور غير القرآن ، والارتفاع بالمستوى الانساني إلى العلم وإزاحة الجهل عنه بهذه الصورة في ذلك العصر وذلك المكان له اكثر من معنى عميق .

4- أن خديجة تزكي صفات اخلاقية نبيلة في شخص الرسول بعد عشرة خمسة عشر عاما ، ولا يوجد حقل اختبار لأخلاق الانسان أغزر نتائج من الاسرة والاصدقاء وفي كليهما كان محمد الرسول مثلاً فريداً .

1- المقدسي ، البدء والتاريخ . 4 . 141 ، اليعمري عيون ، ص 108 .

ونزل الوحي على الرسول فعلا في رمضان ، وفي ليلة القدر التي هي من العشر الاواخر منه ، وقيل في 17 رمضان ، والأول اصح ، وكان نزول الوحي يوم الاثنين بعد أن ترآءى ملك الوحي للنبي خلال اليومين السابقين دون ان يلقنه وحيا ، وذلك ليهيئه ماديا وروحيا لتقبل الوحي وللخروج من النطاق الانساني الصرف إلى نطاق الصلة الروحية بالخالق عن طريق الوحي .

وما من ريب في ان فترة التعبد لدى الرسول كانت ايضا فترة تأمل في حالة العرب وتخلفهم الروحي والاجتماعي ، ومامن شك في ان الرسالة المحمدية بدأت انسانية في غاية السمو من اول سورة ، لانها تتناول فضل الله على الإنسان بتوجيهه إلى المعرفة والحقيقة ، ليصبح محمد النبي الجديد اسمى نموذج لهذا الإنسان .

ونزل الوحي على الرسول وهو في سن الاربعين على الاصح اي عام 612 م ، وفي رواية ابن هشام [1] ان جبريل اتى الرسول مناما (وهذا قبل الوحي) وقدم اليه كتابا ليقرأ فاعتذر الرسول بعجزه عن القراءة (إلى آخر الرواية التي تكررت يقظة) وكان الرسول بعد ان نزل عليه جبريل قد راوده هاجس مما نزل ، فخشي على نفسه ان يتهم بالجنون بل تساءل حسب رواية ابن اسحق عما إذا انتابه الجنون فعلا [2] ، وجاء الرد فوريا حسب الرواية ، عندما خاطبه جبريل من افق السماء : يا محمد ، انت رسول الله . وابلغه الوحي الالهي :

« ن والقلم وما يسطرون ، ما انت بنعمة ربك بمجنون ... الآية »

ثم انطلق عند ذلك إلى خديجة وقد بعثت في طلبه .

وإذا كان هناك من تداخل قليل بين الروايات بشان نزول الوحي وتفاصيله فلا جدال حول رواية عائشة المذكورة آنفا ، وهي كلها تتفق حول اتصال الرسول بورقة ، كما انها تذكر بالفاظ مختلفة وبمدلول واحد أن خديجة ارادت ان تجرب حقيقة نزول جبريل على الرسول فاثبت لها ذلك ببيتهما ، وهناك اجماع على ان الصلاة فرضت على الرسول لتكون كذلك على المؤمنين به ، مباشرة غداة نزول الوحي لأول مرة حيث لقن الرسول شعائر الوضوء وصلاة ركعتين ثم تعلمت خديجة هذه الشعائر في اليوم نفسه ، وكانت من غير

1- ابن هشام ، 1 ، 220

2- ابن اسحق ، ص 121

شك مطلقا ، اول من آمن به صلى الله عليه وسلم ، وماأرَقّ ما كتبه ابن اسحق بشان دور خديجة في مؤازرة الرسول وتثبيت قلبه إذ يقول : [1]

«وآمنت خديجة بنت خويلد ، وصدقت بما جاء من الله ، ووازرته على امره وكانت اول من آمن بالله وبرسوله ، وصدق بما جاء منه ، فخفف الله بذلك عن نبيه (ص) لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بـها إذا رجع اليها تثبته ، وتخفف عليه ، وتصدقه وتهون عليه امر الناس ... »

وفتر الوحي مدة عن الرسول تجاوزت السنتين [2] فانتابت الرسول الهواجس وحزن لذلك اشد حزن ، فنزلت سورة الضحى تطمئنه وتذكره بنعمة الهداية الالهية وبالكفاف بعد الفقر لانه وجد في خديجة خير معين في حياته المادية .

المؤمنـــون الأولون

إذا كانت خديجة زوج الرسول اول من آمن به والتزم بتعاليمه فان النبي عليه السلام احتفظ بسر الدين الجديد لأخص خواصه في مرحلة لاتقل عن ثلاث سنوات بعد مبعثه ، وإذا كان هناك من الروايات اجماع على اسبقية خديجة ، فهناك ايضا اجماع على ان اول من آمن بالرسول بعدها هو علي ابن ابي طالب الذي اسر إليه الرسول ان ينطق بالشهادتين ويكفر بالاصنام [3] ، وكان علي قد ضمه الرسول الى اسرته ، والأرجح ان بنات الرسول عليه السلام قد اسلمن يوم اسلام علي وكان عمره عشر سينين أو زهاءها ولم يكن قد مضى على اسلام خديجة اكثر من يوم او يومين [4] ، ثم إن مصادر السيرة تختلف بشان من اسلموا بعد علي من حيث الترتيب الزمني ، وكيفما كان الامر ، فخلال الثلاث سنوات المذكورة كان من اسبق الناس بعد خديجة وعلي :

1-حسب ابن هشام ، 1 ، 224 ، واليعمري 1 ، 114
2- ابن هشام ، 1 ، 225 ، وانظر تعليق 7 (ع الرزوف ، ن . ص)
3- ابن اسحق ، ص 137
4- ن . م . ص - 136 - 137

1- زيد بن حارثة من موالي الرسول ، وهو من اسرة عربية ابا وأما ، واسرته بعض قبائل وهو ابن ثماني سنين ثم باعوه رقيقا الى ابن اخي خديجة ثم انتقل الى خديجة فاعتقه الرسول بعد ان استوهبه منها وتبناه [1] الى ان نزلت الآية : «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم . »

2- ابو بكر الصديق ، وهو من اخلص اصدقاء الرسول قبل الاسلام واكثرهم تقديرا لاخلاقه ويلتقي نسبه مع نسب الرسول في جده السادس ، وكان من اوساط التجار ، اشتهر بلينه وحسن عشرته وكان مع هذا شديد الاخلاص للرسول حتى انه بعد ان ترددت اصداء في اوساط قريش عن ان الرسول ندد بعبادة الاصنام وانحطاط الفكر القُرَشِي ، ورد عليه مستفسرا ، فبادر الرسول يدعوه إلى عبادة الله ووحدانيته واتباع تعاليمه ثم قرأ عليه بعضا من القرآن فما لبث ان صدق نبوته من غير مناقشة . ونوه الرسول علانية بموقف ابي بكر هذا والذي كان فريدا ، لأن جميع من دعاهم جادلوه يسيرا اوْ كثيرا غير هؤلاء الذين استهزأوا به أو صدوه أو عاملوه بروح عدوانية . وكان كثير من الناس يتردد على ابي بكر لمجالسته وتفوقه الفكري ، واصبح ابو بكر بمجرد اسلامه اول دعاة الدين بعد النبي عليه السلام ، وهكذا اسلم على يده بنتاه اسماء وعائشة ، كما أسلم عثمان رفيقه في التجارة ، والزبير بن العوام وعبد الرحمان بن عوف وسعد بن ابي وقاص وطلحة بن عبد الله ، وكل هؤلاء كانوا او صاروا تجارا . وكان عثمان اكثرهم يسارا وأما الزبير فكان لا يزال صبيا من اتراب علي ، وهو ابن اخي خديجة ، وكان سعد غلاما في السابعة عشرة ، اما عبد الرحمان بن عوف فكان ايضا من مياسير التجار ومن شجعان قريش ومثله كان طلحة بن عبيد الله الذي عرف بجوده وسخائه . وكل من عثمان والزبير وابن عوف وسعد وطلحة بالإضافة إلى علي استحقوا ثقة عمر بن الخطاب الذي كلفهم بالتشاور في ترشيح احدهم للخلافة بينما كان هو في طريق الاحتضار ، وهم اسبق من بقي على قيد الحياة من المسلمين الاولين .

1- ابن هشام ، 1 . 230 . يعمري ، ص 117

وفي ظرف قصير اسلم على يد ابي بكر أكثر من خمسين شخصا بينهم أسر بكاملها وجالا ونساء وكان فيهم ابو عبيدة عامر بن الجراح وعثمان بن مظعون وخباب بن الارث وهو من الموالي ، وعامر بن فهيرة مولى ابي بكر ، وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم ، وصهيب حليف بني تيم بن مرة [1] .

وهكذا ضمت هذه المجموعة الأولى تجارا وصبيانا ونساء وموالي وفقراء ، وبدخول عشرات من الناس في الإسلام خلال ثلاث سنين يكون الدين الجديد قد اخذ طريق العلانية غير الشاملة لانه مازال في اطار الاسر مع تسارع ملحوظ الى الإسلام في وسَط الموالي لان هؤلاء بحاجة إلى اطار جديد يخولهم حقوقا بشرية واجتماعية كانوا محرومين منها في ظل نظام الرق القرشي الذي كان يقارب انظمة الرق في التاريخ القديم فظاظة وشدة على الرقيق .

3- بلال بن رباح (او ابن ابي رباح) وهو حبشي كان مؤذن رسول الله والمكلف بنفقات بيته وتوفي سنة 20 هـ .

4- ابو ذر الغفاري وهو معروف بجرأته وبنظريته الاشتراكية في رد الاغنياء اموالهم على الفقراء وقد كان لهذه النظرية التي اعلنها في عهد عثمان دوي في الشام وجزيرة العرب ، وآمن ابو ذر مباشرة على يد الرسول بعد محاورة قصيرة بشأن العقيدة المحمدية ، وقيل انه كان موحدا قبل الإسلام . [2]

وكان بين المسلمين جماعة ممن التحقوا فيما بعد بركب المهاجرين بعد ما لقيه المومنون من عداء قريش ، وبينهم عبد الله بن مسعود ، وقدامة واخوه عبد الله ، وجعفر ابن ابي طالب وزوجه اسماء بنت عميس ، وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل وزوجه فاطمة بنت الخطاب وهي اخت عمر بن الخطاب ، وخالد بن سعيد بن العاص وامرأته امينة الخزاعية .

وكان بين النساء من تتقدم للاسلام من غير إذن زوجها ، وبين الرجال من يدخلون الاسلام دون ان تدخل معهم فيه نساؤهم .

1- ابن اسحق ، ص 139 . ابن هشام ، 231 - 237 . المقدسي ، 5 76 - 87 ابن الأثير 1 . 37 . اليعمري ، ص 114 - 122 .

2- ابن اسحق ، ص 141 . المقدسي ، 5 . 93 - 95 .

ولم تكن شعائر الاسلام قد تم بها الوحي إلا جزئيا ، فكان المسلمون الأولون يؤمنون في هذه الفترة بالذات بوحدانية الله ونبوة وسوله محمد ، ويؤدون الصلاة بعد الوضوء . ركعتين ركعتين ويسمعون أو يرتلون ما نزل من القرآن ويتحاكمون الى الرسول في شؤونهم وقضاياهم ويستفسرون عن نوازلهم فتنزل آيات القرآن مجيبة عن استفساراتهم . ونشأ اتصال وثيق بين الرسول والمؤمنين وفيما بينهم لان وحدانية العقيدة ودعوتها إلى التعاون والتآزر حلت محل عبادات متعددة وبعضها عائلي او شخصي ، وقامت دعوة التضامن مقام الفرقة وحمية الجاهلية التي كانت تتحول الى نار عدائية بين الاشخاص اقارب وأباعد . وفي كل حال كانت الجماعة الاسلامية مضطرة ، بحكم قِلَّتها ، إلى التكاثف والتساند ، خصوصا والاطراف المعادية ما زالت في اشد قوتها ومترصدة بالشر للمسلمين الذين يهددون مصالحها وهم ينتمون إلى عدة قبائل . [1]

افشاء الدعوة

بعد ان ارتفعت اعداد المسلمين الذين دخلوا كلهم سرا في الاسلام ، أُمِرَ الرسول عليه السلام بالجهر بالدعوة والعمل على جلب اقاربه الى الاسلام ، حيث نزل قوله تعالى " فاصدع بما تومر ، واعرض عن المشركين "وقوله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » . ومن الوجهة العَمَلية لم يكن الاسلام سرا قبل هذه الفترة بعد ان اعتنقته العشرات ، فقد عرفت قريش وغيرها من قبائل العرب ان محمدا يدعو الناس إلى الاسلام سرا ، وتغاضت عن حركته لانه لم يذهب بعيدا في التنديد بالشرك والأوثان والتخلف العقائدي ، أما الدعوة العلنية التي أمر بها الآن فهي مجابهة مباشرة للوثنيين وزعمائهم وحرب على الذين يهتمون بالحياة المادية متناسين او جاهلين ان هناك بعثا جديدا وحسابا بعد نهاية الكون ، حيث يتميز الإسلام بين كل العقائد بالافاضة في شأنه وتلوينه بألوان من الهول والشدة على المخالفين للتعاليم الالهية ، بينما يحظى المومنون بجنان وحياة أخروية رغيدة ودائمة .

1- اليعمري ، عيون الاثر ، ص 114 - 122

والحق ان الدعوة الاسلامية التي اخذت طريقها سرا ثم جهرا ، هي من بعض وجوهها تمهيد للبيعتين ، الخاصة والعامة ، واللتين عرفتهما الخلافة الاسلامية فيما بعد وانطلاقا من العهد الراشدي .

غير ان الجانب الشعائري والعقائدي الصرف لم يكن وحده سببا في غضب قريش من الدعوة الجديدة ، لقد كان هناك سبب آخر حيوي بالنسبة لجماعة بني امية بصفة خاصة فبعد وفاة عبد المطلب انتقلت إدارة شؤون الحج إلى هذه الأسرة ولم يعد البيت الاموي يطيق أن يرى زعامة مكة تنتقل من يده باية صفة ، لذلك لا نجد من البيت الأموي خلال فترة ماقبل الجهر بالدعوة الا واحداً دخل الإسلام على إثر حلم مزعج (وهذا شئ يهتم له العرب والسّاميون عامة) وكان هذا المسلم الأموي هو خالد بن سعـــيد بن العــاص [1] ، والكل يعرف متى اسلم عَمْرو بن العاص ومتى اسلم ابو سفيان ، والكل يعلم موقف معاوية وخلفائه من البيت الهاشمي الذي ما لبث ان حول الخلافة إليه . إن ظلال فترة ما قبل الإسلام ، خيمت على قرن من التاريخ بعدها ولكن الاسلام عرف في ظل الحكم الأموي عصرا حافلا في مجال السيادة التجارية والاقتصادية عبر البحر المتوسط .

وكان المسلمون قبل افشاء الدعوة يخفون صلاتهم فيتوجهون إلى الشعاب لاقامتها جماعات او فرادى ، وفوجئ بعضهم غير ما مرة وهم يؤدون صلاتهم سرا ، حتى ان سعد بن ابي وقاص باغتته جماعة من قريش وهو يصلي مع بعض الصحابة ، ووقع بين الفريقين جدل عنيف أدّى إلى جرح مشرك على يد سعد ، وقالوا ان هذا اول دم هُرِيقَ في الإسلام [2] ، وكان كجميع الاشتباكات التي خاضها المسلمون فيما بعد ضد الوثنيين واليهود بجزيرة العرب دفاعا عن النفس والعقيدة .

واجتازت الدعوة العَلَنية مراحل عسيرة بمكة :

1- موقف بني عبد المطلب :

تنفيذاً للتعاليم الالهية التي اقتضت ان يبدأ الرسول في هذه المرحلة بـدعوة اقاربه

1- ثم اسلم اخوه أبان بعد ذلك

2- ابن اسحق ، ص 145 ، الطبري ، 2 216

وهم اولى الناس بان يؤازروه مبدئيا فقد دعا الرسول كل اعمامه ومن ضمّته اسرة بني عبد المطلب من الرجال بوصفهم ارباب اسر ، وهم زهاء اربعين رجلا ، وَأَوْلَمَ لهم وليمة كانت بسيطة المطعم والمشرب ولكن القوم ارتاحوا لها ما عدا ابا لهب وكان اشد الناس عليه حقدا حتى قال : لَقِدْماً سحركم صاحبكم ، (أي سحركم صاحبكم منذ وقت طويل) . فعدل الرسول عن الخوض في موضوع الدعوة ، ثم أَوْلَمَ لهم مرة ثانية وكشف عن رغبته في اعتناقهم الاسلام ودعاهم الى ان يتولى احدهم مؤازرته نيابة عنهم فيكون له أخاً ووصيا وخليفة ، فلم يتقدم احد إلا علي ، وتقول الرواية المسندة إلى عبد الله ابن عباس ان الرسول قال عندئذ : هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم ، ومهما كان من احتمال ان تكون اليد الشيعيّة وراء هذه الرواية فان مما لامراء فيه ان عليا كان بالرغم من صباه حينئذ على قدر كبير من الجرأة والشجاعة ويكفي انه اعلن اسلامه متحديا كل اقاربه بما فيهم والده .

واستخف القوم بقول الرسول في علي وقالوا لابي طالب : قد أمرك ان تسمع لابنك وتطيع ! (1)

وروي عن ابن عباس ان الرسول صعد الجبل يوما وهو يشرف على بطحاء مكة فنادى في قريش : ياصباحاه ! فاجتمعت قريش فقال : ارايتم أن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ، اكنتم تصدقونني ؟ قالوا نعم ! قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ! فقال ابو لهب : تبا لك ، الهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى «**تبت يدا ابي لهب** ... السورة .

واسم ابي لهب عبد العُزّى ، وامرأته التي ندد بها القرآن ايضا هي أم جميل أروى بنت حرب بن أمية . وكما قال كثير ، كانت عونا لزوجها على كفره وجحوده وعناده (2) .

وهكذا جسمت هذه المرأة عداء البيت الاموي الذي تنتمي اليه ، لدعوة الرسول واستطاعت ان تتخذ من زوجها عم الرسول وسيلة شغب يلاحق الرسول حيثما حل في الاسواق والمجامع ويتهم الرسول بالسحر ويجعل منه شخصا ضالاً عن عبادة القوم ، وهكذا يتستر البيت الاموي وراء عدد من الاشخاص في حملته على الاسلام قبل ان يتولى هذه الحملة بشكل مباشر وصريح العداء .

1- السبري ، 2 ، 217 .

2- ابن اسحق ، ص 156 .

وكانت تعلم قريش مكانة ابي طالب لدى الرسول ، فهو عمه وكافله والرسول يجله ويقر بفضله ، وابو طالب ساير قريشا ظاهريا على الأقل ، في التزام عقائدها وتقاليدها ، ولذلك كانت تامل في ان يكون له تاثير على الرسول إذا هي خاطبته في شأنه ، فاوفدت عنها اليه وفدا اظهر اعتزازه لابي طالب ، وشكا إليه ما تجده قريش من مشاعر القلق على عقيدتها وما يقوم به الرسول من سب لآلهتها ودينها ، ثم أنذره الوفد بتحمل ما يترتب من عواقب خطيرة إذا لم يعمل على الحد من دعوة الرسول ووعدهم ابو طالب خيرا ، ثم كان بينه وبين الرسول حوار معروف ، ودعاه الى ان يتحاشى المكروه من قريش ، فقال قولته الشهيرة : «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر ، ما تركته حتى يظهره الله او اهلك دونه . »

وبكى الرسول وهو مع ثبات جأشه يحس كأن عمه خاذله ، ثم هم بالانصراف فاستوقفه ابو طالب وقال : امرك ، فافعل ما احببت ، فوالله لا نسلمك بشئ ابدا . (1)

وتشجع الرسول بوعد ابي طالب ، ولم يكن مجرد وعد ، فقد تغير بعده موقف بني هاشم تدريجيا ، واصبح بنو هاشم في النهاية كلهم في صف المعارضة لباقي قريش وبالاخص لزعمائها الامويين ، وتطلب هذا شيئا من الوقت والصبر ، وتعين على ابي طالب ان يتصدى للدفاع عن الرسول ، وجاء المطعم بن عدي باسم قريش يطلب من ابي طالب أن يسلم محمدا لتقتله قريش ، وتعطيه مكانه عمارة بن الوليد بن المغيرة ، فسخر ابو طالب من هذا العرض الغريب قائلا : «تعطونني ابنكم أغذوه لكم ، واعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله ما لا يكون ابدا . (2)

2- موقف سائر قريش قبل مقاطعة بني هاشم :

بعد ان فشلت سياسة الحوار التي فتحت بابها قريش على اساس افكارها هي وبعد ان يئست من تاييد ابي طالب بتسليمه الرسول كما طلبت ، قامت بحملة واحدة ، فانقض كل منها على من ضمته أسرته من المسلمين وبخاصة المستضعفين ، فآذوهم اشد اذاية ، وقام بنو هاشم باتخاذ موقف صريح الى جانب الرسول (1) . وكان من صور الإذاية ،

1- ابن اسحق ، ص 154 ، ابن هشام ، 1 . 238 241-
2- ابن هشام ، 1 . 240 - 241

الاستهزاء واتهام الرسول بالجنون ، وَوَسْمُ القرآن بالسحر ، وتعذيب المومنين .

ومما لقيه الرسول من الأذى والمضايقة ان قريشا كانت تتحرش به كلما اقبل يطوف بالبيت ، ووثبوا نحوه مرة وقد هموا بالفتك به ، وخنقه عقبة بن ابي معيط خنقا شديدا حتى اخذ ابو بكر يبكي ويقول : اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله ؟

ووطئ ابو جهل عنق الرسول مرة وهو يصلي فكان في ذلك الآية الكريمة «ارايت الذي ينهى عبدا إذا صلى ؟ . . . »

وكان النضر بن الحارث ممن اطلعوا بالحيرة على شئ من تاريخ الفرس واخبارهم ، فإذا أتى الرسول بذكر الله ، اخذ النضر يتحدث بما عرفه من اخبار الفرس قائلا : هل حدثكم محمد بمثل هذا ؟ وذكر ان عدة آيات ورد فيها لفظ اساطير الاولين كان يقصد بها احاديث النضر هذا .

وحاولت امرأة ابي لهب ان تضرب الرسول بحجر ، وكان لابي جهل محاولة مثلها فنجا الرسول بمعجزة روحانية ، حيث انخدع بصر المراة فلم تر إلا ابا بكر ، وتمثل لابي جهل فحل هائج يهم بالفتك به فعدل عن شره ذاك مرعوبا .

وَرُوِيَ أن ابا جهل سار المغيرة بن ابي شعبة يوما وقال عن الرسول ورسالته : «والله اني اعلم ان مايقول حق ، ولكن بني قصي قالوا : فينا الحجابة ، فقلنا : نعم ، قالوا : فينا الندوة ، قلنا : نعم ، قالوا : فينا اللواء ، قلنا : نعم ، قالوا فينا السقاية ، قلنا : نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا (أي تولوا وتولينا بعدهم اطعام الحجاج) حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبي ، فلا والله لا افعل !

وهذا التصريح من جانب ابي جهل الاموي هو مصداق لما ذكر آنفا عن موقف البيت الاموي .

وكان أمية بن خلف الجمحي يشتم الرسول علانية ويلمزه حتى نزل فيه قوله تعالى : «ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا ، الآية » . (1)

1- ابن اسحق ، ص 156 .

ومن مواقف الاستهزاء بالرسول (ص) ما كان بعضهم يلقيه من أسئلة تهكمية ، فكان الاسود بن عبد يغوث وهو ابن خاله يسأله : اما كُلِّمْتَ اليوم من السماء يا محمد ؟ وكان يشير إلى فقراء المسلمين بقوله : هؤلاء ملوك الارض الذين يرثون ملك كسرى !

وكان الوليد بن المغيرة يسمع من اوصاف قريش للرسول قولهم كاهن ومجنون ، وشاعر فيقول : اصلح ما قيل فيه ساحر ، لانه يفرق بين المرء واخيه وزوجته ! وفيه ورد قوله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيدا ...» الآية ....

ولما مات القاسم ابن الرسول (ص) قال العاص بن وائل : ان محمدا أبتر ، لا يعيش له ذكر ، وفيه وردت الآية : « إن شانئك هو الأبتر » .

وكان بعض السهميين يقولون للرسول إذا لقوه : اما وجد الله من يبعثه غيرك ؟ ! (2) .

ولولا ماكان يلقاه الرسول من حماية أبي طالب وبني هاشم لكان اشد تعرضا للإذاية ، حتى أنهم تآمروا في النهاية على اغتياله بعد موت عمه .

اما المومنون الذين لقوا الكثير من العذاب فاغلبيتهم الساحقة من الموالي والرقيق . وكان واضحا ان قريشا تمارس التمييز العنصري حتى في اختيارها لمن تعذبهم ولمن تؤذيهم من غير تعذيب ، ومن بين المعذبين بلال بن رباح الحبشي الذي اعتقه ابو بكر قبل ان يخدم الرسول ، وكان بلال في خدمة أمية بن خلف الجمحي فكان يعذبه في الرمضاء ويلقي عليه صخرة كبيرة على صدره ثم يقول : لا ازال هكذا حتى تفكر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيجيب بلال : أحد أحد ، إلى أن عوض ابو بكر أمية عنه بغلام اسود واعتق بلال .

ومن المعذبين عمار بن ياسر العنسي وأبوه وامه ، وكان الرسول يمر بهم وهم يعذبون في الرمضاء ، (شدة الحر) ويقول : صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة . ومات ياسر تحت العذاب ، وجابهت امراته ابا جهل بكلام قارص فطعنها بحربة فماتت ، وشددوا العذاب على عمار حتى كاد يهلك فاظهر رجوعه عن الاسلام ثم لجأ إلى الرسول باكيا ، وبذلك نزلت الآية : «إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

1- ابن اسحق ، ص 210 ، 229 . ابن هشام . 1 ، 258 ، 246 -

2- ابن اسحق ، ص 273 . ابن هشام 2 . 40 . ابن الأثير ، كامل ، 2 . 47 مقدسي 4 . 155.

ومن المعذبين خباب بن الارث وكان ابوه من العراق ، وصهيب بن سنان الرومي ، وعامر بن فهيرة ، وكل المذكورين من هؤلاء المستضعفين كانوا من الموالي الذين كانوا في وضعية اجتماعية دُنيا ، فصار مقامهم كبيرا بعد ان اشتد عضد الاسلام [1] .

وكان من الاماء من لقين نصيبهن من العذاب ، لُبَيْنَة ، وكان عمر بن الخطاب قبل اسلامه يعذبها حتى تظهر ارتدادها ، وزهيرة وكانت لبني عدي ، وعذبها ابو جهل حتى عميت ، واستردت بصرها بعد قليل ، والنهدية مولاة امراة من بني عبد الدار وكانت تعذبها بنفسها ، وأم عُنيس أو عبيس ، وكان يعذبها الاسود بن عبد يغوث ، وكل هؤلاء الاماء وغيرهن أعتقهن ابو بكر بعد ان ابتاعهن من ملاكهن [2] .

وبينما كانت انواع الاذى والعذاب تصب على المومنين لجأ المشركون الى وسيلة من وسائل الاستفزاز والتعجيز كانت تستخدم مع الرُسل قبل محمد (ص) ، وهي الجدل حول العقيدة ثم مطالبة الرسول باثبات نبوته عن طريق معجزات متتالية وبعضها ليس مما يمكن تصوره ، فكان من ذلك أن الشاعر عبد الله بن الزِّبَعري وكان معاديا للرسول عندما سمع الآية : «إنكم و ما تعبدون من دون الله حطب جهنم انتم لها واردون «سأل الرسول : أكل ما يُعْبَد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، والملائكة تعبد عزيراً والنصارى تعبد عيسى ! فقال الرسول : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، وجاء القرآن ينقد الرسول من حيرة الجواب : إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها (اي عن جهنم) مبعدون وبذلك اخرج عيسى وعزير وأحبار اهل الكتاب ممن تمسكوا بوحدانية الله وإنما الذنب على من ألهوهم أو عبدوهم [3] .

وكان لاسرة بني الحضرمي عبد نصراني يدعى (جبر) يبيع حول المروة بعض ما يشتريه الطائفون ، فكان الرسول يجلس اليه من وقت لآخر ، فقالت قريش إن كثيرا مما ياتي به محمد ما هو إلا من جبر النصراني، فنزلت الآية : «ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر ! لسان الذي يلحدون اليه اعجمي ، وهذا لسان عربي مبين» . أي ان الوحي

1- ابن اسحق ، ص 189 . ابن هشام ، 2 . 29 . ابن الاثير ، كامل ، 2 . 45
2- ابن الأثير ، 25 ، 47
3- ابن هشام ، 2 ، 7

الذي ينزل على الرسول انما هو عربي فصيح ومعجز ، بينما جبر هذا كانت لغته اجنبية وفي عربيته رطانة من غير شك .

وجرى مرة حوار في المسجد (البيت الحرام) بين الرسول وعتبة بن ربيعة وقد انتدبته قريش ليتكلم باسمها مع الرسول ، وكان الحوار طويلا ، وعرض المندوب القرشي على الرسول المال والسيادة في قريش ، وعرض ان تتولى قريش معالجته اذا كان يترا ءى له جن (١) .

واغلب الظن ان اكثر هذه العروض كان الغرض منه ايقاع الرسول في فخ التشهير به اذا هو قبل ، وأنى له ان يقبل وقد اتى بما حطم اوهامهم ؟

فلما فرغ عتبة من عروضه ، قال الرسول : افرغت يا ابا الوليد ؟ قال ، نعم فمضى الرسول يقرأ قوله تعالى : «**باسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا ، الخ** ... » ثم سجد الرسول عند موضع السجدة ، وقال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك !

وبهت عتبة مما سمع ورأى ، ثم راح يقص على قريش ما سمعه وقال : خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونَنّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ... [1] .

ثم كان من عروض قريش على الرسول ان يمتعوه بالمال والنساء على ان يكف عن شتم آلهتهم ثم عرضوا عليه ان يعبدوا الله معه سنة ويعبدوا واللات والعزى سنة ! فأوحي اليه : قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ...[2]

ولما أصبحت المغريات لا تؤدي الى نتيجة امام موقف الرسول دعوه الى ان يثبت حجته بتحويل قفار العرب الى جنات واجراء الانهار بها كأنهار الشام والعراق وان يلتمس من ربه على الاقل ان يغنيه بالكنوز والقصور فلا يلتمس معاشه مثلهم وطلبوا منه ان يسقط السماء قطعا ، وان يرقى الى السماء بسلم وياتي باربعة من الملائكة ياتون بصك

1- ابن اسحق ، ص 197 ، ابن هشام ، 1 ، 261

2- الطبري 2 . 225

إلهي منشور يثبت صدق نبوته . وطلب المكيون آية من الرسول تثبت قدرة الله وصدق دعوى نبيه ، فحدث انشقاق القمر حسبما ورد في سورة القمر ، وتوارد المسافرون على مكة فكلهم اثبت انشقاق القمر [1] .

ولما كان هذا الحدث من الوجهة العلمية فريدا في بابه ، فبقطع النظر عن المعجزة الروحانية التي ترتفع عن المعادلات الرياضية والتجارب العلمية ، يمكن كفرضية ان تسند هذه الظاهرة الى زلزال شق سطح القمر أو إلى نبش جزئي لأحداث الكون في نهايته ، حيث يحصل تغيُّر كلي في ظواهره . وفي هذه الحال هناك اختزان لاحداث المستقبل في اطار القدرة الالهية التي لا نهاية لها ، ومعنى هذا ان الله تعالى يقدم للمعاندين جزءاً قليلا ومحدودا وبصورة تلائم مستواهم الفكري ، من علائم نهاية الكون ، وهذا هو السر في قوله تعالى في نسق مطرد : **اقتربت الساعة وانشق القمر** .

لكن بالرغم مما شاهده الناس من انشقاق القمر ، وبينهم قريش ، قال هؤلاء هذا سحر مستمر ، ولجوا في عنادهم لضيق افقهم الفكري وتشبثا بمصالحهم التافهة .

3- هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة

لم تنجح محاولات قريش لوقف انتشار الاسلام ، ولا لصد الرسول عن نشره ، فازدادت من ضغطها على المومنين تحاول صدهم عن دينهم . ويبدو انها تمكنت جزئيا من عرقلة عدد من المومنين عن ممارسة شعارائهم ، ولا جل ذلك قرر الرسول عليه السلام ان يعرض على من اشتدت عليهم الفتنة ان يهاجروا الى الحبشة ، وذلك في السنة الخامسة للبعثة ، ولأول مرة في التاريخ البشري تتخذ الهجرة لا كحدث طارئ في التاريخ ، بل تشريعا يسمح للأفواج البشرية المقهورة في عقيدتها ان تتخذ من تراب بلد آخر موطنا لها ، أمنا على معتقداتها وحياتها ، ولذلك نجد الهجرات الاسلامية في اقصى حدود الاضطرار تتكرر عبر التاريخ والاقطار ، ولقد كان باستطاعة المسلمين خلال عشر سنوات

1- ابن اسحق ص 179 - . يعمري . 1 ، 142 .

من الاضطهاد لا قوها بمكة ان يلجأوا الى العنف نهبا وسفكا للدماء وغصباً للاموال في عصابات تحول حياة المشركين الى جحيم ، ولكن الحركة الاسلامية وقفت بكل ثقلها الى جانب السلام والاقناع والتسامح .

وكانت الحبشة من الاقطار المجاورة التي يتعامل معها العرب ، وبالاخص قريش واهل اليمن ، وكان في خدمة قريش عدد كبير من الاحباش من بينهم بلال ووحشي . وتجهّزَ للسفر من طريق بحر القلزم (البحر الاحمر) مجموعة قليلة في البداية كانت مؤلفة من أحد عشر رجلا واربع نسوة [1] ، وطمأنهم الرسول على انهم سيجدون في مهجرهم الأمن على دينهم كما ان لهم ان يبتغوا من فضل الله في حماية النجاشي (اصحمة) ، وكان بين المهاجرين في هذا الفوج ، عثمان بن عفان ومعه رقية زوجته وهي بنت الرسول (ص) ، وعثمان بن مظعون واليه وكل الاشراف على شؤون المهاجرين والزبير بن العوام وعبد الرحمان بن عوف وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب وابو حذيفة عتبة بن ربيعة وقد فر بدينه من والده ومعه زوجته سهلة بنت سهيل وهي ايضا نجت بدينها من والدها [2] .

وتوجه الفوج المهاجر سراً من الشُعيبة جنوب جدة في سفينتين تجاريتين ، وكان سفرهم في رجب من السنة الخامسة للبعثة ، وبعد سفرهم بثلاثة اشهر وقع حادث جديد ، او اختلق على يد قريش فان الرسول حزن لفراق جماعة من المومنين وذكر الطبري [3] انه كان يوما بين جمع كبير من قريش فنزل عليه من الوحي " والنجم اذا هوى . . .(الآية) فلما بلغ : أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الاخرى ، اضاف باغراء من الشيطان : تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لتُرتَجَى ، ثم اتم السورة وسجد بعدها فسجد معه القوم مبتهجين وبينهم الوليد بن المغيرة ، وقال الناس ان قريشا اسلمت على اساس تمجيد الرسول للآت والعزى واعتراف قريش بان الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ، فتوافد عدد ممن هاجروا الى الحبشة وبينهم عثمان وزوجته فوجدوا غير ماسمعوا ولم يدخلوا الا بجوار مضمون .

1- ابن الاثير كامل ، 2 . 52 . مقدسي . بدء 4 . 149

2- ابن الاثير . م . و. ص . مقدسي . . ن . م . ص اليعمري عيون . 144 . ابن هشام 1 . 281

3- الطبري . 2 . 227 .

وحسب الرواية نفسها اشار القرآن الى هذه البلبلة بقوله تعالى «وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍ الا إذا تمنَّى القى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته .»

ثم جاء الوحي بإلغاء (تلك الغرانيق العُلى وان شفاعتهن لترتجى) [1] والاحتجاج بان هذه المقولة مدسوسة على الرسول لمجرد ان قريشا لفقتها انما هو احتجاج ضعيف وعاطفي ؛ ألم يرد النسخ في القرآن ؟ الم يقبل القرآن ان يسكر المومن خارج اوقات الصلاة ثم انتقل لتحريم الخمر بتاتا ؟ فالنسخ يهيئ لحكم جديد يلغي قديما ، اما تزكية الأصنام والاوثان فحالة فريدة تلغي ما قبلها وما بعدها وهو وحدانية الله ، والقرآن كله تزكية للوحدانية ، فمن هنا يأتي الدس والتحريف : والاحتجاج بالآية القرآية : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍ إلخ ... الآية هل يعني بالذات ان الرسول عليه السلام تمنى ان يهدي الله قومه بتزكية اوثانهم ؟ فكيف نحمل القرآن من التأويل مالا يحتمل ؟

وكان بين العائدين إلى مكة عثمان بن عفَّان وزوجته رقية ، وابو حذيفة ابن عتبة ، وذلك في شوال من السنة المذكورة ، فلما تحققوا من بطلان ما اشيع من اسلام قريش ضاق بهم الامر ، واشتد الضيق عليهم على غيرهم من المسلمين فدعاهم الرسول الى الهجرة الى الحبشة وكانت تلك هجرة ثانية في السنة الخامسة للبعثة ايضا ، وانضم الى المهاجرين الاولين فوج كبير فكان الجميع 83 رجلاً و18 امرأة بينهم أربعة من البيت الاموي وعدد كبير من غيرهم كبني عامر وبني جمح . والأكثرون من بني عبد مناف ، وذكر اصحاب السير اسماءهم مع التردد في قليل منهم كعمار بن ياسر [2] .

ولم ترتح قريش لمقام المسلمين بالحبشة فبعثوا الى النجاشي وفدا فيه عمرو بن العاص وعمارة ابن الوليد وعبد الله بن ابي ربيعة (او ابن ابي امية) وحملوهم هدايا الى البطارقة والملك ثم استقبلهم النجاشي فطلبوا منه اعادة المسلمين الى ارضهم لانهم اتبعوا دينا مبتدعا ، واثر ذلك دعا النجاشي وفدا من المسلمين ليستمع اليهم بشان النبي ودينه الاسلام ، فتحدث باسمهم جعفر بن ابي طالب ووصف اوضاعهم العقائدية قبل الاسلام ومادعا

1- طبري 2 . 226 - 228 . واليعمري ممن طعن في هذه الرواية (ص 151 . 152)
2- د ابن اسحق ، ص . 223 . ابن هشام 2 . 281 . اليعمري 145 .

اليه الاسلام من تجنب سفك الدماء والعمل على صلة الرحم ومن صوم وصلاة وما إلى ذلك من شعائر الدين ، وقرأ جعفر بن ابي طالب سورة مريم فكان لها تاثير عميق في نفس النجاشي والبطارقة ، ثم قرر حماية المهاجرين بالرغم من تدخلات وفد المشركين ، ورد هداياه وطرد الوفد المذكور ، واثر ذلك وقعت ثورة أحد الامراء على النجاشي ، وخشي المسلمون على انفسهم عاقبتها ولكن النجاشي (اصحمة) ما لبث ان قمعها .

وكان لوجود المهاجرين بالحبشة وقيامهم بالدين واستقامتهم في السلوك والمواطنة وقع في نفس النجاشي ، أو هكذا يروي ابن اسحق [1] ضمن روايات اخرى حيث انه بعث وفدا من الرهبان اتصلوا بالرسول في مكة فاستمعوا الى القرآن من الرسول حتى بكوا تأثرا (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع) . ولا ريب ان حوارا طويلا جرى بين الوفد الكَنَسي والرسول (ص) غير ان هذا الوفد ربما كان المقصود به وفد نصارى نجران ، وكيفما كان الامر فاتصال الرهبان بالرسول ثابت بنص القرآن ، وهذا النص ايضا يؤكد دخول الوفد المذكور في الاسلام .

وبعد هجرة الرسول الى المدينة توافد مهاجرو الحبشة عليها تباعا وآخرهم جعفر بن ابي طالب واسرته في السنة السابعة للهجرة .

واعتبر المؤرخون هجرة الحبشة هجرتين ، أولاهما قبل اشاعة اسلام قريش والثانية بعد بطلان الاشاعة ، وبينهما اشهر قليلة ، وبعد هذه الهجرة لم يبق مع الرسول بمكة الا حوالي اربعين من المومنين .

اسلام حمزة وعمر [1]

خلال هجرة المسلمين الى الحبشة اسلم في وقت متقارب كل من حمزة بن عبد المطلب عم الرسول (ص) ، وعمر بن الخطاب ، وقصة اسلامهما معروفة ، نلخصها في ان مولاةً لعبد الله بن جدعان التّيمي لاحظت من مسكنها عند الصفا ابا جهل يشتم الرسول ويعيب

1- ابن اسحق ص 171 و 181 . ابن هشام ، 1 . 260 و294 . ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 56 - 57 . اليعمري ، 1 ، 130 ، 151 .

دينه ، ونال من معنويته حتى حصل للرسول من ذلك غم عظيم ولم يكلمه ثم انصرف ، ومر بعد ذلك حمزة فـأخبرته المراة بما سمعت ، وتقدم حمزة غاضبا نحو مجلس الجماعة من قريش وفيه ابو جهل ، وضربه بقوسه فشجه وقام بنو مخزوم لينصروا ابا جهل وقالوا : ما نراك ياحمزة إلا قد صبأت ! فقـال : وما يمنعني وقد استبان لي منه ذلك ، وانا اشهد انه رسول الله وان الذي يقول حق ، فوالله لا أنزع ، فامنعوني ان كنتم صادقين ، فقال ابو جهل : دَعُوا أبا عمارة ، فإني والله لقد سبَبْتُ ابن اخيه سبا قبيحا ، وثبت حمزة على اسلامه واستشهد في غزوة احد ، ولما اسلم شجع الرسول على الثبات واظهار الاسلام .

واما عمر فكان تاجرا متوسط الحال يتنقل كثيراً الى الشام ، وروى ابن اسحق قصة اسلامه في شكل مؤثر لاتصنُّع فيه وملخصها ان عمر سمع عن اسلام اخته وزوجها سعيد ابن زيد بن عَمْرو بن نفيل ، وكانا يستضيفان بامر الرسول ، خباب بن الأرث وكان يقرأ عليهما سورتي طه والتكوير ، ففاجأ الثلاثة والشر باد في وجهه ووقع حوار بدأ عنيفا حتى شجّ عمر اخته فنطقت بالشهادتين وقالت : ائتمر امرك واقض ما انت قاض ، فطلب منها عمر الصحائف فدعته الى الطهارة الكبرى ، ثم اطلع على ما في الصحائف وأعلن اسلامه على الفور ، فكانت مفاجأة ذات وقع سيئ على قريش . وإذا كان الرسول والاسلام قد تعززا بحمزة وهو معروف بجرأته وشجاعته فقد ازداد منعة بعمر الذي كان الرسول يتمنى اسلامه أو اسلام ابي جهل حتى يعتز الإسلام بأحدهما ، فكانت المبادرة من عمر الذي قال عبد الله بن مسعود عن اسلامه :

«كان اسلام عمر بن الخطاب فتحا ، وهجرته نصرا ، وامارته رحمة ، وما استطعنا ان نصلّي ظاهرين عند الكعبة حتى اسلم عمر رحمه الله » .

وقد انضم حمزة وعمر إلى الركب الاسلامي في السنة الخامسة للبعثة اثناء الهجرة الآولى للحبشة وكان عدد المسلمين آنذاك حوالي 53 منهم 13 امراة وكان المهاجرون الاولون من بين هذا العدد .

4- حصار بني هاشم ومقاطعتهم (1)

كان من غرائب اوضاع قريش انها وقد فقدت وحدة العقيدة وانشاء نظام سياسي يمكنها من ضم شمل العرب حوله ، استطاعت غير ما مرة ان تتحالف فيما بينها لتحقيق هدف خاص بالرغم من أن انقساماتها العائلية تجعلها تفتقر الى التوازن في رعاية مصالحها المشتركة . وهكذا فعندما فرغت جُعْبة قريش من كل التدابير التي تجعل حياة الاسلام والمسلمين في خطر من حيث حرية ممارسة عقيدتهم ونشرها ، قررت ان تحول قهرها الى اسرة بني هاشم كلها رغبة في ان تسلم محمدا وتتخلى كليا عن حمايته بالرغم من ان جلهم بقي على شركه ، فعقدوا ميثاقا حرره ، وهذا من سخرية القدر ، واحد بني هاشم وهو منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم حسب ابن هشام : وقد انفلت اسم منصور من مصادر اخرى ولا يعقل من حيث الحجم التاريخي ، ويظهر ان اسماء المتحالفين سجلت كلها في الميثاق او الصحيفة كما سميت ، وتضمن الميثاق التزام المتقاعدين ان لا يصاهروا بني هاشم ولا يتعاملوا معهم بيعا ولا شراء ، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة زيادة في اقرار قدسية الميثاق ، فما كان من أبي طالب إلا ان عمد مع بني عبد المطلب الى التضرع الى الله بين استار الكعبة حتى يرفع الظلم والأذى عن المظلومين ، ثم ذهب إلى أحد شعاب مكة وعرف فيما بعد بشِعْب ابي طالب ، ومعه الرسول وسائر بني عبد الطلب حتى يتجنبوا اذى مباشرا من قريش ، لكن هؤلاء قطعوا عنهم التموين فما كان يدخل الا قليل وخفية ، وكانوا يخرجون الى الموسم فيغلي عليهم تجّاره بتحريض من قريش ، واشتد الجهد والبلاء على بني هاشم وبينهم اطفال يتضورون جوعا وألما حتى فشا بين جمهور قريش ما حل بهم واخذت اصوات الاستنكار ترتفع ، ومن الروايات كما عند اليعمري من يذكر ان هجرة الحبشة الثانية لم تحدث الا خلال مقام الرسول بالشعب ، ومهما يكن من شئ ، فإن كاتب الصحيفة الذي اختلف بشأن اسمه الرواة كان اول من عمد الى نقض الصحيفة التي اتت الأرضة على ما فيها من عبارات الظلم والقطيعة وتركت عليها اسم الله ، وقيل حدث

1- ابن هشام ، 2 . 3 طبري 2 . 228 . ابن اسحق ، ص 156 - 165 . ابن هشام ، 2 - 14 - 21 ، اليعمري ، 1 . 157 . الكامل ، 2 - 59

العكس اي ان الارضة اثبتت الفاظ الظلم وحدها وأول ذلك تأويلا روحيا بان لا يقترن اسم الجلالة بصفات لا يمكن ان تقرن به ، وذكر ان مابلغ اليه المحاصرون من جهد اوقع الرحمة في قلب اكثر المتحالفين حتى ان ابا سفيان تغاضى عن بعض احمال التموين التي وصلت الى المحاصرين قبل تحريرهم بقليل من الايام .

وحسب رواية الطبري وابن اسحق فقد تم اعدام الصحيفة ، وبالتالي نقض الميثاق بمبادرة خمسة من القرشيين وهم هشام العامري وزهير المخزومي والمطعم بن عدي وزمعة الاسدي وابو البختري وليس في هذه الرواية خلط بين كاتب الصحيفة وهشام العامري كما في غيرها ، ولذلك فهي اقرب الى الحقيقة .

وبعد نقض الميثاق خرج المحصورون ليبدأوا نوعا جديدا من النضال في اطار خدمة الإسلام ، وكان الحصار قد بدأ في السابعة من بعثة الرسول وانتهى في العاشرة منها اي دام ثلاث سنوات على اكثر الروايات اي الى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات . ولم يكد الرسول وبنو عبد المطلب يخرجون من الشعب حتى توفيت خديجة زوجة الرسول ، ثم عمه ابو طالب وبين وفاتهما على الارجح ازيد قليلا من شهر . وفي بعض الروايات ان وفاة ابي طالب اسبق .

كانت خديجة (رض) على قدر كبير من الحكمة والذكاء ورقة الشخصية . حقا إنها لا تظهر في جدل أو سباب مع المعادين للرسول ، ولكن كل القرائن تؤكد أنها كانت تعمل في الظل لصالح الإسلام داخل اسرتها الكبيرة ، وعاشرت الرسول خَمْسًا وعشرين سنة ولم يكن يتخلى فيها عن مشاورتها والادلاء إليها بمكنون صدره ، ولقد لخص ابن اسحق مقومات شخصية خديجة ومكانتها من زوجها الرسول ومن الاسلام ، في جملتين صغيرتين طافحتين بالمعاني ، فقال :

« ... كانت خديجة وزيرة صدق على الاسلام ... وكان يسكن إليها » (النبي ص)

وكان عمر الرسول حين وفاتها خمسين سنة . وهي ام اولاد الرسول (ص) : القاسم والطاهر والطيب ، وقيل أن الاثنين الاخيرين صفتان للقاسم وزينب ورقية وأم كلثوم ، وفاطمة .

وهلك ابو طالب عن سن تجاوزت الثمانين ، وكان درعا واقيا للرسول ، وطمع الرسول

في اسلامه حتى آخر لحظة ، وكان ينصح قريشا باتباع الرسول والايمان به فيظهر الرسول تعجبه من كون أبي طالب يدعو إلى شئ لا يلتزم هو به ، وقال وهو يحتضر : أكره الجزع عند الموت ، وترى قريش أني أخذتها (اي الهداية) وتركتها وانا صحيح .

الدعوة إلى الإسلام خارج مكة

عشر سنوات من الدعوة داخل المجتمع المكي لم يتقدم الاسلام خلالها الا بخطوات ضعيفة ، بل خرج المسلمون مُرهقين من الشِّعب والباقون تحت الاسر والتعذيب أو هاجروا إلى الحبشة ، ومجموع المسلمين حوالي مائة : مجموعة صغيرة لا تملك إلا الثبات على عقيدتها ، ومحمد الرسول اصبح الآن معزولا كليا عن هذا المجتمع الذي تتحكم فيه بورجوازية صغيرة من تجار القوافل والمواسم ، والذي يخشى زعماؤه ان تتحول سلطتهم المادية الى بني عبد المطلب ، ولا يتحفظوا ان يقولوا :

«والله ما نأمن أن يبتزُّونا امرنا » ! [1]

بعد هذه المدة الطويلة ، وبعد موت ابي طالب لم تعد هناك فائدة في انتظار ان ينتشر الاسلام في منبته قبل ان تنقل جذوره الى حقول أخرى ، بل ان الاقدار الالهية ارادت ان يكون العكس : أنْ يشع نور الاسلام على المجتمع القرشي كله انطلاقا من خارج هذا المجتمع .

كان الرسول وهو بمكة لا يترك فرصة تمر دون ان يدعو الى الاسلام متحديا كل الصعاب وانواع العداء والمناهضة ، فكان يذهب إلى الأسواق القريبة من مكة والتي هي مواسم تقام على مستوى عربي واسع خلال فترة الحج ، كسوق المجنَّة وذي المجاز . وقد كان حتى في هذه الاسواق يجد المضايقة ويلاحقه المعادون للاسلام كعمه ابي لهب [2] عبد العزى . وطاف الرسول بهذه الأسواق «يتبع القبائل في رحالها ويغشاها في انديتها ويدعوهم الى ان يضعوه ليبلغ رسالة ربه .» [3]

1- ابن هشام ، 2 . 46
2- ابن اسحق ، ص 232
3- مقدسي ، بدء . 5 . 165 .

وبعد وفاة ابي طالب وجد الرسول نفسه في غاية الحرج لا يمكن ان يقبل القرشيون مُعَايَشَتَه ما لم يَتَمَنَّعْ بجوار ، ولجأ الرسول فعلا الى حماية المطعم بن عدي . ثم راح الى الطائف يجرب حظه مع ثقيف ، وقبيلة ثقيف بطن كبير من هوازن العدنانية اشتغلت بالعمل الزراعي من وقت طويل وحولت المنطقة الى جنة من النخيل والثمار .

وكانوا يعبدون اللات ، وجعلوا لها معبدا ضاهوا به الكعبة ، وكانوا يعظمون اللات ويتقربون اليها بالهدايا والقرابين [1] ، وموقفهم من الرسول كموقف قريش ، اجتمع الرسول الى زعمائهم وهم ثلاثة إخوة : عبدياليل ومسعود وحبيب ، وعرض عليهم الاسلام فسخروا منه ، فاستكتمهم لقاءه بهم حتى يتجنب شماتة قريش ، فعمدوا إلى سفهائهم يتصايحون به ويشتمونه . وكان بين قريش عدد كبير من الذين لهم نصيب من الثروة الزراعية والحيوانية بالمنطقة والجأ السفهاء الرسول إلى حائط فاكرمه بعض القرشيين بعنب قدمه اليه أجير نصراني من العراق واسمه عدّاس ، واندهش عداس عندما سمع الرسول يقول «باسم الله» وهو يمد يده إلى العنب ، وجرى حوار قصير بينهما ، ثم أكب عداس على الرسول يقبل رأسه واطرافه وقد سره ان يتحدث الرسول بخير عن النبي يونس بن متّى وهو من «نِينَوى» قرية عداس ايضا ، وحسب بعض الروايات فان الرسول لم يستجر بالمطعم بن عدي إلا بعد هذا الحادث حيث كلف بذلك مكيا كان متوجها من الطائف إلى مكة [2] .

وتاتي هنا قصة استماع الجن الى الرسول يتلو القرآن ، فان النبي عليه السلام كان في الطريق من الطائف إلى مكة ، فصلى ليلا عند وادي نخلة ، وهناك حسبما ذكره القرآن الكريم ، استمع اليه نفر من الجن وآمنوا به : «**قل اوحي الي انه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا . .** » ولا ريب ان الحديث عن الجن ليس من باب المسلمات عند كثيرين لاسيما بين ذوي الاختصاص بالعلم لكن فيما عدا النفسانيين هناك فيزيائيون

1- كحالة ، معجم قبائل العرب ، مادة ثقيف

2- طبري ، 2 ، 231

ورياضيون وطبيعيون اثبتوا أو أثبت أمامهم ظواهر روحانية تختلف غرابة ونوعا وليس ما ينسب الى الجن سوى بعض منها (1) .

وتابع الرسول دعوته بين القبائل غير يائس فتوجه الى كِنْدَة التي ترجع إلى اصول يمنية وكانت تنتشر بينهم اليهودية ، ثم إلى بني حنيفة وهم عدنانيون ومواقعهم باليمامة ، وإلى بني عامر بن صعصعة وهؤلاء طلبوا ان يشركوه في الامر إذا تقوى وكذلك توجه الى قبائل اخرى من غير طائل (2) فقد كانت صلاته بالزعماء لأنهم قدوة ، والرسول اراد بذلك ان يجتمع على الاسلام القاعدة والقمة معا ، وجرب اسلام القاعدة في مكة فوجد من أذى الزعماء ما كان له انعكاس على تقدم انتشار الاسلام .

غير أن الرسول قابل في بعض تنقلاته وفدا من شيبان بن ثعلبة ، وفيهم ثلاثة من شخصيات العرب ، وهم هانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك وكانت منازلهم فيما بين اليمامة ، وهم تابعون لنفوذ الفرس ، وقد مال هؤلاء الى الإسلام بحضور أبي بكر وعلي ، وان تحفَّظوا راجين ان يراجعوا قومهم (3) .

وبينما كان الرسول (ص) يواصل دعوة القبائل الى الاسلام وقعت حادثة الاسراء والمعراج التي سياتي ذكرها في موضوع تشريع الشعائر .

بيعة العقبة وإسلام الانصار :

حدث في السنة الحادية عشرة للنبوة تطور جديد وحاسم في تاريخ انتشار الاسلام وبالتالي في تاريخ شبه الجزيرة العربية ، ففي هذه السنة توجه الرسول الى الموسم عند العقبة في منتهى مِنَى ، وهناك تابع مهمة الدعوة كما كان يفعل عند كل موسم وشاءت الصدفة ان يلقى جماعة من الخزرج الذين كانوا حلفاء ليهود يثرب ، وكان اليهود يخوفون الاوس والخزرج بظهور نبي وانهم سيتبعونه ، أو هكذا تتحدث رواية ابن اسحق التي

1- نحيل هنا على موسوعة Jean - Louis Victor, L'univers de la parapsychologie (7 Vol .)

2- ابن هشام ، 2 ، 47 . طبري . 2 ، 229 . ابن اسحق ، ص 222 . ابن الأثير ، كامل 2 ، 64 . يعمري ، 1 . 166 ، و 187

3- ابن هشام ، 2 54 ، 61 . طبري ، 2 . 234 الازرقي ، 2 . 205 ، ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 66 . يعمري 1 ، 191 . مقدسي . 5 ، 165 .

ينقلها عنه غيره ، ولما كان هؤلاء الحلفاء في وضع مادي دون وضعية اليهود فقد كانوا بحاجة إلى فرصة لتحطيم التفوق الاقتصادي والمعنوي الذي يفخر به اليهود في يثرب وكانت هذه الجماعة التي لقيها النبي مكونة من ستة اشخاص من بني النجار وغيرهم واشهرهم سعد بن زرارة وكان له مقام كبير في الاسلام ، ولا ننس ان للرسول خؤولة في بني النجار ، فأمه منهم ، فلما عرض عليهم الاسلام رحبوا باعتناقه وقالوا : انا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العدواة والشر ما بينهم ، وعسى الله ان يجمعهم بك ، ووعدوا الرسول ان يدعو الاوس والخزرج الى الاسلام بيثرب ، وفي العام التالي ورد على الرسول بنفس المكان ، هؤلاء الستة مع ستة آخرين ، وكان في المجموعة افراد من الاوس وبين الستة الجدد عُبادة بن الصامت وعويم بن ساعدة ورافع بن مالك ، وانعقد بين الرسول والجماعة ميثاق عرف ببيعة العقبة الاولى ، لان الاتصال الاول لم يكن موثقا ببيعة ، وكانت هذه البيعة تنص على ما تنص عليه بيعة النساء الى ان فرض الجهاد ، وبنودها كما روي عبادة بن الصامت : ان لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزني ولا نقتل اولادنا ولاناتي ببهتان نفتريه بين ايدينا وارجلنا ولا نعصيه في معروف .

ولم يكن إسلام هذه الجماعة من سكان يثرب لمجرد اقصاء اليهود ، فإن هذا مالم يلجأ إليه الرسول نفسه وقد عقد ميثاق تعايش مع اليهود حتى خانوا عهودهم ولكنهم أي جماعة الأنصار أسلموا لما وجدوا من تكريم للبشرية في مبادئ الاسلام ، ولان الاسلام بقيادة الرسول يضع حدا للعداء بين الاوس والخزرج من جهة ويهيئ لتنظيم كامل لحياة السكان من جهة اخرى .

وبعث الرسول مع وفد يثرب مصعب بن عمير لتلقينهم تعاليم الدين ليؤم الصلاة بهم ، وكان له دور كبير في نشر الاسلام بالمدينة وعلى يده اسلم سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير وهما من كبار المدينة .

وفي السنة الثالثة عشرة للنبوة كانت بيعة العقبة الثانية وفيها قدم سبعون من الانصار وامرأتان بزعامة البراء بن معرور و وكان اللقاء كالعادة في موسم الحج وكانت هذه البيعة الثانية اول بيعة جمعت بين الالتزام السياسي والروحي امام الرسول ، فقد التزم الانصار بالدفاع عن الاسلام وحماية الرسول اذا حل بينهم ، وعاهدوه على ان يضحوا من

اجله باموالهم واشرافهم ، وكانت البيعة بمحضر العباس بن عبد المطلب عم النبي ، ولم يكن قد دخل الاسلام ، ولكنه خشي على الرسول من خطر يتعرض له وهو يتلقى بيعة قوم ليلا وخفية عن قريش وعين الرسول عليه السلام اثني عشر نقيبًا على الانصار منهم ثلاثة من الأوس والباقون من الخزرج لانهم اكثر عددا .

وعاهد الانصار الرسول على حرب الاسود والاحمر كما قال العباس بن عبادة من زعمائهم وتسامعت قريش بما كان من هذا الميثاق الخطير ، فجادلوا الانصار جدالا عنيفا بالرغم من موسم الحج واسروا منهم سعد بن عبادة وقيدوه ثم ضربوه حتى خلصه بعض معارفه من قريش ، وعمدوا الى المسلمين المكيين فاخذوا يفتِنُونَهم عن دينهم كما فعلوا باخوانهم ممن هاجروا الى الحبشة .

ووارد ابن هشام واليعمري وغيرهما اسماء الذين شهدوا العقبة ، وعندما اصبح للإسلام موقع متين بالمدينة ، دعا الرسول المومنين المكيين الى الهجرة اليها قبله فتوافد المهاجرون بأسرهم على المدينة قبل ان يحل بها الرسول وصاحبه ابو بكر ، وبالهجرة الى المدينة تطوى صفحة من تاريخ الإسلام وتبدأ صفحة جديدة .

والواقع ان اسلام الأنصار يلتقي مع إسلام المستضعفين بمكة ، في أن كِلَا الفريقين كان ضعيفا أمام طرف أقوى ، مُعَادٍ وطاغٍ شديد الصَّلف : قريش واليهود .

والأنصار لم يحموا الرسول لشخصه ، بل هم بالأحرى قد احتموا بشخصه وعقيدته . وهم يكوّنون فريقين متعاديين ايضا ، ولا زعامة لأحدهما على الآخر ، ومن ثم كانت شخصية الرسول فوق الحساسيات الداخلية لدى الأنصار . وهكذا اجتمعوا على زعامته وقيادته . ثم إن ما جاء به من تعاليم إذا هو التقى في أشياء مع تعاليم اليهود الذين يهيمنون على ما بالحجاز من ثروات ، فهو يتفوق عليها في الدعوة الى الأخوة الإنسانية وحماية الضعيف ومساواة الناس في الحقوق والواجبات وفي مجالات عديدة أخرى .

فكان إسلام الأنصار توحيدا للأوس والخزرج أولا ، وتقوية لهم ضد طغيان اليهود ثانيا ، وشرفا عظيما نالوه بحماية الرسول والمهاجرين والعقيدة المحمدية التي اعتنقوها ثالثا .

القسم الثاني

الصراع ضد المناهضين للاسلام وانتشار الدعوة المحمدية

الفصل الأول : الهجرة الى المدينة
الفصل الثاني : الصراع ضد المشركين
الفصل الثالث : الصراع ضد اليهود
الفصل الرابع : الصراع ضد البيزنطيين وحلفائهم
الفصل الخامس : انتشار الإسلام بشبه جزيرة العرب

⨳⨳ الفصل الاول ⨳⨳

الهـــجرة الـــى المدينـــة

ظـروف الهجـــرة

بعد ثلاث عشرة سنة من مقام النبي بمكة والعمل على نشر الاسلام بها وبعد ان تقوى أزر الاسلام بمن انضموا اليه من الاوس والخزرج اذن للرسول (ص) بقتال المشركين : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ، وبذلك شرع الجهاد الذي هو موجه الى الوثنيين ثم الى الذين يهاجمون الاسلام بالقوة ، ولم يكن من الممكن تنظيم عمليات الجهاد داخل مكة نفسها لتعايش قلة من المسلمين مع المشركين ولأن الاسلام لا يبدأ المعادين بالحرب ، بل يصل إلى ذلك بمراحل ، وهكذا كانت مشروعية الجهاد مبدئيا تتطلب خطـوات كانت اولاها تهجير المؤمنين القلائل بمكة إلى المدينة سرا بعد انتشار الاسلام بيثرب ، وكانت هجرتهم أولا سرا خلال شهر ذي الحجة ، واستمر الرسول مقيما بمكة إلى اوائل ربيع الاول من السنة الاولى للهجرة ، وكان اول مهاجر هو ابو سلمة بن عبد الاسد المخزومي الذي منعت زوجته من اللحاق به مدة سنة من لدن اسرتها ، ثم هاجر آخرون من بينهم عمر بن الخطاب وطلحة بن عُبيد الله وخباب بن الأرث والزبير بن العوام وزينب بنت جحش وعثمان بن عفان ، وتفرق المهاجرون على عدد من أسر الانصار فاكرموا مثواهم ، وكانوا يؤثرونهم على انفسهم ولو كان بهم خصاصة كما ذكر القرآن ذلك (1) .

ولـم يـبق بـعد هـذا الا الـرسول وابـو بـكـر وعلي ، وبـذلـك سـنـحـت الـفـرصة لقريش حـتى تـفـكـر في خطـة للتـخـلـص مـن الرسـول الـذي اصبح معزولا واجتمع زعماؤها في دار الندوة التي كان قد انشأها قصي بن كلاب للمشورة والتجمعات القرشية ، وكان منهم ابو سفيان وابو جهل وامية بن خلف وابو البختري وغيرهم ، فاستقر رأيهم على ان ينتدبوا عصابة تمثل مختلف اسر قـريش المعـادية ثم يغتالوه جميعا ، اما الرسول عليه

1- انظر كيفية توزيع المهاجرين على أسر الانصار عند ابن هشام ، 2 ، 86 وابن خلدون 2 . 735 واليعمري . 1 . 213 .

السلام فقد توجه إلى بيت أبي بكر يخبره بان الله أذن له بالهجرة فعرض أبو بكر أن يصحبه وتم اتفاقهما على ذلك ، وترك الرسول ببيته عليا وامره ان يرتدي بُرده وأخبره ان قريشا ستهم بقتله ولكنه سينجو من مكيدتها ، حتى اذا كانت ليلة خروج الرسول من مكة ، انطلق من بيته بدعم روحي إلهي فلم يبصره الأعداء ووجدوا عليا الذي اخبرهم بان الرسول غادر مكة ، فقبضرا على علي وحبسوه حول الكعبة قليلا وضربوه ثم اطلقوه وكان عليه ان يقوم من جهة بابلاغ ابي بكر مكان اللحاق بالرسول وهو غار ثور ، ومن جهة أخرى ان يسوي بعض الامور الخاصة بالنبي وعدد من المهاجرين ، وبين هؤلاء من تخلى عن امواله لقريش مقابل السماح له بالهجرة وكانت هذه حال صهيب بن سنان كما ان فيهم من تركوا اموالهم تحت رحمة الاعداء وفروا بدينهم آوين إلى قوم لم يكن فيهم الا قليل من ذوي اليسار .

وتوجه الرسول الى غار ثور على متن احدى راحلتين كان قد أعدهما ابو بكر قبل اسابيع . ويقع الغار في جوف جبل اسفل مكة في اتجاه اليمن ، ثم التحق ابو بكر بالرسول وكانت اسماء بنته تمدهما بالطعام ، ويزود هما باللبن عامر بن فهيرة مولى ابي بكر وراعي غنمه ، وكان عبد الله بن ابي بكر ياتيهما بما جد من اخبار مكة خلال ثلاثة ايام بلياليها قضياها بهذا الغار ، وكانت قريش تبعث بالقافين يتتبعون اثر الرسول ثم اثر الراعي عامر ابن فهيرة حتى وصلوا الغار الذي انسدل عليه العنكبوت فظنوا المكان مهجورا ، وهنا يرددالقرآن ما خلفه لغط القافين من انفعال لدى ابي بكر (إِذْ هما في الغار إذ هو يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) . وعاد المتعقبون من حيث اتوا .

وخرج الرسول وصاحبه ومعهما عامر بن فهيرة باتجاه الطريق الساحلي حسبما اورده الطبري وابن هشام نقلا عن ابن اسحق ، وكان دليلهما عبد الله بن أريقط وهو مشرك وحليف للعاص بن وائل ، ولكنه كان موضع ثقة الرسول وصاحبه ، وهو على أي حال كان دليلا لهما بأجرة ، فقد استطاع ابو بكر ان يخرج كل ما معه من مال وهو خمسة آلاف درهم ، وحسب المسعودي فان عليا غادر مكة إلى المدينة بعد ثلاثة أيام من خروج الرسول .

غير أن قريشا اصرت على تعقب الرسول بعد مغادرته غارثور ، فاعلنت عن جائزة مائة من الابل لمن عثر عليه وسلمه لأعدائه ، فتقدم لهذه المهمة سراقة بن مالك الذي قص

بنفسه فيما بعد خبر تعقبه للرسول وصحبه ، وكيف اخذ فرسه يَكْبو به كلما اقترب من الرسول ، حتى اذا ابصره ساحت في الرمل قوائم فرسه ، فاستصرخ الرسول وحلف ان لا يناله بمكروه ثم طلب كتابا من الرسول يكون تذكيرا بالحادثة ، وتابع الرسول طريقه بينما عاد سراقة من حيث أتى وأسلم بعد فتح مكة على يد النبي (ص) بعد أن أراه العهد المذكور .

ويبدو ان بقية من المسلمين تبقَّتْ بمكة لظروف مختلفة ، وهكذا تخلفت اسماء بنت ابي بكر التي طرق باب بيتها بفظاظة ابو جهل ولطمها بعد ان انكرت موضع والدها .

اما الرسول عليه السلام فقد انتهى بعد سفر دام 15 يوم إلى قباء وهي قرية كانت على بعد كيلو متر تقريبا من جنوبي يثرب وتعد منها ، وقد وصلها يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الاول واقام بها اربعة ايام شاد خلالها مسجداً بسيطا من جذوع النخل كان اول مسجد في الاسلام ، وقضى الجمعة في بني سالم بن عوف بعد أن تلقاه اهل المدينة بمنتهى الترحيب والتكريم وبزغاريد النساء وانا شيدهن ، وكانت صلاة الجمعة مسبوقة باول خطبة خطبها الرسول بالمدينة ، وهي حض على التقوى وتذكير بواجبات المومن نحو ربه . وهذه الخطبة لا تزال في نسق موضوع الآيات المكية قبل ان يفتح القرآن ابوابا واسعة وعديدة في مجال التشريع والعلاقات الاجتماعية .

بناء مسجـــد المـــدينة

وبينما كانت ناقة الرسول تسير الهُوَيْنى بين منازل الانصار ويحاول كل من زعمائهم ان يستوقفها ليحل الرسول بمنزله والرسول يقول : خلوا عنها فانها مامورة ، توقفت عند مكان يسمى المربد ، وهو موضع كان يركم فيه التمر ليجف ، فابتاع الرسول المكان من غلامين يتيمين من بني النجار كان يربيهما سعد بن زرارة ، وهناك اتخذ مسجده ، ثم توجهت به الناقة الى منزل أبي ايوب الانصاري من بني النجار ، فاقام الرسول هناك شهرا حسب المسعودي حتى تم بناء المسجد ومنزله الخاص ، وقد اشترك الرسول مع المهاجرين والانصار في بناء المسجد الذي كانت سواريه من جذوع النخل وكان ما حوله مقبرة للمشركين نُبِشَتْ قبورها وسويت ، وبدأت التغييرات في البناء منذ عهد عثمان ، وذكر ان

السرير النبوي الذي كان يرقد عليه الرسول (ص) كان خشبات مشدودة بالليف بيعت في ايام بني امية [1] .

وقد اصبح المسجد النبوي اول جامعة اسلامية واول ناد سياسي كما كان اول محكمة بالمدينة .

واعتبرت سنة هجرة الرسول اول سنة للتاريخ الاسلامي ، ويبدأ العمل بالتاريخ الهجري من عهد الخليفة عمر ، ولما كان محرم هو منصرف الناس من الحج فقد اعتبر اول شهور السنة الهجرية بالرغم من ان الرسول عليه السلام لم يحل بالمدينة الا في ربيع الاول [2] .

النشاط النبوي وموادعة اليهود

استقر الرسول عليه السلام هو والمهاجرون سلما ، دون ان تظهر حركة معارضة ، ولا ريب أنه وقد كان شديد اليقظة والحذر في كل تحركاته وأعماله قد توثق قبل قدومه إلى يثرب ، من ان المناخ السياسي والعقائدي بهذا المركز الحضاري ييسر له استقرارا طيبا مع اسرته ، ويتيح له ان يواجه المرحلة الجديدة من حياته وهي اخصب مراحلها واعمقها بالنسبة لمستقبل الاسلام بأسره . وكان من أول اعمال الرسول بالمدينة هدم ما بها من اصنام واستقدام اسرته برفقة ابي رافع مولاه وزيد بن حارثة ، وكان فيها زوجته سودة بنت زمعة ، وفاطمة وام كلثوم ابنتاه ، بينما بقيت بنته زينب مع زوجها ابي العاص بن الربيع الذي حبسها بمكة عن والدها . اما رقية فكانت لا تزال مع زوجها عثمان بالحبشة وقدمت في نفس الركب بنتا ابي بكر وزوجته أم رومان . وبالإضافة الى تخطيط المدينة كما سيأتي ، قام الرسول بعملين بارزين في هذه المرحلة : موادعة اليهود ، والمؤاخاة بين المهاجرين والانصار .

ويتميز استيطان اليهود للحجاز وشبه جزيرة العرب عموما بكثير من الغموض فإذا كان هناك من يرى ان جزيرة العرب موطن اصيل للشعوب السامية بما فيها العبرانيون ،

1- ابن هشام ، 2 . 102 .(تعليق طه عبد الرؤوف)

2- الطبري ، 2 ، 252 .

وهذه النظرية اصلا تعزى الى ايبرار شارادر (Eberhard Scharader) [1] فان الفكرة لم تعد قديمة بل تناولها بعده غير واحد بالقبول كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، [2] ومما أثاره المستشرقون بشأن جزيرة العرب ، وبالاستناد إلى الظروف الجيولوجية ان هذه المنطقة كانت تنعم بالخصب في عهود سحيقة [3] . والواقع ان هجرات الشعوب السامية يرجع معظمها الى اسباب مناخية واقتصادية . ومن اكثر الشعوب هجرة ، العبرانيون الذين تنقلوا فيما بين النهرين ومصر ، وفيما بين الشام وجزيرة العرب حسب قبائلهم وظروف عيشهم وقد عاشوا لفترة طويلة على الترحل ، ومن اهم حركات الهجرة " داخل الشام ، ما حدث في عهد يوشع قبل اثني عشر قرناً من الميلاد [4] ، ثُم في عهد بني داود الذين انتهى حكمهم الى التخوم الشمالية من الحجاز وذلك في القرن 9 ق . م [5] . بل ان النفوذ اليهودي امتد إلى خيبر ، واستنتج ابن خلدون من هذا وجود حركة عمران واسعة تتصل بيثرب وخيبر ، ونقل عن المسعودي قوله [6] : "... وكانت الحجاز إذ ذاك اشجر بلاد الله واكثرها ماء فنزلوا بلاد يثرب ، واتخذوا بها الاموال وبنوا الآطام (الحصون) والمنازل في كل مَوْطِن .." ونرى هنا ان المؤرخين المسلمين سبقوا المستشرقين في استنتاجاتهم عن خصب جزيرة العرب ، في القديم ، بأكثر من الف سنة .

على ان حركة استيطان اليهود بالحجار ترجع حسب الرواية العربية نفسها [7] وهي بدون ريب تعتمد على مصادر عبرانية ، إلى ما بعد موسى وقيل كان منهم بنو قريظة وبنو النضير وهما كاهنان من أبناء الكوهن بن هرون ، فاستقروا بضواحي يثرب التي كان بها العماليق وهم عرب ، ولكن اقرب الروايات الى الحقيقة هي أن بني النضير حتى ولو كانوا ينتمون الى هرون فهم لم يظهروا في الحجاز الا بعد استيلاء بطليموس الروماني على

1- Henri Fleisch, Introduction à l'étude des langues , 1, 24

2- OP ; Cit

3- OP ; Cit

4- المسعودي ، مروج ، 1 ، 50 . Larousse, Art. Hebreu

5- ابن خلدون ، 2 ، 191

6- ابن خلدون 2 ، 593 - 594 : Larousse, Op, cit

7- ابن خلدون ، 2 ، 595

فلسطين خلال القرن الاول ق . م ثم التحق من اليمن بيثرب الاوس والخزرج بعد سيل العرم ، وما لبثوا بزعامة مالك بن عجلان ان قتلوا زعماء اليهود بيثرب ، واصبح اليهود في وضع ضعف من حيث العدد والقوة مع كثرة السكان العرب ، واضطر اليهود ان يتخذوا من الاوس والخزرج احلافا وموالي [1] . والواقع أن اليهود ظلوا يهيمنون على اقتصاد المنطقة مزارعين وتجارا وصناعا ، كما كانوا يعترفون بقرب ظهور نبي بالحجاز ، فلما هاجر الرسول الى يثرب كان من بين اهتماماته الاولى ان دعا يهود يثرب الى معاهدة تعايش تحرر حسب شروط تضمن لكل من اليهود والمسلمين حقوقهم المالية والدينية والسياسية وتفرض على الطرفين واجبات متساوية .

غير أن نص هذا العهد اثار لدى بعض النقاد عددا من الملاحظات ككونه لم ينص على بني قريظة وبني قينقاع وهما من أهم بطون يثرب ، وأورد النص الكامل لهذا العهد ابن هشام نقلا عن ابن اسحق [2] . والواقع ان هذا النص يهتم بالطوائف الصغرى من اليهود ثم يتناول اليهود كمجتمع شامل ، وهذا يعني ان الطوائف الصغرى كانت احوج الى النص على ذاتيتها وان المجموعات الكبرى ادرجت في اللفظ الشامل وهو يهود او اليهود ، لانها كانت اقل شعوراً بالنقص وهي ذات منعة .

ودون اللجوء الى نقل هذا النص الذي ورد بروايات متقاربة عند غير ابن هشام يمكن الاقتصار هنا على مضمون أهم بنوده :

1- العهد ينص قبل كل شئ على حسن التعايش بين المسلمين في يثرب سواء منهم المهاجرون والانصار ، وان لم يرد النص على الانصار .

2- فداء الاسرى بين المسلمين يكون بالقسط والمعروف .

3- يتضامن المومنون ضد من كان منهم ظالما او قاصدا لفساد بين المومنين .

4- يقتص من قاتل المومن ولو كان مؤمنا .

5- كل خلاف بين المومنين يرد الى الله والرسول (اي القرآن والسنة).

1- ن . م . ص 596 - 597

2- ابن هشام ج . 2 ، 106 . وراجع بشان العهد : كتاب النبي (ص) الى اهل المدينة (رسالة لنيل دبلوم الدراسات الاسلامية العليا) دار الحديث الحسنية : للاستاذ خليفة المحفوظي ، الرباط .

6- ما دام المومنون في حالة حرب يتولى اليهود معهم نفقات الحرب .
7- يحتفظ كل من المسلمين واليهود بحرية عقيدته .
8- من كان من بطانة اليهود عُومل معاملتهم ولا يُخرجُ الا باذن الرسول (ص) .
9- المسلمون واليهود متضامنون حربيا ضد من حارب هذا الميثاق .
10- المظلوم ينصر والجار لا يمس بضرر .
11- لاجوار لقريش (اي لا حماية لها) ولا من نصرها .
12- ما يَرِدُ من نزاع بشأن الصحيفة (أي العهد) يرد لحكم الله ورسوله .
13- اذا هوجمت يثرب فكل السكان متضامنون ضد المهاجم ، وإذا وقع الصلح انضم اليه الجميع .
14- لكل ساكن بيثرب حرية الخروج من المدينة او الاقامة بها ما عدا من ثبت عليه ظلم او تهمة موجبة لإخراجه .

هذا هو العهد النبوي الذي لم ينص على موادعة اليهود فحسب ، بل على موادعة المسلمين بعضهم بعضا كذلك . وهو عهد يعطي لمعنى المواطنة ابعاداً سامية ، ويضع الإسلام لا كعصبية جديدة تناهض الآخرين بل كحارس للعدالة وحرية المعتقد ، وكعامل وحدة اجتماعية بين سكان يختلفون عقائديا وسلاليا ولكن توحد بينهم رابطة التساكن والمصالح المشتركة .

مؤاخاة المهاجرين والانصار

انبنى الاسلام في أسسه الاولى على الاخوة والرابطة البشرية المثلى ، ولما كان المؤمنون يتضامنون في السراء والضراء فقد جعل الرسول من هذا الشعار حقيقة منذ ان كان بمكة ، فآخى بين المؤمنين أي بين الذين صاروا فيما بعد مهاجرين . فآخى بين نفسه وعلي بن ابي طالب وهو اقرب الناس اليه من جهة الدم ، وآخى بين ابي بكر وعمر . والحق انه من حيث السن والحنكة كان ابو بكر أولى بمؤاخاة الرسول عليه السلام ، لكن الرسول لو فعل لميزة بشكل علني ولنقل رسمي ، وليس في الاسلام تمييز بغير التقوى ، أما علي فلم يكن موضع جدل في هذا المقام وهو اكثر التصاقا بحياة الرسول عائليا ثم مِنْ جهة الصهر

فيما بعد (واولو الارحام بعضهم اولى ببعض) .

وكذلك آخى الرسول بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين عبيدة بن الحرث وبلال ، وبين مصعب بن عمير وسعد بن ابي وقاص الخ ... [1]

ولاشك ان هذه المؤاخاة كانت تشمل المواساة والتعاون والتآزر على الخير ودفع الضرر من العدو المشترك ، وكذلك فعل الرسول عندما هاجر وصحابته الى المدينة : آخى بين المهاجرين والانصار ، ففضلا عن ايواء الانصار للمهاجرين دعا الرسول الجانبين الى التآخي على مثل ماتآخى عليه المهاجرون فيما بينهم من قبل وقال المهاجرون يعترفون بفضل الانصار : "يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم احسن مؤاساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير : كفونا المؤونة ، وأشركونا في المهنأ حتى لقد خشينا ان يذهبوا بالاجر كله . " [2]

وذكر ابن هشام واليعمري وغيرهما لائحة المتآخين من الانصار والمهاجرين .

تشريع الشعائر

تعد الشعائر من صلاة وحج وطهارة وما إلى ذلك لا مظهرا للاسلام فحسب ولا طقوسا تؤدى على شكل مخصوص من أجل أن الدين ارادها كذلك لا غير ، بل إن في ترك الكثير منها ما يعد كفرا ، وبحسب الشريعة نفسها فإن بعض الشعائر كالصلاة يعاقب على تركها على يد السلطة المختصة قبل ان يتلقى تاركها العقاب الأخروي .

ولذلك نجد الصلاة نفسها اول شعيرة نزل الوحي بشأنها أمراً وطريقة وفيما يلي ذكر الشعائر الرئيسية والتسلسل الزمني لها :

الصلاة وقضية الإسراء والمعراج

عرف عن الرسول (ص) انه كان قبل الوحي يتعبد بغار حراء ويذكر الله ويسبحه كما كان يقوم بالطواف حول الكعبة ويعتمر ، ولكن لاشئ يدل على ان الرسول كان يؤدي

1- ابن هشام ، 2 ، 109 . يعمري ، عيون . 1 . 241
2- يعمري ، 1 ، 242 .

صلاة بكيفية مخصوصة في هذه الفترة ، بينما تتفق الروايات على ان الصلاة فرضت عن الرسول ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي كما قال مقاتل بن سليمان [1] وذلك في أوائل الوحي من سنته الأولى ، ولا يوجد اجماع على تحديد وقت الصلاة المذكورة . ففي الخبر ان الرسول كان يصلي ركعتين للصبح وركعتين للظهر بل قالوا ان الرسول والمسلمين كانوا يصلون بمكة لمدة اثْنَتَيْ عشرة سنة ركعتين ركعتين من غير تقدير وقت [2] ، إلى ان كان الاسراء والمعراج ، وعلى كل ، فإن الرسول (ص) قد لقنه جبريل طريقة الوضوء قبل الصلاة . ونوجز كل هذا في ان الصلاة فرضت ركعتين ركعتين بعد الوضوء ابتداءا من السنة الاولى للوحي ، وظلت كذلك الى ان كان الاسراء والمعراج .

وقضية الاسراء والمعراج اثارت شيئا من الاختلاف في الروايات من حيث التوقيت والمكان وبعض التفاصيل وكذا من حيث الطريقة ، اما مبدا الإسراء والمعراج فوارد بالنص القرآني .

وتتلخص أهم تفاصيل الاسراء في ان الرسول كان ذات يوم ببيت ام هانئ في منطقة الحرم من البيت الحرام وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنة ونصف ، وكان بين النوم واليقظة بعد صلاة العشاء فأركبه جبريل البراق ، وهو دابة قال الرواة ان الانبياء كانوا يركبونها قبل الرسول (ص) . ثم اتجه البراق الى بيت المقدس ولم يكن قد عرف ان الرسول وصل اليه قط ، فتوقف عند المسجد الاقصى (ويظهر انه موقع المسجد الاقصى الحالي) وتذكر هنا ام هانئ رواية عن الرسول (ص) . أنه عندما دخل المسجد الأقصى شهد جماعة من الانبياء فيهم ابراهيم وموسى وعيسى ، وان جبريل اتاه بإناء من ماء وآخر من خمر وثالث من اللبن فاختار اناء اللبن او الماء حسب الروايات ، ثم صلى الرسول بالانبياء او معهم .

وحدث كل ذلك ليلا بعد صلاة العشاء ، وقبل الصبح من الاسراء . ثم قص الرسول ما حدث لام هانئ وخرج نهارا الى المسجد الحرام ليقص ما شهده على الحاضرين من قريش فأمسكت ام هانئ بثوبه تحاول ان تصده عن افشاء الحادث حتى لا يستهزئ به المشركون ويكذبوه فابى الا ان يفعل ورفض ابو جهل والمطعم بن عدي وغيرهما ان يصدقوه بالرغم

1- يعمري ، عيون 1 ، 114 .
2- ابن اسحق ، السير والمغازي ، ص . 136 . المقدسي ، البدء والتاريخ ، 5 ، 49 .

من انه اعطى من النعوت والاوصاف لما شاهده في الطريق الى المقدس مالا يمكن معه اي تعنُّت ، كمشاهدته لعدد من القوافل ووصفه جملا احمر وحمولته وكوصفه لقافلة من الابل يتقدمها جمل اسمر ، وقال انها ستظهر الساعة من الثنية وكان كذلك ، فنعته الوليد بن المغيرة بالساحر .

واغلب الروايات تتفق على ان المعراج حدث ليلة الإسراء نفسها، والإسراء معناه السير ليلا، وقد أورد بشأنه القرآن الكريم «**سُبْحٰن الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير**».

والاسراء انطلاقا من القرآن واضح لا يحتاج الى كبير جدل :

1- كان ليلا 2- من المسجد الحرام 3- إلى المسجد الاقصى .

فمفهوم ضمنيا هنا ان الاسراء استغرق ليلة واحدة وان مُنْطَلَقَهُ المسجد الحرام وهدفه المسجد الاقصى ، ومن الآية نفهم انه كان إسراء بدنيا ماديا والرسول في حالة يقظة ، لان الغاية ان يرى الرسول رُؤْيَة العين آيات الله في اقدس مكان بعد الكعبة ومن ذلك اتصاله برُسُل سبق ان ادوا رسالة الهية قبل محمد (ص) . ونفهم أن هذا الاتصال كان ماديا لانه بحسب الاية نتيجة لعملية تنقُّل النبي من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى ، ولو ان المسألة كانت مناما ، لما احتاجت الى عبارات تحرك ولما وصف الرسول من مشاهد القدس والطريق ما وصفه لاصحابه واعدائه معا . وكان ابو بكر اكثر الناس تصديقا له .

واما عروج جبريل بالرسول الى السماء ، فالأقوال بشأنه اشد اختلافا ، فهو مسلم بما يشبه الاجماع من حيث المبدأ والغاية ، وليس كذلك من حيث المنطلق المكاني والزمني ومن حيث صفة العروج أمادية ام روحية .

فحسب رواية ابن هشام ، نقلا عن ابن اسحق [1] وقع العروج بالرسول الى السماء ليلة الاسراء وبعده مباشرة اي في نفس الليلة ، وان حادثة العروج سبقت حسب البخاري (رواية عن انس بن مالك) بعملية غسل ثانية لقلب الرسول بعد ان كانت عملية مشابهة حدثت له فيما بين السنة الثانية والرابعة من عمره ، وقد سبقت الاشارة اليها في عرض

1- ابن هشام ، 2 ، 36 .

الحديث عن مولده ، غير ان رواية انس تذكر في العملية الثانية ان ثلاثة نفر من الملائكة منهم جبريل عمدوا الى الرسول ليلة الاسراء وهو في المسجد الحرام ، فحملوه الى بئر زمزم وشق جبريل جوفه بازاء البئر وغسل قلبه واحشاءه ، وعمد الى طست (من ذهب) فملأ منه صدر الرسول وعروق حلقه ايمانا وحكمة ثم سد فتحة جوفه . وهذه العملية الثانية تحضير روحاني وفكري للرسول حتى يؤدي احد أصعب أدوار رسالته ثم بعد ذلك وقع الاسراء الى بيت المقدس ومنه تم العروج ، وننتهي الى هذه النتيجة بمقارنة سياق اكثر الروايات وأوثقها ، ومنها رواية البخارى ورواية الامام احمد وابن هشام ، وساق اهم روايات المحدثين ابن كثير في تفسير سورة الاسراء ، وتحدث الرسول عليه السلام عن عروجه إلى السماء وزيارته للأنبياء متنقلا بين طبقات السماء وكان عروجه بمعراج قال الرسول : " لم أر شيئا قط أحسن منه " ورافقه جبريل انطلاقا من بيت المقدس فهو من دون شك تحضير لهذه الزيارة الثانية لكي يقوم الرسول بربط الصلة باخوته الرسل على صعيد الارض وفي السماء معا لان بعضهم ساعدوه على تخفيف المشقة عن الامة الاسلامية بشان الصلاة .

وحسب قصة المعراج ، فان الرسول (ص) تلقى امر الله بان يقوم المسلمون بأداء خمسين صلاة في اليوم ، واستشار الرسول موسى عليه السلام فاشار عليه ان يطلب التخفيف من ربه فحطت عنه خمس صلوات ، ثم ما زال يتردد بين موسى وبين سِدْرة المنتهى حيث يتلقى امر ربه الى ان انتهى الى خمس صلوات في اليوم ، وعاد الرسول اثر العروج الى البيت الحرام ، وقصَّ ما رأى على قريش ووصف بدقة ملامح الرسل وأوصافهم البدنية الظاهرة فلما كذبته قريش وافتتن بعض المسلمين انفسهم نزلت سورة النجم لتثبت عروج الرسول الى السماء او على الاصح اتصال الرسول بالملكوت دون لفظ العروج ،.

وفيما يلي قليل من الاقوال والآراء عن الاسراء والمعراج !

فمن بين الذين يتحدثون عن الرؤية المادية :

- الزهري ويقول ان الاسراء كان يقظة لا مناما [1]

- ابن عباس يفسر الرؤيا برؤية العين في الآية الكريمة : وما جعلنا الرؤيا التي اريناك [2] .

- أبو بكر بن العربي يذكر أن الاسراء مرتان ، مناما ثم يقظة [3]

- ابن كثير يستنتج ان الاكثرين على أن الإسراء بالبدن والروح يقظة لا مناما [4]

ومن تحدثوا عن رؤيا المنام او عروج الروح :

- عائشة ومعاوية وكلاهما على ان الرسول عرج بروحه فحسب [5] ، وهما حتى وان لم يعاشرا الرسول وقت الاسراء والمعراج (وعلى الاقل فان عائشة كانت صبية) فقد سمعا من الرسول بعده .

- الحسن بن علي يفسر الرؤيا في قوله تعالى : وما جعلنا الرؤيا الخ ... برؤيا المنام ، ويحتج بمصداقية رؤيا المنام فيما يخص الانبياء ، بقوله تعالى على لسان ابراهسم : يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك [6] .

- قول آخر نقله اليعمري ربما عن ابي بكر بن العربي : الاسراء بالجسد الى بيت المقدس والعروج بالروح الى السموات [7] .

وحسب المقدسي فان بعض الناس ينكر المعراج وبعضهم يزعم انه هو المسرى ، والحقيقة ان بينهم من يستعمل المسرى بمعنى المعراج ايضا .

وروى جابر بن عبد الله عن الرسول (ص) انه سمعه يقول : لما كذبتني قريش حين اسرى بي الى بيت المقدس ، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت اخبرهم عن آياته وانا انظر اليه [8] ، وقد وقع هذا عندما توقف الرسول في بعض التفاصيل وهو يروي مشاهداته في بيت المقدس .،

1- الصابوني ، مختصر تفسير ابن كثير ، 2 . 363

2- ن . م . وص

3- يعمري 1 ، 181

4- صابوني م . س . ن . ص

5- زمخشري ، كشاف ، 2 ، 505

6- مقدسي 4 . 159

7- يعمري 1 ، 811

8- مقدسي ، 4 . 159

ونستنتج من هذا العرض عن الاسراء والمعراج ان معظم الروايات تتفق على ان الاسراء كان يقظة وانه في حالة عدم الخلط بين الاسراء والمعراج فان اكثر الروايات تميل إلى ان العروج بالروح لا بالجسد ويعني هذا ان جسد الرسول لم ينتقل من مكانه الى السماء فكان الاتصال الروحي حتى ولو حصل على سبيل التقدير مناما فهو صادق ومن ثم فمشاهدات الرسول ثابتة كما لو كانت مادية ، وهي مع ذلك معززة بالقرآن : "أفتمارونه على ما يرى ؟ " . "مازاغ البصر وما طغى " . والواقع ان الاستنكار او الاستفهام الاستنكاري هنا لايمكن ان يكون إلا عند ادعاء رؤية البصر ، أما ما رؤى مناما فبالنسبة للمشركين لا يمكن تقديمه كحجة من الاساس ، ولذلك فالقرآن يعزز بوضوح هذا الاتصال النبوي بالملكوت الأعلى في كل حال .

فكيف إذاً ، نقبل عروج الرسول عن طريق الروح فحسب مع هذا الوضوح ؟ ان الذي يدفع الى ذلك هو أن هناك نوعا من الرؤيا والتحرك من غير مغادرة المكان ومن غير الدخول في حالة منام ، وهو بالنسبة للرسول (ص) قوة الهية اودعت في الرسول على درجة عالية مما يسمى ب La télépathie و La Radiesthésie والقوة الأولى مكّنت الرسول من الاتصال بقوة اشعاع عال متبادل بينه وبين الملكوت الاعلى والثانية مكنته من نقل رغباته وتقبل التعاليم الالهية من طريق روحي إلهي غير معتاد واستزاج القوتين معا وبشكل لا يمكن ان يكون الا لنبي هو الذي جعل الرسول يراجع مشاهداته لبيت المقدس وهو في حالة يقظة بالنهار ووسط قومه ، فالرسول لم يكن هنا في حال منام ولا هو تَنَقَّلَ مرة أخرى .

ويمثل المسرى الى بيت المقدس حدثا عظيما في تاريخ الاسلام من حيث الدلالة على مقام بيت المقدس ودخوله تاريخ الاسلام من الوجهتين الدينية والسياسية معا ، واما المعراج فَفيه تحدد عدد الصلوات المفروضة بصورة نهائية فاصبحت خمسا في اليوم بعدما كانت ركعتين صبحا وركعتين مساء ، وارجح الروايات ان فرض الصلوات الخمس كان قبل الهجرة

بسنة إلى سنة ونصف [1] فإذا كان في 17 رمضان فقد استوفى فعلا سنة ونصفا وبضعة ايام قبل دخول الرسول المدينة . وحسب ابن هشام فان جبريل حدد للرسول اوقات الصلاة ، غير ان الذي يثير بعض التساؤل هو لماذا لم يبدأ المسلمون ممارسة الصلوات الخمس الا بعد الهجرة الى المدينة بشهر ، أي في ربيع الثاني من السنة الاولى للهجرة ؟ وهذا حسب رواية الطبري على الاقل [2] وقد عرفنا ان المسلمين قاموا باول صلاة للجمعة بعد مقدم الرسول إلى المدينة في بني سالم بن عوف [3] بقباء . ولما كان الاجتماع للصلاة يحتاج الى إشعار او علامات خاصة فقد فكر الرسول في ان يكون النداء لها ببوق ثم عدل عن ذلك لان اليهود يستعملونه للغرض نفسه ، وراجت فكرة اتخاذ ناقوس ثم ألغيت تجنبا للاقتداء بالكنائس ، واخيرا تقرر الأذان بناء على رؤيا رآها احد الصحابة وهو عبد الله بن زيد وكذا عمر بن الخطاب وعزز الوحي مشروعية الأذان حسبما يفهم من رواية ابن هشام [4] ، وتولى بلال الأذان في المسجد النبوي .

وبعد مقدم الرسول إلى المدينة كانت القبلة باتجاه بيت المقدس لمدة ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ، ويظهر ان هذا التحول كان بمبادرة من الرسول لأن المدينة تقع في طريق بيت المقدس ، غير أن اضطراب بعض المسلمين في اتجاههم تارة إلى بيت المقدس ، وتارة إلى الكعبة واهتمام الرسول لحسم هذا المشكل وتضرعه إلى الله في كل صلاة ، انتهى بما تلقاه الرسول من وحي الهي : " قد نرى تَقَلُّبَ وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجهكم شطره " .

وقيل إن الصلاة إلى بيت المقدس كانت منذ فرضت بمكة إلى ان حولت إلى الكعبة بعد الهجرة .

1- ابن اسحق ، ص . 297 . مقدسي ، 4 . 156 . يعمري ، 1 1 181 . 183
2- طبري . 2 . 258
3- م . س . ص 255 . ابن الاثير ، كامل ، 2 . 76
4- ابن هشام . 2 . 111 - 112 . يعمري 1 . 246

ولا يوجد اتفاق على وقت تشريع القبلة ، ولكنه في السنة الثانية للهجرة [1] .

وفي هذه السنة ايضا شرعت ليلة القدر والاحتفال لها مع تشريع صوم رمضان ، وورَدَ حول تحديد ليلة القدر اقوال متعددة والارجح انها من بين احدى الليالي العشر الاواخر ، وشهر رمضان فيه بدأ نزول القرآن وبالذات في ليلة القدر منه . وفي رمضان كانت معركة بدر يوم 17 منه ، وكان فرض صوم هذا الشهر بعد ان فرض صوم يوم عاشوراء ثم نسخ برمضان [2] .

كذلك شرعت صلاة عيد الفطر وزكاة الفطر وعيد الاضحى وسنة الاضحية في هذه السنة ايضا ، وضحى الرسول بالمدينة عشر سنوات وكان يضحي بكبشين ، واحد عن نفسه وواحد عن الامة الاسلامية حتى تجزئ اضحيته عمن لم يضح [3] .

وفي السنة الرابعة شرعت صلاة الخوف خلال غزوة ذات الرقاع ، ووردت الاشارة الى هذه الصلاة في القرآن ايضا [4] .

وفي السنة التاسعة شرعت زكاة الاموال ، وكانت الزكاة قد شرعت من غير تحديد وقتها ومقدارها منذ ان فرضت الصلاة ، فكان المسلمون يزكون ما فضل عن قوتهم الى ان كانت السنة التاسعة فحددت الزكاة بانواعها ومقاديرها ووقتها [5] . وإذا كان المسلمون يعتمرون ويطوفون بالمسجد الحرام قبل الهجرة فإن السنة التاسعة شهدت تعيين اول امير على الحج بعد الهجرة ، وهو ابو بكر الصديق فمنع على المشركين دخول المسجد الحرام بعد هذا العام ومنع على على الحجاج الطواف عراة ، وكانوا يفعلون ذلك تخلصا من كل مال الدنيا كما زعموا .

وفي السنة التالية حج الرسول حجة الوداع التي قيل أنها حجته الوحيدة وأن ما قبلها كان عمرة [6] .

2- ابن هشام ، 2 . 181 . طبري ، 2 ، 265 -
3- 2 ، 265 - 266 مقدسي ، 4 ، 185 . يعمري ، 1 ، 277 ، 287 .
4- يعمري . 1 ، 287
5- طبري ، 3 ، 39
6- طبري . 3 . 155 ابن هشام ، 4 ، 144 . مقدسي ، 5 . 52
7- طبري 3 ، 154 . 174 . ابن هشام 4 . 139 . ابن الاثير ، كامل ، 2 . 207 ، 294 مقدسي 5 ، 54 يعمري ، 2 ، 294 .

الفصل الثاني

الصراع ضد المشركين

مشروعية الجهاد

ثلاث عشرة سنة من الاضطهاد تعرض لها الرسول والمومنون ، وهجرة مفروضة على جماعة من هؤلاء حتى اشترى بعضهم حرية عقيدته بكل ما يملك ، لم يؤد الاسلام ثمنا يسيرا لها ، فقد ظل محصورا في عشرات قليلة من قريش قبل اسلام الانصار والى حين فتح مكة ، وكان الرسول يهتم للإسلام قريش اكثر مما يهتم لاسلام غيرهم فيما عدا الانصار الذين آووه ونصروه ، لان مكة مَحَجٌّ العرب ومهبط الوحي على الرسول ولايمكن للشرك إلا أن تثبت اقدامه بين العرب ، والاسلام في غربة بينهم ، وقريش هي قدوتهم . وبعد ان تعزز الاسلام بالانصار واقرت مشروعية جهاد المشركين الذين طردوا المومنين من ديارهم ومنعوهم من ممارسة عقيدة التوحيد : «**اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله .**»

فبعد استعمال كل وسائل السلم والإقناع مع قريش حتى تدخل في الاسلام او يتوقف زعماؤها عن اضطهاد المسلمين والتحرك الاسلامي ، وبعد ان تخلى المسلمون عن اموالهم وديارهم في انتظار عودتهم واجتماع الشمل بذويهم شرع الجهاد ضد المشركين كأول مرحلة في مشروعية الجهاد ، واتخذ التشريع هنا صبغة ترخيص ثم صار أمرا : (قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) ثم ان الجهاد اتجه في خطوة اولى الى مشركي مكة بالذات ، وبعدهم اتخذ عدة محاور :

1- جهاد ضد عموم المشركين .
2- ضد الخائنين للعهود الميرمة مع المسلمين او المتحالفين مع العدو ضد المسلمين .
3- جهاد دفاع عن النفس .
4- جهاد ضد الاحتلال الاجنبي المعادي لنشر الاسلام .

5- جهاد عام لنشر الاسلام والحكم الاسلامي ، وهذه مرحلة متأخرة بعد الرسول ، ولكل من هذه المحاور مبررات واضحة .

وفي جميع هذه الخطوات لا يلجأ الاسلام الى القوة الا بعد استنفاذ الطُرق السلمية . فالبنسبة لاهل الكتاب يخيرون بين الاسلام والجزية او الحرب ، وبالنسبة للمشركين لاخيار الا بين الاسلام والحرب ، لان الاسلام ثورة على الشرك بكل صُوَره التي تمثلها عبادة الاشخاص والأوثان وكل ما يعبد دون الله ، وفي جميع الاحوال فإنّ الوثنية مظهر خطير للتخلف الانساني لافي العقيدة الروحية فحسب بل وفي معاش الانسان وعلاجه وعلاقاته الاجتماعية وحياته الخاصة . وحيثما كانت الوثنية فهي مرتبطة بصور من التخلف الانساني في اكثر من مجال ، وهذا سر مناهضة الاسلام لها .

الاشتباكات الاولى ضد المشركين

خلال السنة الاولى وشطر من السنة الثانية بدأت المناوشات الاولى بين المسلمين والمشركين تارة بحضور الرسول وطورا بقيادة الصحابة ، واسهام الرسول في المناوشات والغزوات فيه تحميس للمناضلين ، واكثر من ذلك فهو رمز لشخصية رسول الاسلام الذي هو ليس رسول عقيدة فحسب ، بل هو ايضا مناضل عنها بنفسه ودمه اذا اقتضى الحال ، وهو لم يكن الاول بين من تصدى لنضال المسلح بين الانبياء فقد سبقه رسل آخرون كموسى وسليمان وداود . وفي المسيحية اباطرة وبابوات وبطارقة قادوا حركات مسلحة على نطاق واسع لنشر المسيحية او للدفاع عن مذهب أو لمناهضة عقيدة اخرى ، وكل الحركات الثورية ذات الاهداف الشريفة فضلا عن الحركات الفوضوية لجأت إلى الهجوم والعنف وسفك دماء الابرياء بغزارة ، وهذا مالم يلجأ اليه الاسلام النبوي مطلقا ، وإلى ان اشتبك المسلمون والوثنيون في معركة بدر ظلت الاشتباكات مجرد مناشات لم تكد تراق فيها دماء على امتداد عدة اشهر ، وهي كلها على الخط الممتد بين مكة والمدينة برا او بحرا .

1- غزوة ودان المعروفة ايضا بغزوة الابواء ، وكانت في صفر بعد سنة من مقدم الى المدينة خرج فيها الرسول على رأس مائتين باتجاه قريش وبني ضمرة ، لكن زعيم بني ضمرة اعترض الرسول وطلب الموادعة فوادعه الرسول ، وودان والابواء متقاربان بثمانية اميال ،

وكان الرسول قد خلف على المدينة سعد بن عبادة ، وقيل ان الرسول عقد لواء ابيض لحمزة في هذه الغزوة التي لم تنته الا بصلح ، والأبواء جبل بين مكة والمدينة وحوله قرية بنفس الاسم ، وبه قبر آمنة بنت وهب ، وودان ايضا قرية من ناحية الفرع (بضم الفاء) ، وبكل من ودان والابواء تقطن ضمرة وغيرها .

2- سرية عبيدة بن الحارث ، واتجهت الى ثنية المَرّة (بفتح الميم والراء)وهي مِنَ الاماكن التي مر بها الرسول في هجرته الى المدينة ، وبها ماء حوله جمع كبير لقريش وجدته السرية وكانت في 60 الى ثمانين راكبا من المهاجرين ، وتلقى سعد بن ابي وقاص سهما من المشركين ولكن لم ينشب قتال ، وفر من صفوف المشركين الى الجانب الاسلامي المقداد البهراني وعتبة بن غزوان المازني وكانا مسلمين ، ولا نعلم لماذا لم ينشب قتال بين الفريقين ، وكان على رأس المشركين عكرمة بن ابي جهل وقد اسلم فيما بعد ، ويعد من كبار الصحابة ، وكان هذا اللقاء في ربيع الاول من السنة الثانية .

3- سرية حمزة الى شاطئ القلزم (البحر الاحمر) وكانت في السنة الاولى عند ابن الاثير وفي الثانية عند غيره ، وكان حمزة بن عبد المطلب على راس ثلاثين راكبا من المهاجرين صادفوا ثلاثمائة راكب من اهل مكة بقيادة ابي جهل فتوسط في الموادعة بينهم مجدي بن عمرو الجهني وكان موادعا للطرفين معا ، وهو من زعماء جُهَينة التي مواطنها عند ساحل البحر الاحمر ، وحسب اليعمري كان عدد قريش مائة وثلاثين ، وحمل لواء السرية ابو مرثد .

4- غزوة بُوَاط (بضم الباء) جبل من فرعين بناحية رضوى ، وهو من مناطق جهيْنَة توجه إليه الرسول في ربيع الأول او الثاني من السنة الثانية في مائتين واستخلف بالمدينة السائب بن مظعون وقيل سعد بن عبادة ، وكان يريد اعتراض قافلة كبيرة لقريش من الفين وخمسمائة جمل معها مائة من قريش على راسهم أمية بن خلف غير أن الرسول لم يصادف القافلة فعاد إلى المدينة .

5- غزوة العُشيرة (بضم العين) في جمادى الاولى من السنة الثانية وهي واحة من نواحي ميناء ينبع فيما بين مكة والمدينة ، واستخلف الرسول بالمدينة ابا سلمة بن عبد الاسد ، وقد اعطى ابن هشام وصفا دقيقاً للاماكن التي مر منها الرسول . وكان يريد

اعتراض قافلة لقريش عائدة من الشام ، وحمل لواءهُ حمزة وكان ابيض فوجد القافلة قد عبرت قبلـه بثلاثة أيام ، فاقام بالمنطقة مدة من جمادى الأولى وأياما من من الثانية وادع خلالها بني مدلج وحلفاءهم من بني حمزة ولم يكن حرب ، وكان المساهمون في هذه الغزوة مهاجرين فيما بين مائة وخمسين ومائتين ، ولم يكن لهم من الرواحل الا ثلاثون كانوا يتناوبونها ، وهذه القافلة التي كانت هدفا لهذه الحملة هي التي كانت هدفا للمسلمين في معركة بدر بعد ذلك .

6- سرية سعد بن ابي وقاص في جمادى الأولى سنة 2 حسب ابن اسحق وكان الرسول قد بعثها في ثمانية من المهاجرين اثناء قيامه بغزوة العشيرة فوصلت الى الخرّار (بشد الراء الاولى) بقرب قرية الجحفة في اتجاه مكة ولم تواجه السرية مقاومة وربما كانت استطلاعية فحسب .

7- غزوة سفوان او بدر الاولى ، كان الرسول قد وجه كرز (بسكون الراء) بن جابر الفهري الى ضواحي المدينة حيث وجد ماشية فاستاقها ، وخرج الرسول في طلبه فلم يصادفه ، ثم بلغ واديا يدعى سفوان بمنطقة بدر التي وقعت فيها غزوة بدر الكبرى فيما بعد ، واستعمل الرسول على المدينة زيد بن حارثة ، وهذا التغيير في سلك العمال المؤقتين وتداول شؤون المدينة بين الانصار والمهاجرين يعطي معنى طبيعيا للمساواة بين الفئتين ، وحمل لواء الرسول علي ابن ابي طالب وعاد الرسول الى المدينة بعد ان افتقد اثر جابر كما تعرف على المنطقة وكانت هذه الغزوة حسب ابن اسحق في جمادى الاولى من السنة الثانية .

8- سرية عبد الله بن جحش ، وهو مهاجر من بني أسد ، خرج بأمر الرسول في ثمانية من المهاجرين خلال رجب من السنة الثانية ، وكان ضمن الثانية عتبة بن غزوان وسعد بن ابي وقاص وعكاشة بن محصّن وكلهم من كبار قادة الاسلام ، وسلم الرسول الى قائد السرية كتابا يامره ان لا يفضه حتى يسير يومين باتجاه مكة ، فلما بلغ مسيره وجد في الكتاب امرا بالمتابعة الى نخلة وهي موقع بين مكة والطائف وان يتعرف على اخبار قريش بالمنطقة ولا يكره احدا من اصحابه على مرافقته ، على ان يتوجه بقصد الاستشهاد عند الاقتضاء ، فصمم الجميع على تنفيذ التوجيهات النبوية ، فلما بلغوا مكانا يدعى

بحْران اضل سعد وعتبة بعيرهما فتعقباه غير انهما اضاعا رفاقهما ، ثم مرت قافلة لقريش فيها بضائع من زبيب وادم وغيرهما ومع القافلة جماعة من قريش فيهم عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وكان عكاشة قد حلق راسه فاعتقدت القافلة انه ورد للعمرة ورأت السرية ان تستغل الفرصة بعد تردد بسبب الشهر الحرام فقتلوا احد المرافقين للقافلة واستأسر الاثنان المذكوران ثم اقتيدا الى المدينة فوبخ الرسول السرية على تسرعها في القتال في الشهر الحرام حيث كان المفروض ان تكون هي موضع هجوم المعادين ، وحسما للمشكل نزل الوحي على الرسول : «**يسالونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه . قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه اكبر عند الله ، والفتنة اكبر من القتل .**» فارتاحت لذلك نفس الرسول وافراد السرية ، ثم وقعت مفاداة الاسيرين وحاز الرسول اموال القافلة واسلم من الاسيرين الحكم بن كيسان ، ثم قسمت الغنيمة ، وكانت اول غنيمة في الاسلام . [1]

كانت غزوات وسرايا الرسول ، قبل اول اشتباك حربي حقيقي ، مجرد مناوشات او استطلاعات او غارات على الاموال ، والمفروض ان هذه الغارات اضعاف لاقتصاد العدو ، وإن لم يجن منها المسلمون كبير فائدة حتى غزوة بدر الكبرى ، ومن ناحية ثانية لا يوجد من الجانب الاسلامي في صف المواجهة الا المهاجرون في كل الاحوال تقريبا ، ولم يكن اخراج الانصار تقليلا لاهميتهم او لاستئثار المهاجرين بفضل المقاومة وعبئها ، ولكن المهاجرين هم اعرف بامور الاطراف المعادية للاسلام ، كما ان الرسول لم يرد ان يحمل الانصار في آن واحد عبء المقاومة وإيواء المهاجرين ، غير ان معركة بدر اتاحت بعد هذه المناوشات تعاونا بين الفريقين في مختلف المواجهات وكان الانصار في بيعة العقبة قد تعاقدوا مع الرسول على ان يحموا المهاجرين ما داموا بالمدينة ، ولكن غزوة بدر غيرت مجرى الامور .

1- انظر عن الغزوات والسرايا قبل بدر ، ابن هشام ، 2 ، 170 - 181 . طبري ، 2 ، 259 - 264 . ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 77 - 80 . مقدسي 4 ، 181 - 184 .
اليعمري ، 1 ، 263 - 277 . ابن خلدون ، 2 ، 744 - 748 . ياقوت ، معجم البلدان .

ولا تتفق الروايات بشأن ترتيب الغزوات والسرايا المذكورة ولذلك كانت رواية ابن هشام والتي تستند الى ابن اسحق الذي هو اقرب زمنا الى الرسول نسبيا هي أولى بان تعتمد كما سارت على ذلك هذه الدراسة في هذا المجال .

غـزوة بـدر ، رمضـان سنــة 2

بدر اسم بئر بين مكة والمدينة اسفل وادي الصفراء باتجاه ميناء الجار الواقع على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) ، وكان الرسول يستطلع اخبار قريش بواسطة عيونه فعلم منهم ان قافلة كبيرة لقريش ستنطلق وعلى رأسها ابو سفيان ومعه بضع عشرات من الفرسان قدروا بثلاثين الى سبعين وعدد عِيرِ القافلة زهاء الف وكان مع ابي سفيان مَخْرَمة ابن نوفل وعمرو بن العاص ، فتجهز الرسول في ثامن رمضان وعرض على الانصار الخروج معه وكانت وجهته القافلة نفسها لضخامة اموالها ولم يكن الرسول يتوقع قتلا شديدا او حربا حقيقية .

وكان تجهيز الطرف الاسلامي كما ياتي :

- المهاجرون : 64
- الانـــصار : 250

المتخلفون من المهاجرين والانصار لعذر : 8 منهم عثمان الذي بقي مع زوجته التي كانت في مرض شديد وهي رقية بنت الرسول ، وكذا طلحة وسعيد بن زيد وهما في مهمة استخبارية لتتبع تحركات قريش واستعداداتها فضلا عن مخبرين اثنين آخرين .

- الإبـــــل : 70 يتداولها مجموع المسلمين البالغ 314
- الاسلحــــة : 70 سيفا ، وقليل من الدروع
- حامل اللواء : مصعب بن عمير
- حامل الراية : علي بن ابي طالب عن المهاجرين ، وسعد بن عبادة عن الانصار ، والرايتان سوداوان ومهمة حاملهما توجيه التحركات العسكرية بامر الرسول .

واتخذ الرسول طريق بدر ، وذكر ابن هشام نقلا عن ابن اسحق مختلف المراحل التي قطعها الرسول الى بدر ، فلما وصل ذفران (بفتح ثم كسر) وهو واد قريب من وادي الصفراء ومن بدر ، ظهر أن قريشا اخذت استعداداتها لحماية القافلة وذلك ان ابا سفيان

تعرف من آثار روث دَابَتَيْ بعض عيون الرسول اثناء الطريق عند الجحفة ، على ان مصدره يثرب فتنكب طريق بدر واخذ طريق الساحل باتجاه مكة لان قافلة قريش كانت قادمة من الشام ، واثناء ذلك كان ابو سفيان قد ارسل الى اهل مكة يستقدم وجوههم واقوياء شبابهم فتوافدوا حتى بلغ عددهم تسعمائة وخمسين ، وبينَمَا كان الرسول في ذفران علم من الجاسوسين بسيس وعدي وهما من جهينة إحدى قبائل شاطئ البحر الاحمر ان إبل قريش تمر بجهة بدر ، فعقد الرسول مجلسا حربيا استفهم فيه المهاجرين عن موقفهم ومدى استعدادهم للمواجهة ، فكان ابو بكر وعمر ممن تحمسوا للهجوم على القافلة وكان الرسول ينتظر جواب الانصار لان موقفهم حاسم فتكلم سعد بن معاذ مذكرا بان الانصار اعطوا مواثيقهم للرسول على السمع والطاعة وانهم يمضون إلى ما يمضي اليه ، فارتاح الرسول لهذا الموقف الشجاع واصبح على الانصار منذئذ ان يدخلوا (لاول مرة في الاسلام) إلى جانب المهاجرين ، ضد قريش ، وقيل ان الذي تكلم باسم الانصار هو سعد بن عبادة ، كما قيل ان سعد بن عبادة لم يشهد بدرا ، وهذه رواية اليعمري نقلا عن ابن سعد ، وقال الرسول في رده : سيرا وأبشـروا ، فإن الله قد وعـدني إحدى الطائفـتين ، والله لكاني الآن انظر الى مصارع القرم ، والمقصود بالطائفتين ، العير ، وأصحابها . وحسب رواية ابن كثير كان عقد هذا المجلس بالروحاء .

وفي هذه الاثناء عمد ابو سفيان الى توجيه العير عبر الساحل الى مكة ، لكن قريشا قررت ان تنزل بدرا من اعلاها واصر على ذلك ابو جهل بحجة اظهار مهابتها وابراز افراحها ثم نزلوا ورء تل ، كما تحرك الرسول لينزل مع المسلمين اسفل وادى بدر : (إذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ...) وقبل وصوله بعث عليّاً والزبير وسعد بن ابي وقاص في مهمة استطلاعية للتعرف على اخبار قريش فوجدوا ساقيين من سقاة قريش فقبضوا عليهما ، غير انهما رفضا ان يذكرا عدد قريش امام الرسول ، ولكنه تعرف منهما على عدد ما يذبحونه من غنم يوميا وكان بين التسعة والعشرة وهذا ما فهم منه الرسول ، وما تاكد فيما بعد أن عدد المشركين حوالي 950 الى الف ، فقال عندئذ : هذه مكة القت اليكم افلاذ كبدها .

ومنع قريشا من بلوغ ماء بدر نفسه مطر نزل ، وتحول ما كانت تريده من افراح

تقيمها ثلاثة ايام الى هموم مواجهة قاسية يتقرر فيها مصير الاسلام نفسه لان الشرك ما زال اشد عَضُداً من حيث العدد والعدة ، وعاق المطر قريشا عن التحرك ، بينما كان مواتيا للمسلمين لانه لبَّدَ لهم ارض الوادي فسهل تحركهم ثم اقترح الحباب ابن المنذر على الرسول ان يصل الى اقرب ماء من القوم ، وكان بالمنطقة عدة آبار فضلا عن الوادي . وعمل الرسول برأيه كما استمع الى اقتراحه ببناء حوض وتجميع الماء به وتغوير الآبار الاخرى . واستمع الى اقتراح سعد بن معاذ ، فبني له عريش يراقب منه عمليات المواجهة ويوجهها .

ثم هم نفر من قريش بالاقتراب من الحوض فوقعت فيهم سيوف المسلمين ، وبذلك بدأت العمليات الاولى للقتال صبيحة الجمعة من سابع عشر رمضان على الارجح ، وتعرفت قريش بدورها على عدد المسلمين وانتهت الى انه ليس لهم كمين ولا احتياطي ، ولكن المخبرين اكدوا ان المسلمين وردوا بقصد الاستشهاد ، وقام عتبة بن ربيعة من كبار قريش ينصح قومه بالعدول عن الحرب فاستضعفه ابو جهل وكان عتبة يرى القتال بين الاقارب والاصهار غير معقول ولا مجد فلما سمع من ابي جهل ما يكرهه قرر ان يبدأ المبارزة ، واثناء ذلك اصطف الجيش الاسلامي كما اصطف في الجهة المقابلة المشركون وكان الرسول يعدل الصفوف بيده ثم دخل العريش داعياً ومعه ابو بكر وقال : اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض . اللهم انجز ما وعدتني ، وكان الرسول قد بات ليلته يصلي ويدعو ويراقب ، ثم تزاحف القوم وتقدم للمبارزة عتبة بن ربيعة واخوه شيبة وابنه الوليد وخرج اليهم علي وحمزة وعبيدة بن الحرث فقتلوهم ، وكان من اوامر الرسول ان لا يهاجموا القوم بداءة بل امرهم ان ينضحوهم بالنبل اذا هوجموا . وجرت اثناء قيام الرسول بتسوية الصفوف حادثة ذات عبرة ، فقد كان الرسول يحمل سهما يسوي به الصفوف فشاهد سواد ابن غزية حليف بني النجار خارجا عن صفه فطعنه طعنة خفيفة بالسهم فتوجع لها سواد وطالب بالقصاص فكشف الرسول عن بطنه ليقتص منه سواد فبادر سواد يقبلها ويقول : أردت ان يكون آخر العهد بك انْ يمس جلدي جلدك ، واخذت السهام تتقاذف من الفريقين وكان مهجع مولى عمر بن الخطاب أول شهيد في المعركة ، وهذه ايضا عبرة اخرى ان يكون شرف الاسبقية الى التضحية لأحد الموالي ، وطالما كان اضعف الناس مركزا أقواهم تشبثًا بالعقيدة . ولما رأى الرسول ان النضح بالنبال لم يعد له كبير مفعول عمد الى حفنة من

الحصى فقذف بها نحو قريش وقال : شاهت الوجوه ، ثم أمر المسلمين بالهجوم على العدو والاشتباك مع صفوفه وأعطى أمره بأن يأسروا من وجدوا من بني هاشم ولا يقتلوهم لانهم اخرجوا للقتال كرها . ويتحدث القرآن الكريم عن نصرة الملائكة للمسلمين في هذه الموقعة التي كانت حقا بعيدة عن التكافؤ عددا وعدة وتموينا ، ولولا قوة روحية مؤازرة للجانب الإسلامي لكانت النتيجة نكسة بالغة له ، وكان من تناقضات ابي جهل دعاؤه إذْ يقول عن الرسول : اللهم أقطعنا للرحم واتانا بما لا نعرف ! فمن قاطع الرسول وبني هاشم ثلاث سنوات ؟ ومن طرد المهاجرين من بين ذويهم واهلهم ؟! ومن تشبث بأصنام لا تعرف شيئا ؟!

وقد قتل ابو جهل على يد عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء . وقتل آخرون من المشركين وعددهم سبعون من بينهم امية بن خلف الذي كان يعذب بلالا . ولما استعرض الرسول رؤوس القتلى شاهد بينهم رأس أبي جهل ، ثم أمر بجثث المشركين فالقيت في القليب وخاطبها الرسول بقوله : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فاني وجدت ما وعدني ربي حقا ، وأولت عائشة هذا الخطاب لأموات بانه مجرد اثبات للحق على لسان الرسول ، وقرأت قوله تعالى ، فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ما ولوا مدبرين .

وكان بين قتلى قريش عدد ممن فتنوا عن الاسلام بمكة كأبي قيس بن الوليد ابن المغيرة وعلي بن امية بن خلف والعاصي بن منيه وغيرهم ، واعطى الرسول الامر بان من قتل قتيلا او اسر أسيرا فله سلبه . وكان بين المشركين عدد كبير من الدارعين وبين المسلمين اقلية ممن تدرعوا .

ووقع في الاسر سبعون من قريش على ما ذكره ابن الاثير واليعمري وغيرهما ، وفيهم العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وابو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الوسول وعدد كبير من بني أمية وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث ، وامر الرسول بضرب عنق هذين (عقبة والنضر) . أما النفل فقد قسم بالسوية بين المسلمين قبل دخول الرسول الى المدينة ، وكان تقسيمه في سير ، بين مضيق الصفراء والنازية وهناك قتل النضر وعقبة ولما وصل الرسول إلى الروحاء تلقى تهانئ المسلمين ، وعند دخوله الى المدينة اوصى بالاسرى خيرا . وكان عدد شهداء بدر اربعة عشر منهم ثمانية من الانصار وستة مهاجرين .

وكان لهذه الهزيمة الشنيعة التي تلقاها المشركون اسوأ اثر بمكة فقامت المناحات بالبيوت وتردد اشراف قريش في فداء الاسرى حيث عدوا ذلك مهانة في البداية ثم ما لبثوا ان تنازلوا لمفاداتهم وقررت قريش مع هذا ان تتهيأ للانتقام .

وعولجت قضايا الاسرى حسب الحالات الخاصة ، ففي البداية وقع توزيعهم بين الاسر لرعايتهم ولما بدأت المفاداةُ كان تقديرها حسبما تقرر في مجلس جماعي عقده الرسول ، فكان من بين الحالات :

1- وضعية العباس عم الرسول ، وعقيل بن ابي طالب وهو ابن عم الرسول . وكان من رأي عمران يُعْدما إحراقا مع سائر المناهضين من اسرة النبي ، أما ابو بكر فارتأى الابقاء عليهم ، وعمل الرسول برأيه لأنهم هم ايضا عانوا معه الاضطهاد اثناء حصار الشعب ، وبذلك افتدى العباس نفسه ضعفين وافتدى عن عقيل ، وكان العباس كارها لهذا الفداء الثقيل ولكن الرسول كان يعرف انه ذو مال ، بل كشف له عن خبإ المال في بيته ، واسلم العباس في هذه الفترة ، كما اسلم عقيل واسرى آخرون .

2- وضعية ابي العاص بن الربيع زوج بنت الرسول وامه هالة اخت خديجة ، وكان قد تزوج زينب على يدها قبل الوحي ، ولم تكن زينب بقادرة على ان تغادر مكة ، فلما أسر ابو العاص في بدر بعثت قلادتها لتفتديه ، فرق لها الرسول وطلب الرسول في تواضع من اصحابه ان يطلقوا الاسير ويردوا القلادة لصاحبتها واشترط الرسول في ذلك اعادة زينب الى بيته وكلف بمرافقتها اثنين من اصحابه احد هما زيد بن حارثة والآخرون من الانصار ، فكان ابو العاص عند وعده ثم تجهزت وخرجت سرا ولكن قريشا ردتها بالقوة وكانت حاملا ففزعت وطرحت حملها ، ثم ما لبثت ان اذن لها بمغادرة مكة ، وبعد اسابيع وقع ابو العاص في الاسر على يد سرية فلما دخل المدينة فر الى زينب مستجيرا فقبل الرسول جوارها ثم خير اصحاب السرية في ارجاع ما أخذوه من مال لابي العاص او الاحتفاظ به فيئاً ، فقبلوا ارجاعه كله وكان شيئا كثيرا فيه تجارة لقريش فاسلم عندئذ من تلقاء نفسه بعد ان شهد اسلوب التعامل في ظل الدين الجديد ، واسترد زوجته اثر ذلك .

3- وضعية سهيل بن عمرو وكان جهوري الصوت ، وقد اشار عمر ان ينزع ثنيته ويخرج لسانه حتى لا يخطب هاجيا الرسول والإسلام ، فقال الرسول : لا أمثل به فيمثل

الله بي ولو كنت نبيا ، وانه عسى ان يقوم مقاما لا تذمه . وقبل الرسول فداءه وقد اسلم فيما بعد ، ووقف موقفا عظيما كالذي اشار اليه الرسول ، وذلك بعد وفاة النبي (ص) ومحاولة قريش الارتداد عن الاسلام حيث خاطبهم سهيل من جملة ما قال : لا تكونوا آخر من أسلم واول من ارتد ، وحافظت قريش بفضل تثبيته على الاسلام .

وكان من الاسرى عمرو بن ابي سفيان ، وقد افتدي بسعد بن النعمان حليف بني عوف بالمدينة وكان قد دخل مكة معتمرا فاعتقله ابو سفيان حتى افتدى ابنه به .

واما الفداء بالمال فتدرج من الف درهم الى اربعة آلاف درهم ، ولم يشهد الحرب ابو سفيان بل يظهر انه رافق العير التي افلتت من قبضة المسلمين بما تحمله من اموال ، اما ابو لهب عم الرسول فكان قد تخلف بمكة وسمع ما حصل من نكبة قريش في بدر فجن جنونه ، ثم لم يلبث إلاّ اياما قليلة فابْتُلِيَ بالعدسة وهي قرحة مُعْدِيَة أشد العدوى فمات منها ، ودفن بكثير من الحيطة بعد ثلاثة ايام ، وهكذا فلم يكن بيت من قريش لم يصَبْ في رب عائلته او في احد افرادها فضلا عمن تحمَّل ذل الأسر ، وكان ذلك اكثر من مهانة بالنسبة لقريش التي كانت تحترم مقامها كل القبائل . وعمد أحد سراتها وهو صفوان بن امية الى انتداب عُمَيْر بن وهب الجمحي الذي أُسر له ابن يبدر ليتولى اغتيال الرسول بالمدينة بعد ان تحمل عنه ديونه ، وسار عمير الى المدينة متقلدا سيفه فعرف الرسول الشر في وجهه وفضح مؤامرته مع صفوان ، فبهت عمير واعلن اسلامه فورا ، وقال الرسول عندئذ : فقهوا اخاكم في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا اسيره ، وكان عمير من اشد قريش على المسلمين بمكة قبل اسلامه .

اما تقسيم الغنائم يوم بدر فحسب ابن كثير نقلا عن القاسم بن سلام ان الرسول قسمها من غير تخميس وذلك تبعا للآية : (قل الانفال لله والرسول) . وقد نزلت سورة الانفال بشأن معركة بدر ، وورد في آية اخرى من سورة الانفال تفصيل ما يجب عمله في الغنائم : " واعلموا انما غنمتم من شئ الآية .." وهكذا كان الرسول يتصرف في الخمس بحسب اختياره والباقي يوزع بين الجيش ، واستفاد من القسمة بعض المتخلفين لعذر كعثمان .

وتحدثت سورة الانفال عن دور الملائكة في مساعدة المسلمين : «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين ...» كما تناولت فضل الله على المهاجرين خاصة : " واذكروا إذ انتم قليل مستضعفون في الارض تخافون أن

يتخطفكم الناس فآواكم وايدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون " .

وعالج معركة بدر مع اختلاف في بعض التفاصيل كل من كتاب السيرة والمحدثين والمفسرين ، ونقل ابن هشام واليعمري والمقدسي وغيرهم مقطوعات وقصائد عن بدر ساهم فيها المسلمون وحتى المشركون ، ولاشك ان القرآن بوأ بدراً اعظم مكان بالنسبة لكل المواجهات الاسلامية فيما عدا فتح مكة .

وواضح ان انتصار بدر ترك اعظم اثر في نفوس المهاجرين والانصار ، فان المعركة كما ذكر ابن كثير لم يكن فيها الطرفان على موعد ، وكان هذا الانتصار العظيم بداية طيبة لسلسلة الانتصارات التالية على الرغم من نكسة أُحُدٍ التي تلقى المسلمون فيها دروسا عملية في نتائج عدم الانضباط والتسرع الى الغنائم قبل انسحاب العدو كليا . [1]

الغزوات والسريا فيما بين بدر واحد :

انصرمت حوالي ثلاثة عشر شهرا فيما بين موقعة بدر وموقعه أُحُد التي كانت في شوال من السنة الثالثة ، وخلال هذه الفترة انشغلت قريش بالتهيئ قصداً لأخذ الثار وانشغل الرسول والمسلمون بمناوشات جديدة شبيهة بالتي تقدمت بدرا كما طرد بنو قينقاع اليهود من المدينة ، وهؤلاء يحسن ارجاؤهم الى موضوع الصراع ضد اليهود الناكثين للعهد عموما ، فاما الغزوات والسرايا في الفترة المذكورة فهي :

1- غزوة الكدر (بضم فسكون) ، والكدر موقع مائي لبني سليم المعادين للاسلام والمؤمنين ، على مسافة 160 كيلومتر من المدينة ، وكان خروج الرسول اليها في شوال من السنة الثانية وخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري او ابن أم مكتوم ، وكان لواؤه مع علي بن ابي طالب ، واستاق معه غنما ورعاة لبني سليم كما بعث في نفس الوقت سرية الى جهة اخرى من سليم استشهد فيها ثلاثة وعادت السرية بقطيع غنم ، وأقام الرسول بالكدر ثلاث ليال ثم عاد الى المدينة ، وكان قبل خروجه الى الكدر قد بعث عمير بن عدي أو ان عميرا هذا انطلقَ من تلقاء نفسه لاغتيال سيدة من بني امية اسمها عصماء بنت مروان ،

1- راجع عن بدر : ابن اسحق ، ص 305 - 309 . ابن هشام ، 2 ، 182 - 285 . ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 80 - 96 . الطبري . 2 ، 276 و 288 - 297 . المقدسي 4 ، 185 - 184 . اليعمري ، 1 - . 290 - 350 . ابن خلدون ، 2 ، 748 - 755 . ابن كثير . تفسير (سورة الانفال) . ياقوت ، معجم ، مادة بدر . الغلامي ، اصحاب بدر .

وكانت زوجة لأحد سكان المدينة ولسانها شديد البَذاءَة ضد الإسلام ورسوله حتى انها كانت تهجوه شعرا وتحرض عليه كما نقل اليعمري .

وقبل غزوة الكدر او بعها (من غير اتفاق بين المصادر ، وقع اجلاء بني قينقاع على ما سياتي تفصيله .

2- غزوة السُويْق في ذي الحجة من السنة الثانية (والسويق ، بضم السين ، حنطة تطحن وتحمص تم تعجن بسمن وعسل) . وكان ابو سفيان بن حرب قد نذر ان يهاجم المدينة ولكنه لم يتجهز بقصد الدخول في معركة كبرى ، إذْ حاول ان يعقد حلفا مع سلام ابن مشكم زعيم بني النضير ولكن اتصالهما السري لم يسفر عن نتيجة وكان ابو سفيان قد خرج من مكة في مائتي راكب فلم يعد بامكان هذه الفرقة المحدودة العدد ان تقوم باكثر من غارة على ضواحي المدينة عند العُريض (بضم العين) فاحرقت بعض نخل المنطقة وقتلت انصاريا وحليفا له ، فخرج الرسول وجيشه باتجاه المغيرين الذين لاذوا بالفرار فتخففوا من اثقالهم برمي اكياس من السويق ، وبه سميت الغزوة ، غير ان الفارين لم يظهر لهم اثر بعد ذلك ، فعاد الرسول الى المدينة .

3- غزوة ذي أمر (بفتحتين وتخفيف الراء) وهو موقع بنجد من تجمعات غطفان التي كانت من اشد القبائل عداء للرسول وساهمت في الحرب ضده غير ما مرة ، وكانت تتآمر مع قريش واليهود ولها كعبة خاصة بها وصَنَم يحجون اليه بالاقيصر عند مشارف الشام ، وهي من أضخم القبائل عددا . وخرج الرسول من المدينة في صفر من السنة الثالثة وبقي بالمنطقة الى ربيع الاول بعد ان استعمل على المدينة عثمان بن عفان ، ولم يلق الرسول مواجهة في هذه المنطقة التي تقع في طريق العراق ، وقد مضى اليها على رأس أربعمائة وخمسين رجلاً ووقع في قبضته رجل من غطفان هو حبان من بني ثعلبة وقد اسلم على يد الرسول ، اما سكان ذي أمر فهرعوا الى رؤوس الجبال ، ولذلك عاد الرسول الى المدينة .

4- غزوة بحران في ربيع الثاني وجمادى الاولى من السنة الثالثة . وبحران معدن بالحجاز وتقع بناحية الفرع (بضمتين متتاليتن) على مسافة 160 كلم من المدينة وبها حشد كبير لسليم ، وكان الرسول على رأس ثلاثمائة من اصحابه ولكنه وجد جموعهم قد

تفرقت باتجاه مواقعها المائية فعاد الى المدينة .

5- سرية الفردة (بفاء مفتوحة ثم سكون) كما ضبطها ياقوت واليعمري . وورد ايضا بالقاف وبحركات مختلفة كما في كتب السيرة ، كما أن الاسم يطلق على عدة أماكن ببلاد العرب ، والفردة المقصودة على الارجح هي موقع مائي في طريق العراق ، وقد كانت هذه السرية بقيادة زيد بن حارثة في مائة راكب ، وخرجت في جمادى الثانية من السنة الثالثة بعد ان قررت قريش العدول عن طريق الشام المحفوف بالمخاطر منذ وقعة بدر وهكذا خرجت قافلة من مكة متجهة عبر الربذة من نجد وكان في القافلة عدد من كبار تجار قريش فيهم ابو سفيان وصفوان بن امية وحويطب بن عبد العزى ، وكانت معظم تجارتهم فضة ، فاعترضت السرية القافلة وافلت التجار ووقعت العير في يد المهاجمين واسر شخص واحد هو فرات بن حيان الذي اسلم على يد الرسول ، وبلغ المال قيمة مائة الف درهم تم تخميسها ، وهذه العملية هي التي ادت مباشرة الى معركة أحد التي اخذت قريش تستعد لها بصفة جدية [1] .

وقد رأينا ان كل هذه الغزوات والسرايا اتجهت الى اشد الاطراف المشركة عداء للرسول والاسلام ثم هي ظلت في جوهرها ضغطا اقتصاديا على المشركين العتاة حتى يركنوا الى السلم ، وأهم من هذا ان الغزوات والسرايا تعمدت الطرق التجارية بالدرجة الأولى وكان لذلك اثر بالغ على معنوية قريش بصفة خاصة وبالتالي على حركتها الاقتصادية . وكانت المدينة في مركز يسمح لها بالضغط على هذه الحركة وتهديدها حيث تراقب طريق الشام والطريق المتجه الى العراق .

غزوة أحد ، خامس عشر شوال سنة 3

أجمعت قريش على ان تهاجم المدينة في اكبر تجمع عسكري بقصد تصفية الاسلام في مركز قوته ، وكرد على الهزيمة التي تكبدتها في بدر . وعلم الرسول بما دبرته قريش فرأى أن يستعد لحماية المدينة في قتال يجري بالازقة ، وحرضه على ذلك عبد الله

1- ابن اسحق ص 309 - 321 . ابن هشام ، 3 ، 3 - 14 .طبري ،3 ، 5 - 9 . مقدسي ، بدء ، 4 ، 196 - 198 . ابن الاثير ، كامل 2 . 97 - 103 . يعمري 1 ، 352 - 364 . كحالة ، معجم قبائل العرب ، مادة غطفان . ابن خلدون ، 2 ، 755 - 761 . ياقوت ، معجم ، مراد : كدر . ذوأمر ، بحران . فردة

بن أبي ابن سلول وهو من رؤوس المنافقين بالمدينة غير أن المسلمين أصر كثير منهم على مواجهة قريش خارج المدينة عند جبل أحد الذي كان يبعد عن العمارة بأربعة كيلومترات تقريبا فقرر الرسول عندئذ الاستعداد للخروج . وكانت تجهيزات الجيش الاسلامي كما يلي :

- مجموع الجيش في البداية : الف ، تخلف منهم مع عبد الله بن أبى حوالي 300 بين المدينة واحد .

- المساهمون في المعركة : 700 حسب ابن اسحق

- الـــرمــــــاة : 50 بقيادة عبد الله بن جبير

- الدارعــــــون : 100

- حامل اللـــــواء : مصعب بن عمير

- قائد الخيــــــل : الزبير بن العوام ، حسب ابن الاثير الذي ذكر ايضا ان المسلمين لم يكن لهم الا فرسان احدهما للرسول وهذه رواية غيره كذلك ، وذكر ابن خلدون ان عدد الخيل كان 50 .

واما استعدادات المشركين فكانت كالتالي :

- جيش المشركين : ثلاثة آلاف بينهما 15 سيدة

- الخيـــــــل : 200

- الدارعــــــون : 700

- قيـادة الفرســان : خالد بن الوليد (ميمنة) وعكرمة بن ابي جهل (ميسرة)

- القيادة العامة : ابو سفيان

وكان الداعون للحرب من قريش هم عكرمة بن ابي جهل وصفوان بن أمية وعَبْد الله ابن ابي ربيعة وآخرون فاشاروا على ابي سفيان ان يتم الاستعداد للحرب بفضل الاموال التي سلمت من نهب المسلمين قبل نشوب معركة بدر ، تم تولى اربعة من قريش دعوة حلفاء قريش القريبين من مكة الى المشاركة في الحرب ضد المسلمين . ومن هؤلاء الأربعة عمرو بن العاص والشاعر ابن الزبعرَى فانضمت اليهم كنانة وثقيف وقبائل تهامة فضلا عن الأحابيش وهم سكان جبل حُبشي (بضم فسكون فكسر) على نحو عشرة كيلومترات من

مكة ، وينتمي عدد منهم الى المجموعة القرشية نفسها ، ولا يقصد بهم الاحباش وهم الايريتريون الذين كانوا يوجدون بكثرة في الحجاز ، واجتمع لدى قريش من بيع الف بعير مبلغ خمسين الف دينار ذهبا ، وهو مبلغ كبير جدا ، وحسب ابن اسحق فقد نزل قوله تعالى في سورة الانفـــال : « **ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله الآية ...**» من اجل هذا الاستعداد المادي لحرب احد ، ولكي يشحن زعماء قريش طاقاتهم المعنوية بما يكفي من الشجاعة والدفاع عن الشرف ، فقد احضروا زوجاتهم يضربن بالدفوف ويثرن حماس الرجال للحرب .

وهكذا خرجت قريش عازمة على ان تهاجم المدينة وتفتك بالرسول والمسلمين بينما اخذت المدينة تستعد هي ايضا بعد ان تلقى الرسول تقريرا من العباس بن عبد المطلب عن تحرك قريش ، فلما رأى الوهن في جماعة المنافقين بزعامة عبد الله بن سلول كاد ان يركن الى خطته بملازمة المدينة للدفاع عن بيوتها دون تحرك ، لكنه نزل عند رأي الذين فضلوا مقابلة قريش بعيدا شيئا ما عن المدينة . ومع ذلك خرج المنافقون مع الرسول في جيشه البالغ زهاء الف . وليس من شك في ان الطمع في الغنيمة حرك نفوس عدد من الذين تحمسوا للقتال كما دلت على ذلك نتائج المعركة . وليس من شك في ان في المؤمنين تفاضلا كما ان في غيرهم تفاوتا ، فلما تقدم الجيشان انسحب فجأة جمع المنافقين وكاد ذلك يؤدي الى قتال بين المسلمين بسبب رغبة بعضهم في الانسحاب ايضا ، واستخلف الرسول على المدينة ابن أم مكتوم للقيام بالشؤون الدينية . وحاول الرسول ان يسلك بالجيش طريقا من وراء العدو ، وواجه عداء من احد المنافقين ، وكان على الجيش ان يخترق ارضه لهذا الغرض ، لكن الجيش تقدم حتى كان بِشعْب احد فترك احداً خلف ظهره واستقبل المدينة .

وعندما قام الرسول بعرض الجيش وجد جماعة من المراهقين فردهم ومنهم ابو سعيد الخذري واسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكل من رُدُّوا كانوا دون الخمس عشرة ، وهذا الجيل الناشئ من المسلمين اكتسب مناعة روحية عجيبة من الاسلام فنشأ في كنف النضال وتخرج منه محدثون وعلماء في الدين بارزون . وسمح للمصروفين من هؤلاء الفتيان عن غزوة احد بالمشاركة فيما بعدها من حروب بعد بلوغهم سن الخامسة عشرة .

وأمر الرسول المسلمين ان لا يبدأوا القتال حتى يصدر امره كما امر رئيس الرماة عبد

الله بن جبير ان تتولى فرقته نَضْح خيل العدو بالنبال حتى لا تهاجم المسلمين من خلفهم ، وكان على خيل العدو كل من خالد بن الوليد وعكرمة وهما من اشجع القواد واخبرهم بحروب العرب ، وكان ينسق بينهما صفوان بن امية ، كما اسندوا قيادة الرماة الى عبد الله ابن ابي ربيعة والقيادة العامة لابي سفيان ، وكان الرسول قبل خروجه من المدينة قد صلى الجمعة بالمسلمين ثم وعظهم وحضهم على الجهاد في خطبة على حدة بعد الصلاة وانطلق هو نفسه للقتال دارعا .

ويظهر من حديث ابن عباس الذي نقله الطبري ان الجيش الاسلامي كان يتوفر على فرقة من الفرسان لانه عهد بقيادتها للزبير وامره بمقابلة خالد ، ثم تقدم الجيش صاحب اللواء مصعب بن عمر وقاد الرجالة حمزة كما وضعت فرقة اخرى من الخيل لتواجه فرقة عكرمة ، وكان ابو سفيان يحمل صنمي اللات والعزى مستنصرا بهما ، فامر الرسول بانطلاق الهجوم من الجانب الإسلامي ، فهاجم الزبير فرقة خالد التي كسر الهجوم صفوفها وهزمها ثم هاجم المشاة نظراءهم يتقدمهم حمزة ، وركزوا هجومهم على حامل لواء المشركين الذي خر صريعا وتعاقب بعده آخرون قتلوهم ايضا ، وذكر اسماءهم اليعمري ، وكذلك قتل مصعب بن عمير حامل لواء الرسول ، ثم حمل اللواء بعده علي بن ابي طالب ، وابدى حمزة من الشجاعة الوانا حتى قتله غيلة بحربة طويلة وحشي الحبشي وهو عبد لجبير بن مطعم الذي كان حمزة قد قتل احد اقربائه . وكان من بين شجعان احد ، أبو دجانة سماك بن خرشة من بني ساعدة وجماعة ممن ناضلوا عن الرسول كعمار بن يزيد والنضر بن أنس . وكان ابو دَجانة يضرب بسيف الرسول حتى قتل به عددا وكان المشركون لكثرة عددهم قد تمكنوا من الثبات في وجه المسلمين ، غير ان هجوم فرقة الرماة المسلمين ومقتل اصحاب اللواء من المشركين تباعا جعل هؤلاء تضطرب صفوفهم حيث لا يمكن التئامها من غيرحامل اللواء ، وقد قتل من حملة لوائهم ما لا يقل عن عشرة جلهم إِخوة من اسرة واحدة ، فكانت بذلك هزيمتهم واسرعت السيدات الى رؤوس المرتفعات ولم يسمع المسلمون لنداء الرسول بملازمة اماكنهم وعدم الانشغال بجمع الغنائم حتى ينسحب الاعداء كليا ، وانقض جل الرماة على الاسلاب والغنائم ولم يبق الا قائدهم مع تفرق المسلمين وانشغالهم بالغنيمة فانقض خالد وعكرمة بمن معهما على الرماة فأفنوهم ومنهم عبد الله بن جبير ، ثم بادر المنهزمون على

نداء خالد فأعملوا السيف في رقاب المسلمين الذين انقض عليهم الاعداء من خلف كما قتلت جماعة من الانصار وهي تواجه جموع العدو ، وثبت الرسول مكانه فرمى بقوسه حتى تناثـرت ، وثبت الى جانبه قليل من اصحابه وهم اربعة عشر نصفهم مهاجرون منهم ابو بكر ، ونصفهم انصار ، ووقع الرمى باتجاه الرسول نفسه فناضل عنه هؤلاء وتلقى بعضهم سهام الاعداء ، وقيل ان حامل اللواء مصعب انما قتل دونه كما قتل دونه عمارة بن يزيد أو ابن زياد ، وعمد اثنان من المشركين وهما عتبة بن ابي وقاص وعمرو بن قميئة الى حجر ضربا به الرسول فكسر رباعيته اليمنى من فكه الاسفل وبيضة رأسه ، وأشيع ان محمدا قد قتل ، ثم تعرف عليه كعب بن مالك الشاعر ، فجمع المسلمين حوله ونهضوا به الى الشعب فادركه أُبّى بن خلف ، وتناول الرسول حربة من احد اصحابه فطعنه بها في عنقه ومات من هذه الطعنة قبل بلوغه مكة ، ثم صلى الرسول بالمسلمين قعودا .

وكان من المنهزمين عثمان بن عفان وعثمان بن عقبة الانصاري . ولم يكن عثمان ابن عفان ممن يخوضون الحروب ولكنه كان نَقِيَّ الإيمان يضحي بالكثير من ماله في سبيل القضية الاسلامية .

ولما انكسر المسلمون تفرقت نساء قريش بين الجثث يمثلن بها ، ولاكت هند بنت عتبة زوجة ابي سفيان كبد حمزة فلم تَسْتَسِغْها ولفظتها ثم أنشدت شعرا على صخرة وهي تمجد اعمال قومها وتتشفّى من هزيمة المسلمين . وكان من المفارقات ان احد اليهود واسمه مخيريق قاتل الى جانب المسلمين حتى قتل ، وقال عنه النبي : ان مخيريق خير يهود ، وقد تفجع الرسول على شهداء احد ، لاسيما حَمْزة عمه . ومن المواقف الدالة على رباطة جأش المرأة المسلمة ان صفية أخت حمزة عندما علمت بأن أخاها قد مثل به جاءت لتشاهد جثته فامر الرسول ابنها الزبير بردها فقالت : ولمَ ... وذلك في الله ؟ ، فمارِضَانَا بما كان من ذلك ! لاحتسبن ، ولأصبرن ان شاء الله . ثم اذن لها الرسول فتقدمت لترى جثة اخيها فما زادت على ان صلت عليه ودعت واسترجعت .

وكان حزن الرسول على حمزة بالغا اشده حتى أقسم ان يمثل بسبعين من الاعداء اذا وقعوا بين يديه ، فنزل قوله تعالى :

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

وقد حملت بعض الاسر جثث قتلاها حيث دفنت بالمدينة .

وذكر الطبري وغيره نماذج سامية لشجاعة المرأة المسلمة وثباتها وهي تتلقى نعي من استشهد لها . ولم يحدد عدد شهداء احد ، فعند ابن اسحق كانوا ثلث الجيش ، وعند غيره ما بين خمسة وستين وسبعين ، ودفنوا مثنى مثنى او اكثر ، وقدم الرسول الى القبلة اكثرهم حفظا للقرآن وصلى عليهم . وعندما استعدت قريش للعودة الى مكة ارتقى ابو سفيان تلاً بحيث يسمعه المسلمون وصاح : الحرب سجال ، يوم أحد بيوم بدر : اعْلُ هُبل (اي ليرتفع شأنك يا هبل) فرد عليه عمر بامر الرسول : الله أعلى وأجل ، لاسَوَاء ، قَتْلانَا في الجنة وقتلاكم في النار !) وسأل ابو سفيان : أَقُتِلَ محمد فأجابه : لا والله انه ليسمع ...

وحسب الطبري كانت غزوة أحد في يوم السبت من منتصف شوال . ولم يتحرك الرسول للعود الا بعد ان تأكد مِنْ أن المشركين اخذوا وجهتهم نحو مكة وبعث علي بن ابي طالب لتقصي اخبار تحركهم . ولمْ تَخْلُ غزوة احد من مساهمة الشعراء مسلمين ومشركين كما في كتب السيرة (1) .

وذكر ابن هشام نقلا عن ابن اسحق ان القرآن خصص لأحد ستين آية في سورة آل عمران وحدها . وأول الآيات المتعلقة بهذه السورة : « **وإذ غدوت من اهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم ، إذ همت طائفتان منكم ان تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المومنون .** »

ومنها ، بعدما اشيع قتل الرسول ، « **وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افائن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا** » .

الغزوات والسرايا بين أحد وغزوة الخندق (شوال 3 - شوال 5)

مرت سنتان بعد غزوة أحد كانت فيها احداث ذات اهمية خاصة ، فقد برز عداء القبائل من غير قريش للاسلام ، وظهرت رغبة اليهود في تصفية الرسول ، فلما اجلى بني

1- ابن اسحق ، 322 - 335 ، ابن هشام ، 3 ، 14 - 92 . طبري 3 ، 9 - 39 . ابن الاثير كامل 2 ، 103 - 113 . مقدسي ، 4 . 198 - 206 . يعمري 2 ، 5 - 51 .
ياقوت معجم ، مادة حبشي ، ومادة احد . ابن خلدون . 2 . 760 - 767 .

النضير منهم تحرك سائر يهود الحجاز لاثارة الحرب ضد الاسلام وتكوين تحالف ادى في النهاية الى غزوة الخندق المعروفة بغزوة الاحزاب ايضا ، وخلال ذلك كانت بعض الغزوات والسرايا تواصل مهمتها في الضغط على الوثنيين حتى يدخلوا في الدين الجديد :

1- غزوة حمراء الاسد 16 شوال 3 :

وكان الرسول يرغب في قطع الطريق على قريش حتى لاتباغت المدينة مستغلة فاجعة المسلمين في أحد ، فلما كان يوم الأحد 16 شوال وهو اليوم التالي لمعركة أحد ، اعلن مؤذن الرسول عن تجمع عاجل يشمل المساهمين في احد دون غيرهم ثم تحرك الجيش متجلداً وأكثره جريح أو مثقل بالجراح والرسول من بينهم ، واخذ طريق مكة على بعد ثمانية اميال حيث يوجد مكان باسم حمراء الاسد ، وذلك بعد ان ترك على المدينة ابن ام مكتوم ، فلقيه معبد الخزاعي متجها الى مكة ، وكان مشركا من خزاعة تهامة التي كانت كارهة لقريش ، وبين الجانبين عداء خفي قديم حتى ولو تخالفا ظاهريا ، وقام بدور الجاسوس للرسول ، واتصل بابي سفيان وخوفه من استعداد الرسول بحشد كبير للانقضاض على قريش وكان لإنذاره وقْع في نفس ابي سفيان ، لان قريشا كانت تهم باستئصال المسلمين بالمدينة ، واشار صفوان بن امية عليه بالعدول عن مهاجمة مكة ، وعندئذ غادرت قريش معسكرها نهائيا الى مكة . وأثناء عودة المسلمين ظفروا بابي عزة الجمحي وبمعاوية ابن المغيرة ، وكان الاول قد من عليه الرسول بعد اسره ببدر واخذ منه عهداً ان لا يقاتل المسلمين ، فحضر أحدا ، فلما قدم للرسول امر باعدامه قائلا : " لايلدغ المومن من جحر مرتين . ولجأ معاوية إلى عثمان بالمدينة . وكان معاوية قد ضل الطريق عن حشد قريش ، فأمنه الرسول وترك له مهلة ثلاثة ايام ليغادر المدينة ، غير أنه ظل قريبا منها يترصد الاخبار ، فبعث إليه الرسول زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فقتلاه " .

2- سرية ابي سلمة الى بني اسد ، محرم 4

في مطلع السنة الرابعة بعث الرسول مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار الى بني اسد بن خزيمة بنجد في اتجاه طريق الكوفة ، وكان على رأسهم ابو سلمة بن عبد الأسد وكان

الأسديون يجمعون جموعهم لمهاجمة المسلمين . وبلغت سرية ابي سلمة جبل قطن من منطقة فَيد الواقعة في منتصف الطريق بين مكة وموقع الكوفة ، فلم تصادف السرية التي تفرقت الى ثلاث فرق سوى غنم استاقتها الى المدينة ، ويعني هذا ان السرية لم تعثر على معسكر بني اسد .

وبعث الرسول بعد اربعة أيام من توجه هذه السرية الى بني اسد ، عبد الله بن انيس الى سفيان الهذلي لتصفيته ، وكان ينزل مع قومه بِعُرَنَة (بضم ففتح) وهو واد محاذ لعرفات فاستدرجه المبعوث حتى خلابه ثم احتز رأسه ليلا وعاد الى المدينة بعد غياب ثمانية عشر يوما . وتدخل هذه العملية ضمن المخططات الفدائية لتصفية زعماء الشرك الذين أصروا على حرمان القاعدة من الاسلام ومنع قيام أية وحدة تسمو على الوثنية .

3 - وقعة الرجيع في صفر من السنة 4

تلقى الرسول وفدا من العضل والقارة وهما تنتميان إلى خزيمة بن مدركة ، فعرضوا عليه ان يصحبهم وفد لتلقين شعائر الاسلام لقومهم ، فبعث معهم ستة من الصحابة فيهم مرثد الغنوي وخبيب (بضم الخاء) بن عدى وزيد بن الدثنة ، ورئيسهم عاصم بن ثابت الانصاري وحسب الطبري كانت رئاسة الوفد لمرثد ، فلما بلغوا الرجيع (بفتح الراء) وهو ماء لهذيل بين مكة والطائف تسامعت بهم بنو لحيان وهم من هذيل ، فحشدوا مائة رام ثم احاطوا بهم وأمنوهم غدراً الا عاصما فلم يستسلم بل رموه بالنبل فقتلوه . ودافع اثنان آخران عن نفسهما وأحدهما مرثد حتى قتلا ، وأخذوا الثلاثة الآخرين فهمَّ احدهم في الطريق أن يستعمل سيفه فقتلوه ، والباقيان وهما خُبيب وزيد قدموا بهما الى مكة فباعوهما لقريش ، وكان زيد قد قتل امية بن خلف ، والد صفوان في بدر ، كما كان خبيب قد قتل زعيما آخر من قريش في نفس الموقعة ، وتَمَّ اعدام الاسيرين معا خارج منطقة الحرم وصلب خبيب وبرهن عن تضحية بالنفس رائعة ، وصلى ركعتين قبل اعدامه ، وقيل اصبحت هذه الصلاة مسنونة لمن يقدم للاعدام من المسلمين ، وفي رواية للطبري أن

عدد هذه البعثة كان عشرة ، وقال حسان بن ثابت شعرا كثيراً في خبيب نقله ابن هشام ، وفي هذه المذبحة نزلت الآية الكريمة : «**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ... الآية**» .

وعلى اثر هذا الصنيع من قريش ، وهو بِعِلْم ابي سفيان وتحريضه ، قرر الرسول ان يعمل على تصفية ابي سفيان بن حرب فبعث لذلك فدائيين هما عَمْرو بن أمية الضميري وشخص من الانصار . وكان عمرو من فتاك الجاهلية وكان يرغب في ان تتم العملية سرا وفي بيت ابي سفيان ، غير أن رفيقه اشار بان يقوما بالطواف حول الكعبة سبعة أيام ، فتعرف عليهما القرشيون وتهيأوا للقبض عليهما الى ان نجوا في قصة طويلة ذكرها الطبري ، وهي تدل على مدى حرص قريش على تعقب العناصر المسلمة ، وقد أفلتا في النهاية وأعجزا متعقبيهما الى ان دخلا المدينة .

4- شهداء بئر معونة في صفر 4

استقر المسلمون بالمدينة أزيد من ثلاثة أشهر ريثما تلتئم جراحهم ويستعيدوا قواهم ، قبل ان تَحُلَّ نكبة جديدة بمجموعة من خيرة رجالهم وذلك ان عامر بن مالك رئيس عامر بن صعصعة والذي عرف بملاعب الاسنة كما تحدثت بذلك قصص العرب في الاغاني وغيره قدم على الرسول بهدية فرفضها الرسول لانه لا يقبل هدية مشرك وعرض عليه الاسلام فاكتفى بان طلب من الرسول ارسال وفد إلى قومه بنجد ليدعوهم الى الاسلام ، وكان يقصد أن يكون الاسلام من القاعدة اولا حتى يكون موقفه تابعا لها . فتخوف الرسول من اهل نجد بعدما حصل في وقعة الرجيع ، لكن عامر بن مالك طمأنه واكد له انهم سيكونون في حمايته . وهكذا توجه وفد فيه اربعون او سبعون من المرشدين حسب الروايات وعلى رأسهم المنذر بن عامر من بني ساعدة ومعهم خطاب نبوي الى عامر بن الطفيل . وكانت هذه المجموعة من بين أهل الصُّفة الذين كانوا يقومون بتلقين القرآن ليلا ويشتغلون برضْخ النَّوى نهارا ، وكانوا يمثلون بزهدهم احدى الظواهر الاولى لحركة التصوف في الاسلام فلما بلغوا بئر معونة وهي موقع مائي لعامر بن صعصعة في ارض بني سليم

من نجد بعث رئيس الوفد مبعوثا هو حرام بن ملحان الى عامر بن الطفيل بكتاب الرسول ، فلم يهتم بالخطاب النبوي وامر بقتل المبعوث ثم استصرخ بني عامر فرفضوا ان يخفروا جوار ملاعب الاسنة . وأخيرا استغاث على الوفد ببني سليم فاحاطوا بالوفد وفتكوا به ، ونجا منهم كعب بن زيد من بني النجار بعد ان تلقى جراحا خطيرة كما اسر عمر بن امية الضمري وجز عامر بن الطفيل ناصيته ثم اطلق سراحه ، وكان بين القتلى عامر بن فهيرة مولى ابي بكر . ولما كان عمرو عائدا إلى المدينة لقي رجلين من بني عامر عائدين من عند الرسول ومعهما عهد منه ، فاغتالهما ليلا ولم يعلم بالعهد ، وقد وبخه الرسول على صنيعه كما تأثر النبي اشد التاثر لمقتل شهداء بئر معونة وهم من القراء المرشدين ، وحظيت هذه المذبحة برثاء الشعراء المدافعين عن الحزب النبوي كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت .

واثار مقتل العامريين مطالبة قومهما بديتهما ، وكتب بذلك عامر بن الطفيل الى الرسول ، فطلب الرسول مساعدة مادية من بني النضير وهم يهود مزارعون فوعدوا ظاهرياً ثم قرروا اغتياله فادى ذلك الى حربهم ثم اجلائهم كما سيأتي تفصيل ذلك في الحديث عن موقف اليهود .

5- غزوة ذات الرقاع في جمادى الاولى 4

حسب كل من ابن اسحق والوقشي والطبري وابن خلدون كانت هذه الغزوة في جمادى الاولى من السنة الرابعة . ولما كان موقف القبائل النجدية من الاسلام قد ازداد عداء بعد ظهور بوادر من الرغبة التلقائية في الاسلام ، ببعض مناطق نجد ، فقد تهيأ الرسول بعد غزوة بني النضير لحرب غطفان القبيلة القوية بعددها والمتشبثة باستقلالها ، وتوجه اهتمامه بالذات الى بني محارب وبني ثعلبة فخرج في أربعمائة من اصحابه بعد ان استخلف بالمدينة عثمان ، فلما بلغ تجمع بني ثعلبة بمنطقة نخل بنجد ، والبعيدة عن المدينة بحوالي 120 كلم باتجاه طريق البصرة ، توقف هناك بعد أن وجد نفسه امام حشد كبير لغطفان . وتعب المسلمون من السير حتى نقبت اقدامهم فلفوها بالخرق ، وسميت الغزوة لذلك بذات الرقاع وهذا هو الارجح في اسمها وقيل غير ذلك . وخاف المسلمون اعداءهم ،

كما خاف هؤلاء المسلمين فتلافوا الاصطدام ، غير أن أحد بني محارب تقدم الى الرسول في جرأة وقد وعد قومه بقتل الرسول فلما هم برفع سيفه لم يصب الرسول ، وحسب بعض الروايات سقط منه السيف فتناوله الرسول وقال : من يمنعك مني ؟ قال : لا أحد ، ثم اعلن اسلامه .

وفي هذه الغزوة حرص الرسول على أمن المومنين بصورة خاصة ، وتلقى بذلك وحيا إلهيا لقنه صلاة الخوف التي تقتضي ان يصلي المومنون فئتين متتابعتين بكيفية معينة روتها الاحاديث . وهي معروفة في فقه العبادات . وعاد الرسول الى المدينة دون مواجهة حربية ، ونزل بشأن محاولة غطفان قتل الرسول ، قوله تعالى : «**ياايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم ان يبسطوا اليكم ايديهم ...**»

6- غزوة بدر الاخيرة في شعبان 4

بدر الثانية أو الثالثة أو بدر الميعاد أو غزوة السويق ايضا (السويق الثانية) كلها اسماء لمسمى واحد ، فقد كانت بدر الاولى (غزوة سفوان) في جمادى الاولى من السنة الثانية وكانت بدر الثانية هي بدر الكبرى التي حدثت في 17 رمضان من السنة الثانية ، وبعض المؤرخين يعدها بدرا الأولى ، اما غزوة بدر الاخيرة فسماها بعض المؤرخين ببدر الميعاد لان ابا سفيان ضرب لها موعدا في غزوة احد . ولما كان الرسول يتوخى سبق الاحداث فقد تلافى كل هجوم محتمل قد يباغت به المشركون المدينة . وهكذا استعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أُبّي بن سلول أو عبد الله بن رواحة ، ثم خرج على رأس الف وخمسمائة مجاهد بينها عشرة فرسان ، ويبرز هذا العدد من المجاهدين مدى تقدم الاسلام ، فيما بين احد وبدر الاخيرة وبلغ الجيش بدرا وهو موقع بدر الكبرى وكانت تعقد به سوق سنوية لمدة ثمانية ايام وتقع جنوب المدينة في طريق مكة ، ثم انتظر الرسول قدوم قريش بزعامة ابي سفيان ، وكانت قريش قد تلقت اخبار استعداد المسلمين لبدر الأخيرة من طريق نعيم الاشجعي فعهدت اليه مقابل مكافأة من الإبل باثارة ما ندعوه بالحرب النفسية في عصرنا هذا ، وذلك بالذهاب إلى المدينة لتثبيط المسلمين عن القتال وتخويفهم من استعدادات قريش الا ان دوره لم يؤد الى نتيجة ، بل انصرف المسلمون لهدفين : بيع ما

لديهم من مُنْتَجَات في موسم بدر ، ومواجهة قريش عسكريا ، وهكذا خرج جيش ابي سفيان حتى بلغ مَجَنَّة الظهران أسفل مكة على مسافة عشرين كيلومتر تقريبا ، وكانت مجنة من اسواق العرب الكبرى خلال موسم الحج ، وقيل بلغ عسفان منطقة بني لحيان على 36 ميلا من مكة فقرر الرجوع الى مكة بعد استشارة اصحابه ، بحجة ان العام عام جدب لا يصلح للقتال . والأرجح ان تكون هناك اسباب اهم لهذا التراجع لان اكتشاف الجدب لايكون في آخر لحظة ، إذْ يظهر أن التقديرات التي وصلت للمشركين عن الجيش الاسلامي كانت اكبر من توقعاتهم ، وهكذا اتيح للمسلمين بدل المجابهة المسلحة ان يقوموا بصفقات تجارية مربحة ، وان يعودوا الى مواطنهم سالمين وغانمين ايضا ، وقال اهل مكة لقريش : انما خرجتم تشربون السويق ! ولذلك دعي جيشهم جيش السويق .

7- غزوة دومة الجندل في ربيع الأول سنة 5 هـ

دومة الجندل حصن منيع وقوي من حدود الروم بالشام ق ع في طريق وسط بين بادية الشام وبادية العراق ، وسكانها عرب من كنانة الكلبية ، ويدين عدد منهم بالمسيحية ، وكان عاملها عن هرقل هو أُكَيْدر الكندي وقد شكا التجار والمسافرون من المدينة لدى الرسول ما يلقونه من تعسفات هذا العامل والعرب التابعين لادارته ، كما أبلغوه ان هؤلاء يتهيأون لغزو المدينة ويحشدون الحشود ، ولم يكن ذلك في اطار تخطيط بيزنطي ، فما زال الاسلام بعيدا عن ان يهدد الروم وهو ما زال ينحصر بالمدينة الا افرادا معدودين خارجها ، فتوجه النبي على رأس قوة من الف رجل وترك على المدينة سِبَاع بن عرفطة الغِفَاري ، ورافقه دليل من بني عذرة . وكان سفر الجيش ليلا ومكمنه بالنهار حتى وصل الى المنطقة التي كانت خصبة بمزارعها وواحاتها، غير أن جموعهم تراجعت من حوله فتمكن المسلمون من اجتياح مراعيهم واستاقوا عددا من اغنامهم ، وتراجع اكيدر نفسه ولم تجد السرايا التي توزعت بالمنطقة اية مواجهة فعادت في نفس شهر قدومها (ربيع الأول من السنة الخامسة) . ولم تكن ظروف المسلمين لتسمح بفتح المنطقة وإقامة حامية بها [1] .

1- ابن هشام ، 3 ، 44 126- . طبري ، 3 ، 28 - 43 . ابن الأثير ، كامل ، 2 ، 113 - 122 . مقدسي . 4 ، 205 - 214 . يعمري 2 ، 52 - 76 . ابن خلدون ، 2 ، 767 - 773 ياقوت ، معجم البلدان ، كحّالة ، معجم قبائل العرب .

8- غزوة الخندق (او الاحزاب) في شوال 5

كانت حصارا وليست بغزوة ، وكانت من عمل اليهود قبل غيرهم ولكن الثقل العددي والعسكري كان جله لقريش والاطراف الوثنية المساهمة معها ، وقد ادى الى هذا الحلف الواسيع النطاق رغبة اليهود في الانتقام من المسلمين بسبب اجلاء بني النضير منهم عن المدينة في السنة الرابعة،على اثر محاولتهم اغتيال النبي (ص) .

وهكذا كانت المبادرة من بين النضير يؤازرهم يهود من بني وائل ، حيث قام زعماؤهم سلام بن ابي الحقيق ، وحُيِّي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن ابي الحقيق النضريون ، وهوذة ابن قيس وابو عمارة الوائليان ، بمفاوضة قريش حول حصار المدينة وتصفية الرسول والمسلمين ، وشجعوا بعض العناصر المسؤولة بالمال ، ثم أجروا اتصالات بغطفان وحصلوا على تأييد زعمائها ، فخرجت قريش في حوالي عشرة آلاف بزعامة ابي سفيان ، واحتشدت مجموعات كبيرة من غطفان بزعامة عُييْنة بن حصن على فزارة،والحارث بن عوف على بني مرة ، ومسعود بن رُخيلة على اشجع،وقصدوا المدينة ، وكان مع قريش احابيشها ومن تابعها من كنانة وتهامة ، فتوقفوا عند سفح أحد ، وحصل حيّى بن اخطب النضْري على تأييد قريظة اليهود الذين كانوا موادعين للرسول ، فنقضوا العهد وانضموا الى بني النضير .

وهكذا كان الطرف المعادي للرسول يتكون من :

1- قريش واحابيشها والقبائل التي لها عليها نفوذ في كِنانة وتهامة

2- غطفان بزعمائها الثلاثة

3- مجموعات اخرى خصوصا أسد وسليم

4- اليهود وفيهم بنو النضير وقريظة وغيرهم .

هذه هي الاطراف التي عرفت بالاحزاب ولكل منها ذاتيتها الاجتماعية والعقائدية .

وكانت قيادة الجميع لابي سفيان ، وتوافد الحشد على سفح أحد .

اما الجانب الاسلامي فكان عليه ان يقف موقفا دفاعيا ، ولكن حماية المدينة ليست بالأمر السهل ، ولذلك اشار سلمان الفارسي على الرسول بحفر خندق يحيط بالمدينة ويعوق

الخيل والابل عن مهاجمة المنطقة العمرانية . ودعيت النساء الى الامتناع بالحصون التي هي نفسها تجمعات سكنية ، وترك امر ادارة المدينة لابن ام مكتوم ، ثم خرج الرسول في ثلاثة آلاف فعسكروا بسلع (بفتح ثم سكون) حول المدينة مولين ظهرهم لهذا الموقع ومتحصنين بالخندق الذي يحجز بينهم وبين الاحزاب . وقد عمل الرسول نفسه في حفر هذا الخندق ، وكان بعض المنافقين يتسللون الى المدينة بغير اذن الرسول وأنفة من العمل ولذلك نزل بشأنهم عدد من آيات القرآن ، منها : « **انما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستاذنوه** ... » وقوله تعالى : « **قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن امره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم** ... » وقع الوهن في نفر من الاوس وكان الرمي بالنبل متبادلا بين المعسكرين ، ودام الحصار اربعة اسابيع ، وانقسم المعسكر القرشي إلى قسمين قسم بشرقي المدينة ، وقسم باعاليها وبلغ الخوف مبلغه من المعسكر الاسلامي عندما اصبحت المدينة تحت رحمة المهاجمين وبذلك وردت الآية القرآنية :« **إذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا** » وذلك ان بعض المؤمنين أخذوا يتساءلون عن وعود النبي للمسلمين بالاستيلاء على كنوز الفرس والروم وهم الآن تحت رحمة اعدائهم وفي هذه الاثناء حدثت تطورات ومفاجآت ، فبعد ان دب الوهن الى عامة المسلمين الا قليلا ، عمد الرسول بمبادرة منه الى مفاوضة عُيَيْنة والحارث بن عوف من زعماء عطفان وعرض عليهما ان تنسحب عطفان على ثلثي انتاج المدينة من الغلال ، وكان ذلك يجري في إطار محدود ، وبالاستشارة مع سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، وهيأ الرسول نص عهد بينه وبين عطفان ، لكن ابن معاذ وابن عبادة قالا بروح عالية من التضحية وعزة الايمان : قد كنا معهم على الشرك والاوثان ولا يطمعون منا بثمرة الا شراءً وبيعا ، فحين أكرمنا الله بالإسلام واعزنا بك ، نعطيهم اموالنا ! والله لا نعطيهم الا السيف . وارتاح الرسول ايما ارتياح لهذا البيان الذي كان يتمناه على لسان صَحَابِيَّيْن لما لهما من نفوذ قوي في قومهما . ومثل هذا التصريح بدفع بالشورة الاسلامية بعيدا في الميدان السياسي والعقائدي لا سيما وقد نوه القرآن بصمود تلك الصفوة التي لم تَهُنْ امام ضخامة جيش العدو قبل الاحزاب واثناءها وبعدها : «**من المومنين رجال صدقوا**

ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر» .

ثم كان التطور الثاني وهو أن مجموعة من فرسان قريش فيهم ضرار بن الخطاب وعكرمة بن ابي جهل وغيرهما اقتحموا الخطوط الاسلامية بين الخندق وسَلْع وطلبوا المبارزة بعد ان حاولوا تخطي الخندق من غير نتيجة،فأبدى بعض الصحابة وعلى رأسهم علي شجاعة بطولية ، وفتك علي بعمرو بن ود وهو من اشد فرسان قريش ، ثم هاجمت كتيبة للمشركين الخطوط المذكورة،ووقع قتال حقيقي لم ينته الا بالليل ومنع الرسول والمسلمون من اداء صلواتهم (الظهر والعصر) .

ورُمِيَ سعد بن معاذ في ظروف غير محددة بسهم قطع منه الأَكْحَلْ ولكنه عاش حتى شهد مصرع بني قريظة على يده وبحكمه ، فقد كان الرسول بعثه في جماعة من اربعة أشخاص أثناء الحصار وهم سعد بن معاذ وابن عبادة وابن رواحة وخوات بن جبير، إلى قريظة ليتأكدوا من موقفهم فثبتت لدى الوفد خيانتهم وأحاطوا الرسول علما بذلك فلما اصيب ابن معاذ بالسهم دعا الله ان يبقيه حتى يشهد مصرع قريظة وكان الامر كذلك .

ولجأ الرسول في نهاية المطاف الى حرب الخدعة أو الحرب النفسية ، وذلك ان احد المشركين البارزين اعلن اسلامه للرسول دون ان يتعرف على ذلك زعماء الاحزاب المعادية وهو نعيم بن مسعود الاشجعي فعهد إليه النبي عليه السلام ان يتولى مخادعة المشركين والتضريب بينهم فبدأ بقريظة ، وأسر اليها ان قريشا وغطفان إذا فرغت من المسلمين تحولت اليهم . ودعا قريظة إلى ان يطلبوا من قريش وغطفان رهائن حتى يمكنها ان تواصل القتال الى جانبهم ، ثم اتصل بابي سفيان فابلغه ان اليهود ندموا على خرقِهم للعهد مع الرسول وهم سيطلبون رهائن من قريش وغطفان في مقابل استمرارهم الى جانبها ، ونصحه ان لا يدفع هؤلاء الرهائن الى قريظة ، ولكي يجرب القرشيون مدى صدق نعيم الاشجعي بعث ابو سفيان عكرمة بن ابي جهل في وفدٍ قُرَشِي الى قريظة فعرضوا عليهم الشروع في قتال عام فورا ، فتذرعواْ بان اليوم يوم السبت ، وطالبوا برهائن حتى لا تهاجم قريش ممتلكاتهم اذا هي استأصلت المسلمين ، فدب الوهن الى صفوف قريش وغطفان والتزمت قريظة الحِياد بعد فوات الاوان .

ثمَ جاءت المفاجأة الكبرى التي أنقذت المدينة والمسلمين وهي اشتداد البرد بصورة

غير معتادة ، وهبوب ريح عاصفة خلال ليالٍ متتالية فقَوَّضَتْ خيام المشركين وحلفائهم واخمدت نيرانهم وعرقلت استقرارهم ، ولذلك اشار القرآن مذكرا بدور الملائكة في إثارة العواصف المفاجئة : « ياايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . »

ولقيت دواب المشركين مصيرا مهلكا من الزوابع ، وقد كانت قريش وحدها في الف وخمسمائة بعير فضلا عما كان لحلفائها ، فقرر ابو سفيان العودة بقريش إلى مكة وانسحبت اثرهم غطفان . وكان هذا الحصار الذي لم يخلُ من اشتباكات دامية ، خلال شوال من السَّنة الخامسة-وفي نفس اليوم الذي ارتحل فيه الرسول عن معسكره ومعه سائر المسلمين بدأت عملية حصار حصون قريظة ثم تصفية عناصرها بعد ثلاثة اسابيع ونيف ، وكان قتلى المسلمين في الخندق ستة،وقتلى المشركين ثلاثة .

وخصص القرآن لغزوة الخندق سورة الاحزاب التي فضحت كثيرا من جوانب الضعف لدى المنافقين والانهزاميين واشارت الى حصار حصون قريظة واستيلاء المسلمين على اموالهم .

وتناول الشعراء باسم الاحزاب والجماعة الاسلامية غزوة الخندق وتصفية قريظة ومنهم ابن الزبعرى عن المشركين وحسان باسم المسلمين .

الغزوات والسرايا فيما بين الخندق والحديبية .
(محرم 6 - قعدة 6)

ازداد النشاط الفدائي بعد غزوة الاحزاب بدل ان يتقلص ، لان المسلمين يقتدون بالرسول في روحه النضالية ولا يلبثون ان يستعيدوا حماسهم للنضال بعد ان يمروا بمرحلة مجهدة كثيرا ما تُنذر بإبادتهم ، ومع ذلك فان هذا النضال يتخذ موقفا دفاعيا او يكون رد فعل ضد اعتداء سابق :

1- سرية ابن مسلمة الى القرطاء في محرم 6

القُرطاء موقع لهوازن القبيلة القوية المجاورة للمدينة شرقا من ناحية الشمال ، وكانت

عناصر منها قد ساهمت في غزوة الاحزاب ، وقد وجه الرسول اليها في عاشر محرم 6 هـ محمد بن مسلمة في ثلاثين راكبا فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار فاغار على نَعَمِهم وقتل من قاومه ثم استاق 150 بعيرا وثلاثة آلاف شاة ، وخمست الغنيمة كالمعتاد .

2- غزوة بني لحيان في جمادى الاولى 6

بنولحيان قسم من هذيل العدنانية والتي كانت لها مواقع بنجد والحجاز ، وينتمي بنو لحيان الى هذيل الحجاز في اطراف مكة والطائف ، خرج الرسول اليهم على رأس مائتي راكب في حملة تأديبية بسبب قتلهم لجماعة المرشدين التي كانت تتألف من ستة الى عشرة ، وذلك في موقعة الرجيع سنة 4 هـ ، وكان خروج الغزاة في جمادى الاولى من السنة السادسة ، وأظهر الرسول انه يقصد الشام فاتخذ طريقها بعد ان ترك على المدينة ابن أم مكتوم ، ثم عرج يسارا حتى سلك طريق مكة وبلغ عسفان على نحو ستين كلم من مكة . وعسفان قرية وواحة تعمَّدَ الرسول ان يحل بها تخويفا لاهل مكة ، ووجد بني لحيان قد امتنعوا برؤوس الجبال فتعذر عليه استنزالهم فاكتفى بان بعث فارسين يتعرفان على مواقع الفارين حتى بلغا كُرَاع الغُميم على نحو 13 كلم من عسفان ، ثم رجع الفارسان وسائر الغزاة بقيادة الرسول الى المدينة .

3- غزوة ذي قرد (غزوة الغابة) في جمادى 6

نقل ياقوت عن أبان بن عثمان أن "ذو قرد" (بفتحتين) ماء عمومي من مَبَرَّات طلحة بن عبيد الله ، وكان عُيَينة بن حصن الفَزارى من غطفان وهو تاجر مواشٍ كان الرسول قد سمح له برعي غنمه حول المدينة فترة من الزمن ، يتحين الفرصة لسرقة ابل الرسول بالغابة حول المدينة وكانت تحت حراسة شخص من غِفار فقتلته عصابة عُيَيْنَة واختطفت زوجته واستولت على الابل ، فتعقبتهم سلمة بن الاكوع وهو يصيح بأعلى

1- ابن هشام ، 3 ، 44 - 126 . طبري 3 ، 28 - 43 . ابن الاثير ، كامل . 2 . 113 - 122 . مقدسي ، 4 ، 205 - 214 . يعمري ، 2 ، 52 - 76 . ابن خلدون ، 2 ، 767 - 773 . ابن كثير ، تفسير (سورة الاحزاب) . ياقوت ، معجم البلدان .

صوته ، فتسامع به اهل المدينة وهب الرسول وصحبه لاستنقاذ الابل وتأديب العصابة المعتدية واسترجع شطر من السرح وقتل عدد من المعتدين وبلغ الرسول في تعقبه للفارين موقعا مائيا اسمه ذو قَرَد حول المدينة ثم عاد بعد يومين ، وحضر ابو ذر الغفاري هذه المواجهة،وقُتل فيها ابن له .

4- سرية سعد بن زيد الى العُرَنيين في شوال 6

وَرَدَ على الرسول (ص) وفد من عُرَنة (بضم ثم فتح) وهم فخذ من بجيلة ذات الاصول اليمنية على الارجح . وكان اغلب عرنة ينزلون بجوار كلاب بن ربيعة التي كان مركزها بِحمى ضَرِيَّة قريبا من مكة في طريق البصرة ، وكانت الجماعة القادمة في إجهاد من المجاعة وسوء الوضع الاقتصادي فأسلمت على يد الرسول وظلت في ضيافته ثم وجدت غفلة من راعي غنمه مولاه يسار فقتلوه ، ومثلوا به ثم استولوا على ابل الرسول وذهبوا فارين فتعقبتهم سرية من عشرين فارسا عليه كُرْز بن جابر الفهري ، فوقعوا في قبضة السرية ثم اعدموا بامر الرسول ، وقطعت ايديهم وارجلهم من خلاف وسملت اعينهم لانهم فعلوا ذلك براعي الرسول فكانت عقوبتهم مثلها وهم متضامنون جماعيا في الجناية . ونهى الرسول بعد ذلك عن المثلة تطبيقا للآية :

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتّلوا او يصلبوا أو تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض » .

واسترجعت لقاح الرسول وكانت خَمْسَ عشرة .

5- غزوة بني المصطلق في شعبان 6 ، وحديث الافك

بنو المصطلق فخذ من خزاعة القحطانية التي كانت مواطنها جنوب مكة حتى ساحل القلزم . وقد علم الرسول انهم يتهيأون لغزو المدينة بقيادة رئيسهم الحارث ابي ضرار ، فقرر ان يسبقهم،على الرغم من ان الجيش الاسلامي كان عليه ان يقارب مكة في مروره الى بني المصطلق ، وهكذا لقيهم عند موقع مائي يدعى المُرَيْسيع وهو قريب من الساحل ،ووقع القتال فعلا بين الفريقين وكانت الهزيمة على بني المصطلق الذين يبدو انهم لم يفكروا في

التحـالف مع جهات اخرى ضد المسلمين ، وهكذا وقع عدد كبير منهم في الأسر ، ومن بينهم جويرية بنت الحارث التي أعتقها الرسول ثم تزوجها ، وكان بين الاسرى نساء واطفال فضلا عن الرجال . ولما نقل الاسرى اطلق المسلمون مائة من بني المصطلق اكراما للرسول الذي اعتق جويرية وتزوّجها ، وكان السبي مائتي اسرة ، حسب صحيح مسلم . وبلغ ما استولى عليه الغزاة الفَي بعير وخمسة آلاف شاه ، وكان الرسول قد استخلف على المدينة اباذر وقيل زيد بن حارثة ، وحمل ابو بكر راية المهاجرين ، وسعد بن عبادة راية الانصار . وتكفل بالغنائم شقران من موالي الرسول . وَيُعَدُّ انتصار المسلمين في هذه الغزوة ذا اهمية خاصة على الرغم من محدوديّة اطاره ، فبنوا المصطلق بعيدون جدا عن المدينة وهم بجوار اهل مكة ، ويعني هذا ان الرسول واصحابه اخذوا يقصدون اكثر فاكثر ان تكون ضرباتهم حاسمة على مشهد من قريش بالذات ، وباعتبار ان الجهات المجاورة لقريش من اشد العرب عدوانا والرسول لا يهاجمها حتى تسبق بالاعتداء كما لمسناه في كل السرايا والغزوات . وقد تغير موقف خزاعة تجاه الرسول بعد هذه الغزوة وتحدث ابن هشام عن محاولة الحارث بن ابي ضرار فداء ابنته ، وقدم من اجل ذلك بعدد من الابل ثم اخفى اثنين منها في شعب حول المدينة ، فلما وفد على الرسول سأله عن البعيرين المذكورين ، فما كان من الرجل الا ان اعلن اسلامه وأسلم عدد من افراد اسرته وقومه ومنهم ابنته جويرية التي خطبها الرسول عندئذ . ووقع حادثان سيئان اولهما حقيقي والثاني مصطنع كان له وقْع سيئ على الرسول بوجه خاص ، فاما الحادث الاول فسببه تزاحم أجير لعمر بن الخطاب مع سنان الجُهني حليف الخزرج ، ثم دخولهما في قتال انتهى بمقتل سنان ، وكان اجير عمر يظنه من الاعداء وتعصب المهاجرون للاجير وتعصب الانصار لحليفهم الجهني وكان عبد الله بن أبَيّ حاضرا فاظهر غَضبه وندد بالمهاجرين واتهمهم بنكران الجميل ، وقال : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل ، وقد اورد القرآن في سورة (المنافقون) كثيرا مما يتعلق بموقف عبد الله هذا ورهطه . وتدخل أسيد بن حضير الانصاري يشير عليه بقتل زعيم المنافقين ، بل ان نجله واسمه هو ايضا عبد الله وكان مؤمنا حقيقيا عرض على الرسول ان يتولى هو بنفسه قتل والده الذي كان حاضرا فاجابه الرسول : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا .

وعمل الرسول على شغل المهاجرين والانصار بالسير مسافة طويلة قبل ان يتعبوا ويخلدوا لِنوم عميق ، وذلك تجنبا لاشتغالهم بالخوض في نزاع قد تسوء نتيجته .

اما الحادث الثاني فهو المعروف بحديث الإفك ، وملخصه ان الرسول كان من عادته ان يقرع بين نسائه اذا خرج في غزوة ، فكانت القرعة على عائشة في غزوة المصطلق . فلما اوشك الجيش على الرجوع ابتعدت عن هودجها لتتطهر فنسيت هناك عقدا لها فلما عادت لتـاخذه وانصرفت لهودجها وجدت الجيش قد انصرف،وظنوا ان عائشة في هودجها فاحتملوه ، فبقيت موضعَها حتى اقبل صفوان السلمي وكان يحرس اثاث ساقة الجيش فتعرف عليها فركبت راحلته ، وبلغت منزل الجيش ، وكان الخبر قد سرى بتغيُّبها وبدأت تهم السوء تلصق بها ، وتولى ذلك عبد الله بن ابي بن سلول فاوعز الى بعض الاطراف ان تَتَقول في شخص عائشة على براءتها . وغاضب الرسول عائشة التي اخذ منها الحزن والغم مأخذه ، ونصح علي الرسول بتطليقها،وكان هذا سبب العداء بينهما بعد ذلك الى ان كانت معركة الجمل في خلافة علي ، ولما كان الرسول حائرا فيما يتخذه من إجراء فقد تبددت شكوكه وحيرته بما نزل من آيات تبرئ عائشة وتندد بالعصابة التي قذفت شرفها ، وهكذا نزلت عَشْرُ آيات بالمناسبة في سورة (المومنون) :

«ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . » الى آخر الآيات العشرِ المشار اليها ، وقد لمح القرآن في الآية الاولى الى عبد الله بن أُبي الذي تولى حديث الافك ، وعاقب الرسول،حسب تعاليم القرآن في قذف المحصنات،ثلاثة أشخاص صرحوا علانية بقذف عائشة ، وهم مسطح بن اثاثة وحسان بن ثابت وحمْنة بنت جحش ، والاول كان في خدمة الي بكر وكفالته ، والثاني شاعر مدافع عن قضية الرسول ورسالته ، وحَمْنة اخت زينب بنت جحش التي هي من اعز نساء الرسول .

6- سرية عكاشة بن محصن الى الغَمْر في ربيع الاول 6

وجه الرسول عكاشة على راس اربعين رجلا الى الغمر (فتح ثم سكون) وهو من

مياه بني اسد المجاورين لِطَيِّئ شمالا في طريق العراق ، ولم تكن حرب ، بل استولت السرية على مائتي بعير .

7- سرية محمد بن مسلمة الى ذي القصة في ربيع الآخر 6

ذو القصة مكان في طريق المدينة الى مكة وهي على بعد 40 كلم من المدينة في طريق الربذة . وجهت السرية في عشرة اشخاص الى بني ثعلبة بن سعد الذين سبق ان غزاهم الرسول ، وهم من عطفان ، وقتلت السرية إلا محمد بن مسلمة الذي حمل جريحا فوجهت سرية اخرى بقيادة أبي عبيدة بن الجراح في اربعين رجلا فلم يلقوا مواجهة وغنموا ضأنا .

وقام ابو عبيدة ايضا بمحاولة تاديبية لبني ثعلبة وأنمار على مسافة تناهز 58 كلم من المدينة وكانت ارضهم قد أحدبت وتهياوا لسرقة مواشي اهل المدينة في مرعى هيفاء على بعد عشرة كيلومترات منها فالتحق السكان بالجبال وغنم المسلمون جملة مواش ، واسر شخص فاسلم وترك مكانه .

8- سرية زيد بن حارثة الى بني سليم في ربيع الآخر 6

بنو سليم في الجنوب الشرقي للمدينة ساهموا ايضا في غزوة الاحزاب ، وصل زيد الى الجموم (بفتح الجيم) على 80 كلم من المدينة ، فاستولى على نعم وشياه .

9- سرية زيد بن حارثة الى العيص في جمادى الأولى

العيص موقع مائي لبني سليم على ساحل البحر في الطريق التي تسلكها قريش الى الشام . استولى زيد مع مائة وسبعين فارسا على قافلة وردت من الشام لقريش واسروا رجالها وبينهم ابو العاص بن الربيع الذي استجار بزينب فأطلق الرسول سراحه .

وسار زيد في هذا الشهر الى الطرف من مناطق غطفان حسب البكرى وذلك قريبا من المراض الواقع في طريق الكوفة ، وهرب السكان من حوله واستولى على عدد من الابل .

10 - سرية بن زيد بن حارثة الى وادي القرى في جمادى الآخرة 6

هما سريتان احداهما في جمادى الآخرة فيما وراء وادي القرى والثانية في رجب بوادي القرى ، اما الاولى فوجهت الى حسمى (بكسر فسكون) وهو جبل بمنطقة جذام القحطانية والواقعة بين مَدْيَن وتَبُوك على الساحل ، وسببها ان ناسا من جُذام بقيادة الهنيد ابن عارض ، اعترضوا دحية ابن خليفة الكلبي وهو قادم من عند قيصر الروم (هرقل) فاستولوا على امواله ، فقامت سرية زيد في خمسمائة بالهجوم على حِسْمي واستولوا على بضعة آلاف من مواشيهم وظفروا بسبي كثير ، وقتلوا عددا بمن فيهم الهنيد وابنه ، وقدم زيد بن رفاعة الجذامي على الرسول وكان قد اسلم وله عهد ولقومه ، فادلى بعهده وسويت المسالة بالتخلي عن دية القتلى وارجاع ما أخذ لجذام ، واسترجع دِحْية امواله .

ثم توجهت سرية زيد الى وادي القرى في رجب فلقي مقاومة من بني فزارة وجرح هو نفسه فعاد الى المدينة ثُم رجع لغزو فزارة فاثخن فيهم ، وأعدم سيدة من وجيهات فزارة وكانت تسب الرسول ، وكان سبب بعث هذه السرية ان بني فزارة كانوا قد تعرضوا لقافلة تجارية متوجهة الى الشام وفيها زيد ، فاستولوا على ما فيها وضربوا زيدا فجرحوه كما اصيب رفاقه ، ولذلك قامت السرية الاخيرة بتأديب المعتدين . وهناك اضطراب في الروايات بشأن تحركات زيد هذه وتواريخها . وبلغ زيد في حملاته الى مَدْيَن ووقع في يده سبي بالميناء على ساحل القلزم .

11- سرية عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل ، شعبان 6

سبق ان جردت حملة الى دومة الجندل بقيادة الرسول في ربيع الاول من السنة الخامسة ، وكان الكلبيون سكان المنطقة يعتدون على القوافل ، اما سرية ابن عوف وقيل ابي عبيدة بن الجراح فكانت لقتال المشركين ودعوة النصارى الى الاسلام او الجزية او الحرب ، لان المنطقة لا تبعد عن الطريق الرئيسي الى العراق كثيرا وهي ايضا ممر الى بادية الشام . وتلقى قائد السرية امرا من الرسول هو قوله : اغز بسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله ، ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدا . واسلم في هذه الحملة احد رؤساء كلب وكان نصرانيا وهو الأصبغ بن عمرو الكلبي ومعه كثير من اتباعه .

12- سرية علي الى سعيد بن بكر بفدك ، شعبان 6 :

فدك منطقة زراعية خصبة شمال المدينة حاول بنو سعد بن بكر بها ان يحالفوا خيبر ضد الرسول وبمبادرة منهم ، فوجه اليها الرسول سرية في مائة رجل بقيادة على بن ابي طالب ، غير أن بني سعد هربوا بأسرهم واستولى المسلمون على خمسمائة بعير والفي شاة وقع تخميسها في عين المكان [1] .

كانت غزوة المصطلق وما تلاها من السرايا كلها حتى صلح الحديبية تستند الى اسباب او مبادرات من الجهات المعادية نفسها ، فكثير منها وجه ضد غطفان وسليم وأسد إما لمساهمتها في الخندق او لتهيؤها للحرب ضد الرسول والمسلمين ، وفيها ما كان ردعا للصوص وقطاع الطرق أوردا على سلوك من الغدر والخيانة او تأمينا لنقط يسلكها التجار والقوافل كدومة الجندل التي حرص الرسول على ان تكون بالتدريج واجهة امامية للاسلام بدل ان يتوزع ولاؤها عقائديًا وسياسيا ، وبالطبع لم يكره المسلمون النصارى على الإسلام ولكن من حافظ على مسيحيته ادى الجزية .

معاهدة الحديبية في ذي القعدة 6 هـ

دعا الرسول (ص) اهل المدينة ومن حولها من الاعراب ان يتهيأوا معه للعمرة بمكة فتخلف اكثر الاعراب وتلاحق بالرسول حوالي سبعمائة على الارجح ، وفي رواية ذكرها آخرون انهم كانوا الفا وثلاثمائة الى الف وخمسمائة . وترك الرسول على المدينة نميلة الليثي ، ولم يكن الرسول يقصد حربا ولكن المحاولة في حد ذاتها تبين عن قدر كبير من الجرأة والشجاعة ، وهي ايضا جس لنبض قريش ومدى رغبتها في اقامة علاقة سلميّة بالمهاجرين والانصار ، وهكذا خرج الرسول ومعه سبعون بدنة لنحرها بمعدل واحدة عن عشرة من المعتمرين ، وبلغ المومنون في مسيرتهم عسفان وهم يحملون اسلحتهم توقعا لكل طارئ وذلك ذي القعدة من السنة السادسة . وكان احرامهم من المدينة حتى يثبتوا أنهم يعتمرون ولا يحاربون وانما حملوا سلاحهم ليدافعوا عن انفسهم عند الحاجة . وحسب ابن

1- ابن هشام ، 3 ، 182 - 196 . طبري ، 3 ، 63 - 71 . ابن الاثير ، 2 ، 130 - 135 . مقدسي ، 4 ، 4 . 214 - 228 . يعمري 2 ، 108 9 148 . ابن خلدون ، 2 ، 781 - 784 . ابن كثير ، تفسير ، (سورة المومنون) . ياقوت ، معجم البلدان . (ذو القصة ، الغمر الخ ...) كحالة ، معجم ، (جذام ثعلبة) .

هشام علم الرسول وهم بعسفان ، من بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي ان قريشا تترقب وصول الرسول وصحبه وانها قد استعدت لمنعهم من دخول مكة واعتصمت بذي طوى حولهما لهذا الغرض ، اما البخارى في صحيحه فيثبت ان الجماعة الاسلامية انطلقت من الحديبية شمال مكة (اي بعد خروجها من عسفان) وانها توجهت لذى الحُليفة للاحرام بها (بعد ان احرمت بالمدينة كما سبق) . وتلقى الرسول انباء عن توجه خالد بن الوليد الى كراع الغميم في طليعة لقريش يتتبع تحركات المسلمين ، وقد روى بعض اصحاب السيرة ان خالد بن الوليد كان قد اسلم وانه كان بجانب الرسول والصحيح ان خالدا وعمرو بن العاص اسلما بعد غزوة خيبر في اوائل السابعة ، وذلك لان الرسول كان قد بعث عمرو بن امية الضمري الى النجاشي لارجاع من بقي من المهاجرين بالحبشة ، وانتدبت قريش عمرو بن العاص ليعرقل عودة المهاجرين الى المدينة ، وعرض على النجاشي ان يسلمه الضمري ليقتله ، فغضب النجاشي ودعا عَمْراً الى الاسلام . وعاد المهاجرون من الحبشة وعلى راسهم عبد الله بن جعفر في سفينتين للنجاشي فصادفوا يوم انتصار الرسول في خيبر . ولا يمكن ان يكون بين اتصال المبعوث النبوي بالنجاشي وبين رجوع المهاجرين الا اسابيع ، فلما عاد عمرو بدوره اتصل هو وخالد بالرسول في المدينة وجدد عمرو اسلامه واعتنق خالد الاسلام ، وذكر ابن هشام اسماء المهاجرين الى الحبشة ومن فضلوا البقاء بها او ولدوا بها .

ولما علم خالد باقتراب المسلمين من مكة انذر قريشا ان تواجه المسلمين بالحرب . وأشار ابو بكر على الرسول ان يدخل المسلمون الى مكة سلما فان واجهتهم قوة صدوها . ونزل الرسول عند هذا الراي ، ثم اشار بتغيير الطريق سالكا اليمين باتجاه ثنية المِرار . وفي هذه الثنية بركت ناقة الرسول وحرنت عن المشي ، ففهم الرسول من ذلك ان الناقة على غرار فيلِ الاحباش تنشَّقت بغريزتها ريح المكروه حول الكعبة ، فبركت حيث هي ، وفي ذلك ارادة الهية لا تدفع وقال الرسول (ص) : " والذي نفسي بيده ، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى الا اعطيتهم اياها . " ثم عدل بالمسلمين الى اقصى الحديبية ، وهي قرية تقع عند بئر بنفس الاسم ، وكِلاهما اخذ اسم شجرة حدباء وكانت هناك . وهكذا مال الرسول الى مسالمة قريش ، واصر على ان لا يدخل واياهم في حرب حول الكعبة .

وبالحديبية استقبل الرسول وفدا من خزاعة برآسة بديل بن زرقاء واكد لهم انه لا

رغبة له في حرب وانما يزور البيت معتمرا مع المومنين ، فلما خاطب الوفد قريشا برغبة الرسول جابهته بفظاظة ، وبعثت اليه ممثلا عنها فسمع من الرسول ما ذكره وفد خزاعة ، ثم ارسلت قريش رئيس الاحابيش ، الحليس بن علقمة ، فلاحظ الهدي وقد اقتات وَبَره من طول ما حُبس مكانه ، فعرف ان المسلمين جاءوا مسالمين ، لكن قريشا لم تقتنع واحتقروه فهددهم بثورة الأحابيش ، ثم بعثوا عروة بن مسعود الثقفي فكان جريئا على الرسول حتى نهره ابو بكر والمغيرة بن شعبة ، لكن ادهشه ما راى من تعظيم الصحابة للنبي وتشبُّتهم به واصرارهم على دخول الكعبة للعمرة من غير حرب ، وقص ابن مسعود على قريش ما رأى ونصحهم عبثاً بمسالمة الرسول ، ثم بعث الرسول مبعوثاً هو خواش بن أمية الخزاعي ، فهموا بقتله لولا تدخل الأحابيش ، وسلحت قريش عصابة من اربعين رجلا عهدوا اليها باختطاف بعض المسلمين القادمين مع الرسول فوقعت العصابة في ايديهم وخلى الرسول سبيلهم ، ثم انتدب الرسول عمر ليفاوض قريشاً،فاحتج بعداء قريش وغلظته عليها فبعث عثمان باشارة عمر ، فلما ذهب عثمان أدى رسالة الرسول ورغبته ، فاحتُجز بعد ان رفض ان يطوف بالبيت إلا إذا طاف الرسول . وأشيع عندئذ مقتل عثمان . وعلى الفور عقدت بيعة الرضوان توقيا لكل مكروه بالرغم من ان الرسول متشبثٌ بالسلم . وكانت هذه البيعة على ان لا يفر المسلمين من حول النبي عند العمرة . وورد حول هذه البيعة قوله تعالى « **لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة ياخذونها ، وكان الله عزيزا حكيما** » وقيل إن بيعة الرضوان كانت على الموت بجانب رسول الله .

ثم علم ان عثمان لم يقتل ، وبعثت قريش بسهيل بن عمرو ليفاوض الرسول في الصلح على ان يعتمر مع المسلمين في العام المقبل ، وكتب عهد الصلح ، ورفض سهيل ان يلقب محمد (ص) بلقب النبوة ، ورفض ان يبدأ الكتاب ببسم الله الرحمان الرحيم وكتب مكانها باسمك اللهم ، وهو افتتاح عرف في الجاهلية . وكان كاتب العهد هو علي بن ابي‌طالب ونصه :

"باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلَ بن عمرو :
اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يامن فيهن الناس ويكف بعضهم عن

بعض ، على انه من أتي محمدا من قريش بغير اذن وليّه يرده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لا يردوه عليه ، وان بيننا عيبة مكفوفة (اسرارا نحتفظ بها) ، إنه لا إسلال ولا إغلال (لااختلاس ولا خيانة) ، وانه من أحب ان يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب ان يدخل في عقد قريش دخل فيه " .

ومؤدى هذا العهد :

1- الامتناع عن الحرب عَشْرَ سنين

2- اتاحة الفرصة للمهاجرين والانصار وسائر المسلمين ان يختلطوا بقريش ويصلوا ارحامهم ويتبادلوا المنافع .

3- ان اللاجئين من قريش يرجعون ، وان اللاجئين من الجانب الاسلامي لا تردهم قريش .

4- تلافي فضح اسرار الطرفين وتلافي الخيانة والاختلاس .

5- اتاحة الفرصة للمتعاطفين مع الرسول ان يدخلوا في عهده وكذلك الامر بالنسبة لقريش .

وكل هذه الشروط تستبعد الحرب ويتكافأ فيها الطرفان ما عدا الثالث منها ، وقد اثار رَدَّ فعل سلبي من غالبية الصحابة الذين كانوا يأملون في فتح مكة تصديقا لرؤيا نبوية اشار اليها القرآن ولكنها تحققت بعد ذلك أي في العام التالي .

وكان شهود الصلح هم عن المسلمين : ابو بكر وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وعلي محرر العهد ، وعن المشركين سهيل بن عمرو ومكزر بن حفص . وكان اول قادم اثناء عملية عقد الصلح هو جندل بن سهيل بن عمرو ، نجل احد الشاهدين عن المشركين ، وكان شابا مسلما جاء فارا بقيده من مكة الى الرسول ، فضربه والده بمحضر الرسول واخذ الرسول يشجعه ويصبره حتى يعود تنفيذا للعهد ، وكان هذا مما اثار تذمر المسلمين . والواقع ان الرسول كان يرى في العهد على عِلاّته فرصة جيدة لتقريب المسلمين من قريش ، وتقريب الاسلام عن كثَبٍ الى قواعدها بالدرجة الاولى ، فقد بدأ هناك تحول بالغ الأهمية حول قريش وهو موقف الاحابيش المذكور آنفا ، ثم ان خزاعة دخلت رسميا في عهد الرسول بمجرد انهاء تحرير العقد ، مثلما دخلت بنو بكر في عهد قريش ووافقت على ان

يعتمر المسلمون في العام القادم بمحضر شهود الطرفين وان كان العهد كما عند ابن هشام وغيره لا ينص على السماح علانية للمسلمين بالعمرة ، وكل هذه مكاسب فطن لها الرسول ولم يفطن لها جل الصحابة ، ولذلك اتخذ موقفا صارما لانه رأى من ابعاد المعاهدة ما قصر عنه فكر الآخرين .

وتنفيذا لرغبته ، امر المسلمين ان ينحروا هديهم ويحلقوا،فتوقفوا.وعندئذ اشارت ام سلمة على الرسول وقد شكا اليها موقف الصحابة ، ان يتقدم فيحلق رأسه وينحر ليتبعوه؛وكان كذلك . وبعد ذلك عاد المسلمون الى المدينة . ثم بدأ تنفيذ بنود الصلح بشكل عام ، فاتاح البند الثاني للمسلمين اتصالهم بالمشركين واجتذاب عدد كبير من هؤلاء الى الاسلام حتى لقد دخل فيه مدة سنتين قبل فتح مكة قدر ما دخل فيه منذ ظهوره قبلهما ، وههنا يكْمَنُ السر في اصرار الرسول على الصلح مع عدم تكافؤ التزامات الطرفين في بنده الثالث .

وورد على الرسول بعد عودته الى المدينة أبو بصير عتبة بن اسد وهو من جماعة المسلمين المستضعفين الذين تخلفوا بمكة بعد الهجرة وحبسته قريش بها ثم تمكن من مغادرتها بعد صلح الحديبية ، وكوتب الرسول بشانه فأمر ابا بصير بالرجوع الى مكة وقال : " يا أبا بصير ، إنا قد اعطينا هؤلاء القوم ما علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا " وخشي ابو بصير ان ترغمه قريش على ترك الاسلام فاظهر موافقته وعاد مع المسلميْن اللذين حملا الكتاب بشأنه ، فلما بلغوا ذا الحليفة على عشرة كِلم من المدينة احتال على احدهما فقتله بسيفه ونجا الآخر يطلب نجدة الرسول ، ثم إن ابا بصير عاد الى الرسول ، فامتعض النبي (ص) من موقفه ، فقصد ابو بصير حينئذ ناحية ذي المروة على ساحل البحر الاحمر واستقدم سرا بعض رفاقه المستضعفين من مكة واخذوا يقطعون الطريق على قوافل قريش ، ويقتلون من وقع في أيديهم منهم . ثم انضم اليه ابوجندل وعدد من غفار وجهينة وأَسْلم،حتى بلغوا ثلاثمائة،وكانوا مسلمين يتولى امامتهم ابو جندل . وضجت قريش بالشكوى الى الرسول فاستقدم ابا بصير وابا جندل ودعاهما الى ان يلتحق رفاقهما بذويهم ، ولما وصل كتاب النبي الى ابي بصير أدركته الوفاة وهو يقرأه فتولى ابو جندل دفنه وبني عند قبره

مسجدا ، ثم هاجر ابو جندل وبعض رفاقه الى المدينة والتحق الباقون باهلهم . وكان الرسول (ص) بعد ان قدم ابو بصير الى المدينة في المرة الاولى وقد قتل احد المكلفين باصطحابه الى مكة قد قال : ويل أمه ، مسعر حرب ، لو كان معه رجال ! وكم كانت هذه العبارة بليغة في مبناها ومرماها ، فسرعان ما اصبح لابي بصير رجال وسرعان ما رفع سيف النضال في وجه قريش !

واذا كان ابو بصير ورفاقه قد خرقوا معاهدة الحديبية فان قريشا ما كان يمكن ان ترحمه لو عاد الى مكة او الطائف بعد قتله المبعوث المذكور ، وكان ابو بصير من ثقيف ، أما ابو جندل فقد احترم تعليمات الرسول بعد ان بُلّغها .

ووقعت حالة اخرى من خرق الصلح ، وهي قدوم سيدة مسلمة من مكة فرارا بدينها وكانت ام كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط . ومن جهة التزامات المعاهدة لم يكن للرسول الا ان يعيد المرأة الى مكة وقد جاء اخوان لها يطلبانها ، لان المعاهدة لا تفرق بين ذكر وانثى ، غير ان الرسول تلقى بشأنها وبالتالي بشان غيرها من المهاجرات ، تعاليم الهية من القرآن ، فقد ورد في سورة الممتحنة قوله تعالى : « ياايها الذين آمنوا اذا جاءك المومنات مهاجرات فامتحنوهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن الآية ... »

وتقتضي الأوامر الالهية :

1- اختبار ايمان المهاجرات والتحقيق في صدق رغبتهن في الهجرة .

2- منعهن من العودة الى ازواجهن المشركين اذا ثبت ايمانهن . وحسب ابن عباس كان امتحان المهاجرات ان يقسمن بالله ما خرجن لبُغض زوج ولا حبا في تغيير الارض والمقام ولا من اجل مال وانما حبا لله ورسوله .

وهكذا أمْسِكت السيدة المذكورة وبها فُتح الباب لغيرها من المهاجرات . ومن جهة قانونية ، فالقرآن غير ملزم للمشركين مادامو لايؤمنون به ، لكن هؤلاء يعرفون ان المسلمين يحترمون التعاليم القرآنية ويطبقونها ، ويعلمون ان المؤمنة لا يحل لها زوج مشرك لان حالة ابي العاص بن الربيع مشهورة فقد حرمت عليه زينب قبل سنوات ، لشركه ، ثم حلت له بعد اسلامه ، ولهذا السبب لم يحدث ما يكدر صفو المعاهدة بسبب هجرة

المؤمنات ، أما المسلمون الذين لهم زوجات مشركات فقد دعوا الى فسخ نكاحهن ، كحالة عمر بن الخطاب . وعلى المشرك والمشركة ان يرد كل منهما الصداق لصاحبه (واسألوا ما انفقتم وليسألوا ما انفقوا) .

ولم يلبث الرسول الا قليلا حتى بدأ اليهود في خيبر يهيئون المؤامرات مع يهود فدك وقبيلة غطفان ، فاستولى الرسول على اموالهم وحصونهم وتركهم أُجَراء وكان ذلك في اوائل محرم من السنة السابعة كما سياتي تفصيل الاحداث عن اليهود .

عمرة القضاء في ذي القعدة 7

تنفيذا للشروط الملحقة بمعاهدة الحديبية والتي تضمنت تاجيل العمرة الى السنة السابعة ودخول المسلمين الى مكة ، وبقائهم بها ثلاثة ايام تخرج خلالها قريش الى مشارفها على ان لا يكون مع المسلمين من السلاح الا سيوفهم في اغمادها ، توجه الرسول الى مكة في ذي القعدة من هذه السنة ، وترك على المدينة حسب ابن هشام ، عويف بن الاضبط . وكان المعتمرون من اهل الحديبية ومن تلاحق بهم ، والجميع حوالي الفين ، واستعد الرسول للاحتمالات فجهز مائة فارس بقيادة محمد بن مسلمة ، وسلح مائتي راجل بقيادة اوس بن خولى وكان قائدا للسلاح ، ثم ترك الفرقتين ببطن ياجج (بفتح الجيم الاولى) على نحو 13 كلم من مكة وتوجه الباقون للعمرة فاصطف زعماء المشركين حول دار الندوة ليظهروا انهم هناك اصحاب الامر ، ثم اخذ الرسول والمؤمنون يطوفون وكانوا في سنة مجهدة فلم يصحبوا الا ستين بدنة ، وكانوا في ضعف جسماني ، فأخذ الرسول ومعه المسلمون يهرولون لاظهار قوتهم ، ثم خرج سراة مكة الى بعض جبالها يتتبعون التطورات أما سائر السكان فلزموا منازلهم أو أخذوا يتفرجون في الطرقات على المسلمين ، واثناء مقام المسلمين وفي نهاية عمرتهم تزوج الرسول ميمونة بنت الحارث الكنانية واراد ان يودع مكة باقامة وليمة لزعماء قريش في عرسه فرفضوا ، واقام العرس في "سرف" بطريق المدينة ، واوفدت قريش حويطب بن عبد العزى ليلح على الرسول في اليوم الثالث بمغادرة مكة ، فتحركت قافلته تنفيذا لشروط الحديبية ، وبذلك حقق الرسول رؤياه ونفذ تعاليم ربه ، وسميت هذه العمرة عمرة القضاء اما لانها قضاء عن عمرة لم تكتمل في السنة

السادسة ، أو لأن الرسول نفذ فيها ما قاضى عليه قريشا . وبشأن معاهدة الحديبية وذيولها نزلت سورة الفتح وجزء من سورة الممتحنة . واعتبر القرآن معاهدة الحديبية فتحا مبينا للاسلام ، ونوه بالمبايعين على الموت وعدم الفرار ، وهم اصحاب بيعة الرضوان ، وندد بموقف الاعراب المتخلفين عن مرافقة الرسول والذين ظنوا انه سيهلك مع اصحابه اذا بلغوا مكة . وأشار القرآن الى تصديق رؤيا الرسول : «**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ...**» (1)

الغزوات والسرايا مابين الحديبية وفتح مكة

امتدت هذه المرحلة من الغزوات والسرايا مدة تناهز ثلاثة عشر شهرا فيما بين شعبان سنة 7 ورمضان سنة 8 وجلها كان الهدف فيه قبائل ساحل البحر الأحمر القريبة من المدينة الى اقصى الشمال ، وقام الرسول (ص) قبل هذه المرحلة بفتح خيبر ووادي القُرى وتيماء ابتداء من محرم سنة 7 كما سيرد ذلك في موضوع الصراع ضد اليهود .

1- سرية عمر بن الخطاب الى تربة في شعبان 7

تربة (بضم ففتح) واد لبني هلال من بطون هوازن ، في طريق صنعاء من جهة مكة حول جبل السراة . أوفد الرسول عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلا فلم يلق حوله مقاومة لأن العناصر المقصودة هربت الى جهات مجهولة وعاد عمر الى المدينة .

2- سرية ابي بكر الى ضرية بنجد في شعبان 7

توجهت هذه السرية حسب اليعمري الى بني كلاب (بن ربيعة) بضريّة من نجد ، وفزارة من عطفان بنجد ايضا ، وكلهم تعاونوا على حرب الرسول من قبل ، ورفضت فرازة التخلي عن الجاد يهود خيبر فكانت سرية ابي بكر في شعبان فقتل منها عدد وسبيت امراة

1- راجع عن معاهدة الحديبية : صحيح البخاري ج5، تفسير ابن كثير (سورة الفتح . سورة الممتحنة) . ابن هشام ، 3 ، 196 . طبري ، 3 ، 71 - 82 . ابن الاثير ، 2 . 135 - 140 . و 153 . مقدسي ، 4 ، 244 . يعمري ، 2 ، 148 - 168 . ابن خلدون ، 2 ، 784 - 798 .

تم توجيهها الى مكة لمفاداة اسرى المسلمين بها .

3 - سرية بشير الانصاري الى فدك في شعبان 7

توجه بشير بن سعد الانصاري على رأس ثلاثين رجلا الى بني مرة بفدك بالشمال الشرقي للمدينة على طريق الحيرة ، وهي منطقة زراعية ذات خصب ، وهم ممن خافُوا اليهود ضد الرسول ، فاستاقوا مواشيهم ثم ادركهم بنو مرة ، وصرعوا كثيرا منهم وحمل بشير جريحا الى المدينة واسترجع بنو مرة المواشي .

4- سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة في رمضان 7

توجهت الى بني ثعلبة وبني عُوال وقد سبقت الاشارة الى بعض الغارات الاخرى ضدهم وهم من سكان نجد ، وكان دليل السرية يسار مولى الرسول (ص) ، ومجموعها مائة وثلاثون رجلا فاغاروا على المواقع المقصودة واستاقوا نعـما وقتلوا عددا من القبيلتين . وكان في الجيش اسامة بن زيد وقيل وجه في سرية خاصة الى جهينه ، وتسرع اسامة في قتل رجل اعلن اسلامه عندما وقع في يده وعاتبه الرسول (ص) على ذلك وامره بعتق رقبة ، وقد تكرر هذا الخطأ اكثر من مرة في غزوات وسرايا أخرى .

5- سرية بشير الى يمن وجبار في شوال 7

يُمْن (بسكون الميم) وجبار (بكسر الجيم) من مناطق فزارة الغطفانية ، وجه الرسول اليهم بشير بن سعد الانصاري في ثلاثمائة رجل بعد ان تهياوا بزعامة عيينة بن حصن الفزاري للهجوم على المدينة فلما علموا بقدوم السرية تفرقوا واسر منهم اثنان فاسلما على يد الرسول ورجعا الى قومهما ، كما ظفرت السرية بقطعان من المواشي .

6- سرية ابن ابي العوجاء الى سليم في حجة 7

توجه ابن ابي العوجاء وهو ايضا من سليم على رأس خمسين رجلا يدعو قومه الى الاسلام ، وكانوا قد علموا من احد عيونهم بقدوم السرية ودعاهم قائدها الى الاسلام فأبوا ،

واحاطوا بها في حشد كبير حتى أفنوا معظمها ، ونجا قائدها جريحا في صفر 8 ، وفي بعض الروايات كان انطلاق السرية الى بني سليم في ذي القعدة 7 هـ .

7- سرية غالب الليثي الى الكديد وفدك في صفر 8

الكديد (بفتح الكاف) على نحو 75 كلم من مكة منطقة لبني ليث الكنانيين ، وهم من الحزب القرشي ، خرج اليها غالب بن عبد الله الليثي ، في صفر8 في بضعة عشر رجلا فاستاقوا غنما بعد ان وجدوا منجاة من الوادي الذي حجز بينهم وبين من كانت عليهم الغارة ، ولما عادوا الى المدينة بعث الرسول غالبا في مائتين الى فدك بالشمال الشرقي للمدينة على طريق الحيرة ، وهي منطقة زراعية ذات انتاج جيد . وكان الغرض من هذه السرية ردع بني مُرة بسبب فتكهم بسرية بشير بن سعد .

8- سرية شجاع الاسدي الى بني عامر من هوازن في ربيع الاول : 8

قصد شجاع بن وهب الاسدي بني عامر بالسِّيِّ(بكسر السين وشدها مع شد الياء) في طريق المدينة الى البصرة مع 14 و 24 رجلا وكانت نتيجة الغارة نَعَماً بمعدل 15 بعير لكل نفر بعد تخميسها ، وهوازن من القبائل الكثيرة البطون وكان لها عداء شديد للاسلام .

9- سرية كعب الغفاري الى ذات أطلاح في ربيع الاول 8

ذات اطلاح وراء وادي القرى في الشمال الغربي للمدينة باتجاه الشام وهي من مناطق قضاعة ، ويظهر انهم كانوا يقطعون الطريق على المسافرين ، وقد دعاهم قائد السرية إلى الإسلام فأبوا،واحتشدوا ضد السرية التي لم تكن تتجاوز خمسة عشر نفرا فأفنوها،ولم يفلت منها الا شخص واحد هو القائد . وتوجه اهتمام الرسول اثر ذلك الى الجهات الساحلية والتخوم الشامية بشكل اكثر الحاحا من ذي قبل ، وهكذا اشتبك الجيش النبوي في غزوة مؤتة في جمادى الاولى سنة 8 مع العرب في ادنى البلقاء وحملتهم الروم حسبما يَرِدُ في

موضوع الصراع ضد الروم وحلفائهم من العرب .

10- سرية عمرو بن العاص الى ذات السلاسل في جمادى الآخرة

ذات السلاسل في اقصى الشمال الغربي لجزيرة العرب وهي موقع مائي لجذام قرب الساحل وسببها احتشاد قضاعة المجاورة لجذام لغزو المدينة او الغارة على اطرافها ، فبعث الرسول عمرو بن العاص على رأس سرية من ثلاثمائة ، وفيها عدة شخصيات بارزة من صحابة الرسول (ص) وكان على عمرو أن يدعو قبائل المنطقة الى الإسلام ثم أمد الرسول عمرواً بنجدة اخرى بناء على طلبه ، فيها ابو عبيدة يقود مائتي مقاتل بينهم ابو بكر وعمر واختلف عمرو وابو عبيدة على القيادة العامة والامامة ، ثم تنازل ابو عبيدة بعد ان افهمه عمرو بن العاص انه [1] جاء مددا ليس غير ، ويبدو ان مقاومة قبائل قضاعة للاسلام كانت ضارية ولذلك جوبهوا بصمود الجيش النبوي حتى دوخ مناطقهم . وكانت قضاعة تهدد القوافل المتجهة من المدينة الى الشام وهم مع هذا مجاورون لنفوذ الروم .

11- سرية الخبط في رجب 8 إلى جُهَينة

جهينة المقصودة هنا هي جهينة الساحل الممتدة بمنطقة الحجاز غرب المدينة وباتجاه قضاعة ايضا . واتجهت السرية التي قادها ابو عبيدة في ثلاثمائة من المهاجرين والانصار الى منطقة القبلية من الساحل شمالا بعد مسيرة خمس ليال ، لان السرايا كانت تكمن بالنهار وتسير ليلا . وكان الجيش ينقصه التموين فاكلوا تمرا زودهم به الرسول ثم جاعوا جوعا شديدا واخذوا ياكلون الخبط (بفتح ثم سكون) وهو ورق السمر ، ثم استدان احدهم وهو قيس بن سعد بن عبادة تسع جزائر فنحرها للجيش على حسابه واخيرا طَعِمُوا من لحم حوت ألقى به البحر ، ونوه الرسول بموقف قيس كما استطاب لحم الحوت الذي اصطحب بعضهم قطعا منه الى المدينة ، ولم تلق السرية حربا .

12- سرية ابي قتادة الى خضرة بنجد في شعبان 8

1- أي ابو عبيدة بن الجراح

ارسلها الرسول الي خَضِرة (بفتح ثم كسر) وهي موقع لبني محارب بنجد ، وهم من غطفان وكانت السرية في ستة عشر رجلا بقيادة ابي قتادة بن ربعي فاغارت على المنطقة وقتلت بعض رجالها واستاقت قطيعا كبيرا من النعم فيه (200 بعير والفا شاة) .

ويختلط ذكر هذه السرية باخرى لابي قتادة قادها مساعده عبد الله بن ابي حدرد او حَضَراها معا الى جانب باقي السرية وذلك في منطقة الغابة من ضواحي المدينة حيث عقد هناك تجمع بقيادة رفاعة بن قيس،لقبيلة جشم الهوازنية ، وكان القصد من هذه السرية التعرف فقط على هذا التجمع الذي كان يتهيأ لحرب المسلمين ، الا ان ابن ابي حَدْرد تمكن من نصب كمين مع رفاقه لرفاعة فاصابه بسهم،واحتز رأسه،فنفر الرجال بأسيرهم هاربين بعد ان سمعوا تكبير السرية ، وكان ذلك ليلا ، فاستاقت السرية قطعانهم وكان ذلك في شعبان سنة 8 .

13- سرية ابي قتادة إلى بطن إِضَم في رمضان 8

وجه الرسول هذه السرية بقيادة قتادة في ثمانية نفر الى بطن إضم وهو موقع مائي بين مكة واليمامة في طريق الحاج ويتصل ايضا بطريق البصرة ، وكان ارسال هذه السرية بقصد ايهام قريش ان الرسول سيتوجه إلى تلك المنطقة لتشيع اخباره هناك بينما كان يتجهز لفتح مكة بسبب خروق قريش لمعاهدة الحديبية ، ووقع عند بلوغ السرية الى هدفها حادث كالذي وقع في رمضان من السنة المنصرمة ، وهو مرور رجل اسمه عامر الاشجعي بالسرية فحيَّى بتحية الاسلام ، ولكن محلم الليثي من السرية (وكان بينهما عداء) عمد اليه فقتله واستولى على بعيره وسلبه ، وغضبت لذلك غطفان وطالبت بدية القتيل . ودعا الرسول على محلم علانية ، ونزل بهذا الصدد قوله تعالى : «**يا ايها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن القى اليكم السلم لست مومنا تبتغون عرض الحياة الدنيا ... الآية** » . [1]

وقد راينا ان هذه السرايا وجهت كاغلب سابقاتها اليى جهات مصرة على عداء الرسول والمسلمين وبالاخص غطفان وهوازن وبعض سُليم وقضاعة ولبعض الذين اصروا فيما سبق على محالفة اليهود واعوانهم على الطرف الاسلامي ، ورأينا ان جانبا من هذه السرايا

قصد مناطق على الساحل او قريبا منه او حيث تتصل الطرق التجارية او تقارب تخوم الجهات العربية التابعة للروم .

فتح مكة في رمضان 8

مضى على معاهدة الحديبية اقل من عامين ، ثم خرقت قريش أحد أهم بنودها بموالاتها لبني بكر ضد خزاعة في قلب الحرم المكي ، وكانت خزاعة في عهد الرسول مشركوها ومسلموها ، وكان بنو بكر من كنانة في عهد قريش وبين الفريقين عداوة من عهد الجاهلية فقد كان احد التجار من بني بكر قد خرج بتجارة فلما توسط ارض خزاعة قتلوه ، واسمه مالك بن عباد الحضرمي ، فعمدت بنو بكر الى رجل من خزاعة فقتلوه ثم هاجت خزاعة فقتلت عددا من زعماء بكر ، وفيما بين ذلك بدأ الاسلام ياخذ طريقه الى خزاعة وضواحي مكة ، وانشغل الناس بأحداثه حتى كانت معاهدة الحديبية فدخلت بنو بكر في عهد قريش ودخلت خزاعة في عهد الرسول ، فرات بعض العناصر من بكر ان تستغل الفرصة ، فبيتوا خزاعة وهم حول موقع مائي يدعى الوتير ، فاصابوا منهم رجلا وتطور الاشتباك الى قتال،وامدتهم قريش بالسلاح وساهم بعضها في القتال مع بني بكر حتى الجأوا خزاعة الى الحرم ، وكان بين المقاتلين القرشيين عكرمة وصفوان وسهيل بن عمرو ، وكلهم مع بني بكر ، فاسرع بعض رجال خزاعة الى المدينة يتصلون بالرسول وعلى رأسهم بديل بن زرقاء . وادركت قريش خطورة تهورها فانتدبت ابا سفيان ليتولى تثبيت المعاهدة وتمديدها ، وعند عودة بديل الخزاعي لقي في عسفان ابا سفيان فعرف هذا انه اتصل بالرسول وان من وراء ذلك نذيرا بالشر للمشركين او بالاصح بشرى هداية لهم . ووفد ابو سفيان على ابنته ام حبيبة زوج الرسول وكانت مسلمة معادية لأسرتها المشركة فلما كلم الرسول لم يرد عليه بشئ . ورفض ابو بكرا ان يتدخل لدى الرسول ، ثم اتصل ابو سفيان بعمر بن الخطاب فقال عمر : انا اشفع لكم الى رسول الله (ص) ؟ ! فوالله لو لم أجد الا الذر لجاهدتكم به ! واخيرا التمس شفاعة علي وفاطمة : فاشار عليه علي ان يجير بين خزاعة وبني بكر اي يعلن حمايته للطرفين معا ، فراقته الفكرة وقام يعلن في المسجد النبوي انه يجير بينهما ، حتى اذا بلغ مكة وعرض الفكرة سئل هل اجازها محمد (ص)

فاجاب بالنفي ، فعرف القوم ان لا مفر من المجابهة مع الرسول والمومنين .

واخذ الرسول يتجهز لفتح مكة وِفق تخطيط عسكري وعقائدي دقيق واحتاط حتى لا تنفذ انباء الاستعداد الى قريش ودعا ربه لذلك ، وان كان المسلمون بالمدينة وغيرهم قد علموا ما يريده الرسول ، غير ان احد صحابة الرسول ، وهو حاطب بن أبي بلتعة كان له ابناء ينفق عليهم بمكة فبعث الى قريش كتابا مع إحدى السيدات يعلمهم بما يهيئه الرسول ، وأحيط الرسول فيما ذكر ابن هشام وغيره علما ، بطريق الوحي الالهي ، ان حاطبا ارسل المرأة المذكورة بكتاب الى قريش ، فبعث النبي في طلبها كلا من علي والزبير وانتزعا منها الكتاب ، واقر حاطب بما فعل وطلب عمر ان يضرب عنقه فابى الرسول (ص) لانه من اهل بدر . وقد نزل حول هذا الحادث قوله تعالى : «**ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء ، تلقون اليهم بالمودة ... الآية** » .

وخرج الرسول في عاشر رمضان سنة 8 والناس في صيام بعد ان ترك على المدينة أبارُهْم كلثوم الغفاري ، وحشد عشرة آلاف مقاتل بينهم عامة المهاجرين والانصار وسبعمائة من سليم (وقيل الف) ، والف من مزينة وهم من مضر يقطنون بين وادي القرى والمدينة ، والف واربعمائة من جهينة ، واربعمائة من غفار ، واعداد كبيرة من تميم وقيس واسد ، وحلفاء الانصار ، وقبائل مختلفة . ولم يكن اعداد هذا العدد الضخم بالشئ الهين ، ولم يكن بالنسبة للاسلام حَدَثاً صغيرا ، فحتى غزوة الخندق سنة 5 لم يكن الى جانب الرسول من المسلمين سوى ثلاثة آلاف مقاتل ، ولنفترض ان الفا موزعة بين القبائل لم تساهم في الخندق ، فان الاسلام في ظرف ثلاث سنوات تضاعف مرتين بل ثلاثا ، إذ لا شك أن مسلمين كثيرين لبعد المسافة ولأسباب مختلفة لم يساهموا في الزحف على مكة .

وفي الطريق الى مكة استقبل الرسول العباسَ عمَّه على اميال من المدينة في ذي الحليفة، وقد ورد مهاجرا الى مكة باسرته،فرحب به الرسول ودعاه الى الدخول الى المدينة والرجوع معه ليكون آخر المهاجرين حلولا بالمدينة ، واستأنف الجيش طريقه حتى كان بنيق العقاب او بالأبواء ، فلقيه ابو سفيان بن الحارث وعبد الله بن ابي امية بن المغيرة وقد وردا من مكة يريدان الدخول في الاسلام فرفض الرسول استقبالهما،ثم الحت عليه زوجه ام سلمة حتى صفح عنهما وهما من اقاربه واعلنا اسلامهما . ثم بلغ الجيش مرَّ الظهران وهو قرية

تدعى مَرّ ، حول وادي الظهران وتحيط بها واحة ومزارع وعيون لأَسلم وهذيل ، وبهذه المنطقة تلاحقت به بنو سليم ، لان الرسول لم يحشد الا قسما من الجيش بالمدينة ، ومنذ عودة العباس بن عبد المطلب مع الرسول باتجاه مكة والهواجس تثير نفسه اشفاقا من ان لاتستأمن قريش على نفسها قبل ان يحل المسلمون بارضها ، ولذلك قرر ان يقوم بدور لدخول المسلمين سلما ، وتلك كانت مبادرة حكيمة منه لصالح الاسلام وصونا لحرمة مكة نفسها ، وهكذا ركب بغلة الرسول البيضاء وانطلق يتحسس الاخبار حتى بلغ وادي الاراك ، وكانت أمنيته ان يلقى من يعهد اليه بخطاب لزعماء قريش يدعوهم الى استئمان الرسول والى الاسلام على يده ففوجئ بوجود ابي سفيان بن حرب " وحكيم بن حزام وبديل ابن زرقاء الخزاعي وهم يتجسسون على الجيش الاسلامي ، وقد اشعل المسلمون نيرانا كثيرة بالآلاف فهالهم ما تراءى لهم من بعد ، ثم انذر العباس ابا سفيان بسوء العاقبة اذا لم يبادر الى اعلان إسلامه لدى الرسول ، واصطحبه معه فلما وصل الى المعسكر النبوي لمحه عمر فسبق الى الرسول يطلب اعدامه،وعمر لا يطيق التسامح مع من كادوا للاسلام وطردوا اهله من بيوتهم وعذبوهم . وقال عمر للرسول (ص) : هذا ابو سفيان قد اقبل وامكن الله منه بغير عهد ولا عقد . لكن العباس اجاره ثم قدمه للرسول في اليوم التالي لياخذ الرسول مهلة من التفكير ، وجرى حوار قصير بمجلس الرسول :

- الرسول (ص) : ويحك يا أبا سفيان ! الم يان لك ان تعلم ان لا اله الا الله ؟
- ابو سفيان : بلى بأبي أنت وأمي ، لو كان مع الله غيره لأغنى عني شيئا !
- الرسول (ص) : الم يانِ لك ان تعلم انني رسول الله ؟!
- ابو سفيان : أما هذه ففي النفس منها شئ ...
- العباس : اشهدْ شهادة الحق قبل ان تضرب عنقك !

وتشهد ابو سفيان وتبعه حكيم وبديل رفيقاه . وبإسلام ابي سفيان تبدأ صفحة جديدة في تاريخ الاسلام بمكة .

وامر الرسول ان يتم عرضٌ لفرق المسيرة الاسلامية يشهده ابو سفيان ، وتلاحقت الكتائب حتى مرت الكتيبة الخضراء وهي للمهاجرين والانصار وعلى رأسها الرسول وكلهم دارعون ، فهال ابا سفيان ما رأى وقال للعباس : لقد أصبح ملك ابن اخيك عظيما ! وقال

العباس : " ويحك ! انها النبوة ... فقال ابو سفيان " نعم .

ولم يغادر ابو سفيان مكانه حتى تقدم العباس الى الرسول بمبادرة جديدة تضع ابا سفيان كأعلى شخصية لدى الرسول بمكة في دخول المسلمين اليها فاذن له ان يعلن لقريش ان من دخل داره فهو آمن ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، وسبق ابو سفيان الى مكة ليعلن مصيرها بنفسه وعلى لسان من كان يعده الد اعدائه : محمد الرسول .

وتوقفت المسيرة السلميّة التي لم تعد عسكرية بالرغم من انها مسلحة ، عند ذي طُوَى ، على مشارف مكة وتقدم الرسول وهو مطرق برأسه تواضعا ، ثم قسمت كتائب من الجيش على مداخل المدينة :

1- الزبير من كداء وكان على الجناح الايسر 2- علي بن ابي طالب من كدى وكان مقرراً ان يدخل سعد بن عبادة مكانه ولكنه قال : اليوم يوم الملحمة ! اليوم تستحل الكعبة ، فانتزع الرسول منه هذا الشرف 3- خالد بن الوليد من اسفل مكة وكان على الجناح الايمن . أما الرسول عليه السلام فقرر ان يدخل مكة من اعلاها من جهة الأذاخر ، ولم تعط ولاية الدخول لاحد من الانصار حتى لا يثيروا العداوة كما همَّ سعد ان يفعل ، لكن سُلِّمت راية الانصار لقيس بن سعد بن عبادة .

واعطى الرسول امرا للجيش ان لا يقاتل الا من جابهه بالقتال ، وجدد النداء بالامان بمثل ما دعا اليه ابو سفيان بامر الرسول (ص) ، وتقدم الرسول طليعة لابي عبيدة بن الجراح ، واعطيت اوامر بقتل اشخاص معينين من الرجال والنساء حتى ولو تعلّقوا باستار الكعبة ، على ان الرسول لم يدخل مكة فورا بل ضرب قبته باعلاها الى حين ان تتم عمليات الجيش ، وقررت مجموعة من قريش ومعها انصار من الاحابيش وبني بكر وغيرهم وذلك بمبادرة من عكرمة وصفوان بن امية وسهيل بن عمرو أن تحمل السلاح ضد المسلمين ، فقتلوا ثلاثة اشخاص منهم جابر بن جبيل الفهري وقيل كرز بن جابر ، واصيب رابع ، وقتل من المشركين ثلاثة عشر ، ثم انهزموا فانفتح السبيل من كل مداخل مكة امام المسلمين ، وكان من الذين اهدر الرسول دمهم ، عكرمة ، وصفوان ، وعبد الله بن سعد بن ابي سرح والشاعر عبد الله بن الزبعرى ، ووحشي بن

حرب قاتل حمزة ، وجميعهم ثمانية رجال .

واهدر الرسول دم اربع من النسوة ، هن هند بنت عتبة زوج ابي سفيان لتمثيلها بحمزة واذايتها للرسول قبل هجرته ، فقصدت الرسول متنكرة واسلمت ، وسارة مولاة لاحد الجال عبد المطلب،وهي التي حملت كتاب حاطب وارتدت بعد اسلامها فقتلها علي ، وقينتان كانتا تغنيان بهجو الرسول فاسلمت احداهما متنكرة وقتلت الاخرى .

اما الرجال فان عكرمة استأمنت زوجُه الرسولَ بعد اسلامها ليصفح عنه ، ثم ادركته وهُو يهُم بركوب سفينة الى اليمن فرافقته الى الرسول فاسلم ، واما صفوان فأمَّنَهُ الرسول بواسطة احد المتعاطفين معه من قومه جُمَحَ ، فأدركه بجدة وحمل اليه عمامة الرسول التي دخل بها مكة وهي سوداء لتتعرف عليها كعلامة ، ولم يسلم الا بعد ان طلب مهلة من الرسول فاعطاه اربعة اشهر حتى أسلم بعد حنين ، وهذا غاية الحلم . وأما عبد الله بن سعد فكان كاتب الوحي للرسول ثم ارتد،وكان يتلاعب بكتابة القرآن كما اعترف بذلك ، ثم لجأ الى عثمان الى ان مضت مدة ، فاستأمن له الرسول واسلم والرسول لم يكن مغتبطاً باسلامه بعد ردته ، غير ان ابن سعد ابلى بلاء حسنا بعد ذلك وأظهر كفاءة عالية في قيادة الجيوش والأساطيل االاسلامية ، واما ابن الزِّبعرَي فاستجار بام هانئ بنت ابي طالب وكان من قبل هجاء للرسول والاسلام.ثم اقبل الى الرسول مستعطفا معتذرا واسلم فقبل منه الرسول اسلامه . وجاء وحشي في جماعة من قومه وهو يردد الشهادتين فاستقبله الرسول وطلب ان يقص عليه كيف قتل حمزة حتى ابكى الرسول فصاح : غيب وجهك عني !

وبعد أن تجمعت قريش بالمسجد الحرام مستأمنة ، ولزم بعضها بيوتهم أو دخلوا دار ابي سفيان ، دخل الرسول البيت الحرام فطاف به سبعا على راحلته كما ذكر ابن هشام ثم دعا عثمان بن طلحة فاخذ منه مفتاح الكعبة ثم فتح له بابها فقال عندئذ " : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ، ألَاكُلّ مأثرة (مكرمة) أو دم او مال يدَّعى فهو تحت قدمي هاتين الاسدانة البيت وسقاية الحج ، ألَا وقتيل الخطإ شبه العمد ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل اربعون منها في بطونها اولادها . يامعشر قريش ، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، « يا ايها الناس ايا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

ثم توجه الرسول بالخطاب مرة أخرى الى قريش : يامعشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، اخ كريم وابن أخٍ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وهكذا مَنَّ الرسول على كل هؤلاء الذي آذوه فيما مضى واستهزؤوا به وكادوا يفتكون به وعذبوا الفقراء من المومنين به وحبسوه وقومه في شعب قاحل ثلاث سنوات . وكان مفتاح الكعبة وهو رمزٌ لأقدس موضع في الاسلام قد اخذه علي ، فامره الرسول برده الى عثمان بن طلحة وخاطب سادن الكعبة قائلا : خذها تالدة خالدة لا ينزعها منكم الا ظالم . يا عثمان ان الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل اليكم من هذا البيت بالمعروف . وظل مفتاح الكعبة وسدانتها في اسرته حتى يومنا هذا .

ولما رأى الأنصار الرسول قد سالم قريشا ظنوا انه سيستقر بينهم ، وتهامسوا فيما بينهم بذلك ، فطمأنهم الرسول وقال : معاذَ الله ، المَحْيا محياكم والممات مَمَاتكم .

وعمد الرسول الى اصنام الكعبة وكانت ثلثمائة وستين فامر بكسرها وهو يقول : قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، وامر بمحوِ ما بجدران الكعبة الداخلية من رسوم تمثل الانبياء والملائكة ، وأحدها يمثل ابراهيم وهو يستقسم بالازلام . واستغرب الرسول من هذا البُعْد عن الحقيقة ، وتشدد بعد ذلك في تحريم الرسم حتى لا تشوَّه حقائق الدين ، والعقائد السماوية ، ولكي لا تعبد الصور مرسومة ومجسمة كما كان شان المشركين . وحيث انتفت علة التحريم بعده فقد قبل المسلمون التصوير والرسم كضرورة وبكيفية تدريجية . وفي سنة افتتاح مكة تم هدم اصنام اخرى خارجها ومنها العزى ببطن نخلة لسليم في طريق البصرة ، وكانت تعظمه قريش وغيرها ، وهدمه خالد بن الوليد ، وسواع برُهاط (بضم الراء) لهذيل بضواحي مكة في طريق المدينة . وحسب ياقوت كان صنم هذيل هذا بُرهاط ينبع ، وهدمه عمرو بن العاص ومناة بالمشلَّل (بشد الام الاولى فتحا) وهو جبل فيما بين قديد والبحر شمال مكة ، وكان صنم مناة للأوس والخزرج ، وهدمه سعد الاشهلي .

وعندما دخل الرسول الكعبة امر بلالاً ان يؤذن بها ، ودخل بلال معه ، وكان هذا اسمى رمز في ذلك الوقت بالذات لتكريم المسلم الذي لم يكن فيما مضى الارقيقا يهان

ويسخر لدى الأسر المتعالية ، والآن يدخل جنبا لجنب مع اعظم شخصية نبوية في تاريخ البشرية ، بينما يجلس ابو سفيان ورفاقه بفناء المسجد الحرام يرقبون ما يجري حيث يتغير تاريخ مجتمع بكامله .

وجلس الرسول بعد ذلك يتقبل بيعة قريش ، وهي بيعة على الطاعة لله ورسوله ، وبيعة على الاسلام بشروطه واركانه ، فبايع الرجال ثم النساء : الرجال اولا لمسؤليتهم في تحمل اعباء الاسرة ماديا ، ومسؤوليتهم في المحافظة على العقيدة وحماية الارض التي ينتمي اليها المجتمع الجديد ، ومسؤولياتهم في حماية المرأة والأسرة ؛ والنساء ثانيا ، لأن العقيدة لا يختص بها الرجال ، ولان للمراة مسؤوليات دقيقة وكبيرة في البيت والمجتمع والحياة الدينية ، وهي في اكثر هذه الشؤون مسؤولة مباشرة عن نفسها امام القانوت الالهي فضلا عن مسؤوليتها امام ضميرها.

واقام الرسول بمكة خمسة عشر يوما وقعت خلالها بعض الاحداث المنفردة والتي لم يرض عنها الرسول لانها كانت احداثا دامية لا مبرر لها ويمكن تلافيها ، فغداة الفتح الذي كان في العشرين من رمضان قتل بعض خزاعة بالحرم المكي شخصا من هذيل وكان مشركا ، بسبب ثار قديم ، فخاطب الرسول خزاعة : يا معشر خزاعة ارفعوا ايديكم من القتل ، فقد كثر القتل ان نفع ، لقد قتلتم قتيلا لأدينه ، ثم خاطب جمهور الحاضرين:ايها الناس ؛ إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض ، فهي حرام من حرام الى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يومن بالله واليوم الآخر ان يسفك فيها دما ولا يعضد (ولا يقطع) بها شجرا ....

ثم ادى الرسول دية القتيل ، وكان الحادث الثاني هو ان الرسول بعث خالد بن الوليد بعد عودته من هدم العزى الى بني جديمة بن عوف ، في ثلثمائة وخمسين مهاجرا وانصاريا وبعض بني سليم ليدعوهم الى الاسلام ، فلما بلغ اليهم صرحوا انهم مسلمون وانهم بنوا المساجد حيث هم ، ثم استفسرهم عن حمل السلاح فذكروا ان يكون القادمون اعداء ، فامرهم ان يستأسروا ، ثم كتفوا و وأمر باعدام عدد منهم . وقتل بنو سليم من كان بأيديهم ، وأطلق المهاجرون والانصار اسراهم . وغضب الرسول لِمَا صنع خالد ، وتبرأ الى الله من صنيعه ثم امر باداء ديات القتلى وكلف بها علي بن ابي طالب ، وخالد كان

يتصرف في بعض الحالات بروح العسكري الذي لا يطيق اجراء مسطرة تطول وقد تفتح وجوها للضعف مما لا تقبله طبيعة القائد الصارم ، وخالد بالرغم من هذه الحالات المحدودة يمثل اكبر شخصية قيادية عسكرية انجبتها الفتوح الاسلامية الأولى .

ولكن الرسول تحمل اخطاء القادة والصحابة وعمل على الحد منها وتلافيها وتصحيحها حتى استقامت الامور بفضل حكمته وبعد نظره وضربه المثل في النزاهة والحلم والتحري . وقبل انصرافه من مكة ، عين عليها اول عامل وكان هو عتاب بن اسيد ولم يكن يتجاوز العشرين الا قليلا وهو من البيت الاموي ، غير انه اصبح على المجتمع القرشي وما حوله ان يطبق تعاليم العقيدة الجديدة في كل مجالات الحياة صلاة وعبادة وتجارة وزواجا وتعاملا وما الى ذلك [1] .

وبفتح مكة يكتمل اكليل الفخار الذي توج به العهد المحمدي جبين المجتمع العربي . والحق ان ثلاثة اشياء وجهت مستقبل الاسلام كله لا العرب وحدهم : القرآن واسلام الانصار ، وفتح مكة ومن وراء القرآن ورسوله يوجُه التاريخ البشري والدولي نحو آفاق جديدة .

واعطى الفتح للادب العربي نفسا جديدا ، فان شعراء قريش واولياءها انضموا الى الركب الاسلامي والتفتوا الى مساوئ الماضي فعددوها وعملوا على دفنها ليحيوا امجاد العقيدة الاسلامية . والحق ان اثر الماضي لم يمت ، ولكن الحاضر بدا هرما شامخا وروائع الفن في حدود الادب الاسلامي .

غزوة حنين وحصار الطائف في شوال 8

كانت هوزان اكبر كتلة قبلية تجاوز فروعها المدينة ومكة شرقا ، وكانت ثقيف اكبر فروع هوازن ، ومركزها الطائف وتمتد مضاربها لمسافة بعيدة حولها . وإلى هوزان ينتمي ايضا ، بنو هلال الذين كانت اهميتهم العددية والاجتماعية محدودة في هذا العصر ثم صار

1- انظر عن فتح مكة ، ابن هشام / 3 . 22 - 53 . طبري 3 ، 110 - 125 . الازرقي 1 ، 265 و 274 . بلاذري . فتوح ، ص 49 ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 161 - 172 . مقدسي ، 4 ، 232 - 235 . يعمري 2 . 212 - 242 . ياقوت ، معجم البلدان . كحالة ، معجم قبائل العرب . ابن خلدون ، 2 ، 801 - 810 .

لهم شأن كبير منذ القرن الرابع / العاشر م . وكانت ثقيف تكاد تعتبر كتلة قائمة بذاتهاحتى ان بعض المؤرخين يتحدثون عن هوازن وثقيف في غزوة حنين كل على حدة مع أن هذه من تلك وهم مع فروع هوازن الاخرى أبناء عمومة ، وجدهم هوازن [1] .

ولما كان الرسول يتجهز لمغادرة مكة بعد فتحها توقعت هوازن وأهل الطائف (ثقيف) انه سيقصدها لا خضاعها ، فاحتشدت جموع الفريقين على موعد بأوطاس ، وهو كما قال ياقوت : واد في ديار هوازن . وقيل ان عبارة "حَميَ الوطيس " أخذت من هذه الموقع واستعملها الرسول لاول مرة . وكان ضمن هوازن قليل من بني هلال وسائر فروع هوازن ، وحيث ان هوازن تنتمي لقيس عيلان فقد كانت تنتظر مؤازرة كعب وكلاب لكن كانت المؤازرة رمزية واجتمع بأوطاس حشد يناهز الثلاثين الفاً بقيادة مالك بن عوف ، وفي الجموع النساء والاطفال ، رغبة في ان يستميت الرجال في الدفاع عن أسرهم ، وحضر ايضا دريد بن الصمة وهو من ابطال العرب في الجاهلية وحملوه الى اوطاس شيخا مسنا يتبركون به . وهكذا رأى خصوم الرسول ان يسبقوه قبل ان يسبقهم ، والواقع انهم كانوا يهمون بالهجوم على المدينة لولا ان الرسول حشد مجموع الجيش الذي فتح مكة إضافة الى الفين من قريش ثم صار باتجاه وادي حُنين قريبا من معسكر هوازن وثقيف ، وكان الرسول قد استعار من صفوان بن امية وهو لا زال على شركه مائة درع وتوابعها من السلاح إضافة الى ما يتوفر عليه المسلمون وذلك لان ثقيفا كانت تحارب بكل الاسلحة المعروفة في ذلك العهد بما فيها آلات الحصار وخرق الاسوار .

وحينما توسط المسلمون وادي حنين وهو من اودية تهامة كان المشركون قد نصبوا كمائن على ضفتيه ، وكان العباس يقود ناقة الرسول "دُلدُل " والوقت صبح وقد اعجب المسلمين كثرتهم النسبية في هذا اليوم وكان اليوم فاتح شوال ، ففاجأتهم الكمائن من الجانبين خارجة من الشعاب والمضايق وفتكت بهم فتكا ، فأمر الرسول العباس ان ينادي المهاجرين والانصار وأصحاب السمرة (الشجرة التي جلس عندها الرسول بالحديبية لتلقي بيعة الرضوان) . وكان العباس جهير الصوت وقد تفرق اصحاب الرسول من حوله وانهزمت كتائب المسلمين فلم يبق معه الا القليل ومنهم ابو بكر وعُمَر وعلي والعباس وابنه الفضل واسامة بن زيد وأيمن بن ام حاضنة الرسول . ونادى العباس حسب توجيهات الرسول

1- كحالة . معجم قبائل العرب (مادة هوازن) .

فتراجعوا نحو الرسول وثبتوا للقتال والهجوم المضاد فقتلوا اعدادا من هوازن وثقيف وبينهم دريد بن الصمة ، وكان مجموع قتلاهم سبعين حسب الطبري ، وعلم الرسول ان خالدا قتلسيدة فامره بالكف عن قتل النساء والصبيان والأجراء ، ووقع في الاسر كثير من المشركين كما سبي عدد من نسائهم واطفالهم ووجد بينهن الشيماء بنت الحارث وهي اخت الرسول من الرضاع وقد اطلق الرسول سراحها واعادها الى اهلها مكرمة . وكان بين قتلى المسلمين ايمن ابن عبيد ابن حاضنة الرسول ؛ وسراقة بن الحارث الانصاري ، ويزيد بن زمعة . وحصل المسلمون على غنائم ضخمة ، وكان السبي ستة آلاف والابل اربعة وعشرين الفا والغنم اكثر من 40 الفا ، والفضة اربعة آلاف اوقية . ونقل اليعمري اسماء بعض الشخصيات التي خصها الرسول بعطايا سخية من هذه الغنائم كابي سفيان وابنيه يزيد ومعاوية وسهيل بن عمرو وآخرين ، وذلك في حدود الخُمُس الذي يتصرف فيه القائد حسب المصلحة التي يراها هو ، وإنما فعل الرسول ذلك يتألف قلوب الزعماء والشخصيات ذات الكلمة المسموعة في قومها والتي هي حديثة عهد بالإسلام . اما الانصار فلم يكن لهم نصيب من الغنائمكالمؤلفة قلوبهم ، فساءهم ذلك وجاءوا يشكون ا' ِ الرسول حرمانهم من وافر العطاء فخاطبهم بكلام مؤثر هذا بعضه : الا ترضون يا معشر الانصار ، ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رجالكم ؟! فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا ، لسلكت شعب الانصار ، اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار وابناء ابناء الانصار . وبكى القوم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا .

كان هذا الحرمان الجزئي من العطاء امتحانا للانصار ، ولكن لا بد من ان يوضع في الاعتبار هؤلاء المؤلفة قلوبهم وهم ألفان من قريش دخلت حديثا في الاسلام . وقد بدأت عائدات الجزية والزكاة تَرِد على الفقراء والمحتاجين انصارا وغيرهم كما ان حروب الردة ومصادرة اموال اليهود اتاحت للانصار مزيدا من الايرادات كسائر المسلمين .

وتعقب المسلمون المنهزمين الذين لجأ عدد كبير منهم وخصوصا ثقيف الى الطائف حيث حصونهم التي اعتصموا بها ، وكانت الطائف مسورة فعسكر المسلمون حولها في غير مأمن ، فأصابتهم نبال ثقيف واستشهد منها عدد ، وتوافدت على الرسول الوفود من حول

الطائف تدخل في الاسلام ، واستمر الحصار لمدة خمسة عشر يوما دون جدوى . وكانت ثقيف قد استعدت للحصار ومعها عدد من هوازن ورئيسهم ، ونصب الرسول المنجنيق بإشارة سلمان ، كما حاولت دبابة مصنوعة من الجلد ان تحدث ثغرة في السور فرماها اهل الطائف بقطع حديد محماة فأحرقتها ومن بهاء وعندما رأى الرسول ان المحاولة بالحصار غير مجدية استشار الصحابة وعمل برأي عمر في المتخلي عنه والرجوع الى الجعرانة والتي كان الرسول قد ترك بها السبي ، وهناك تمت عملية تقسيمه ، وما لبث الرسول ان استقبل وفداً من هوازن جاء يعرض اسلامه واسلام قومهم ثم طلبوا ان يرد اليهم السبي ، فقبل الرسول وسائر الجيش رده بعد ان خيّرهم الرسول بين أسرهم واموالهم فاختاروا اسرهم ، ورد كثير من الناس الاموال عن طيب خاطر ، وخرج مالك بن عوف رئيس هوازن من ملجئه بالطائف إلى الرسول يدخل في الاسلام بعد ان علم أن الرسول كلفه باستئناف حصار الطائف او بمواصلته حتى تم اسلام ثقيف .

وذُكرت غزوة حنين في القرآن اذ يقول تعالى :

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ اعجبتم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ثم ضاقت عليكم الارض بما رحبت فوليتم مدبرين ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المومنين ... الآية . »

وتفاخر الشعراء كعباس بن مرداس وكعب بن مالك وغيرهما بانتصارات المسلمين ، كما اسهم آخرون في رثاء قتلاهم او في الرد على معارضيهم .

وبعد فراغ الرسول من نشاطه بالجعرانة قصد مكة للعمرة ثم توجه مباشرة الى المدينة في اواخر ذي القعدة أو أوائل ذي الحجة 8 هـ وترك الرسول بمكة معاذ ابن جبل مرشدا دينيا يعلم المسلمين الجدد القرآن ويفقههم في مسائل الدين .

وبرهن الرسول عن مرونة متناهية في تقسيم العطاء ومعاملة المؤلفة قلوبهم والمتلهفين على المزيد من العطاء حتى أن جماعة تلاحقت به بعد حنين وهم يتصايحون : يارسول الله ، اقسم علينا فيئنا من الابل والغنم ، حتى لجأ إلى شجرة فتعلق بها رداؤه فقال : ردوا علي ردائي ايها الناس ، فوالله لو كان لي عدد شجرتهامة نعما لقسمتها عليكم ثم لا تجدونني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا ، ثم اقتطع وبرة من سنام بعير وقال : ليس

لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، وهو مردود عليكم ! [1]

فليس عجيبا والحالة هذه ان يموت محمد الرسول فقيرا مُعْدماً ، ويعيش آخرون مرفّهين بفضل بره دون ان يبذلوا جهداً يذكر . ولقد ورد العباس بن مرداس الشاعر على الرسول مع قومه فلما كان عطاؤه بضعة جمال غَضب فامر الرسول ان يزاد من نصيبه وقال : اقطعوا عني لسانه . وما كان الرسول ينظر في ابل مرداس الشاعر فحسب فهناك غيره كثيرون ولهم من الهجو المقدع في الاسلام والرسول شئ كثير ، ولم يتملق الرسول مدحهم بعد اسلامهم ولا هو فضلهم على غيرهم ، وانما رأى الرسول في ابن مرداس كل قبيلة بني سُليم التي ينتمي اليها والتي لا زال اكثر زعمائها من المؤلفة قلوبهم .

ووفد على الرسول بعد عودته الى المدينة كعب بن زهير الشاعر وكان الرسول قد أهدر دمه . وروى ابن الاثير انه كان يتشبب بام هانئ بنت ابي طالب ، حتى ان الرسول امر بقتله وقطع لسانه . وقيل ان الامر بإعدامه كان بسبب توبيخه لاخيه بجير الذي دخل في الاسلام ثم سخر كعب من اسلامه . وما لبث كعب بتحريض بجير ان اسلم وانشد الرسول قصيدته " بانت سعاد" فخلع عليه بردته التي انتقلت الى ملك خلفاء بني امية بعد موته .

آخر السرايا الى المشركين بعد غزوة حنين : محرم 9 رمضان 10 هـ

1- سرية عُيَيْنَة الفزاري الى بني تميم في محرم 9

كانت مضارب تميم مجاورة لغطفان شرقا حتى اليمامة ، فوجه إليهم الرسول عيينة ابن حصن الفزاري على راس سرية من خمسين فارسا فاستاقوا بعض اغنامهم في منطقة صحراوية واخذوا منهم سبايا وصبيانا ، ثم وفد على الرسول وفد من زعمائهم في نحو سبعين رجلا منهم الزبرقان بن بدر والاقرع بن حابس ، فنادوا الرسول بغلظة من وراء بيته وكان في ذلك عتاب من القرآن : « **ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون ...** » ثم خاطبوه بشئ من الخشونة طالبين اطلاق سراح السبي فرده عليهم الرسول واسلم جميع الوفد . وتعد تميم في جملتها مجتمعاً يساريا يميل إلى المعارضة ،

1- راجع حول غزوة حنين وحصار الطائف : ابن هشام ، 4 ، 60 و 90 . طبري 3 ، 165 . ابن الأثير ، 2 ، 177 - 189 . مقدسي ، 4 . 235 - 239 . يعمري ، 2 ، 242 - 260 . ابن خلدون ، 2 ، 810 - 818 . بلاذري ، فتوح ، ص 74 - 75 .

وظهرت فيهم متنبئة في عهد مبكر ، وكانت فيهم ردة ، وانبثق من صفوفهم الخوارج الاولون .

2- سرية قطبة بن عامر الى خَثْعم في صفر 9

خثعم بن انمار قبيلة قحطانية من اصول يمنية استوطنت ضفاف وادي الدواسر بجوار ثقيف شرقا ، واتخذوا لهم كعبة فيها صنم سموه الخلصة . بعث الرسول عشرين مقاتلا بقيادة قطبة بن عامر الى بعض جموعهم بمنطقة تبالة في طريق اليمن فاغاروا عليهم واقتتلوا وكان بين الفريقين جرحى ثم سبوا نساءً وغنموا نعماً لكن سيلاً طارئاً حجز بينهم وبين الغنيمة . وفتحت تبالة في السنة التالية .

3- سرية الضحاك الكلابي الى بني كلاب في ربيع الاول 9

وجه الرسول (ص) هذه السرية الى بني كلاب بن ربيعة من فروع هوازن ، وذلك بالقرطاء (بضم ثم فتح) وهي منطقة شديدة العداء للاسلام ، وقد سبق ان وجهت اليها سرية في محرم سنة 6 هـ ، وفي هذه المرة ايضا دُعُوا الى الاسلام فقاوموا دون أن يذعنوا .

4- سرية علقمة المدلجي الى البحر الاحمر ، ربيع الآخر 9

كانت من ثلاثمائة مقاتل توجهوا الى جدة حيث ظهر مهاجمون من جهة الحبشة فتصدوا لهم حتى طاردوهم الى احدى الجزر في اتجاه الحبشة ثم اختفى الاحباش

5- سرية علي الى طَيِّئ في ربيع الآخر 9

توجه على رأس هذه السرية علي ابن ابي طالب في مائة وخمسين انصاريا ، منهم مئة أبّال و 50 فارسا ، وطيئ من القبائل القحطانية مثل الاوس والخزرج الذين يكونون الانصار . وكان من عادة الرسول غالبا ان يوجه السرايا التي ينتمي افرادها او جلهم الى نفس الجهة المقصودة ، وكثيرا ما يكون القواد من نفس الجهة ايضا . وكان لطيئ صنم بنجد سموه الفلس (بضم الفاء وسكون اللام) وكان قريبا من فيد الواقعة في طريق مكة

من جهة طيئ .

وفي هذه الغارة تم هدم الصنم وسبيت بنت حاتم اخت عدي ، وحصل علي على سيفين كان الحارث بن شِمْر الغَساني اهداهما لبعض شخصيات طيئ ، فتقلد أحدهما الرسول والآخر علي ، وحصلت السرية على غنائم كثيرة ، اما عدي فلجأ الى الشام ، وكان نصرانيا ثم اسلم .

وفي رجب من السنة التاسعة وقعت غزوة تبوك ضد الروم وياتي بسطها في عرض الصراع ضد الروم وحلفائهم .

6- سرية خالد إلى بني حارث بن كعب في ربيع الآخر 10

وجهوا في اربعمائة نفر اهل نجران يدعونهم للاسلام فاسلموا .

7- سرية علي الى اليمن في رمضان 10

كانت من ثلاثمائة فارس بقيادة علي بن ابي طالب ومهمتها الدعوة الى الاسلام . واشار الرسول على علي ان لايقاتل سكان اليمن الا اذا قاتلوه ، وقصدت السرية منطقة مذحج وهي اقرب مناطق اليمن جنوب مكة ، وكانت اليمن تشغل مساحة شاسعة عبر جنوب جزيرة العرب ، وأغارت السرية على الغنائم ودعت اهل المنطقة الى الاسلام فقاوموها ، لكن علياً تصدى لقتالهم فهلك منهم بشرون ثم أذعنوا للإسلام ، وقصدت سرية اخرى همدان وكانت ايضا بقيادة علي فاسلمت همدان كلها وسر الرسول لذلك سرورا عظيما حتى انه سجد لله شُكْراً وحَيّى اسلام همدان . وكان قسم منهم دخل في الاسلام بورود وفد منهم على الرسول بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة . وكانوا قبل الاسلام مشركين ، ومن أصنامهم سُواع ويعوق وقد ذكرا في القرآن . (1)

1- انظر حول السرايا بعد حنين : طبري 3 ، 148 - 156 . بلاذري ، ص 92 .
ابن الاثير 2 ، 194 . يعمري 2 ، 261 - 266 . 344 ، ياقوت ، معجم البلدان . كحالة ، معجم قبائل العرب . :(تميم - همدان)

⁂ الفصل الثالث ⁂

الصراع ضد اليهود

استعرض الفصل الاول من القسم الثاني من هذه الدراسة كيفية استقرار اليهود بالحجاز وموادعة الرسول لهم بيثرب . والعهد في الواقع يشمل سائر يهود الحجاز لان دخول مجموعاتهم المختلفة في احلاف ضد الطرف الاسلامي جر إلى إجلائهم تدريجيا عن شبه جزيرة العرب ، وحسب سياق الروايات الاسلامية على اختلافها كان اليهود يعتبرون انفسهم مجتمعا قائما بذاته ولكنه ضعيف من حيث العدد ، وبالنظر لخصائصهم كانوا يعيشون في عزلة عن مجتمعات البدو التي هي مجتمعات خيام ، بينما يتجمع اليهود في حصون ، ويحتمون باحلاف عقدوها أو يعقدونها مع القبائل القوية من عهد بعيد . فهم منذ حلوا بشبه الجزيرة في عهد موسى او سلالته لم يسلكوا سلوك المواطنين كليا كما حدث بالنسبة ليهود الشمال الافريقي ؛ وهذا يفسر جيدا موقف الرسول بعد نكثهم للعهود حيث اجلاهم او أمر باعدام من استحقوا الاعدام .

وكان الوضع بالنسبة لليهود في المدينة محرجا بعد حلول المسلمين وانتشار الاسلام بها ، واذا كان احبارهم يعلمون ان روايات العهد القديم التي لم يلحقها التحريف حتى ذلك الوقت ، فضلا عن بعض روايات الانجيل ايضا ، تتحدث عن ظهور نبي باسم محمد وكان احبارهم يذكرون ذلك قبل مبعث الرسول فإنه لما بعث وهاجر الى المدينة ضاقوا ذرعا بالسلطة الجديدة التي جاءت بعقيدة شاملة وحلت محل السلطة الفارسية في استخلاص الضرائب على قلتها في الشريعة المحمدية، فأخذوا ولا سيما احبارهم "يسألون رسول الله (ص) وينعتونه وياتونه باللبس ليلبسوا الحق الباطل ، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه ، إلا قليلا من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها " [1]

ثم كانت هناك فئة من الأوس والخزرج قد دخلت في الاسلام نفاقا وظلت على صلاتها الودية باليهود الذين اسلم بعضهم نفاقا ايضا [2] . وكانت فئة المنافقين يتولى زعامتها عبد الله بن أُبَيّ بن سلول ، وهكذا فإن وضع المومنين لم يكن مريحا داخل المدينة

1- ابن هشام . 2 . 115

2- م . س . ص 119 - 125

وحولهما شمالا على مسافة مهمة تنتشر فيها تجمعات سكنية لليهود ، والقرآن يندد بالمنافقين واليهود ، وهذا ايضا يزيد عقدة النقص تصلبا لدى هذه الطائفة التي حاولت ان تطيحَ بالمومنين فرادى وجماعات وعلى راسهم محمد الرسول (ص) . وقد اورد ابن هشام نماذج كثيرة مما كأن من جَدَلّ بين الرسول واليهود ومن تعنتهم بشأن القرآن واخفاء حقائق التوراة [1] .

وفيما يلي مراحل الصراع ضد اليهود :

1- اجلاء بني قيقناع في السنة الثانية

كان بنو قينقاع وهم حوالي سبعمائة غير أسرهم يشتغلون بحرف مختلفة في المدينة وما حولها وكانوا حلفاء للخزرج ، وجلهم تجار وصاغة ، وبعد شهر من معركة بدر ، حدث ان احدى السيدات المسلمات كانت عند احد الصاغة من اليهود فكشف عن جسمها من خلف وهي مولية ، وأخذ اليهود يتضاحكون ، فعمد مسلم الى الصائغ فقتله ، وعمد هؤلاء الى قتل المسلم ، وهذا ما أثار حسب رواية ابن هشام إجلاء بني قينقاع عن المدينة ، والحقيقة أن الرسول لم يتسرع ليتخذ إجراء قاسيا وجماعيا يجرد بني قينقاع من اموالهم ويجليهم لمجرد اعتدائهم على مسلم ومسلمة ، فإن رواية اخرى ساقها ابن اسحق كانت السبب المباشر لطرد بني قينقاع ، فقد جمع الرسول رجالات قينقاع بسوقهم الخاص ، وكان هذا دون شك بعد حادثة المرأة ، فاخذ ينصحهم ويذكرهم بما في التوراة عن رسالته وقال : احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم اني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله اليكم.وردوا بوقاحة : إنك ترانا كقومك ، فلا يغرنك انك لقيت أقواما لاعلم لهم بالحرب (أي قريشا!) فأصبت منهم فرصة ! إنا والله لوحاربناك لتعلمن أنا نحن الناس !

ومفهوم ضمنيا ان الرسول قرر ان يحاربهم بعد ان لم يجد سبيلا الى اقامة علاقة مودة معهم بل مفهوم بكيفية أوضح ان بني قينقاع وقد فوجئوا بانتصار الرسول في بدر اصبحوا يتوقعون ان يزداد امره قوة فقرروا ان يستَفزُّوه بالمبادرة الى نبذ مواثيقهم معه ، ومن ثم إلى مجابهته بالقوة والسرعة الازمتين ، وجاء الامر الى الرسول بالرد على الخيانة

1- م .س ص 118 - 158 و 166 - 168 .

في هذه الآية : « **فإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء** » .

ثم اعتصموا بحصونهم في أطراف المدينة حتى لا يقعوا فرادى في يد المسلمين . واعلن عبادة بن الصامت باسم الخزرج انه يتبرأ من حلفهم ، وبذلك انفصم بند رئيسي من العهد النبوي وصار بنو قينقاع مسؤولين عن سوء مبادرتهم . وحاصرهم المسلمون خمسة عشر يوما فلما نفذت مؤنهم وضاق بهم الحال نزلوا على حكم الرسول ، فأمر ان يكتفوا ليقتلوا ، وتدخل عبد الله بن أبَيّ بن سلول بإلحاح وخشونة لدى الرسول حتى لايمضي فيهم حكم الإعدام ، وقال : نخشى يا محمد ان تصيبنا الدائرة بقتلهم ، ورد القرآن بقوله تعالى : « **فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة ، فعسى الله ان ياتي بالفتح ... الخ الآية ،** » فقرر الرسول ان توخذ اموالهم ويحفظ لهم نساؤهم واولادهم ويتم جلاؤهم عن المدينة ويظهر ان الرسول لم يلزمهم بالمقام في جهة معينة لان السلطة الاسلامية حينئذ لم تتجاوز المدينة نفسها مع وجود مجموعات اسلامية قليلة منبثة خارجها . وهكذا رافقهم عبادةبن الصامت الى ذباب وهو جبل حول المدينة ، فتوجهوا في مرحلة أولى الى خيبر ، ثم قصدوا أذرعات من منطقة البلقاء ، وكانت تعد من اعمال دمشق .

اما اموال بني قينقاع فقد اخذ الرسول خُمسا وأسهم الباقي للمسلمين ، وكانت قيادتهم لحمزة بن عبد المطلب في هذا الحصار الذي ضُرب على بني قينقاع ، واليهم ينتمي عبد الله بن سلام الذي كان اسلامه خالصا [1] .

2- بنو النضير في ربيع الأول 4

هاجر بنو النضير مع قريظة وبني قينقاع وبني يَهْدل الى الحجاز خلال القرن الاول للميلاد وكان بنو النضير وقريظة ممن استقروا من اليهود بالمدينة وحولها حيث فتكوا بالعماليق سكانها العرب حسبما نقله ابن خلدون عن الاغاني .

وكان من عهود الرسول مع بني النضير ان يتحمل كل من الفريقين عن الاخر جزءا من دياته ، وحدث أن وفدا ارسله الرسول (ص) في صفر 4 هـ الى بني عامر بمنطقة سليم للقيام بالدعوة ففتك به بنو سليم ، ونجا عمرو بن امية الضمري فصادف في الطريق عامريين فقتلهما فطالب قومهما الرسول بديتهما ، وتنفيذا لعـهده مع بنـي النضير طلب

1- ابن اسحق ، السير والمغازي ص 313 . ابن هشام ، 3 ، 5 . طبري 2 ، 217 . ابن الأثير 2 ، 96
2- يَعمُري ، 1 ، 352 . ابن خلدون ، 2 ، 358 .

الرسول منهم ان يعينوه على الدية وكان معه جماعة من الصحابة فيهم أبو بكر وعمر وعلي وهم جميعا يستندون الى جدار احد بيوت بني النضير فاتفقوا (اي بنو النضير) سراً على ان يلقوا على الرسول صخرة من اعلى البيت ليقتلوه ، وعارضهم سلام بن مشكم فلم يسمعوا له وقد ذكرهم بالعهود ، وأوحِي الى الرسول بما دبروه ، فاعتزل اصحابه وعاد الى المدينة دون ان يخطرهم ، فتبعوه بعد ان تأخر عنهم ، ثم اعلم المسلمين بغدر بني النضير ، وبعث الى هؤلاء يدعوهم الى الجلاء عن المنطقة وينذرهم بالحرب اذا رفضوا ، فقاموا يدعون قريشا سرا الى مناصَرتهم ، ووعدهم عبد الله بن أُبَيّ بحشد انصاره من بني عوف من الخزرج ، كما استنصر بحلفائه من غطفان . وفي عبد الله هذا نزل قوله تعالى : «**الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احدا ابدا وإن قُوتِلْتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون**» . وكان بنو النضير يشتغلون بالزراعة حول المدينة حيث توجد حصونهم ، والأرجح ان بناء الحصون نقله يهود الحجاز عن سكان اليمن او عن الشعوب السامية الاخرى كالبابليين ، غير أن المنافقين وقد رأوا أن عزم الرسول على اجلاء بني النضير لا رجعة فيه تقاعسوا عن نصرتهم وخذلهم سائر من استنصروا بهم ، فحاصرهم الرسول وهم معتصمون بحصونهم ، وامر بقطع شيئ من نخلهم فسألوه كيف ينهى عن الفساد وهو يقطع النخل فكان الجواب الالهي بذلك هو الآية الكريمة : « **ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين** » . وهكذا فقطع الشجر والنخل ما هو الا من باب الضغط على العدو حتى يستسلم ؛ وحتى قريظة رفضت ان تدخل مع بني النضير في حرب ضد النبي مع انها ايضا من سكان منطقة المدينة ، وذهب الامر بقريش الى انها لم تتخل فحسب عن نصرة بني النضير بل هددتهم باكتساح حصونهم إذا لم يقوموا بقتال الرسول والمسلمين ، واتهمت قريش بني النضير بأنهم ساعدوا على تقريب المسلمين اليهم بمساكنتهم ، فأسقط في يد بني النضير ، وعمدوا الى الرسول يعرضون عليه ان يقوم ثلاثون من الصحابة وثلاثون من الاحبار بالاجتماع فيما بين قريتهم والمدينة بحضور الرسول ، فان اقتنع الاحبار آمنوا فيتبعهم سائر بني النضير ، فعرف الرسول دسيستهم ووافق على الفكرة ، غير أنه اشترط عليهم كتابة عهد يلتزمون به

بالايمان برسالته بعد ايمان الاحبار فرفضوا العهد وقرر الرسول حصارهم فلما ضاق بهم الامر طلبوا الجلاء ، فاجابهم الرسول اليه ، على ان يتخلوا عن ارضهم وسلاحهم ولا يحملوا الا ما تحمله ابلهم ، فقبلوا بعد ان استمر الحصار مدة قيل ستة ايام وقيل خمسة عشر يوما ، وكان لابن أُبَيّ دور في الابقاء على دمائهم حيث توسط لدى الرسول في ذلك ولكن يهود بنـي النضير لم يغادروا بيوتهم حتى خربوها او جزءا منها ، ولما دخلها المسلمون ساهموا ايضا في تخريبها كما توضحه الآية :

« **يخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المؤمنين** » . :

وتولى عملية الجلاء ، وذلك في ربيع الأول من السنة الرابعة،محمد بن مسلمة . وحاز المسلمون خمسين درعا وخمسين خوذة وثلاثمائة واربعين سيفا ، وارتحل بنو النضير على ستمائة بعير بسائر اسرهم ، وقصد بعضهم خيبر . ومنهم بعض زعمائهم مثل كنانة بن الربيع وحُيَيّ بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق ، وآخرون توجهوا الى اذرعات بالشام ، وانطلق الموكب اليهودي ونساؤه بالدفوف والمزامير وقيانه يغنين في الطريق الى خيبر .

واسلم من بني النضير شخصان هما يامين بن عمير وابو سعد بن وهب فاحتفظا باموالهما . واسلم ايضا مخيريق وتنازل عن امواله للرسول ، وكانت منطقة بني النضير اول ارض يفتحها المسلمون . وخير الرسول الانصار بين الاستفادة من أموال بني النضير أو التنازل عنها للمهاجرين على ان يخرج المهاجرون من دور الانصار ، فقال الانصار : بل اقسم هذه الاموال فيهم واقسم لهم من اموالنا ما شئت ، فنزلت الآية : « **ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة** » . واعطى الرسول المهاجرين الاولين من غير تخميس لان اموال بني النضير كانت لنظره شخصيا ، حيث حصل عليها المسلمون من غير جهد ، وفي ذلك وردت الآية :

« **ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم** » .

أي ان استغلال الاموال التي وقع الحصول عليها بغير قتال ، حق للرسول واسرته ثم لسائر المحتاجين من غيرهم ، وهكذا نال من هذه الاموال المهاجرون الاولون واثنان مع الانصار هما ابو دجانة وسهل بن حنيف ، وقد شكيا الى الرسول فقرهما . وما احتفظ به

الرسول من المستغلات كان يأخذ منه قوت اسرته عن سنة والباقي يخصصه للسلاح والدواب المخصصة للغزو .

وقد نزلت سورة الحشر في شأن بني النضير وحلفائهم وسماها ابن عباس سورة بني النضير حسب ما ذكره ابن كثير ، ونقل ابن هشام مجموعة قصائد لبعض شعراء اليهود كسمّاك وبعض المتعاطفين مع بني النضير ، ومنهم عباس بن مرداس قبل اسلامه ، وقد نوه بعلو همتهم واكرامهم للجائع كما قال ، ونسبهم كعب بن مالك الى الغدر والكفر ، لانهم رفضوا الايمان بالرسالة المحمدية بالرغم من الاشارة اليها في صحف موسى طبقا لما ورد في القرآن الكريم : « **وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما تعملون** » .[1]

3- غزوة الخندق ومصير بني قريظة : شوال - ذي الحجة 5 هـ

عرفنا في عرض الحديث عن غزوة الخندق وضمن (الصراع ضد المشركين) ان بني النضير الذين التحقوا باخوانهم في خيبر بعد جلائهم عن المدينة ساهموا بل تزعموا عملية حشد الاحزاب المعادية للرسول حول المدينة ، واثبت البلاذري وغيره مساهمة بني قريظة ايضا . وهكذا تولى سلام بن ابي الحقيق وحيي بن اخطب وكنانة بن ابي ربيع باسم بني النضير ، وهودة بن قيس وابو عمّار الوائليان من اليهود، مفاوضة قريش وغطفان واسد وسليم وحلفاء هذه المجموعات القبلية، واغروا بالمال بعض الزعماء المترددين ، ثم كان ما كان من تطورات في هذه الغزوة التي كانت حلفا التف فيه اقوى المشركين من نجد والحجاز ومعهم كل اليهود بالحجاز ، وانتهت الحرب بانسحاب الاحزاب وخذلانها حيث تضافر على الخصوص عاملان مهمان قررا مصير هذه الحرب ، وهما مخادعة نعيم بن مسعود الاشجعي للاحزاب ، وهُبوب رياح عاصفة اقتلعت خيام الاحزاب وعرقلت جهودهم لمواصلة حصار المدينة حتى انسحبوا مكرهين بعد ان تخلى اليهود انفسهم عن حلفائهم . لكن مبادرتهم السيئة هذه لم تكن لتطمئن الرسول والمسلمين على مصير الاسلام .

1- صحيح البخاري 5 ص 22 . ابن هشام ، 3 ، 108 . طبري 3 ، 36 - 39 . بلاذري ص 27 - 31 . مقدسي ، 4 ، 212 - 213 . ابن الاثير ، 2 ، 119 . ابن كثير ، تفسير سورة الحشر . يعمري ، 2 ، 66 - 72 . ابن خلدون ، 2 ، 771 - 772 .

ويتفق البخاري واصحاب المغازي على ان الرسول عندما عاد الى المدينة اثر غزوة الاحزاب تلقى امرا الهياً من طريق جبريل بغزو بني قريظة ، حيث دُعِيَ الى غزوهم يوم رجوعه الى المدينة وهم على اميال منها ، فاعلن الرسول عندئذ ان على الغزاة ان لا يُصَلُّوا العصر الا عند حصون بني قريظة ، وكان الامر كذلك ، وحسب اكثر الروايات بدأ الحصار في شوال وانتهى في ذي القعدة ، وذكر البلاذري انه استمر خَمْسَ عَشْرَةَ ليلة من أواخر ذي القعدة ، الى اوائل ذي الحجة .وبنو قريظة كانوا هم ايضا يشتغلون بالزراعة ، فتقدم اليهم الجيش النبوي يقوده على ابن ابي طالب الذي قاد عمليا مختلف مراحل الصراع ضد اليهود وكان على رأس ثلاثة آلاف ليس بينها الاستة وثلاثون فارسا ، ونزل الرسول على بئر لقريظة يدعى " أنا" وعندما تقدمت طلائع علي سمع القرظيين يتصايحون من حصونهم بكلام مقذع في حق الرسول وكان عليه السلام كثيرا ما يُغضي عما يتلقاه من اقاويل السوء خصوصا اذا كانت من المشركين اما اهل الكتاب فلا عذر لهم وفي تعاليمهم ما ينهاهم عن الجدل بالشر.

ونصح كعب بن اسد قومه بني قريظة ان يبادروا الى احد ثلاثة : الاسلام ، او قتل النساء والاطفال والاستماتة في المقاومة ، او الخروج يوم السبت لمهاجمة الرسول ومعسكره في وقت يامن فيه جانب اليهود وأنهم لم يكونوا يقاتلون في هذا اليوم . فرفضوا كل ذلك وامتنعوا عن مهاجمة المسلمين احتراما ليوم السبت واعتصموا بحصونهم . وطاولهم الرسول بالحصار مدة تزيد عن اسبوعين وتقل عن شهر . فلما ضاق بهم الحصار بدأوا يفاوضون الرسول فعرض عليهم ان يفاوضوا سعد بن معاذ وهو من زعماء الاوس ، وكان بنو قريظة حلفاءهم ، واستقر الامر على ان ينزلوا على حكم سعد أي على ما يقضي به بوصفه حَكَماً . وخرج القرظيون من حصونهم وكانوا حوالي ستمائة او سبعمائة من الذكور عدا نسائهم واطفالهم ، ثم توثق منهم سعد علانية بالرضا مقدّماً بحكمه ، وتوثق من الرسول ايضا فقضى بأن يقتل الرجال ويسبى النساء والاطفال وتقسم أموالهم وأخذ الرسول في حكم الرجال كل بالغ . ورضخ القرظيون للحكم ، لان الرجال نبذوا العهد في غزوة الاحزاب ثم رفضوا الدخول في الاسلام ولم يكتفوا بذلك بل نابذوا الرسول القتال ، وكان سعد بن معاذ قد ضرب بسهم في غزوة الخندق فضل جريحاً والرسول يعوده ، حتى

هلك بعد قليل من غزوة بني قريظة ، وحبس الاسرى في دار بنت الحارث من بني النجار ، وامر الرسول بحفر خنادق في سوق المدينة ، واخرج الذكور افواجا . ويظهر ان حكم الاعدام لم ينطق سعد بن معاذ به امامهم لانهم كانوا محبوسين على حدة ، ثم ضربت اعناقهم ودفنوا بالخنادق المذكورة وأوتي بالزعيم النضيري حُيَيّ بن اخطب وكان مع بني قريظة منذ غزوة الخندق ، فقدم الى الرسول ويده معقودة بحبل الى عنقه ، فخاطب الرسول قائلا : والله ما لُمْت نفسي في عداوتك ولكنه مَنْ يَخْذُل الله يُخْذَل ، ثم خاطب الحاضرين بقوله : انه لا باس بامر الله : كتابٌ وَقَدر وملحمة كتبت على بني اسرئيل وضربت عنقه اثر ذلك . وأعدمت ايضا امراة من بني قريظة كانت قد القت صخرة على خلاد بن سُويد فقتلته ، كما انها ارتدت عن الاسلام ايضا واسمها بنانة بنت الحكم .

وضمت سيدة من سبايا قريظة الى بيت الرسول وهي ويحانة القرظية ، ومَنَّ الرسول على احد شيوخهم وهو الزبير بن باطا بعد ان تشفع فيه لدى الرسول ثابت بن قيس [1] بن شماس ليَدٍ له كانت عليه ، أي على ثابت في الجاهلية ، غير ان ابن باطا رفض البقاء بعد ان استلجم اخوانه ، واسلم من هدل [2] اليهود ابناء عمومة قريظة والنضير ثلاثة اشخاص ليلة نزول بني قريظة على حكم الرسول ، واختفى رابع رفض ان يدخل في خرق العهد مع الرسول وهو عمرو بن سعد القرظي .

وحصل المسلمون على غنائم كثيرة فيها مواشٍ وانعام و 1500 سيف و 300 درع و500 فرس وألفَا رمح ، كما وجدت دِنانُ خمر أُهْرِقت بامر الرسول الذي امر بتقسيم الغنائم دون تخميسها فكان سهم الرسول بين غيره ، ولجأ الرسول إلى هذا الاجراء على الارجح بسبب الظروف الاقتصادية التي عرفها المسلمون هذه السنة حتى لقد اجهدهم الجوع في غزوة الخندق . وأشار القرآن الى ماحصل عليه المسلمون من اموال اليهود ، في سورة الاحزاب :

« واورثكم ارضهم وديارهم وارضا لم تطؤوها . »

1- ترجم له في الاصابة 1 ، 195 . وفي الاستيعاب ، 1 ، 192 .

2- هدل او هدال ، فخذ من بني بهدل الذين يوجد عدد منهم حاليا باقطار الشام (راجع : معجم قبائل العرب لكحالة ، مادة هدال) .

وكانت هذه الارض التي لم تدخل في ملك الدولة الاسلامية بعد ، هي خيبر وفدك وغيرها وربطت هذه الآية بما سبقها من تجمع الاحزاب وخوف المسلمين وما إلى ذلك . أما زعماء بني النضير فجلهم لزم مكانه بخيبر بعد غزوة الخندق ، وذلك فيما عدا من هاجر من بني النضير إلى الشام .

وقد عومل بنو قريظة بأقصى مما عومل به بنو قينقاع وبنو النضير ، لانهم خرقوا عهدهم مرتين ، احداهما في غزوة الاحزاب ، والثانية في اختيارهم مجابهة الرسول ورفض الحوار معه حتى نزلوا على حكم لم يقدروا عواقبه . وبنو قريظة متضامنون جماعيا ضد الرسول ، فلم ينسلخ عن تحالفهم الا خمسة اشخاص ، ولم يكن غاضبا من تعنتهم الا رئيسهم كعب بن اسد الذي تضامن معهم رغم ذلك . ونالت هذه الملحمة كما سماها حُيَيّ بن اخطب وكما ارادها هو وقومه ان تكون ، نصيبا من رثاء بعض شعرائهم والمتعاطفين معهم كجبل بن جوال الثعلبي وكذلك من ارتياح شعراء آخرين خصوصا حسان بن ثابت .

ولا نعلم على وجه الدقة ما الذي حل بالصبيان من بني قريظة ولكنهم وزعوا بين المقاتلين شأن النساء ، وذلك طبقا لقواعد الجهاد . [1]

4- فتح خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء: محرم - جمادى الاخرة 7 هـ

كل من فدك وخيبر وتيماء يقع في خط واحد عن يمين الطريق الرئيسي الذي يمتد من عدن الى الشام ، وهذه المراكز الزراعية وتجمعاتها السكنية تقع بالترتيب المذكور شمال شرقي المدنية ، اما وادي القرى فعن يسار هذا الخط شمال غربي المدينة ، ويتجمع السكان في دور تضمها حصون كبيرة وحولها المزارع والمواقع المائية ، وخيبر بالعبرانية الحصن ، كما قال ياقوت ، وكان بخيبر سبعة حصون احدها لابن ابي الحقيق ، وهناك حصن الوطيح وحصن الكتيبة . وكان الساميون وخاصة العرب يسمون كل شئ باسم خاص بما في ذلك الاسلحة والدواب والحصون .

1- البخاري صحيح ، 1 . 49 - 51 . ابن هشام ، 3 ، 140 - 156 ، 168 - 170 . طبري 3 ، 52 - 59 . ابن كثيرة تفسير سورة الاحزاب (ورد الله الذين كفروا الى قديرا) . ابن الاثير ، 2 ، 126 - 128 . ابن خلدون ، 2 ، 770 - 780 . يعمري 2 ، 94 ، 107 . بلاذري ، ص 32 - 33 .

وليس في كُتب المغازي المتداولة ولا في صحيح البخاري ذكر لأسباب غزو الرسول لخيبر ونجد الرسول عليه السلام قد انتظر اربعة عشر شهراً بعد غزوة الاحزاب ليهاجم حصون خيبر . لكن في شعبان سنة 6 كانت هناك محاولة ائتلاف بين قبيلة سعد بن بكر وخيبر لغزو المدينة ، وكانت المبادرة فيها لسَعْد ، ثم ان عددا كبيرا من بني النضير وزعمائهم استقروا بخيبر بعد رحيلهم عن المدينة منذ ربيع الأول من السنة الرابعة وكان لخيبر مع غطفان حلف وثيق ، وحيث ان الرسول يؤسس دولة كماينشر عقيدة جديدة ، فهو يقرر غزو خيبر لا لإجلاء يهودها ولكن لحملهم على الاسلام أو أداء الجزية وهذا ما يمكن فهمه من الابقاء على يهود وادي القرى في اراضيهم واموالهم مقابل اداء الجزية .

وعندما عقد الرسول اللواء لعلي ساله علي : علام اقاتلهم يارسول الله ؟ فأجاب : على ان يشهدوا أن لا إله الا الله واني رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد حقنوا اموالهم ودمائهم الا بحقها ، وحسابهم على الله تعالى .

خرج الرسول الى خيبر في محرم من السنة السابعة حسب اغلب الروايات ، واستخلف على المدينة إما نُميلة بن عبد الله الليثي او سباع بن عرفطة الغفاري . وقدم على جيشه البالغ الفا واربعمائة مقاتل ، علي بن ابي طالب وهو يحمل الراية ثم اتجه نحو وادي الرجيع ليمنع امدادات غطفان الى ان يَكرَّ الجيش النبوي على نسائها واطفالها واموالها اذا توجه الرجال الى خيبر . ولذلك عدلت غطفان عن نصرة خيبرالتي صممت على القتال بعد أن اكتشفت وجود الجيش الاسلامي ، وكان قد حل بالجيش ليلا ، فلما اصبح الصباح فوجئ المزارعون اليهود وهم يقصدون مزارعهم بوجوده . فلجأوا مع اخوانهم الى حصونهم ، ثم اخذ المسلمون يفتحون الحصون واحداً إثر الآخر ويستولون على الأراضي المجاورة ، وكان حصن بني ابي الحقيق مما فتح كغيره من حصون خيبر ، ووقعت صفية بنت حُيَيّ بن اخطب في يد الجيش فالحقت باسرة الرسول وتزوجها بعد عدتها وكانت من قبل زوجا لكنانة بن ابي الربيع ، وقيل ان الزبير بن باطا لم يقتل الابخيبر .

ووقعت بعض المبارزات الفردية في هذه الغزوة التي استمر حصار حصون خيبر فيها بضعة عشر يوما من محرم سنة 7 وقتل من المسلمين حوالي عشرين منهم محمود بن مَسْلمة اخو محمد بن مسلمة الانصاري . وحسب صحيح البخاري لم يقتل من اليهود الا

من قاتل ، كما ورد في الصحيح ايضا ان عليا لم يقدمه الرسول على الجيش الا بعد ان قدم ابا بكر ثم عمر على بعض الحصون فقاتل كل منهما ورجع . ونقل هذا الخبر اليعمري في " عيون الاثر" وكان جُلُّ شهداء خيبر من الانصار ويدل هذا العدد الكبير من قتلى المسلمين وهم عرضة لسهام العدو على ضراوة المقاومة التي ابداها اليهود بشكل لم يعهد من قبل .

وكان من قتلى اليهود الزعيم النضيري كنانة بن ابي الربيع ومجموع قتلاهم ثلاثة وتسعون وعندما تأكد اليهود من عدم جدوى مواصلة القتال بعد ان تساقطت ثلاثة من الحصون بايدي المسلمين عرضوا على الرسول ان يجلوا وتحقن دماؤهم ويتخلوا عن الارض والمال والمتاع.وكان فتح ثلاثة حصون عنوة واربعة صلحا ، ولكن الجميع اصبح ملكا للمسلمين حسب شروط الصلح وعرض اليهود على الرسول ان يظلوا على الارض اجراء للمسلمين ، فقبل على ان ياخذوا سطر الحب والثمر وياخذ المسلمون الشطر الثاني ، وعندما تم الاتفاق اولَمَتْ زينب زوج سلّام بن مِشْكم وليمة للرسول وسمت الطعام فذاق منه الرسول ثم قذف ما وضعه في فمه ، واكل منه بِشْر بن البراء بن معرور ، وعرف الرسول فورا ان الطعام مسموم ، ولكن كان بشر قد وصل السم الى جوفه وتوفي منه ، أما الرسول فاستفسر زينب عن صنيعها فادعت انها ارادت ان تتأكد من نبوته بامتناعه عن اكل المسموم ، ولم يعاقبها الرسول . وكما ذكر الطبري وابن هشام فان الرسول عندما مَرَض موته عادته ام بشر المذكور ، فقال : إن هذا الأوان وجدت انقطاع ابهري من الأكلة التي اكلت مع ابنك بخيبر . وبهذا الاعتبار يعد الرسول نبيا وشهيدا ، ولنا ان نعتبر كل خلفائه الأربعة شهداء ، لان ابا بكر سُمَّ تسميما بطيئا في طعام قدمه اليه اليهود ايضا ، وسائر الخلفاء الثلاثة اغتيلوا ، وذكر ابن خلدون روايتين احداهما تذكر اسلام زينب بعد اعترافها ، والثانية تذكر انها قتلت قصاصا من بشر .

واسلم احد الرعاة من يهود خيبر مباشرة على يد الرسول والقتال ما زال قائما ، واسمه الاسود الراعي ، ثم تقدم بنفسه يقاتل اليهود مع المسلمين حتى قُتل ، وأثار موقفه تعاطف الرسول (ص) .

اما تقسيم غنائم خيبر فتولاه جابر بن صخر من بني سلمة ، وزيد بن سلمة من بني

النجار ، وكان سكان خيبر الفا واربعمائة ، واعطى مؤرخو المغازي تفاصيل عن الغنائم وتقسيم الاسهم كما سيفصل ذلك ايضا في هذه الدراسة (القسم الثالث) .

وكانت غزوة خيبر محور تشريعات مهمة بينهما ما هو حربي ، وما هو طبي او مالي ، ومن ذلك تخصيص سهمين للفرس وسهم للفارس ، أيْ تخصيص الفارس بثلاثة اسهم حسبما نقله اليعمري عن نافع ، ومنع اكل لحم الحمار الاهلي واكل كل ذي ناب من السَّبع ، والاتصال الجنسي بالحُبلى وبالمَسْبِيَة حتى تستبرئ ، وبيع المغانم حتى تُقْسَم على أن هناك من المذاهب ما يورد احكاما غير هذه .

وتلقى الرسول بعد افتتاح خيبر وفد المهاجرين الى الحبشة وهم اثنان وخمسون او ثلاثة وخمسون ، وكان بين احدى المهاجرات وهي اسماء بنت عُميس ، وعمر بن الخطاب جَدَلَ طريف بشأن أَوْلَويَّة ارتباط المهاجرين الى المدينة او الحبشة بشخص الرسول.إلا ان الرسول عليه السلام طمأن هذه السيدة بان مهاجري الحبشة هاجروا مرتين وان مهاجري المدينة كانت هجرتهم مرة واحدة .

وبعد تصفية القضايا الخاصة بخيبر ، أخذ الرسول طريقه الى المدينة فنزل أثناء الطريق ببعض المواقع لمدة ثلاثة ايام حيث اقام حفلا لزواجه بصفية بنت حُيَيّ التي لم يرتح للزواج منها الا برضاها وبعد اسلامها . (1)

وبعد انصراف الرسول الى المدينة بعث وفداً الى فدك يدعو يهودها الى الاسلام ، وكان على الوفد محيصة الانصارى ، فردَّ اهلُ فدك بارسال وفد ألى المدينة يطلب المصالحة على ان يتخلى اليهود عن نصف اراضيهم ، فقبل الرسول واختص باستغلالها وكان يصرف جزءا من دخلها على ابناء السبيل لانها اخذت بغير قتال . وعندما دعي من تبقى من يهود الحجاز في عهد عمر الى الجلاء الى الشام قوم النصف الذي بقي لاهل فدك ، وأممه ثم عوضهم عنه . وكان الرسول يخصص جل أموال نصف فدك لفقراء بني هاشم ويترك الباقي لاسرته ، وبقيت فدك مؤممة بعده الى ان استبد بها بنو امية ما عدا عمر بن عبد العزيز .

1- البخاري صحيح ، 1 ، 72 - 84 . ابن هشام ، 3 ، 211 - 232 . طبري ، 3 ، 91 - 96 . ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 147 - 152 . بلاذري ، فتوح ، ص 33 - 41 . يعمري ، 2 ، 168 - 185 . ابن خلدون ، 2 ، 795 - 798 . ياقوت ، معجم البلدان ، مادة خيبر .

وفي جمادى الآخرة من السنة السابعة دعا الرسول يهود وادي القرى الى الاسلام فامتنعوا ولم يعرضوا صلحا بل قاتلوا الرسول في حصونهم ، فاقتحمها المسلمون عنوة بحضور الرسول ، ثم ترك سكانها على ارضهم يشاطرون المسلمين على نحو ما كان بخيبر ، ولم يضبط تاريخيا ما إذا أجلى عمر يهود وادي القرى في خلافته لان منطقتها كما ذكرالبلاذري لم تكن تعد من الحجاز ، أما الاثاث والمتاع فغنمه المسلمون وخُمس بعد الفتح .

اما اهل تيماء فاستفادوا مما تلقاه اخوانهم من عِبَرٍ بسبب تعنتهم ، فبادروا بعد فتح وادي القرى الى اداء الجزية وبذلك احتفظوا باراضيهم وحقنت دماؤهم ، وتولى ادارة تيماء يزيد بن ابي سفيان الذي اسلم يوم فتح تيماء ، كما عين الرسول على وادي القرى عمْرو بن سعيد بن العاصي [2] .

على ان الرسول لم يلتحق بربه الا بعد ان قال وهو على فراش الموت : لا يجتمع دينان بجزيرة العرب ، وكان هذا يعني نهاية الوجود اليهودي بشبه جزيرة العرب جملة .

إلا ان عمر أجلى يهود خيبر اولا ، بسبب ما ثبت عليهم من غشّ في اداء حقوق المسلمين بخيبر ، وقيل ايضا ، أُدينوا بتهمة انتشار الزنا في وسطهم ، والزموا بالجلاء عن خيبر الى الشام كما أجلي معهم يهود تيماء وفدك ، وقيل اهل وادي القرى ايضا ، وهو الارجح ، لانه لا يعقل جلاء الآخرين بدونهم وهم جُوار لبعضهم بعضا ، وفعل ذلك بسبب قولة الرسول المذكورة والتي لا ريب كانت من تاثير الاكلة المسمومة في خيبر . وزكى هذا السببَ تسميم ابي بكر الخليفة بعد الرسول (ص) ، ومهما يكن من أمر فاليهود لم يُجْلوا الا من منطقة الحجاز ووادي القرى ، اما يهود اليمن فظلوا حيث هم كما كانوا قبل مآت السنين ودُعوا الى اداء الجزية ، وإنما كان التركيز على الحجاز لقرب المناطق اليهودية به من مكة والمدينة حيث تتاح الفرصة لأحْبار اليهود في الدس للجماعة الاسلامية وشراء ضمائر البَدْو ، خاصة مع وجود اقدس موقع اسلامي ، وهو الكعبة بمكة والمزارات المقدسة الاخرى بها وبالمدينة .

2- انظر عن فدك ووادي القرى وتيماء : معجم البلدان لياقوت ، ابن هشام ، 3 ، 228 ، بلاذري ص 41 - 49 . طبري ، 3 ، 90 . ابن الاثير ، 2 ، 152 ، ابن خلدون ، 2 ، 798 يعمري ، 2 ، 176 .

وكان الرسول قد امر باغتيال او اعدام ثلاثة من زعماء اليهود خارج فترات الصدامات الحربية ، وهم :

1- كعب بن الاشرف ، وهو في الحقيقة عربي من طيئ بني نبهان ، وأمه نضيرية وكان قد تلقى بغضب نبأ انكسار قريش في بدر ، وإلى ذلك اخذ يتشبب بنساء المسلمين وبيوتات بني عبد المطلب ، خاصة ام هانئ بنت ابي طالب ، وانتهى الى هجو الرسول نفسه وتحريض قريش عند ، فوجه الرسول اليه سرية من خمسة نفر من الأوس واستدرجوه ليلا من حصنة حتى ابعدوا به وقتلوه ، وذلك في رابع عشر ربيع الاول سنة ثلاث . [3]

2- ابو رافع سلام بن ابي الحقيق من زعماء خيبر ، وكان ايضا شديد العداء للرسول والاسلام . وعرض الخزرج على الرسول ان تتولى سرية منهم اعدامه على غرار ما فعل الاوس بابن الاشرف ، وكان ابو رافع قد ساهم في تحزيب الاحزاب ضد الرسول (ص) . وهكذا عين الرسول عبد الله بن عتيك على رأس سَرية من الأوس ذكر ابن هشام انها كانت من خمسة نفر ، وعند ابن خلدون كانوا ثمانية ثم قصدوا حصن ابن أبي الحقيق بخيبر ليلا وقتلوه باسيافهم في بيته ، وذلك في السنة السادسة [4] .

3- اسير بن رزام ، وقد تزعم يهود خيبر بعد أبي رافع ، وحاول ان يحشد جيشا من غطفان واليهود وقبائل اخرى ضد الرسول ، وبعد ان استخبر الرسول عن نشاطه هذا بواسطة ثلاثة من المخبرين فيهم عبد الله بن رواحة ، بعث اليه سرية من ثلاثين رجلا عليها ابن رواحه ثم فاوضه رئيس السرية بشأن مرافقته الى الرسول وانه يعرض عليه ان يعينه على خيبر ويقدر مكانته ، غير ان بن رزام لم يطمئن لِعَرض ابن رواحة ، وحاول في الطريق ان يستعمل القوة بالاستيلاء على سيف مرافقه من السرية ، فاستدرجه المرافق حتى قتله ، ثم فتكت السرية بباقي اصحابه الا واحداً فر منها ، وكانت مبادرة الغدر من ابن رزام . وكان قتله في شوال 6 [5] .

3- بخاري ، صحيح ، 3 ، 25 . ابن هشام 3 ، 7 ، 12 . طبري ، 3 ، 2 ،. مقدسي ، 4 ، 197 . ابن الأثير ، 2 ، 101 . ابن خلدون ، 2 ، 757 . يعمري ، 2 ، 356 .

4- بخاري ، 3 . 26 . طبري 3 . 6 . ابن الاثير ، 2 ، 101 . ابن خلدون ، 2 ، 760 . يعمري ، 2 ، 109 .

5- يعمري ، 2 ، 145 .

واسلم عدد كبير من الشخصيات اليهودية وكان لهم شرف صحبة الرسول وبعضهم كان على مستوى جيد من المعرفة ، ومن بينهم :

أ - عبد الله بن سلام من بني قينقاع وسماه الرسول بعد ان كان اسمه الحُصَيْن ، واسلم على يد الرسول بعد اختبار تصرفات النبي وتوجيهاته الى الجماعة الاسلامية وإلى زواره ، وفيه نزلت الآية :

« **وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم** »

وكان اسلام عبد الله بن سلام بعد قليل من هجرة الرسول الى المدينة وتوفي سنة 43 [1] .

2- اسد بن سَعْية القرظي وأسلم مع اثنين آخرين من اليهود [2] .

3- تمام بن يهودا من الاحبار [3] .

4- كعب الاحبار وهو يهودي من اليمن ، ولكن الراجح حسب (الإصابة) انه لم يسلم الا في خلافة عمر ، وكان عالما ضليعا في الدين وغيره ، وكان يقول بأن الارض تدور على قطب كالرّحى وهو ما يقابل النظرية التي يعرفها الجميع الآن وهي ان الارض تدور حول محور وهمي ، وتوفي خلال العشرة الرابعة عن سن عالية .

وهكذا فان الوجه اليهودي في العصر النبوي لم يكن وجه صراع وخرق للعهود ووقوف في وجه العقيدة المحمدية فحسب ، بل كان كذلك وجها باسما للاسلام باعتناقه من لدن هؤلاء الاعلام وغيرهم من الجماعة اليهودية .

وعندما قيل ليهود الحجاز ، انصرفوا الى الشام،فقد ادوا ثمن استيلاء اسلافهم القدامى على هذه المنطقة التي كان يقطنها عرب العماليق فأبادهم هؤلاء اليهود حسبما اورده ابن خلدون وابن حزم ، وكما أدى المنكوبون من اليهود ثمن خرقهم للعهود والمواثيق .

1- ابن حجر ، إصابة ، 3 ، ابن هشام ، 2 ، 118

2- إصابة ، 1 ، 33 . ابن عبد البر ، استيعاب ، 1 . 68

3-إصابة ، 1 ، 183 .

⁂ الفصل الرابع ⁂

الصراع ضد البيزنطيين وحلفائهم

كان حدثا عظيما ان يبدأ المسلمون الصراع ضد البيزنطيين وحلفائهم من العرب ، والاسلام ما يزال بعيدا عن الانتشار في انحاء جزيرة العرب ، واليهود لا يزال بقاياهم شمال المدينة . إن الاسلام الذي لا فرق فيه بين العمل السياسي والروحي لانه يؤطرهما معاً قام على اساس ثوري يهدم الخرافات ويدفن التخلف ويدافع عن وجوده سياسيا وعسكريا عندما يلزم الامر . وكان على الطرف الاسلامي أن يتصدى للعرب المخالفين للبيزنطيين والذين يدينون للقسطنطينية بالولاء ، ثم يجابههم والروم معا في مرحلة لاحقة . أما مراحل الصراع فكانت تختلف زمنا وشكلا كالتالي :

1- دومة الجندل سنة 5- 6 هـ

عرفنا في عرض الصراع ضد المشركين ان الرسول (ص) تعرف من التجار المسلمين الذين يتوجهون الى الشام والعراق على ما كانوا يلاقونه من عسف عامل دومة الجندل وجنده وانه كان يتهيأ لغزو المدينة لوقف التقدم الاسلامي ، فغزا النبي منطقته دون ان يصادف عدوا، ثم عاد الى المدينة ، وكان جيشه من ألف مقاتل . وعامل دومة الجندل هو أكيدر الكندي وسكانها من كنانة الكلبية . ويدين عدد منهم بالنصرانية، وأغلبهم مشركون . وكان هذا الحادث في شوال 5 أول زحف اسلامي على منطقة بتخوم جزيرة العرب وتابعة للروم ، وفي شعبان من السنة السادسة وجه الرسول سرية الى هذه المنطقة بقيادة عبد الرحمان بن عوف ، أو أبي عبيدة بن الجراح وكان الامر الصادر اليها هو دعوة السكان الى الاسلام او الجزية والا اعلنت عليهم الحرب ، وحصلت السرية على اسلام احد زعماء المنطقة ، عَمْرو بن الاصبغ الكلبي ، وأسلم معه كثير من اتباعه . ونجد الزحف على دومة الجندل يتجدد اثناء غزوة تبوك .

2- غـــزوة مـــؤتة فـــي جمـــادى الاولـى 8 هـ

الارجح في تحديد سبب هذه الغزوة ان الرسول عندما دعا عددا من الملوك والامراء وحكام المناطق داخل جزيرة العرب وخارجها منذ السنة السادسة الى الدخول في الاسلام كان جواب أمير بُصْرَى الغساني فظاً وفيه تهديد ، وبعث الرسول في ذات السنة مبعوثا هو الحارث بن عُمَيْر الازدي الى هرقل وقيل الى امير بصرى نفسه [1] ، فعمد الامير الى اعتراض ثم اعدام المبعوث عن النبي ، فتريث الرسول حتى كان شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة فهيأ جيشا قوامُهُ ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة رَبيب الرسول (ص)، فان اصيب خَلَفه جعفر بن ابي طالب ، فان اصيب هذا فعبد الله بن رواحة . وهذه كانت التعليمات النبوية لقائد الحملة الذي تلقى الراية من يد الرسول ، ثم انطلق الجيش بعد وداع مؤثر من النبي (ص) وجمهور اهل المدينة . وكان على الجيش ان يقصد بُصْرى ولكنه توقف عند معان شمال تبوك والواقعة في شرق الاردن ، وذلك ان القيادة علمت ان الروم أعدُّوا جيشاًعظيما فيه مائة الف من الروم ، ومائة الف من العرب التابعين لسلطتهم كلخم وجذام وبلقين وقضاعة من بهراء وبِلَى ، وأن على أحلاف الروم مالك بن رافلة . ومن الممكن ان تكون الرواية العربية قد ضخمت اعداد جيش العدو الى حد لا يكاد نصدق بالنسبة للظروف آنذاك ، ما لم يكن الروم قد تلقوا قبل وقت طويل انباء غير صادقة عن استعداد المسلمين لغزو بصرى بجيوش ضخمة ، ونزل الروم واحلافهم بمآب قريبا من بصرى ثم تشاور اركان حرب الجيش الاسلامي في ارسال تقرير عاجل عن الوضع الى الرسول (ص) وطلب النجدات . غير ان عبد الله بن رواحة وقد عرف ان الوقت لم يعد يسمح بهذا الاجراء اشار على رفقائه ان يزحفوا بقصد الاستشهاد وقال : " أنتم انما خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة الا بهذا الدين الذي اكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فهي احدى الحُسْنَيَيْن اما ظهوره واما شهادتنا . "

1- الطبري 3 ، 88 ، اليعمري ، 2 ، 198 ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، 1 ، 68 . فيليب حِتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، 2 ، 4 .

وهكذا تحول هذا الجيش الصغير الى قوة انتحارية بالمعنى العصري بعد ان كانت قوة ردع في انطلاقتها ، ولم يستغرق مقام الجيش بمعان سوى يومين ، بينما تقدمت قوات العدو باتجاه المسلمين فتقارب الجيشان عند " مشارف" وهي قرية من البلقاء تنسب اليها السيوف المشرفية ، فانحرف المسلمون الى قرية " مؤتة" قريبا من البتراء ثم عبأوا قواتهم لخوض المعركة فجعلوا على المَيْمنة قطبة بن قتادة وعلى الميسرة عباية بن مالك . اما حامل الراية فزيد بن حارثة وهو قائد الحملة ، بينما اسندت قيادة الروم الى البطريق ثيودوروس .

وقامت قوات الروم بتوجيه طعناتها الى الصفوف الامامية الاسلامية لأول وهلة ، فسقط زيد بن حارثة بعد ان تعاورته رماح العدو وحمل الراية بعده جعفر فاستشهد بعد ان عقر فرسه ، ثم خلفه عبد الله بن رواحة فاستشهد بدوره وتسلم الراية بمبادرة منه ثابت بن اقرم ولكنه أصَرّ على ان تكون القيادة لغيره ، وعندئذ اتفق الجيش على خالد بن الوليد الذي تناول الراية ثم اصدر على الفور تعليماته بالانسحاب من المعركة حتى لا يستلحم سلاح العدو وباقي الجيش الاسلامي ، وانما لجأ خالد الى هذا الاجراء الصائب لان انتصار المسلمين لم يكن ممكنا لقلة عددهم بالقياس الى القوات المعادية ، ثم ان بقاءهم يؤدي الى كارثة في عين المكان ثم داخل الرقعة الاسلامية إذا أراد الروم ذلك .

وتذكر الرواية الاسلامية ان الرسول (ص) تلقى الوحي من ربه بما حدث في مؤْتَة ، وأخبر اصحابه قبل ان ترد الاخبار بالصورة المعتادة ، وذكر البخاري ان جعفر تلقى عشرات الطعنات قبل ان يسقط صريعا ، وان عدة سيوف تكسرت في يد خالد بن الوليد قبل ان تتحول اليه القيادة . اما في المدينة فقد كان وقع الفاجعة اليما على الرسول والمسلمين ، وكان نساء الشهداء اكثر تأثرا ، ونهاهن الرسول عن النحيب والنواح ، ومع ذلك ، كان بين جمهور المستقبلين للجيش من قذفوه بالتراب وتصايحوا به : يا فُرّار فررتم في سبيل الله فرد الرسول وقد رأى الانفعال في الجيش : ليسوا بالفرّار ، ولكنهم الكرّار إن شاء الله تعالى . وهذا الموقف من جماهير المدينة يدل بصفة واضحة على ان غزاة مؤتة لم ينتصروا على الروم ، لان بعض الروايات فهمت على ما يبدو ان انسحاب الغزاة كان انتصارا على الروم ، خصوصا وأن هؤلاء لم يبادروا الى تعقبهم ، واعتبر الرسول (ص) قرار خالد حكيما وقال أنه (اي خالد) سيف من سيوف الله .

وليس في الروايات العربية ما يفيد ان الحملة الاسلامية وصلت قبل غزوة مؤتة الى بُصْرَى كما يفيده كلام بروكلمان ، ولا ما يثبت ايضا ان جيوش حَامِية الحدود الغسانية كانت قبل هذه الغزوة قد زحفت داخل الجزيرة العربية حتى اقتربت من ضواحي المدينة فهزمها المسلمون طبقا لما نفهمه من كلام بروكلمان ايضا ، وفي هذه الحال ، يكون الهجوم الغساني سببا مباشرا ومعقولا للقرار النبوي بتوجيه حملة ضد بصرى خصوصا وان اميرها هدد فعلا بالهجوم على الارض الاسلامية بعد ان تلقى خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام .[1]

3- غزوة تبوك / رجب 9 / 630 م

تبوك موقع اتصال على طريق المدينة الى الشام في اقصى جزيرة العرب غربا وبقرب البحر الاحمر . وكانت تبوك ايضا ، حصنا وواحة تتخللها عين . وحسب ابن الاثـــير فان سبب هذه الغزوة ما بلغ الى الرسول (ص) من أنباء عن استعدادات الروم وحُلفائهم من نصارى العرب لغزو المسلمين في عقر دارهم ، ويكاد ينفرد ابن سعد ثم ابن الاثير بذكر هذا السبب بعد ان سبقهما الطبري زمنا وإشارة الى كثرة العدو الذي "يُصمد له " من غير توضيح ، وكل الروايات الاخرى تقريبا تفيد ضمنيا او تصريحا بأن الاستعداد للحملة كان بمبادرة إسلامية ، والواقع أن الرسول عليه السلام كان قد وجه بعد مؤتة سرية كبيرة إلى جذام وقضاعة ، والاولون فيهم حلفاء للروم ، كما أن المسلمين انشغلوا بفتح مكة ومجابهة هوازن وثقيف خلال السنة الثامنة ، كما استقبل الرسول اعدادا كبيرة من وفوذ العرب تعرض اسلامها واسلام قومها ، ومن الجانب البيزنطي انشغل هرقل باقصاء الفرس عما اغتصبوه من اراضي الامبراطورية البيزنطية واعادة توزيع جيشه على هذه المناطق وحينئذ كانت احتمالات الهجوم البيزنطي على المواقع الاسلامية قوية وان لم تتأكد بعد ذلك ، وهكذا قام الرسول بعملية استعداد عسكرية على نطاق واسع لم يسبق له مثيل في العصر النبوي :

1- البخاري ، صحيح 5 ، 86 - 88 . ابن هشام ، 4 . 7 - 21 . طبري ، 3 100 - 110 . ياقوت معجم البلدان . مراد : معان ، مآب . مؤتة . ابن الاثير ، كامل ، 2 158 - 160 . يعمري ، 2 ، 198 - 204 . ابن خلدون ، 2 ، 779 ، 801 . بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، 1 ، 68 ، فيليب حتي ، م . س . ص . 4 .

- **أولا** : ساهمت معظم القبائل التي دخلت في الاسلام وبالاخص التي تَتَجَمَّعُ على طُول الطريق التجاري الممتد من اقصى جنوب اليمن والمار بالمدينة حتى داخل الشام .

- **ثانيا** : دُعِيَ الى التطوع بالمال والمواد الغذائية كل قادر من غير تحديد كمٍّ المساعدة ، فتطوع عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وعاصم بن عدي بمائة وسق من التمر ، وهناك من تقدم بصاع واحد من التمر لقلة ذات يده . وقدم عثمان الف دينار وثلاثمائة بعير ، وكان ما قدمه اكبر مساهمة حتى نال بذلك رضي الرسول . أما ابو بكر الذي كان مستور الحال فأنفق كل ماله . وجاء سبعة من الانصار الى الرسول يشكون الحاجة الى الدواب يركبونها فاعتذر بقلة الموارد ، وانصرف الانصار باكين «**تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون**» . فاعطى يامين بن عُمَيْر النضري إثنين منهم بعيرا . وقيل ان عبد الرحمان بن عوف قدم اموالا باهظة .

- **ثالثا** : جمع من الخيل عشرة آلاف فرس وهو عدد ضخم بالقياس الى عزة الفرس في جزيرة العرب ، وكان هناك اثنا عشر الف ابِّال ، وثمانية آلاف راجل . واجتمع الجيش في ثلاثين الفا ، وكان هرقل حينئذ بحمص .

وخلف الرسول على المدينة محمد بن مسلمة أو سبَّاع بن عرفطة ، وسبق أن ناب هذا عنه بها في غزوة خيبر وغيرها . [1] كما ترك الرسول علي بن ابي طالب لرعاية اسرته ، غير ان استجابة المسلمين للنداء النبوي بالسير إلى تخوم الروم لم تكن فورية من الجميع ، وذلك ان الوقت كان صيفا قائظا والثمار قد دنت قطوفها بينما الارض جدْباء من الزرع لقلة المطر، وكانت غزوة تبوك هي الوحيدة التي اعلن الرسول فيها عن اتجاهه ، أما في الغزوات الاخرى فكان يوهم بأنه يقصد طريقا ثم ينحرف عنه إلى هدفه لتعمية اخبار الجيش عن الاطراف المعادية ، وحيث ان السنة كانت مجهدة حتى سميت الغزوة ايضا بغزوة العُسرة ، أي الضيق المادي ، فإن خروج الجيش لم يخل من اضطراب في اكتماله ، وذلك ان جماعة من المنافقين اشتكوا شدة الحر «**وقالوا لا تنفروا في الحر . قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون**» وهكذا رد عليهم القرآن في لهجة صارمة لا تسمح بالتقاعس عن الجهاد

1- اصابة ، 2 ، ص 13 .

لانهم رغبوا عَنِ التضحية لا بنفوسهم فحسب بل بأموالهم ايضا . وخاطب القرآن الرسول بلهجة حاسمة فيما يخص التساهل مع المنافقين الذين امره بحرمانهم من اصطحابه بعد ذلك الى اية غزوة ، ونهاه عن الصلاة على من مات منهم كما هو شأن عبد الله بن أبيّ بن سلول الذي توفي بعد رجوع الرسول من تبوك وصلى عليه الرسول (ص) فنزل قوله تعالى :

« ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره ، انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » .

وحتى أعراب ضواحي المدينة تقاعسوا عن اللحاق بالرسول فعاتبهم القرآن على ذلك مثلما عاتب المتخلفين من أهل المدينة ، وذكّر هؤلاء وأولئك بأن ما يصيبهم من ظمأ أو جوع وما ينالون به العدو من جهد ، ان هو الاعمل صالح يثابون عليه .

وكان بين سكان المدينة شخص من الخزرج يدعى ابا عامر الراهب ، وكان قد تنصر وشارك مع قريش في غزوة احد ، وهو الذي حفر جملة من الحفر بين صفوف المسلمين وصفوف اعدائهم فسقط الرسول في احداها وكسرت رباعيته اليمنى من الفك الاسفل وشج رأسه . ثم استصرخ ابو عامر بهرقل يطلب جيشا لطرد النبي أو الفتك به ، وأشاع بين الانصار أنه سَيَتَلَقَّى مساعدة هرقل ، وطلب الى المنافقين ان يبنوا مسجدا بالمدينة بجوار مسجد قباء فقاموا ببنائه قبل خروج الرسول الى تبوك ودعوا المسلمين الى الصلاة به وكانوا في الواقع يريدون ان يتخذوه مرصداً لتحركات الرسول وصحبه ونادياً يخططون فيه لمؤامرتهم ضده ، فتلقى الرسول الامر الالهي بعدم الصلاة في هذا المسجد الذي دعاه القرآن بمسجد الضّرار ، وقد امر الرسول بهدمه على الفور ، وهذه القصة تثبت مدى الصعوبات التي كان يعانيها الاسلام بالمدينة من فئات متعددة منها منافقو اليهود ومنافقو الانصار واعراب ضواحي المدينة .

على أن هناك فئة قليلة تخلّفت لضرورات وهي غير متّهمة في عقيدتها ، ذكرتهم كتب المغازي ، ومن بينهم كعب بن مالك وهلال بن أمية وغيرهما ، وكان الرسول يجد العذر للجميع ويستغفر لهم فيتلقى إشعار ربه ان لا يفعل :

" إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم " .

والتحق بالجيش في الطريق ابو ذر ، وهو وحده دون رفيق ، فلما لمحه الرسول قال : رحم الله أباذر ، يمشي وحده ويموت وحده ، ويبعث وحده ، وكان ابو ذر اول داعية بعد

الرسول (ص) لحمل الاغنياء على الانفاق في سبيل المصلحة العامة والتخلي عن قسط من مواردهم للفقراء .

وفي خروج الرسول من المدينة عسكر بثنية الوداع حولها ، وهي موضع في الطريق الى مكة يودع فيه اهل المدينة المسافرين الى مكة كما قال ياقوت ، وواصل المراحل حتى تبوك في جهد من العطش وقلة الزاد بالنسبة لعدد الجيش الذي لا شك كان يتلاحق بالرسول عبر مراحل الطريق ، وهطلت السماء في الطريق بدعاء الرسول (ص) . فلما بلغ الجيش تبوك لم يجد أثرا لتحركات الروم الذين يبدو انهم حسبوا جيش المسلمين صغيرا كما كان في مؤتة فلم يعبأوا بحملته الجديدة ، والواقع ان حملة تبوك كانت ذات نتائج ايجابية.وعلى الرغم من انه لم يقع فيها اصطدام مع الروم ، فان الرسول استغل فرصة مقامه لإنجاز فتوح سِلْمية تبدأ بتبوك وتنتهي داخل الشام ، وهكذا صالحت عدة مراكز الرسول بشروط او عهود مكتوبة ، وذلك بعد مصالحة تبوك نفسها .

- ايلة (ايلات) وهي على البحر الاحمر اقصى الحجاز عند خليج العقبة ، وكان يقطنها اليهود والنصارى ، وقد ورد حاكمها على الرسول (ص) وهو بتبوك ، فصالحه على ثلاثمائة دينار سنويا بمعدل دينار عن كل بالغ واشترط عليهم ضيافة من يمر بهم من المسلمين وكتب لهم عهدا ، يقدم لهم كل الضمانات على اموالهم وسفنهم وطرقهم التجارية برا وبحرا . ونقل نص العهد ابن هشام .

- الأذرح بين البتراء ومعان ، صالح اهلها على مائة دينار كل رجب

- الجرباء ، شمال أذرح ، بين بُصرى والبحر الاحمر . ولاحظ فيليب حتى ان هذا الموقع كان له دور ذو بال خلال الحملات الصليبية ، وكل من الاذرح والجرباء من تجمعات النصرانية .

- مَقْنَا ، جنوب إيلة على ساحل العقبة ، وسكانها يهود ، وصولحوا على ربع ثمارهم ودوابهم وسلاحهم واخشاب صيدهم . وهذا الموقع ربما عده الرسول مرتبطاً بجزيرة العرب نفسها ولذلك كانت التزامات سكانه اكثر ، واحتفظ البلاذري بنص العهد النبوي لاهل مقنا ولكن النص تسب تحريره الى علي بن ابن طالب مع انه لم يحضر تبوك لان الرسول الزمه البقاء بالمدينة ، ولذلك فنسبة النص الى علي مشكوك فيها كما علق على ذلك محقّقا " فتوح البلدان " .

- دومة الجندل ، وجه اليها الرسول سرية بقيادة خالد بن الوليد فاسر اكيدر الكندي

عاملها وقتل اخاه ، وقد اعتنق الاسير الاسلام وصالح الرسول بعهد مكتوب يلتزم فيه اهل دومة الجندل بالاسلام والصلاة والزكاة وسائر شروط العقيدة المحمدية ، كما يحوز المسلمون الفاتحون السلاح وحصر دومة الجندل والارض البور والمواقع المائية الشحيحة ، وورد نص العهد في " فتوح البلدان" للبلاذري على أن أكيدر ما لبث ان ارتد بعد وفاة الرسول (ص) والتحق بالحيرة ومنع الزكاة على ابي بكر . وتم فتح دومة الجندل فتحا نهائيا / على يد خالد بن الوليد وكانت دومة الجندل تابعة للملك الفارسي في هذه الفترة [1]

وكل هذه الفتوح انجزت في ظرف بضعة ايام خلال مقام الرسول بتبوك ، وهي على قلة اهميتها من الوجهة المادية لانها لم تغن بيت المال بمبالغ طائلة ، فإن الجوانب السياسية والعقائدية والمعنوية ابرزت فعاليتها ، فكلها خلت من القتال الا ماكان من قتل شخص واحد بدومة الجندل ، وانما تم الصلح فيها بعد مفاوضات بين المراكز المذكورة والرسول (ص) ، لكن المدهش هو كيف وقف البيزنطيون موقف المتفرج من هذه المفاوضات التي ادت الى تبعية مالية على الاقل للمدينة ؟ ان الجواب هو ان هذه المراكز احتفظت بإدارتها المحلية ، كما كانت ومن الجائز انها لم تتخل في نفس الوقت عن التزاماتها المالية تجاه الادارة البيزنطية ايضا . والتبعية المالية هي ايضا سياسية لانها خضوع ضرائبي تفرضه جهة سياسية معينة . وامتداد النفوذ النبوي الى ضواحي القرية التي سبق ان هزم فيها الجيش الاسلامي وهي مؤتة . ذو مغزى عميق يؤكد حضور القوة الاسلامية ضد التحكم البيزنطي خاصة ، والذي فرض القرآن جهاده بقوة ودون مواربة :

« **ياايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة .** »

وهذا التحرك الاسلامي في عمق الحدود البيزنطية استهان به الروم هذه المرة لانه لم يكن شيئا مذكورا بالقياس الى الامجاد التي حققوها على حساب الفرس ، ولم يدركوا انه مقدمة لسحق العملاقين معا .

4- سرية أسامة بن زيد / أواخر صفر 11 هـ

1- بخاري ، صحيح ، 5 ، 128 - 138 . ابن هشام ، 4 ، 118 - 134 . طبري ، 3 ،142 - 148 . بلاذري ، ص 79 - 85 . مقدسي ، 4 ، 249 ب- 241 . ابن الاثير 2 ، 189 - 193 . ابن كثير ، تفسير ، (سورة التوبة) . ياقوت ، معجم البلدان . يعمري 2 ، 275 - 290 . بروكلمان ، 1 ، 75 ، 76 . حتي ، 2 ، 4 - 5 .

يرد ذكر هذه السرية ونشاطها عادة ، في أول خلافة ابي بكر ، لكن تهييئها ورسم اهدافها كان عملا نبويا كله . وفي كلتا الحالتين ، فمهمتها كانت استمراراً للضغط على البيزنطيين بنفس المنطقة التي صالحت عدة مراكز منها الحكومة النبوية خلال حملة تبوك . كانت هذه المراكز منعزلا بعضها عن بعض في هذه المنطقة التي كانت معروفة بالبلقاء وتكون جزءا مهما من شرقي الاردن ، فهي بعيدة نسبيا عن مراكز الامدادات وتجمعات البيزنطيين ، وحمايتها بالتالي متروكة لاهلها ، ولذلك لم يكن سقوطها بشكل أو بآخر في يد المسلمين عسيرا ، وقد كان المفروض انها هي نفسها تكون مراكز دفاعية خلفية عن الخطوط البزنطية ، ولكن تبعيتها للسيادة الاسلامية بهذه السهولة اعطى للقادة المسلمين فكرة جيدة ودقيقة عما يمكن ضمانه من فتوح وراء هذه المراكز الصغيرة .

أما سرية اسامة هذه ، فكانت مهمتها التي حددها الرسول (ص) ان تتوجه الى ضواحي مؤتة ، وبالذات الى "أبنى" فتحرق مزارعهم وتغير عليهم ، مع عدم المكث بينهم طويلا ، وذلك بعد سير حثيث الى هذه المنطقة توخيا للمفاجأة وعدم ترك وقت للعدو يستعد فيه . وامر الرسول اسامة ان يصحب الأدلاء والمخبرين ، وعلى هؤلاء ان يسبقوه ليتعرفوا على الاحوال . لم يكن اسامة الا عسكريا حدث السن ليست له تجربة طويلة ، ولكنه خاض عددا من الغزوات مع الرسول (ص) . وأسند اليه الرسول القيادة وتحت امرته كبار الصحابة كأبي بكر وعمرو وابي عبيدة وسعد بن ابي وقاص ، ولذلك تساءل كثيرون : كيف يستعمل غلام على المهاجرين الاولين ؟ وخرج الجيش يعسكر بالجرف حول المدينة باتجاه الشام وقد عقد له الرسول لواء حمله بريدة الاسلمي ، لكن الجيش ظل حيث هو في انتظار الامر بانطلاقه ، وكان حشده حوالي 26 صفر من السنة الحادية عشرة ، لكن الرسول (ص) بدأته الحمى بعد يومين ، وصُدِعَ فلَبِث الجيش مكانه ، ثم خرج الرسول يخطب الناس بالمسجد وهو متعب من الحُمَّى وأمارات الانفعال بادية عليه يردُّ على من طعن في إمارة اسامة على جيش يضم كبار الصحابة . والحق أن تأميرَ أسامة كان ايضا تكريما لروح والده الذي كان قائد جيش مؤتة واستشهد هناك . وقال الرسول يخاطب معارضيه : " اما بعد ... ايها الناس ، فما قالة بلغني عن بعضكم في تاميري اسامة ؟ ولئن طعنتم في امارتي ابَاهُ من قبله ، وايْمُ اللهِ إنْ كان لخليقاً للامارة ، وان ابنه من بعده لخليق للامارة ، وان كان

لمن احب الناس اليّ ، وانهما لمخيلان لكل خير (اي لمظنون بهما كل خير) ، فاستوصوا به خيرا ، فانه من خياركم . "

كانت هذه الخطبة قبل يومين من وفاة الرسول (ص) . وثقل المرض على الرسول وهو يصر على ارسال بعث اسامة ، فلما كان يوم وفاته تأهب الجيش للخروج ودخل اسامة على الرسول يسلم عليه وقد كان به وعي ، فلما انصرف من عنده بلغه احتضاره ثم توفي في 12 ربيع الاول ، ودخل الجند الى المدينة وانتظر ابو بكر مطلع ربيع الثاني ليبعث جيش اسامة ، وحيث ان الظروف تغيرت فقد استأذن ابو بكر اسامة في ترك عمر وبعض كبار الصحابة بالمدينة ليواجه معهم الاحوال الطارئة ، وبالأخص قضية ارتداد العرب وامتناعهم عن الزكاة .

وانصرف اسامة طبقا لوصية الرسول وتعليمات ابي بكر الى أُبْنَى ، فنفذ الأوامر النبوية وحصل جيشه على غنائم وقُتل في الغارة قاتل زيد بن حارثة والد اسامة ، كما قتل آخرون ، وعاد الجيش سالما ، وكان من نتائج هذه الحملة أن عزز هرقل منطقة البلقاء بحَامِيات قارة إلى حين توغل الجيش الاسلامي في عهد ابي بكر وعمر [1] . لقد كان التدخل النبوي في الشام مدهشا في ظروفه ونتائجه ، فان مفاوضات الصلح مع المراكز التي قدمت ولاءها للرسول في شرقي الاردن صادفت الانتصاوات الساحقة التي حققها هرقل على كسرى الثاني ثم اخضع بها نجله شيرويه ، وعد بعض المؤرخين [2] هذه الانتصارات اول حرب صليبية ضد اعداء المسيحية ، لكن سرايا الرسول وتوغلها في عمق شرقي الاردن أبانت عن هزال الستراتيجية البيزنطية التي كانت تتشبث بالحصون والمراكز الحضرية الكبرى متقاعسة عن حماية تخوم الشام ومتشبثة بروح الاستعلاء تجاه بدو جزيرة العرب الذين كونهم الاسلام النبوي اطارات تخدم العقيدة ، وهم انفسهم الذين بطشوا بجيوش البيزنطيين واساطيلهم في بضع سنين بعد الرسول (ص) .

1- اليعمري عيون الاثر ، 2 ، 355 - 357

2 - Ostrogorsky , Histoire de L'Etat byzautin P I 32

الفصل الخامس

انتشار الاسلام بشبه جزيرة العرب

دعوة الملوك والامراء الى الاسلام

كان الرسول عليه السلام يسير في اجراء الدعوة الاسلامية وفق تنظيم محكم ، فقد اتخذ من معاهدة الحُدَيْبية مع قريش في ذي القعدة 6 هـ ، منطلقا جديداً لخطة الدعوة ، فالمعاهدة في حد ذاتها انتصار للسلم على العدوان . وهي في نفس الوقت تمهيد لفتح مكة . وحيث ان المنظور النبوي هكذا كان من غير تبييت نية لخرق المعاهدة ، فهو ما كاد يفرغ من عقدها حتى بعث إلى عدد من الملوك والامراء داخل جزيرة العرب وخارجها خطابات يدعوهم فيها الى الاسلام ، وذلك خلال ذي الحجة من نفس السنة وهكذا سارت الدعوة السلمية إلى العقيدة المحمدية متساوقة داخل الجزيرة وخارجها . لم تكن الردود كلها ايجابية ، فبعضها كان فظاً بعيدا عن اللياقة ، وبعضها عبر عن تحفظ مضحك ، وقليل منها أتى أكله فورا ، لأن حركة الاسلام كانت قد أخذت بعداً عبر الجزيرة ، بل ان الاحبار والرهبان يعرفون من خلال الاناجيل التي لم تحرف وكذلك من خلال العهد القديم الذي لم يُمْسَسْ بسوء ان هناك نبيا يظهر باسم محمد . فلنتعرف أولا على الخطابات النبوية التي تسلمها عدّة مبعوثين كل منهم قصد جهة خلال ذي الحجة من السنة السادسة ، ولنذكر نص الردّ أو طريقته ثانيا :

1- خطاب الرسول الى هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة ، والمبعوث النبوي هو سليط بن قيس بن عمرو العامري الخزرجي :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى هوذة بن علي .

سلام على من اتبع الهدى ، واعلم ان ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر اسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك .

الـــرد : جائزة نقدية وثياب من هجر للمبعوث ، وتضمن جوابه : (1)

... ما احسن ما تدعو اليه واجمله ... فاجعل الي بعض الامر اتبعك (!)

وكان هوذة نصرانيا ، ووجه رده مع وفد خاص كلفه ان يهدد الرسول بالحرب اذا لم يستجب لشرطه . وتوفي هوذة بعد قليل . وذكر البلاذري (2) ان وفد هوذة كان فيه

1- بلاذري ، ص 118 - 120 . ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 146 . يعمري ، 2 ، 342 .
2- بلاذري ، ص 118 - 120 .

مُسَيْلمة الكذاب وانه اشترط على الرسول ان يجعل له الامر بعده ورفض الرسول عرضه ، ثم ادعى مسيلمة النبوة باليمامة في بني حنيفة وعرض على الرسول ان يحكم نصف ما بيدهما من الأرض وتحكم قريش النصف الآخر ، ورد الرسول (ص) بقوله : " من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، اما بعد ، فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ، والسلام على من اتبع الهدى " .

2- كتاب الرسول الى ملوك اليمن (وذكر اسماءهم البلاذري) :

... " اما بعد فان الله هداكم بهدايته ان اصلحتم وأطَعْتُمْ الله ورسوله واقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة واعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبي وصفيه ، وما كتب الله على المومنين من الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء ، وما سُقِيَ بالغرب نصف العشر. "

وذكر ابن هشام نصا اوفى من هذا [1] .

السرد : لا نعرف فحواه ، وعمليا ظلت اليمن على معتقداتها من الشرك والمجوسية وغيرهما ، إلى ان قدم على الرسول وفد من حمير بعد غزوة تبوك مباشرة سنة 9 ومعه كتاب باسلام ملوك حمير . وتوجهت سرية بقيادة علي سنة 10 لاخضاع الجهات التي لم تذعن للاسلام من المشركين ، وحيث ان الرسول (ص) كان قد رد بالخطاب المذكور على ملوك حمير بعد غزوة تبوك ، فان هذا الخطاب النبوي لم يوجه الا في السنة التاسعة ، ولكن ذكره هنا بالنظر لِسياق الدعوة داخل شبه الجزيرة .

3- الخطاب النبوي الى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري وبحضور جعفر ابن ابي طالب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، الى النجاشي الاصحم ملك الحبشة .

سِلْمٌ انت ، فاني احمد اليك الله الملك القدوس السلام المومن المهيمن ، واشهد ان عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ، ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه .

1- ابن هشام ، 4 ، 174 . بلاذري ، ص ، 95 - 96 . وانظر نص خطاب وجهه الرسول الى ملك حضر موت ، ابن خلدون ، ج ، 2 . ص 189 .

واني أدعوك الى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمي جعفر ، ونفرا معه من المسلمين ، فإذا جاءك فاقرهم ، ودع التجبر ، فإني ادعوك وجنودك الى الله ، فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى " .

رد النجاشي / بعد البلسمة :

بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله ، من النجاشي الاصحم ، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته ، ومن الله الذي لا إله إلا هو ، الذي هداني للإسلام .

أما بعد ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من امر عيسى .

فورب السماء والارض ان عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثُفْروقاً ، انه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقد قرينْا ابن عمك واصحابه ، فاشهد انك رسول الله صادقا وبايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يده لله رب العالمين .

وقد بعثت اليك يا بني ارها بن الاصحم بن ابجر ، فاني لا أملك الا نفسي ، وأن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله،فاني أشهد ان ما تقوله حق ، والسلام عليك يا رسول الله (1) .

ونقل الطبري عن ابن اسحق ان ابن النجاشي توجه في ستين شخصا على سفينتين فهلكوا في عوض البحر بعد غرق السفينتين ، وإذا كان رد النجاشي ثابتا فاقوى احتمال انه من تحرير احد اعضاء الوفد النبوي إلى النجاشي او مهاجر سابق من المسلمين الى الحبشة . ومن الطريف ان عَمْرو بن العاص الذي اوفدته قريش الى النجاشي لطرد المسلمين من الحبشة بعد هجرتهم ، اقنعه النجاشي باعتناق الاسلام ، وكانت وفاة اصحمة في السنة التاسعة ، ونعاه الرسول (ص) إلى الصحابة وقت وفاته (2) .

على أن إسلام النجاشي لم يكن له كبير اثر على الجماعة القبطية من رعاياه ، إلا أن الاسلام اخذ طريقه الى هذه البلاد خلال الفترات اللاحقة .

1- طبري ، 3 ، 89 . يعمري ، 2 . 339 .

2- طبري ، 3 ، 103 . ابن الاثير ، 2 ، 119 . ابن خلدون ، 2 ، 0 و 7 - 791 .

4- خطاب الرسول (ص) الى كورش حاكم مصر والمعروف عند العرب باسم المقوقس وكان المبعوث النبوي اليه هو حاطب بن ابي بلتعة وهو ممن حضر بدراً مع الرسول [1] وينتمي الى لخم بن عدي ، وكان حليفا لقرشي من بني اسد بن عبد العزى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله الى المقوقس عظيم القبط .

سلام على من اتبع الهدى .

اما بعد فاني ادعوك بدعاية الاسلام ، أسلِم تَسْلَم ، وأسلم يوفك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك إثم القبط ، « يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ان لا نعبد الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهد وابانا مسلمون » .

- **الـــرد :**

بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوْقِس عظيم القبط .

سلام ... اما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه ، وقد علمت ان نبيا بقي ، وكنت اظنه يخرج بالشام ، وقد اكرمت رسولك ، وبعثت اليك بجاريتـين لهما مكان في القبط عظيـم ، وبكسوة وأهديت لك بغلة لتركبها ، والسلام عليك .

وجرى حوار بين المبعوث النبوي والمقوقس ، وحاول المبعوث ان يحبب اليه الاسلام باعتبار ان عيسى بشر بنبوة محمد ، واعترف المقوقس وهو في نفس الوقت كبير رجال الدين بمصر بأن رسول الاسلام ليس بساحر ولا كاهن ، ووعد بأنه سينظر في الامر ، ثم وضع الخطاب النبوي في حُقٍّ عاج لحفظه ، واكرم المبعوث بالمال كما وجه الى الرسول الف مثقال ذهبا ضمن الهدية ، وكان من حسن حظ المبعوث النبوي انه لم ينتظر مقابلة حاكم مصر أكثر من خمسة ايام بينما وفود اجنبية اخرى تنتظر عدة اسابيع . وذكر المقوقس ان القبط لا يقبلون الاسلام وانه هو نفسه لا يرغب في التخلي عن حكم مصر ، وبذلك لم يسلم المقوقس كما أنه لم يقف في وجه الزحف الاسلامي بعد ذلك موقفا صلبا ، وحسب اليعمري فان محرر الرد كان " كاتبا له يكتب العربية [2] .

1- اصابة ، 1 ، 300 . استيعاب ، 1 ، 338 .

2- يعمري ، 2 ، 337 - 338

5- الخطاب النبوي الى الحارث بن ابي شمر الغساني امير بُصْرى ، وكان مبعوث الرسول اليه هو شجاع بن وهب الاسدى الذي كان من المهاجرين الاولين . وهو من شهداء اليمامة في عهد ابي بكر ، وقيل ان الخطاب وُجه الى جَبَلة بن الأيْهم الذي خلف الحارث [1] ، غير ان النصَّ الذي ينقله اليعمري يذكر الحارث :

" **بسم الله الرحمن الرحيم** ، من محمد رسول الله الى الحارث بن ابي شمر :

سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق

واني ادعوك الى ان تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك " .

الــرد : مزق الكتاب ورماه بعد ان قرأه وقال : من ينزع مني ملكي ؟ انا سائر اليه ، ولو كان باليمن جئته . ثم أمر بعرض جيشه على مرأى من المبعوث النبوي ومر الاستعراض نهاراً وشطرا من الليل ، ثم كتب الى قيصر بشأن الدعوة النبوية ، فدعاه الى الامساك عن التحرك ، ولذلك عاد الى اكرام مبعوث النبي (ص) ولم يزد على ذلك [2] .

6- الخطاب النبوي الى كسرى الثاني

توجه بهذا عبد الله بن حُذافة السهمي القرشي وهو من السابقين الى الاسلام وحضر بدرا ، وساهم في فتح مصر، وأسر في بعض المعارك ضد الروم ثم أطلق سراحه : [3]

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . وادعوك بدعاء الله . فإني رسول الله الى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلَمْ ، فان ابيت فان اثم المجوس عليك "

الــرد : قرأ الخطاب ومزقه ،قال غاضبا : يكتب اليَّ هذا وهو عبدي . [4]

وكان يقصد ما كان لليمن والحجاز من تبعية ضرائبية للفرس ووجود حاكم فارسي باليمن ، وإذا كان الحجاز يؤدي قبل الاسلام مبلغا جبائيا سنويا لسعاة الفرس فلا شئ يثبت ذلك بعد استقرار الرسول بالمدينة ، ولا يمكن بداهة ان يقبل الرسول أداء جباية للفرس . ووسم الرسول بالعبودية أو التبعية لكسرى هو من باب الاستعلاء الفارسي وهو يتناقض مع فحوى الخطاب النبوي نفسه .

1- اصابة 2 ، 138 .

2- يعمري 2 ، 343 . ابن الاثير 2 ، 145

3- اصابة ، 2 ، 296 .

4- طبري ، 3 ، 90 ، ابن الاثير ، 2 ، 143 . يعمري ، 2 ، 344 .

7- الخطاب النبوي إلى قيصر "هرقل" سار بهذا الخطاب دحية بن خليفة الكلبي الخزرجي ، وهو صحابي كبير حضر مغازي الرسول منذ ... غزوة الخندق .. وعاش الى خلافة معاوية :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم .

السلام على من اتبع الهدى

اما بعد ، اسلم تسلم ، واسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فانما عليك إِثْمُ الاريسيين (دهاقين القرى) ، ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون .

الـرد : كل الروايات الاسلامية تفيد ان هرقل استقدم عددا من تجار العرب الذين كانوا حاضرين بغزة ، وفيهم ابو سفيان ، وهو حينئذ مشرك ، وجرى حوار بين هرقل وأبي سفيان وألقى هرقل اسئلة محددة عن الرسول فاستنتج من الاجوبة صدق نبوته . وبعد ان تسلم الخطاب النبوي دعا البطارقة في مجمع عام الى اعتناق الاسلام فرفضوا وهاجوا ضده . وتُضيف الروايات ان هرقل عرض عليهم ان يتخلى للرسول عن شطر كبير من الشام فلم يقبلوا وتراجع هو عن عرضه بعد ان لَمسَ تصلب البطارقة .

وسواء أصحت هذه الروايات أو لم تصح ، فالخطاب النبوي ثابت بالرغم من اختلاف بعض الفاظه في الروايات شأن خطابات نبوية أخرى ، ولكن كتب التاريخ والسيرة المتداولة لا تذكر نص جواب هرقل . (1)

ووجه الرسول (ص) في السنة الثامنة الى كل من حكام البحرين وعُمان خطابا :

1- الخطاب النبوي الى حاكم البحرين المنذر بن ساوي وهو عربي يحكم المنطقة باسم الفرس ، وكتب خطاب مماثل الى سيبُخت مرزبان هجر . ويتفق الطبري والبلاذري في أن الخطاب كان في الثامنة ، وعند ابن الاثير واليعمري في السادسة :

باسم الله الرحمن الرحيم ،.

من محمد النبي رسول الله الى المنذر بن ساوي

سلام عليك ، فإني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو .

---

(1) طبري ، 3 ، 87 . ابن الاثير ، 2 ، 3 - 1 - 145 . يعمري ، 2 ، 330 - 33 . ابن حجر ، إصابـة ، 1 ، 473 . ابن خلدون ، 2 / 790 .

اما بعد ، فان كتابــك جاءني ورسـلك ، وأنه مـن صلى صلاتنا وأكل ذبيحتـنا ، و استقبل قبلتنا فانه مسلم ، له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين ، ومن أبَى فعليه الجزية .

وواضح ان هذا الخطاب كان على اثر قدوم وفد عن البحرين يستفسر عن الاسلام فكان جواب الرسول (ص) هو ما ذكر ، وكان رسول النبي الى المنذر ومرزبان هجر ، هو العلاء بن عبد الله الحضرمي .

- **الـرد :** أسلم كل من المنذر ومرزبان هجر وكل العرب بالمنطقة وبعض الفرس وصولح النصارى واليهود والمجوس على ان يتولوا خدمة ارضهم ويشاطروا الحكومة النبوية انتاجهم بالاضافة الى جزية الرؤوس بمقدار دينار عن كل بالغ . وفي عيون الاثر لليعمري وفتوح البلاذري خطابات اخرى نبوية وبعضها من المنذر بن ساوي [1] .

وفتح اسلام البحرين فيما بعد ، السبيل امام التغلغل الاسلامي في الارض الفارسية

2- الخطاب النبوي الى جيفر وعبد ابني الجلندي بعمان مواطن الازد ، وحسب البلاذري والطبري وجه الخطاب سنة 8 ، وذلك على يد عمرو بن العاص وابي زيد الانصاري :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله الى جيفر وعبدابني الجلندي

سلام على من اتبع الهـدى

أما بعد، فاني ادعوكما بدعاية الاسلام . أسلما تسلما ، فإني رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، وانكما ان اقررتما بالاسلام وليتكما ، وإن ابيتما ان تقرا بالاسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلي تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتي على ملككما .

وأول ملاحظة بشأن هذا الخطاب شدة لهجته غير المعتادة في سائر الخطابات النبوية الاخرى . ويحتمل انه وجه بعد خطاب سابق بدا الأميران العربيان بعده متصلبين في الاستجابة للاسلام فانذرهما الرسول (ص) بخطاب ثان . وفعلا فان البلاذري تحدث عن

1- طبري ، 3 ، 102 . بلاذري ، ص 106 - 111 . ابن الاثير ، 2 ، 146 ، 203 . يعمري ، 2 ، 339 .

خطاب في سنة 6 . ومهما يكن من أمر ، فقد روى عَمْرو بتفصيل قصة اسلام الاميرين ، والحوار الطويل الذي جرى بينه وبين أحدهما وهو عبد بن الجُلَندي اخو الامير جيفر ، وكان عبد اكثر مرونة منه ؛ وألقى على ابن العاص اسئلة كثيرة منها ما يتعلق بإسلام النجاشي ، وهل علم به هرقل ، وهل استمر النجاشي يؤدي إليه الخراج ، وأجاب عمرو بأن هرقل علم فعلا باسلام النجاشي وأن هذا منع عنه الخراج بعد اسلامه ، وكان رد هرقل حسب رواية عمرو بن العاص ، قولــه : " رجل رغب في دين واختاره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لولا الظن بملكي لصنعت كما صنع ..."

الـــود : اسلم جيفر وعبد ، وتولى عمرو وأبو زيد دعوة العرب في عمان الى الاسلام . ويظهر أن الرسول عليه السلام وكل اليهما مهمة طويلة الامد ، فتولى عمرو ، الاشراف السياسي على المنطقة مع استمرار الاميرين المذكورين في الادارة المباشرة ، وقام ابو زيد الانصاري بمهمة تلقين القرآن والشعائر والتعاليم النبوية ، ولما قبض الرسول (ص) عادا الى المدينة .

وفود القبائل والإمارات العربية الى الرسول

انتــشر الاســلام فـي جزيـرة العـرب بعـد الـهجـرة النبـوية وبالاخـص بعد فتـح مـكـة،مـن اربـع طـرق :

1- الجهاد ، واتجه بالدرجة الاولى الى المشركين قصد القضاء على عبادة الاوثان .

2- ارسال السرايا والافراد ينبثُون بين القبائل ويكسبون مـزيدا من المسلمين بطريــق الدعوة والاقناع وبث تعاليم الاسلام .

3- ارسال مبعوثين الى الملوك والامراء داخل جزيرة العرب وخارجها وذلك في اواخـر السنة السادسة ، وبعض المبعوثين وجهوا في السنة الثامنة .

4- توارد الوفود على الرسول تلقائيـــا أورداً على الدعوة النبوية او لمجـرد تجديــد العــهد بـــه وذلك ابتداء من السنة الثامنة ، ولكن بالأخص في السنتين التاســعــة والعاشرة ، أي أن معظم الجزيرة كان يـنتظر مصـير قريش وبالتــالي دخولهــا في الاسلام ، ولذلك نجد مقاومة الجيوب الباقية على الشرك اقل حدة مما كانت قبل فتح مكة ، ولابد ان نضع في الاعتبار ان إسلام معظم القبائل ارتبط باسلام زعمائها . وحيث أن مصالحهم الخاصة كانت مهددة نوعا فإن المقاومة ضد الإسلام ارتبطت بقراراتهم اكثر مما

ارتبطت برغبة الجماهير نفسها . وتواردت الوفود على الرسول حسب التواريخ التالية :

ا- في السنة 8

1- وفد هوازن

ورد على الرسول بعد انتصار الجيش على هوازن ، وكان فيه اربعة عشر رجلا يرأسهم زهير بن صُرد ، وجاء الوفد ليفاوض الرسول بشان استرجاع من سُبِيَ من نساء هوازن ، وسَوّى الرسول مشكلة السبْي على الفور مع المهاجرين والانصار [1] .

2- وفد بني ثعلبة

هم بنو ثعلبة بن سعد ، غزتهم السرايا النبوية في السنتين الرابعة والسادسة وهم من غطفان . وكان وفدهم في اربعة اشخاص ، استضافهم الرسول وقالوا له : إنه لا اسلام لمن لا هجرة له ، فرد عليهم : حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم . [2]

3- وفد صداء من اليمن .

لما انصرف الرسول من الجعرانة بعث بعوثا الى اليمن ، فوجه سعد بن عبادة في اربعمائة الى صداء فتسارع وفد من صداء الى الرسول وهم خمسة عشر ، قبل ان يقطع الجيش من الطريق الا قليلا . واكرمهم سعد بن عبادة باذن الرسول ، واسلموا ثم اسلم غيرهم من صداء . [3]

ب - في السنة 9 :

1- وفد ثقيف

استقبله الرسول (ص) في رمضان بعد رجوعه من تبوك ، وكان احد زعمائهم عروة ابن مسعود قد اسلم ثم حاول ان يقنعهم باعتناق الاسلام فقتلوه ، وحيث ان القبائل حول ثقيف قد اسلمت وأن ثقيفا نفسها أصبحت تهدِّدُها الغارات والاختطافات فقد اضطروا في النهاية الى ارسال وفد عنهم من ستة اشخاص يعلمون اسلامهم واسلام ثقيف ، ويعرضون على الرسول شروطا منها ان لا تُهدَم اللات التي كانت صنمهم إلا بعد ثلاث سنين

1- يعمري ، 2 ، 252 .
2- م . س . ص 316 .
3- م . س . ص . 324

وان يُعفَوا من الصلاة وان يكسروا اوثانهم بايديهم . ورفض الرسول كل ذلك ودعا أبا سفيان والمغيرة بن شعبة الى هدم اللات ، وولى على ثقيف عثمان بن ابي العاص وكان شابا منهم وله حرص على تحصيل تعاليم الاسلام (4) .

2- وفـد بَهْـراء من اليـمـن

كانوا ثلاثة عشرة ومواردهم ضعيفة ، فاستضافهم المقداد بن الاسود ، ثم اقاموا اياما لاحظوا خلالها بركة الرسول في مطعمهم كما روى اليعمري وأسلموا وتعلموا فرائض الدين ثم انصرفوا بتشجيعات مادية لفقرهم (5) .

3- وفـد بنـي تمـيـم

قدموا برئاسة عطارد بن حاجب بن زرارة ومعه من شخصياتهم كالزِّبْرِقان بن بدر ، والاقرع بن حابس وآخرين ذكرهم ابن هشام ، وجاؤا يفاخرون الرسول بمكارمهم وينادونه من وراء حجرات بيته فعاتبهم القرآن في سورة الحجرات ، وتناول الكلمة بعضهم والقى شعراء منهم قصائدهم ، فرد عليهم بامر الرسول كل من ثابت بن قيس (نثرا) وحسان شعرا ، فأندهشوا لبيانهما وروعة اسلوبهما واسلموا ، واثر ذلك عادوا بجوائز قيمة (6) .

4- وفد سعد بن بكر بفَدَك

غزتهم احدى السرايا النبوية سنة 6 ، ثم بعثوا في السنة التاسعة الى الرسول ضِمَام ابن ثعلبة ، فحاور الرسول في مسائل الاسلام وكان على علم بها ، حتى إذا تاكد منه بشأنها اعلن اسلامه ، وقفز على بعيره موليا وجهته الى قومه ، وكان فيه جرأة وبداوة . ثم اسلم قومه على يده (7) .

5- وفد سعد هذيم من قضاعة

اسلموا قبل قدومهم على الرسول ثم جددوا اسلامهم وأمَّر الرسول عليهم اصغرهم سنا ، ثم وصلهم بأواقٍ من الفضة وكان العرب يتعاملون بها مكان النقد (8) .

4- ابن هشام ، 4 ، 135 . الطبري ، 3 ، 141 . ابن الاثير ، 2 ، 193 . يعمري 2 ، 291
5- طبري ، 3 ، 154 . يعمري 2 ، 319 .
6- ابن هشام ، 4 ، 152 . طبري ، 3 ، 150 .ابن الاثير . 2 . 195
7- ابن هشام ، 4 ، 162 . طبري ، 3 ، 155 .
8- يعمري ، 2 ، 316

6- وفـد هَمَـدان من اليـمـن

اسلام اليمن لم يتم دَفعه واحدة ، بل كان على مراحل . وحسب ما نقله "رضا كحالة" كان قدوم وفد همدان على الرسول في السنة التاسعة بعد رجوعه من تبوك ، واسلم على يد الرسول (ص) ، ولكن اسلام همدان كلها تقريبا لم يتم الا في السنة العاشرة على يد علي ، وعاد الوفد المذكور فاشاع الاسلام في مخلاف " خارق " واصحبه الرسول عهداً شهد عليه المهاجرون والانصار . [1]

7- وفد بني اسد بن خزيمة

بنـو اسد هـؤلاء من نجد ويجاورون قبيلة طيئ ، ويعدون من القبائل العدنانية الكبرى . ولم يوجه الرسول اليهم فيما يظهر من حديثهم معه مبعوثا كما فعل مع جهات اخرى . وكان وفدهم من عشرة اشخاص فيهم طلحة بن خويلد الذي ادعى النبوة فيما بعد ، فقالوا للرسول : جئنا لنبايعك على الاسلام قبل ان تـرسل الينا ، فنزل فـي ذلك قوله تعالى :

« يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم ، بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين . »

ثم طلبوا ان ياذن لهم في ممارسة بعض التقاليد التي كانت شائعة فيهم كالعِيافة وهي تقفى الاثر ، والكهانة وضرب الحَصَى وضرب الخط (علم الرمل) فنهاهم عن ذلك الا ضـرب الخط فيما نقله اليعمري [2] .

8- وفـد تُجَيـب مـن كنـدة

إذا كانت تُجَيب بطنا من كندة فان مواطنها ظلت في حَضْرَ مَوْت ، وكان وفدهم من ثلاثة عشر رجلا ، وقدموا على الرسول بصدقات اموالهم بعد ان ردوا عـلى فقرائهم وفَضُل لديهم ، فاثار ذلك اعجاب الرسول (ص) وامر بلالا ان يحسن ضيافتهم ، وكان يتولى في الغالب هذه المهمّة بامر الرسول [3] .

9- وفـد فـزارة بن ذبيان من غطفان .

كان بنو فزارة ممن تعاونوا مع يهود خيبر ضد الرسول ، ثم قدم وفدهم بزعامة خارجة

1- ابن هشام ، 4 . يعمري 2 ، 312 . كحالة ، معجم . مادة همدان .

2- طبري ، 3 ، 139 . ابن الاثير ، 2 ، 195 . يعمري ، 2 ، 319 . كحالة معجم ، مادة اسد

3- يعمري ، 2 ، 314 ، كحالة ، معجم ، مادة تجيب .

ابن حصن على الرسول وكانوا في حالة جدب وشدة فاسلموا ودعا الرسول الله ان يغيثهم بمطره [1] .

10- وفـــد حمير

قدم على الرسول باسم حمير وملوكِها يعلن اسلامهم وحمل الوفد خطابا نبويا الى حِمْير يوضح تعاليم الاسلام ، ونصه عند ابن هشام .

ج - فـــي السـنــة 10

1- وفـــد محارب بن سعد

من القبائل العدنانية ، وكانوا جفاة ، عاملوا الرسول بفظاظة عندما كان يدعو القبائل الى الاسلام قبل الهجرة .. وَرَدَ وفدهم في عشرة برئاسة طارق بن عبد الله فاسلموا على يد الرسول (ص) [2] .

2- وفـــد الجارود رئيس عبد القيس

كانت مواطن عبد القيس بعُمان وجوارها . وقدم وفدهم على الرسول برئاسة الجارود ابن المعلّي ، (أو بشر بن المعلّي) اسلم الوفد وسأل الجارود الرسول عما اذا كان يحق له ان يضع يده على الدواب الضالة فنهاه بشدة عن ذلك ، وثبت الجارود على اسلامه عند ردة عبد القيس وعندما عاد من عند الرسول اسلم على يده كثير من قومه [3] .

3- وفـــد طيـّئ بزعامــة عـدي بن حاتم

وَفَدَ على الرسول وفدان من طيئ ، أحدهما برئاسة زيد الخيل بن مهلهل ، وهو من كبار شعراء الجاهلية ، وأحد أبطال العرب ، توفي في مرجعه من عند الرسول بسَبب حُمّى وبائية ، أما الوفد الثاني فكان برئاسة عدي بن حاتم وهو اكبر شخصيات طيئ وكان اشبه - بالامير فيهم ويدين بالنصرانية ، وعزا اليه ابن هشام قصة يَروِي فيها عدي نفسه اسْر أخته ولجوئه هو الى الشام بعد ان قامت سرية نبوية في السنة التاسعة بغزو وطيئ وهدم صنمها الاكبر . ويقـــص عدي قصـة قدومه على الرسول الذي وصفه بالفـار من الله ورسـوله ثـم

1- طبري ، 3 ، 154 . ابن حجر ، اصابة ، 1 ، 399 . يعمري ، 2 ، 317 . كحالة ، معجم ، مادة فزارة .

2- كحالة ، معجم ، مادة محارب

3-- ابن هشام ، 4 ، 164 . ابن حجر ، اصابة ، 1 ، 216 ، يعمري ، 2 ، 298 .

لاحظ عـدي تـواضع الرسـول في استقبـالاته وفي مجلسه فـمال الى الاسلام ، وأكد له الرسول انه سيشهد تغيُّرات كبيرة في المد الاسلامي وان المرأة ستخرج من القادسية فتزور البقاع المقدسة ، لا تخاف ، وأن المسلمين سيفتحون قصور بابل . وكانت أخت عدي التي اطلقها الرسول واسلمت هي التي اشارت على عدي بالالتحاق بالرسول [1] .

4- وفد فروة بن مسيك المرادي

نقل ابن هشام عن ابن اسحاق ان فروة هذا فارق ملوك كندة وقدم على الرسول صلى الله عليه وسلم فاستعمله على مراد وزَبيد ومذحج [2] .

5- وفد زبيد برئاسة عمْرو بن مَعْد يكَرب من اليمن

ابن معد يكرب احد كبار شخصيات زبيَد وابَطال اليمن وشعرائها ، أسلم مع وفد من زبيد على يد الرسول (ص) وأقام بزبيد التي عين عليها الرسول فروة بن مسيك . وارتد عَمرو بعد وفاة الرسول . وقيل في بعض ما رواه ابن حجر أنه لم يلق الرسول بل قدم بعد وفاته الى المدينة وعاد بعد ردته الى الاسلام وحضر القادسية وحروبا أخرى ومات في عهد عمر عن سن عالية [3]

6- وفد كندة برئاسة الاشعث بن قيس

كندة من القبائل اليمنية الاصل ، قدم وفدهم على الرسول برئاسة الاشعث بن قيس في ستين الى ثمانين راكبا وفي ابهة من الملبس والمظهر ، وكانوا قد اسلموا قبل قدومهم ، فنهاهم الرسول عن لبس الحرير . وارتد الاشعث بعد موت الرسول ثم عاد الى الاسلام وعاش الى اول عهد معاوية ، وتوفي بالكوفة وكان من أنصار علي [4] .

7- وفد أزد اليمن برئاسة صُرَد بن عبد الله

قدم الوفد في بضعة عشر رجلا ، وكان قد اسلم بعض أزد اليمن ، فاسند الرسول الى صرد مهمة جهاد المشركين من قومه حتى يسلموا ، وفي الطريق الى اليمن قاتل جماعة جرش حتى فتك بهم ودخلت جرش عندئذ في الإسلام على يد الرسول الذي استعمل عليها صُرد [5]

1- ابن هشام ، 4 ، 165 . طبري ، 3 ، 163 ، ابن حجر ، اصابة ، 1 ، 572 . يعمري ، 2 ، 302

2- ابن هشام ، 4 ، 168 . يعمري ، 2 ، 305

3- ابن هشام ، 4 ، 170 ، طبري ، 3 ، 159 . ابن الاثير ، 2 ، 302 . ابن حجر ، 3 ، 18 . يعمري 2 ، 306 .

4- ابن هشام ، 4 ، 172 . ابن حجر ، 1 ، 51 . ابن الاثير ، 2 ، 203 . يعمري ، 2 ، 308 . كحالة ، مادة كندة .

5- طبري ، 3 ، 158 وابن حجر . 2 ، 187 . يعمري 2 ، 308

8- وفد بنـي حـنيفـة .

سبق الحديث عن هذا الوفد في أول الكلام عن الخطابات النبوية . وحسب رواية اخرى ساقها الطبري فان وفد بني حنيفة (وربما كان وفداً ثانيا بعد الاول الذي كان في السادسة من الهجرة) ورد على الرسول يَصحبه مسيلمة الذي لم يدخل على الرسول ، وأجاز الرسول الوفد بمال ، وخصص لمسيلمة بعضه فأسلم ظاهريا ثم لما عاد الى اليمامة ارتد واختلق قرآنه وادعى النبوة ووضع الزنا واحل الخمر ، وهذا في حياة الرسول (ص) اي منذ السنة العاشرة [1] .

9- وفد غسّان من الشام

يتكون من ثلاثة اشخاص اسلموا وكتموا اسلامهم ثم دعوا قومهم الى مبايعة الرسول على الاسلام فأبوا . واحتفظوا باسلامهم لان غسّان ظلت على النصرانية الى ان اسلم فريق منها بعد العهد النبوي . وكان لهؤلاء الثلاثة اطلاع على احوال الروم وأخبار بني إسرائيل واليونان [2] .

10- وفـــد عامر بن صعصعة من بني سليم في نجد

هذا الوفد لم يَرِدْ بقصد الاسلام ، بل يقصد اغتيال الرسول ، وفي الصراع النبوي ضد المشركين ، أُشِيرَ في أحداث السنة الرابعة بهذه الدراسة الى دور عامر بن الطفيل في عرقلة نشر الاسلام ببني سليم لانه كان في الجاهلية من كبار زعمائهم ، فلما كانت السنة العشرة ، وفد مع اثنين آخرين في مثل شرّه على الرسول ، وأراد ان يشغل النبي بالحديث ويتولى أحد رفيقيه قتله فلم تسعفه الشجاعة ، ورجع الثلاثة فهلكوا واحداً واحداً بعد قليل من مغادرتهم المدينة [3] .

11- وفـــد نجـــران

أطلـق لفظ نجران على عدد من المراكز بجزيرة العرب والعراق والشام كما عند ياقوت .. لكن المقصود هنا نجران اليمن وهي قبيلة قحطانية اسلم بنو الحـارث بن كعب بها عـلى يد خالد بـــن الوليـــد سنة 10 ، ورافـق وفداً منـهم الى الرسول بأمر نبـوي،ورشـح

1- سبري ، 3 ، 162 .
2- يعمري ، 2 ، 326 . كحالة ، مادة ، غسّان .
3- طبري ، 3 ، 165 . ابن الاثير ، 2 ، 204 .

الرسول لرئاستهم واحدا من الوفد وهو قيس بن الحصين .

وورد من نجران اليمن ايضا ، وفد من نصاراها ، وعلى رأسهم وهب المعروف بالسيد ، وعبد المسيح المعروف بالعاقب ، والاسقف ابو حارثة . وكتب الرسول لوفد نجران هذا كتابَ صلح ذكر نصه البلاذري ، واحترم ابو بكر عهد الرسول معهم بعده . وفي عهد عمر ، انتشر بينهم الربا وكثروا فخافهم على الاسلام ، كما قال البلاذري ، ودعاهم الى الجلاء وعرضهم بارض بالعراق والشام ، وحط عنهم عثمان أكثر التزماتهم العينية . وفي الواقع كان جلاؤهم برغبة منهم بعد نزاع حصل بينهم [1] .

12- وفد خولان من اليمن

خولان بطن من كهلان القحطانية ، قدم عشرة منهم على الرسول بعد ان شاع اسلام قومهم فلقنهم الرسول تعاليم الدين وطرق التعامل،وامرهم بهدم صنمهم الذي تمسكت به عجوز وشيخ من بينهم ثم اكرمهم بالمال وعادوا فهدموا الصنم . [2]

13- وفد بني عبس

أشاع القراء فيهم الاسلام ودعوهم الى الهجرة والحوا قائلين : لا اسلام لمن لا هجرة له ، فلما جاءوا الى المدينة عيَّروا للرسول عن خوفهم على اموالهم اذا فارقوها. غير أنه طمأنهم : " اتقوا الله حيث كنتم فلن يَلِتَكُم من اعمالكم شيئا . " [3]

د - في السنة 11 :

في منتصف محرم من هذه السنة ورد آخر وفد على الرسول من قبيلة النَّخع من مذحج اليَمنية ، وكانوا قد اسلموا على يد معاذ بن جبل عندما وجهه الرسول الى اليمن ، وكان وفدهم كبيرا يتالف من مائتي رجل .

وذكرت كتب المغازي والسير قليلا من الوفود الاخرى التي قدمت على الرسول ، وتمثل الوفود المذكورة هنا أكثرها اهمية ولائحتها قريبة من الاستيفاء .

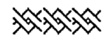
واكثر ما يثير الاهتمام ان اغلب الوفود قدمت من اليمن وان الوفود الاخرى تكاد تشمل كل القبائل الكبرى من جميع جهات شبه جزيرة العرب ، وكلها كانت تنزل في ضيافة الرسول (ص) من بيت المال او من المخصصات النبوية ، وبِصَرْفِ النظر عن الفترة التي

1- البلاذري . ص 85 . طبري ، 3 ، 163 . يعمري ، 2 ، 311
2- طبري ، 3 ، 63 . كحالة ، مادة خولان .
3- يعمري ، 2 ، ب377 .

سبقت فتح مكة والتي ظل الاسلام خلالها الى وقت الفتح لا يتجاوز اثني عشر الفا على الاكثر فان انتشار الاسلام بشبه الجزيرة وكل اطرافها لم يستغرق عمليا اكثر من ثلاث سنوات ، وهذا يعني ان معظم المجتمع العربي شهد تغيُّراً جذريا في العقيدة والهياكل البِنْيوية الحاكمة وشطر كبير من تقاليده في ظرف ثلاث سنوات ، وشهد الاسلام مع هذا زحفا نحو الشام على مرأى من حكامها ، وكان كافيا ان تحتفظ مجموعات قليلة من المومنين بقوة ايمانها وتماسكها لتعيد العرب الى رشدهم بسرعة بعد ان كَبَتْ بهم الردة عند وفاة الرسول (ص) . لقد ضَعُفَت العرب لحظة بعد اسلامهم ، لكن العقيدة المحمدية ظلت صامدة كالصخرة العاتية لا تؤثر فيها العواصف .

القسم الثالث

الاسلام في العهد النبوي تطبيقا وفكرا



الفصل الاول : النموذج المحمدي وحياة الرسول الخاصة
الفصل الثاني : تطبيق الاسلام في المجتمع المحمدي
الفصل الثالث : العطاء الفكري والأدبي

الفصل الاول

النموذج المُحَمَّدي وحياة الرسول الخاصة

حـــجــة الــوداع

تميزت المرحلة الاخيرة من حياة الرسول (ص) بحجة الوداع التي كانت حجته الوحيدة في قول ، وثانية حجة له بعد ان حج مرة قبل الهجرة في قول آخر [1] . وتجهز الرسول لهذه الحجة في ذي القعدة من السنة العشرة وامر الناس بالحج ايضا ، ثم قصد مكة بعد ان خلف على المدينة ابا دجانة الساعدي أو سباع بن عرفطة الغفاري ، وامر من ليس له هدْي ان يعتبر نفسه في عمرة وسار نساؤه معتمرات ، وبعد ان قضى مناسك الحج ارشد الحجاج الى تعاليم الحج طبقا لتوجيهات القرآن والسنة ثم خطب خطبة الوداع التي ذكر نصها عددُ من المؤرخين كالطبري وابن هشام وغيرهما ، وتتضمن هذه الخطبة توجيهات اختيرت محاورها بعناية :

1- لا يحل للمسلم ان يسفك دم المسلم ولا ان يغتصب ماله ، وكل من ائتُمن على أمانة وجب عليه ردها .

2- يحرم مطلقا ، التعامل بالربا ، وما كان من ربا في الجاهلية الغي في الاسلام .

3- لا يحل ان تؤخر حرمة شهر إلى شهر آخر ، لأن الاشهر الحرم اربعة هي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، وكان العرب في الجاهلية يؤخِّرون الحرمة الى شهر آخر بحيث يحجون في غير ذي الحجة ، وذلك هو النَّسيئُ . والمقصود بالحرمة هنا حرمة القتال ، ولكن حدد الحكم في هذا بجواز القتال دفاعا عن النفس ، وذلك حسب تعاليم القرآن .

4- يجوز للرجل أن يعاقب امرأته بالهجران في المضجع أو بالضرب الخفيف إذا ارتكبت معصية تثبت بحجة ، ويلزم الرجلَ نفقة المرأة ومعاملتها بالمعروف لضعفها إذْ لاقوة لها امام خشونة الجنس القوي .

5- المسلمون إخوة فيما بينهم ولا يحل لمسلم ان ياخذ من اخيه المسلم الا ما اعطاه عن رضى ، وما عدا ذلك فظلم [2] .

1- ابن الاثير ، 2 ، 27

2- ابن كثير ، تفسير سورة التوبة . ابن هشام ، 4 ، 185 . يعمري 2 ، 345

وبصفة مجملة فقد ركزت خطبة الوداع على تحريم الاعتداء من ثلاثة وجوه :
ا - الاعتداء على الحقوق المالية - ب - الاعتداء على قداسة الاشهر الحرم .
ج - الاعتداء على حقوق المرأة .
وحسب ابن كثير نقلا عن البخاري ، فان الخطبة كانت بِمِنًى .

كذلك تميزت الشهور الأخيرة من حياة الرسول بظهور حركة التنبؤ في ثلاث جهات من جزيرة العرب : اليمامة ، ومتنبئها مُسيلمة الكذاب ، واليمن او شطر منه ، ومتَنَبِّؤُه الاسود العنسي ، وبنو أسد ، ومتنبؤهم طلحة بن خويلد ، وحيث إن الموقف الاسلامي تجاه هذه الحركة الخطيرة لم يكن ممكنا تحديده في فترة ضعف الرسول بَدَنِيًّا عن مواجهتها ، فان مصير الردة ارتبط بالموقف الصلب الذي اتخذه فيما بعد وفاة الرسول (ص) خليفته ابو بكر ، ولكن ينبغي ان يشار هنا الى ان اسلام اليمامة لم يكن مستقيما بسبب الطموح الشخصي والسياسي الذي كان يذكي متنبئ اليمامة . أما اليمن فوضعها الاجتماعي معقد وبها اكثر من امير وذي سلطة تخلفوا من العهد الجاهلي،وهناك مصالح مادية وتملص من اداء الالتزامات المالية تجاه بيت المال ، أما بنو أسد فحنينهم الى تقاليدهم الدينية وتحللهم الاخلاقي القديم لم يمت ، وحينما قدم وفدهم على الرسول (ص) ، فبدل ان ينوِّهوا بفضل الاسلام والرسالة المحمدية مجّدوا مبادرتهم الى الاتصال بالرسول من غير ان يبعث فيهم مرشدين حتى وردت فيهم الآية : **«يمنون عليك ان اسلموا ، قل لا تمنوا علي اسلامكم ، بل الله يمن عليكم ان هداكم للإيمان ان كنتم صادقين»** (1) .

وفـــاة الرســـول (ص)

ذكر ابن هشام في ابتداء مرض الرسول (ص) انه خرج في جوف الليل الى مقبرة البقيع يدعو لمن دفن بها ، وذلك في اواخر صفر وفي بداية ربيع الاول من السنة 11 هـ فلما اصبح ابتدأ وجعه ، ثم استأذن ازواجه ان يمرض في بيت عائشة فقبلن ، وكان الرسول يشكو صداع الرأس ، وذكر البخاري في صحيحه انه اشتكى الى اهله وزواره من اثر اكلة خَيبَرْ التي لم يزد على ان ذاق منها بطرف لسانه ، ويبدو ان الحمى نالت منه حتى دعا بالماء فصب عليه من الآبار ، ثم قرر ان يخرج الى المومنين مع اشتداد حاله ، فعصب راسه واجتمع المومنون بالمسجد النبوي فخطب فيهم خطبة قصيرة كلها تسامح مع الناس ورغبة في ان يغادر دنياه وقد رضي عنه الجميع ولو بالقصاص وهذا غاية السمو النبوي ، ونص

هذه الخطبة كما رواها الطبري :

بعد البَسْمَلة والحَمْدَلة : " آما بعد ، ايها الناس ، فإني احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، وانه قد دنا مني حقوق بين اظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقدْ منه ، ومن كنت شتمت له عرْضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ألا وان الشحناء ليست مَن طَبْعي ولا من شأني ، الا وان احبكم اليّ من اخذ مني حقا ان كان له ، او حللني فلقيت الله وانا اطيب النفس ، وقد أرى ان هذا غير مغن عني حتى اقوم فيكم مراراً " . والقى الرسول خطبة أخرى بشأن اعتراض عدد من المسلمين على تعيين اسامة قائداً على جيش البلقاء ومعه اجلة الصحابة ، وكانت هذه الخطبة في يوم السبت عاشر ربيع الاول من السنة 11 .

وفي يوم وفاته امر ابابكر ان يُصلي بالناس ، وتحامل الرسول على نفسه فصلى جالسا وتابعه ابو بكر فتبعه المومنون ، ثم تحامل الرسول مرة أخرى على نفسه وخاطب الجماعة بقوله : " ياأيها الناس سُعرت النار ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، واني والله لا تمسكون علي شيئا ، إني لم احل لكم الأ ما أحل لكم القرآن ، ولم احرم عليكم الا ما حرم عليكم القرآن ، "

وبدا لأبي بكر ان الرسول قد خَفَّ عنه الالم فهنأه ثم انصرف الى بيته ، اما الرسول (ص) فقد عاد الى بيته فاخذته سَكَرات الموت ودعا بقدح كان يبرد فيه يده ثم يدعو قائلا : " اللهم اعني على سكرات الموت" ، وسُمع في احتضاره يقول : الرفيق الاعلى من الجنة وقبض عليه السلام وهو مستند الى عائشة ، وتوفي على الارجح في ثاني عشر ربيع الاول ، من السنة الحادية عشرة ، وهو يوم مولده ومَهْجَره . وذكر انه اوصى قبل وفاته باخراج المشركين من جزيرة العرب ، على ما أورده البخاريّ ، كما اوصى بان تُجَازَ الوفود كما كان يجيزها هو عند استقباله لها .

كما ذكر البخاري وغيره ان الرسول قال وهو على فراش الموت وبحضور عدد من زواره : هلموا أكتُبْ لكم كتابا لا تَضلّوا بعده ، فتنادى بعضهم : ان رسول الله (ص) قد غلبه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، ثم اختلفوا وأكثروا اللغو بشأن الاستجابة للرسول المحتضر او عدمها ، فدعاهم الرسول الى الانصراف . ونُسب الى ابن عباس انه (اي ابن عباس) قال : ان الرزية كلّ الرَّزِيَّة ، ما حال بين رسول الله (ص) وبين ان يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم .

واكبر الظن ان الرسول كان يرغب في ان ينشئ نوعا من قاعدة الحكم بعده ، وأكبر الظن ان تراجعه ما هو الا اكتفاء بالقواعد الواضحة التي أقرها القرآن ، وهي الشورى

والعدل ، وانضباط الامة في غير ما يُعصى به الخالق ، والتمسك بتعاليم الاسلام في كل ما يتصل بحقوق الناس وواجباتهم . وكان على اسرة الرسول وكبار الصحابة ان يشتغلوا بتجهيز دفن الرسول ، ولكن ذلك لم يسو الا بعد بيعة ابي بكر . ولم يضبط يوم دفنه هل كان ثاني يوم او ثالث يوم من وفاته . وقام بغسله جماعة من اهل بيته وهم علي والعباس بن عبد المطلب ، ونجلا العباس : الفضل وقُثَم ، واسامة بن زيد ، وشقران من موالي الرسول ، واوس بن خولي من الخزرج ، وغسل بقميصه ، وكفن في ثلاثة اثواب ثم دفن في نفس المكان الذي قبض فيه ، وذلك اثر صلاة الناس عليه افواجا : الرجال ثم الصبيان ثم النساء ، ثم الرقيق ، وكانت صلاة الجنازة من غير امام ، اي افراداً ، والارجح في مبلغ عمره عند وفاته انه كان ابن ثلاث وستين سنة ، وكان دفنه ليلة الاربعاء [1] ، ورثاه عدد من اهل بيته خصوصا فاطمة ابنته وكذا حسان بن ثابت وآخرون .

الرســول فــي حياته الخـــاصة

عنيت كل كُتب السيرة القديمة بالاوصاف البدنية للرسول وجل هذه الاوصاف تتقارب في هذه الكتب ورواياتها ، ويستطيع الرسام البارع من معطياتها ان يضع للملامح النبوية ، وإلى حدٍّ ما لمظهر الرسول الكامل ، رسماً أقرب ما يكون الى الدقة ، غير ان اختلاف الروايات في قليل من الجزئيات ، من شأنه التصرف في الرسم بما قد يخالف الحقيقة ، ومن جهة اخرى فإن قداسة الشخصية النبوية واصول التعاليم الإسلامية تحرم مثل هذه المبادرة التي تؤدي الى اتخاذ الرسم وثنا ، وهوما يحصل في تقديس التماثيل التي تشخص انبياء آخرين وحتى زعماء وقادة الشعوب ، وقد نهى الرسول وهو على فراش الموت ان يُتَخذ قبره مسجدا ، وهو حارب الاصنام ورسوم الملائكة والانبياء في حياته فكيف يَرْضى ان يُتخذ له رسم او تمثال في شريعته أو مماته ؟

كان الرسول (ص) رَبْعَةً مع ميل الى الطول ، ابيض اللون غير ناصع ، وجهُهُ مُشْرب بحمرة . وكان عظيم الهامة كثّ اللحية ازج الحاجب اي مقوسه مع كثرة شعر ، اقنى الانف مقرون الحاجبين ، أدعج العينين ، أي شديد سواد حدقتهما ، وكان في بياضهما حمرة . ومن أوصافه انه كان مفلوح الثنايا ، ووجنتاه غير مرتفعتين ، وكان شثن الكفين والقدمين أي كان لحمهما مكتنزاً ، طويل الاصابع فخيم الشكل طويل قصبة الانف واسع الراحة.وله وفرة من الشعر تبلغ شحمة اذنية ، وكان معتدل الخلق بادنا متماسكا اي غيرمسترخي

1- ما يتعلق بوفاة الرسول ودفنه : ابن هشام ، 4 ، 212 و 218 - 224 و 229 - 236 . طبري 3 ، 188 - 207 . ابن الاثير .2 ، 215 . بخارى صحيح ، 5 ، 137 - 144 . مقدسي 5 ، 56 . يعمري 2 ، 256 ، و 418 - 424 .

اللحم ، ضخم الاكتاف وبين كتفيه قطعة لحم صغيرة ناشزة وصفها اصحاب السير بانها خاتم النبوة ، وحولهما شعرٌ وكان واسع الخطو مع رفق في السير ، إذا التفت فبجميع بدنه ، ولم يكن في راسه من الشيب الا شعرات في مفرق راسه خلال السنوات الأخيرة من حياته .

وكل هذه الاوصاف مجتمعة تمثل قوة الشخصية مع سلامة الطوية وعدم ضيق النفس والصدر ، وتمثل الذكاء والعزيمة والصلابة في الحق والشعور بالرضا والصبر والثبات والقناعة وعزة النفس (شكل الانف) واتزان الشخصية وتوازنها (اعتدال الشكل والقامة وقوة الاطراف التي تتحمل المشقة) وتأثير صاحبها على الآخرين : (شكل العينين ، لونهُمَا مع شكل الحاجبين) .

وتزوج الرسول خمس عشرة امرأة وجمع بين إحدى عشرة ، وتوفي عن تسع ، وقال (ص) : ماتزوجت شيئا من نسائي ولا زوجت شيئا من بناتي الا بوحي جائني به جبريل عن ربي عز وجل .

واختص الرسول وحده في الاسلام بهذا التعدد . ولم يحل لغيره ان يتزوج عمن توفي عنهن الرسول من نسائه . ولا بد ان نتعرف على وضعية أزواجه وقت زواجه بكل منهن :

1- اول نسائه خديجة ، ولم يتزوج عنها في حياتها وتوفيت وهو في اقوى رجولته .

2- سودة بنت زمعة مات عنها زوجها السكران بن عمرو بعد عودته من هجرة الحبشة ، فتزوجها الرسول .

3- عائشة بنَى بها وهي في سن التاسعة والبنات يبلغن مبكرات في بلاد العرب ، ومصاهرته لابي بكر تعني تقدير صحبتِهِ واسبقيته الى الاسلام وتصديقه لنبوة الرسول من غير نقاش .

4- حفصة بنت عمر . عرضها والدها على ابي بكر ثم على عثمان فلم تظهر منهُمارغبة فشكاهُما الى الرسول فخطبها لنفسه ، وصَهَرُ الرسول لعمر تأكيد لفضل عمر وثباته وجرأته ضد أعداء الاسلام . وكانت حفصة زوجا لخنيس السهمي من شهود بدر .

5- زينب بنت خزيمة ، من بني هلال بن عامر ، قتل زوجها شهيدا في بدر فتزوجها الرسول ولم تلبث ان توفيت بعد ثمانية اشهر في السنة الثالثة للهجرة ، وبموتها اجتمع نساء الرسول إحدى عشرة .

6- ام سلمة هند بنت أمية ، من بني مخزوم ، جرح زوجها ابو سلمة في أحد ثم انتفضت جراحه بعد مدة فتوفى ، فتزوجها الرسول .

7- زينب بنت جحش بنت عمة الرسول ، طلقها زوجها زيد بن حارثة فتزوجها الرسول بأمر إلهي وهجرها مدة وقد غضب عليها لانها قالت لصفية بنت حُيَيّ " تلك اليهودية " .

8- جويرية بنت الحارث اليمنية سبيت في غزوة بني المصطلق ، ثم أعتقها الرسول وتزوجها وكانت من قبل زوجا لمشرك من بني المصطلق .

9- ريحانة بنت زيد القُرظية (وقيل النَّضيرية) سُبيتْ في غزوة بني قريظة وكان زوجها حكم القرظي ، فخيرها الرسول بين الاسلام ودينها فاختارت الاسلام وتزوجها الرسول بعد ان أعتقها .

10- رملة بنت ابي سفيان ، اسلمت وهاجرت الى الحبشة ، فتنصر بها زوجها عبد الله بن جحش ، فبعث الرسول عمرو بن امية الضمري ليزوجها منه على يد النجاشي وبذلك عزز الرسول شرفها ومكانتها الاجتماعية .

11- صفية بنت حُيَيْ النضيرية ، والدها زعيم بني النضير ، وكانت زوجا لسلام بن مشكم ثم لكنانة بن الربيع الذي قتل بخيبر ، فأعتقها الرسول من السبي وتزوجها . ومقامها في بني النضير كان كمقام رملة بنت ابي سفيان في أسرتها .

12- ميمونة بنت الحارث بن حزن ، من بني هلال بن عامر ، زوجها العباسُ من الرسول بعد أن توفي عنها زوجها أبو رُهم بن عبد العزى [1] .

فكل هذه الحالات تقريباً نجد الرسول يتزوج مطلقة أو من مات عنها زوجها أو سُبيت او ارتد زوجها عن الاسلام ، وذلك فيما عدا حالة عائشة لمقام والدها في الاسلام ، ومن ناحية اخرى فالرسول يستميل بهذا الصهر القبائل والأسر ذات النفوذ الاجتماعي ، وكما فسر بعض القدماء من كتاب السيرة ، فقد كان لهؤلاء النساء وغيرهن ممن وهبن انفسهن للرسول او ممن لم يدخل بهن وضمتهن اسرته دور كبير في اسلام النساء وتبليغ تعاليمه الى السيدات والشابات ، ولولا هذا الدور النسوي من اسرة النبي لكان تغلغل الاسلام في وسط النساء متعذرا وهن اقدر من الرجال على التأثير في محيطهن .

وهناك حالات فراق قبل البناء اعتبرت داخل العدد المذكور من زوجات الرسول وحالات مشكوك فيها أو في اسماء بعض صاحباتها .

وولد للرسول قبل النبوة ، القاسم وزينب ورقية وفاطمة وام كلثوم ، وفي الاسلام عبد الله الذي دعي بالطيب والطاهر، وهناك من يجعلهما واحدا ومن يجعلهما لقبين للقاسم ،

1- ذكر هنا ترتيب زوجات الرسول حسب اليعمري ، 2 ، 377 - 387 . وانظر الطبري 3 ، 185 . ابن الاثير ، 2 ، 209 - 211 . ابن هشام ، 4 ، 213 . ابن اسحاق ، ص 243 - 271 .

وتوفي الذكر او الذكور في حياته رضَعَاء ، وادرك بناته الاسلام وهاجرن الى المدينة .

وتزوجت زينب من ابن خالتها ابي العاص بن الربيع ، وتوفيت في السنة الثامنة وهي كبرى بنات الرسول . وتزوجت رقية عثمان بن عفان ثم توفيت في السنة الثانية ، ثم تزوج بعدها اختها ام كلثوم التي توفيت في السنة التاسعة .

اما فاطمة فتزوجت في السنة الثانية وتوفيت في السنة الحادية عشرة بعد وفاة الرسول بثلاثة اشهر ، وزوجها علي بن ابي طالب ، وإلى ذرية فاطمة ينسب الاشراف .

وضم بيت الرسول عددا من الموالي الذين كانوا في خدمته ، ومنهم سَلْمان ومهران وأَنَسَةُ وكلهم فرس ، وشقران وبلال وهما حبشيان ، ويسار النُّوبي وكان يتولى تربية مواشي الرسول ، ولائحة موالي الرسول طويلة ، وبينهم نساء كمارية وقيسر القبطيتين واميمة ، وأم ايمن الحبشية ، وغيرهن .

وهناك عدد من الذين خدموا الرسول كأنس بن مالك وثعلبة بن عبد الرحمن الانصاري وابي ذر الغفاري ونعيم بن ربيعة .

وكان الرسول يعايش في حياته اليومية كل هذه الاسرة الكبيرة ويشاطرها رزقه قلّ أو كثر ، وهذا مع استقبال الاصهار والاقارب الوافدين وحاشيته من الصحابة . وإذا كان الرسول قد تزوج بعد خديجة ببنت صغيرة السن فقد ظل يذكر السيدة الأولى التي منحته الحب الطاهر والوفاء الثابت ، حتى لقد أثار ذكر الرسول لها يوما غضب عائشة وقالت : هل كانت الا عجوزاً ؟ فغضب اشد الغضب وقال : " لا والله ما ابدلني خيرا مِنها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذْ حرمني الناس ورزقني الله منها اولادا إذ حرمني اولاد الناس " . وذلك غاية الوفاء [1] .

وكان لعائشة مكان كبير من قلب الرسول وإن كان يعدل بين نسائه في المعاشرة . وعندما دنت وفاته استأذنهن ان يمرض في بيتها فقبلن . وذلك انها اقدمهن عهدا في بيته وإن توفي عنها وهي في الثامنة عشرة ، وكان الرسول يزور ام ايمن حاضنته القديمة في بيتها اكراما لها ، وهي أم أسامة بن زيد . وبادل الرسول نساؤه الوفاء ، حتى ان إحداهن وهي رملة بنت ابي سفيان منعت والدها ان يجلس على فراش الرسول ودعته الى الجلوس على الارض وهو مشرك ، فسر الرسول لهذا الوفاء وحلت رملة من نفسه محلا عزيزا .

1- العمري ، مهذب الروضة . ص 100

وعندما توفي ابراهيم عن ستة عشر شهرا او ثمانية عشر ، دمعت عينا الرسول وقال : تدمع العـين ويحـزَن القلب ، ولا نـقول الا مـا يرضي الرب ، وإنّا بك يا إبراهيم لمخزونون ، ومنع الرسول مارية وسائر اقارب الصبي عن البـكاء مع الصراخ لموت الصبي ، وقيل ان اسامة صرخ فنهاه الرسول ، فقال اسامة : رأيتك تبكي ! فقال الرسول : البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان . .[2]

وكان عليه السلام شديد الرفق بالفآت المستضعفة التي حررها الاسلام وكرمها بعد ان عاشت كاسلافها تحت القهر والبطش ، وحدث ذات مرة سباب بين ابي ذر الغفاري ورجل ، فعيره ابو ذر بأمه فشكاه الرجل الى الرسول الذي عاتب ابا ذر بقوله : أعَيّرته بأمه ؟! إنك امرؤ فيك جاهلية ! إنَّ خَدَمكم جعلهم الله تحت ايديكم ، فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما ياكل وليُلْبِسهُ مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتُمُوهم ما يغلبهم فأعينوهم . وليس من شان هذه الدراسة ان تخرج عن حدها المرسوم بالاسهاب في هذا الموضوع الذي كتب عنه الاقدمون والمحدثون ، فإن ما سُجل عن حياة الرسول في اسرته وبين ذويه ومعارفه الاقربين كثير . وذكرت هنا امثلة قليلة على سبيل التذكير ببعض الجوانب الاساسية من الشخصية النبوية في الاطار العائلي بوجه خاص .

النمـوذج المحـمدي

من أي جانب يمكن تناول النموذج المحمدي ؟ إن جوانب المثالية والتكامل والقدوة المُثلى لا تضبطها الصفحات والامثلة المحدودة . فمحمد الرسول له اسهام في مسالك الخير والحكمة العميقة والمبادرة ذات البعد الانساني الذي لا نهاية له .

نظر الرسول محمد الى الانسان في مظهره فرأى ان النظافة تجعل منه المومـن الصالح ، وهو في ذلك يستجيب قبل غيره لمبدإ سام في الاسلام قِوامه الغسل والوضوء والطهارة .

وفي تعامله مع العرب كان يختار لكل مجتمع لهجته ويخاطب بمصطلحاته الخاصة

2- ن . م . ص . 140 - 141 .

حتى يكون قريبا الى كلٌ منهم قلبا ولسانا وليعطي المثال للمسؤولين بعده فلا يضربوا بفصاحتهم في واد ، ويتركوا المحكومين في واد آخر .وبرور محمد الرسول عجيب بأسرته ومجتمعه ، وكان شديد الحض على الاحسان الى الوالدين والبر بهما ، فهو يريد مجتمعا متماسكا لأن المجتمع قوامه الأسرة والاسرة قوامها الوالدان ثم الابناء . جاء رجل الى الرسول يبايعه على الهجرة وترك والديه يبكيان فقال الرسول : ارجع اليها واضحِكهما كما ابكَيتهما !

حقا لقد فقد محمد والديه صبيا ولكن مرارة اليتم اذكت فيه الرغبة في تكريم اسرته وكل من يقصده ، وظلت الاسرة عنده خَليّة مقدسة حتى انه احدث بهذا الحنو على الاسرة بعض ما لم يكن مألوفا في المجتمع الجاهلي بل وحتى ما تركته مجتمعات متقدمة كالفرس والروم . قال رجل للرسول : مَنْ أبَرُّ ؟ قال : امك واباك واختك واخاك ، ومولاك الذي يلي . ذاك حق واجب وصلة موصولة . فالموالي والخدم كانوا احط الناس قيمة حتى رفع من شأنهم محمد الرسول ، والاسرة انحط شأنها في اوساط الفرس والروم التي افسدها التفرق والشذوذ الجنسي فاعادَ محمد النبي الى الذين دخلوا في عقيدته كرامة الاسرة وعلَّمَهم تكريم الوالدين والرأفة بالابناء وتكريم الموالي وصلة الرحم ، وفي ذلك يقول :

ان الله يوصيكم بامهاتكم ، ثم يوصيكم بامهاتكم ، ثم يوصيكم بآبائكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب .

ويقول : لايكون لأحدٍ ثلاث بنات او ثلاث اخوات فيحسن اليهن الا دخل الجنة .

وكان الرسول ببيته يجالس احد زعماء تميم " الاقرع بن حابس" فقبَّل الرسول حسن بن علي وهو صبي يدرج ، فقال حابس : ان لي عشرة من الولد ماقبلت منهم احدا ، فقال الرسول " من لا يَرحَم لا يُرْحَمْ !

وخدم أنس بن مالك الرسول عشر سنين فلم يتأفَّفْ منه الرسول قط ولم يسأله لمَ فعل شيئا أو لِمَ لَمْ يفعله .

وقالت عائشة عن الرسول : ما رأيت رسول الله (ص) منتصرا من مظلمة ظُلمها قط ، ما لم يكن حرمة من محارم الله ، وما ضرب بيده شيئا قط الا ان

يجاهد في سبيل الله ، وما ضرب خادما ولا امرأة [1]

عرفنا الرسول منذ صغره نموذجا للرجل الذي يكسب قوته بعرق جبينه ، فهوراع في صباه وتاجر في شبابه ، وهو أمين في تجارته وفي تعامله مع الجميع ، وكم كان وفيا لاصدقائه الذين وقفوا الى جانبه في المحنة ونالوا شرف صحبته وتحملوا الاذى من اجله وعقيدته ، ولقد صبر على البلوى بكل صنوفها من سب وسخرية وقذف بالحجارة وحصار وتجويع ورمي بالقاذورات واتهام بالسحر والجنون والكهانة والطمع المادي والطموح الى السلطة فوقف صلبا ثابتا حتى ادى الرسالة وهو عنها راض بعد رضا ربه .

لم يتوان الرسول محمد عن اداء تعاليم ربه ورسالته حتى آخر رمق من حياته ، ولم يقبل من العرب ان يعبدوا الاوثان ويتقربوا للاصنام وينفقوا من اجلها الاموال ويحتفلوا لها في المواسم ، فإذا دخل منهم فريق في الاسلام رفض كل تنازل في هذا الشأن وعمل على تحطيم الاصنام فورا ، وهو رَفَضَ تقديس الشخصية البشرية نفسها ونهى ان يُتَخَذ قبره مسجدا ، وحرم التصوير لما سبق شرحه من أسباب ، فالبشر متساوون لا يكرّمون الا لتقواهم ، ولا يتخذ من اشخاصهم معبودون فأحرى من رسومهم او تماثيلهم . ولقد كان للاجراء المحمدي اثر كبير على الكنائس التي قامت بها حركة معادية للصور الدينية حتى بلغت من الخطورة مبلغا .

كان محمد ثوريا بالمعنى السليم ، في حركته التصحيحية العالمية ، لقد جاء دينه بأشياء كثيرة جديدة في مبادئها غالبا وفي شكلها احيانا ، فقد وضع فكرة المساواة البشرية بشكل لم تعهده المجتمعات السابقة والتي عاصرته ، ونَصّ الدين على تعاليم جديدة في الطلاق والزواج والصوم والتجارة وسُبُل التعامل ، ونص القرآن على كتابة العهود والعقود وتوثيقها ، ولفت القرآن نظر الجميع الى آيات من الكون والحياة والطبيعة والنفس والانسانية ، وبالاجمال جاءت ثورة محمد لتلزم الناس بالتفقه في الدين ، هذا الدين الذي لم يعد صلاة ولا طقوسا فحسب كما الفته كل الأديان السالفة ، بل أنشأ شريعة واسعة للعمل اليومي وبناء الاسرة والصراع ضد الشر والموبقات.ومن اجل ذلك الزم محمد الناس ان

1- ما تقدم من الاحاديث ورد في الادب المفرد للبخاري ، والحديث الاخير في الشفاء .

يقرأوا ويكتبوا ، لان القرآن هكذا نزل ، ولان الحضارة التي انشا محمد اسسها انطبقت بسرعة من العلم والمعرفة ، وبدونهما لا تعرف حتى طقوس الاسلام وشعائره بكيفية دقيقة ، وان كان في الاسلام تسامح كبير في الممارسة .

وحيث ان محمدا هو ايضا رجل دولة فشخصيته بهذا الاعتبار تتكامل فيها الجوانب السياسية والادارية والعسكرية ، فمحمد السياسي يستخدم الحوار الحر مع الافراد والوفود ومع الذين يدعوهم الى اعتناق دينه ومبادئه ، والدين يرغب في ان يعايشهم سلما لا حربا . وهو سياسي في التخطيط الشامل للحكم ، فهو ينطلق من الشورى ولا يتصرف دكتاتورا ، ولم يتخذ المبادرة الفردية الا في حالات نادرة من غير نزول عند رأي الاغلبية كما فعل في معاهدة الحديبية،لانه نظر اليها وإلى ما فيها من تساهل في حق الطرف الاسلامي ، من زاوية بعيدة لم تقترب منها رؤية الاغلبية ، وهو مع هذا يتلقى الوحي بهذا الشأن بحيث يطبق تعاليم الهية أجِلَتْ معرفة خفاياها لوقت لاحق .

ومحمد السياسي لا يحتقر شعوباً ولا يهددها بالويل فان تصرف ولاتها بسوء نحو رسالته دعا عليهم وليس على شعوبهم البريئة .

ومحمد العسكري انما نال هذه الصفة مجاهدا ومقاوما للطغيان ودعاة الشرك والمستغلين للأديان السماوية لتقوية جاههم وتوسيع ثرواتهم ، ولذلك ينهى قادة السرايا ان يقاتلوا الذين لم يقاتلوهم ، وينهى عن قتل الشيخ والمرأة والصبي ، وهو بصفته القيادية لا يستنكف من الاستفادة من تجارب الآخرين في اتخاذ وسائلهم الحربية وفي وضع حد لطريقة الكر والفر التي كانت من الطرق الفوضوية في حروب الجاهلية ، وهو يستعين بالنساء في تمريض الجرحى وإسعافهم ، ومع هذا يعرف الحرب بالكمين ، والحرب النفسية ، ويتعرف على أخبار العدو من شتى الطرق وفي الوقت المناسب ، ولا يَكِل اسراره الا لمن يثق به .

ومحمد الإداري ينظم المراكز الحضرية والقروية ويطبق الرسالة السماوية بشأن الزكوات جِبَايَةً وتصريفاً ، ولا يختار للولاية إلا الاكفاء ويحاسبهم ويتتبع احوالهم ، ويفرق بين من مهمته عسكرية ومن له مهمة ارشادية عقائدية ومن له مسؤولية جبائية ، فاجتماع المسؤوليات كلها في يد واحدة تطغي صاحبها وتحوله الى الاستبداد والجور ، ولئن كانت

حالات نادرة جمعت فيها المسؤوليات فان من وكلت اليهم كانوا ندرة في كفاءتهم واهليتهم .

وانتصار الحزب المحمدي في كل الحالات لا يسمح بظلم أو عدوان على المغلوب ، ودخولُ الرسول الى مكة في تواضع جم بعد ان تجلى انتصاره على اكبر معقل للوثنية في الارض العربية،وعفوُه الذي شمل كل قريش وزعماءها يمثل اكرم الفضائل في شخصية هذا الرسول العظيم .

ولقد علم الرسول الناس ان يستميتوا من اجل العقيدة وان يستشهدوا دفاعا عن الشرف ، لكنه ليس شرف قبيلة ولا نسب ، انه شرف العقيدة والمبدأ ، وهو شرف يتجاوز المحيط الجغرافي والاجتماعي الضيق ، انه شرف الدفاع عن وحدانية الله ورسالة نبيه محمد ، واكبر الشعوب حضارة اليوم تدافع عن التراب أو القرمية في شكل من اشكالها ، اما هذا الشئ الذي جاء به الرسول محمد ليدافع الناس عنه ويستشهدوا عند الاقتضاء فان ترابه العالم كله ، وانه ليستند الى مبادئ يسع عدلها ورحمتها الناس جميعا ، ومن أجل ذلك الغيت القَبَليِّة ولم يعد لها اعتبار في تشريع الرسول محمد . ولقد أراد هذا الرسول الكبير القلب ان يجعل من المدينة نموذجا للمجتمع الذي تتعايش فيه العقائد والديانات السماوية وتمحي فيه الفوارق القبلية فآخى بين المهاجرين والانصار ، وتلك كانت خطوة بالغة الاهمية في مقدمات الوحدة الاسلامية ، وقد أتت هذه الوحدة أكلها في الحين وعلى طول السنين . اما اليهود فتخلوا عن عهودهم تلقائيا ، وتخلوا عن الانسجام الاجتماعي والتعامل مع عقيدة موازية لا تمسهم بسوء ولا تنال في شئ من اموالهم واقتصادهم ، فما كان عليهم من جزية ليس شيئا يذكر ، وعلى المسلمين اكثر منه في زكواتهم وصدقاتهم .

وحافظ محمد الانسان والرسول السياسي والعسكري على التزاماته ووعوده وعهوده ، طيلة حياته ، فقد كان يغضب اذا جرأ غيره على خرق عهد التزم به ، وكان يغضب اذا وفى بعهد وخرقه المعاهد له ، ولذلك نجد بصمات الرسول ووفاءه ينعكس بوضوح على التزامات خلفائه وصحابته وخصوصا من تحمل من هؤلاء مسؤوليات قيادته . وعهود الصلح لم يكن يقبلها الا مكتوبة ومختومة ، فقد ولّى عهد الالتزام الشفوي الذي كان من سِمَات القبائل العربية ونهى عنه القرآن .

كان محمد الرسول رجل نظام ومجتمع ، فانتماؤه القرشي والعربي يختفي كليا في أسرته ومحيطه الصحابي وتعييناته للولاة والعمال ، فقد حلَّ المُسلم محل القرشي والعربي : لِيَكُنْ مولى من اصل مجهول ، وليكن حبشيا أو روميا او فارسيا وليكن غنيا أو فقيرا ، فكفاءته تعد بعمق دينه ومعرفته لهذا الدين . ولقد بقي العرب كثرة في المسؤوليات بعد الرسول لا لأنهم عرب ، ولكن لمعرفتهم بتعاليم الاسلام ولغة القرآن اكثر من غيرهم فلما انتشر الاسلام اصبحوا شعبا من شعوب الاسلام ليس اكثر .

ولم يكد محمد الرسول يلتحق بربه حتى كان قد كَوَّنَ مآت الأطر القاعدية والقيادية في كل المجالات التي يحتاج اليها الاسلام في عصره ، وبعده لفترة غير قصيرة ، فالذين تكونوا على يده و هم الذين تابعوا نشر الاسلام واعادوا المرتدين الى رشدهم واقتبسوا من هديه في الاجتهاد القضائي وأعطوا للادارة في بقعة شاسعة من العلَم وفي امد قصير طابع الرسالة المحمدية واعادوا توزيع الثورات بشكل اعدل .

لم يكن احد غير محمد ، ولن يكون ، بقادر على ان يحقق كل هذه المُنْجَزات الرائعة والغنية في تعددها ومَنَاحِيها . لقد كان بحق ، رسول الله وخاتم النبيئين .

الفصل الثاني

تطبيق الاسلام في المجتمع المحمـدي

دور القرآن ومنزلته بين الكتب السماوية

تَنْبني جميع التنظيمات السياسية والعقائدية الاساسية عَبْرَ أزمنة التاريخ على مصادر معينة تستمد منها تعاليمها واساليبها في العمل ، وكثيرا ما تتضمن هذه المصادر معلومات عن اوضاع الشعوب التي خصصت لها ، ومن ثم فهي تعكس بصورة او بأخرى درجة الوعي الحضاري او درجة التخلف ، لدى هذه الشعوب ، ومن بين المصادر المكتوبة :

1- كتاب فيدا Véda الذي يتناول الشريعة الفيدية الهندية ويعالج فُتوى الطبيعة كمعبودات لاصحاب هذه الديانة ، ولا يعرف له تحديد زمني ، وهو من الاصول الاساسية للبراهمانية التي تمتد عدة قرون قبل الميلاد وتؤمن بوجود حياة اخروية .

2- كتاب أبِستا Avesta لزرادشت Zarathoustra الذي ظهر حوالي القرن 7 ق م مع اختلاف كبير في تحديد زمنه ، ويدعو الى الاعتقاد بقوتين تتحكمان في العالم ، وهما الخير والشر ، وبوجود اله علوي . والزاردشتية تؤمن بالآخرة حيث الحساب والصراط المستقيم ، مما جعل احمد امين يشبه تعاليم الاسلام فيما يخص هذا الجانب ، بتعاليم زرادشت ، والحق أن الديانات السماوية القديمة كديانة نوح وابراهيم اسبق من زرادشت في تناول الحياة الاخرى.و قد اكتسحت الزاردشتية فارس،وعامل الاسلام معتنقيها معاملة اهل الكتاب .

3- الكونفوشية ، نسبة الى كونْفُوسْيوس Confucius (551 - 479 ق . م)

وهي ليست تعاليم دينية ، بل اخلاقية وسياسية ، تهتم بالحاضر اكثر ما تهتم بالماضي والمستقبل ، وتنظم العلاقات الاجتماعية والادارية ، وتدعو الى العلم ، وقد اثرت تاثيرا كبيرا في تكييف المجتمع الصيني حتى يومنا هذا .

4- مدونة جوستنيان الاول (527 - 565 م) وهو من اعظم اباطرة البيزنطيين ، وقد وضعت هذه المدونة على يد مجموعة من رجال القانون البارزين في عهده ، لتقدم للمجتمع البيزنطي تشريعا دقيقا يتناول المعاملات والجوانب المالية والاجتماعية والاقتصادية .

ولا يزال للاديولوجيات حتى عصرنا هذا مصادر مكتوبة لا يمكن معرفة تفاصيل تلك الاديولوجيات الا بها ، ومن ذلك ما كتب لمي الاشتراكية والماركسية والماوية .

اما الكتب السماوية فهي تتضمن تعاليم الهية يلقّنها الرُسل وحيا فيبلغونها للمومنين الذين يتولى بعضهم او بعض اعقابهم تدوينها ، ومن بين الرُسُل الذين لهم صحف او كتب ، نوح وسليمان وابراهيم ، ولكن الكتب السماوية التي حفظت نصوصها بصور مختلفة هي التوراة والانجيل والقرآن ، غير ان القرآن تميز بكونه النص الكامل الوحيد الذي لم يختلف فيه الرواة وكتاب الوحي المباشرون ، واختلاف القراءات شكلي لا يمس الأصل أو المعنى في شيئ .

وتمت عملية التجميع النهائي للقرآن في عهد الخليفة عثمان بعد مُضِيّ أقل من 15 سنة على وفاة الرسول (ص) ، واثر عملية مقارنة دقيقة وفاحصة لمختلف الروايات الموثوق بها فضلا عن الرجوع الى ما سجل في عهد ابي بكر .

واشتمل القرآن على :

1- العبادات من صلاة وحج وصيام وزكاة وغير ذلك .

2- المعاملات من بيوع والتزامات وغيرها مما يتناول احكام الشريعة في غير العبادات .

3- اخبار الانبياء والشعوب الماضية والمعاصرة .

4- معلومات علمية كالتي تتعلق بالكون والكواكب .

وليس للقرآن في صورته الّتي وصلتنا ترتيب زمني او مكاني او موضوعي ، بل هو مجموع بالطريقة التي قررها النبي عليه السلام والتي تتشابه من حيث عدم خضوعها لأساس معين ، مع طريقة سرد تفاصيل العهدين القديم والجديد اي التوراة والانجيل ، وان كان هذان يتميزان بترتيب زمني على كل حال بالرغم من ان اشياء كثيرة تتكرر فيهما عدة مرات ، ومهما يكن من امر ، فان القرآن قد اوحي اصلا ، حسب الوقائع والاحداث

خلال فترة اثنين وعشرين سنة منذ البعثة المحمدية .

والقرآن هو الركيزة الاولى التي بني عليها الاسلام ، ولولاه لما نشأت الحضارة الاسلامية وازدهرت في غابر القرون ، ولا يمكن تصور حضارة اسلامية حديثة دون الاستقاء من اسراره والاهتداء باحكامه ، فتوجيهاته التي تَنْفُذُ الى اعماق المشاعر الانسانية ، وأشاراته العلمية التي زكتها كل الاكتشافات والدراسات العلمية الحديثة ، ومعلوماته الدقيقة عن احداث اوردها وعززتها الاكتشافات الاثرية (ديارثمود ، اهل الكهف الخ ...) كل أولئك احل القرآن قديما وحديثا ، منزلة عظيمة في نفوس الدارسين مسلمين وغير مسلمين . غير أن الاسلام الذي استلهم من القرآن سلوكه وانظمته عبر التاريخ انما ظهر بعد ان مر على الديانة الموسوية ما يزيد عن الفي عام ، وعلى المسيحية ما يتجاوز ستة قرون . والقرآن كالاسلام ، لم يات ليُلْغِي بجرة قلم كل العادات والتقاليد والانظمة الاجتماعية والاقتصادية الماضية ، لينقل العرب والشعوب المجاورة لهم ، إلى عقيدة تختلف من الالف الى الياء عن كل ما مضى وما سيأتي، فهناك :

1- ميراث الشعوب الماضية ، مثلما هو الشان في التنظيمات العسكرية لدى البيزنطيين (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كانهم بنيان مرصوص) ، فقد اخذ العرب طريقة تقسيم الجيش الى ميمنة وميسرة ، ومقدمة ومؤخرة وقلب ؛ عن البيزنطيين، بعد ان كانوا يقاتلون بطريقة الفر والكر، او بالطريقة الفردية بما فيها المبارزة .

2- ما وجد عند العرب وابقى عليه الاسلام ، كقطع يد السارق .

3- ما صلح لفترة معينة وظروف اجتماعية معينة كتحديد نظام الرق وتعدد الزوجات وكلاهما كان موجودا عند المجتمعات التي دخلت الاسلام .

4- ما يُعْتبر نظاما خاصا بالاسلام من حيث التفاصيل والجوهر كالزكاة وطريقة الصيام ، او من حيث المبدا ، كتحريم الربا بتاتا وجواز الطلاق بشروط محدّدة .

وحيث ان ظهور محمد عليه السلام قد احدث ردود فعل شديدة بل مجابهات حقيقية بين الاسلام عن جهة ، والمسيحية واليهودية من جهة أخرى ، وان القرآن تحدث بشكل صريح عن تحريف الانجيل والتوراة ، وبالتالي تحريف عدد من التعاليم التي تضمنتها المسيحية والموسوية ، فإن المقام يقتضي عرضا موجزا للتوراة والانجيل وبعض التعاليم الزرداشتية مع مقارنة تحليلية حتى يتأكد مدى اهمية التاثير الذي احدثه كل منها ومدى اصالة تعاليم القرآن بوجه خاص :

التـــوراة

تعترف العصبة الكاثوليكية التي نشرت سنة 1951 م إحدى اكمل نشرات الكتاب المقدس (التوراة والانجيل) ان هذا الكتاب لم ينزل كله وحيا ، بل كتبه كما تقول المقدمة [1] ، اشخاص غمرهم النور الخارق لروح المقدس .

كذلك تنسب التقاليد اليهودية والمسيحية ، حسب المقدمة [2] الى موسى إنه الى جانب دوره كمشرع،له دور في تحرير صحائف التوراة لكن دون أن تزعم هذه التقاليد في أية حال ان كل شئ فيه من عمل موسى .

وتبدأ التوراة بالحديث عن خلق الله للارض والسماوات وما على الارض من وحوش ونبات وجماد ، وانه استراح بعدَ ذلك . وقد رد في القرآن اكثر من مرة : " استوى على العرش" ولكن لا يفسر الاستواء بالراحة قط .

وتقول التوراة ان الانسان من الارض خُلق ، ثم ان الله خَلَق جنة عدن بالمشرق ، وحرم على آدم ان ياكل من شجرة معينة ، ثم خلق من الارض الحيوانات الداجنة ، ثم المرأة من صلب الرجل ، ثم اولاد آدم منهُما ، ومن نسلهما نوح الذي تقول التوراة انه غرس الكرم وصنع الخَمْر ، فسكر ثم تعرى ، وعندئذ اخبر ابنه حام أخويه سام ويافث بالحادث ، فَعَمَدَ هذان الى سَتره دون ان يرفعا بصرهما ، وهكذا دعا نوح على كنعان بن حام حتى اصبح عبداً ليافث . وعاش نوح 950 عام .

ثم يَرِد تفصيلٌ لِسلالة نوح ، ثم الحديث عن ابراهيم الخليل وهجرته من ما بين النهرين الى الَشام ومصر .

وعندما يبدأ الحديث عن النبي يوسف ، تتسع التفاصيل عن اصول بني اسرائيل ، فقد وعد يوسف إخْوَته ، بالمقام بارض كنعان ، أي فلسطين ، وابتداء من هذه المرحلة ، يتكرر الكلام عن الارض الموعودة بشكل يثير الاهتمام . حتى اذا بلغت التوراة الكلام عن موسى نرى هذا النبي يشكو كما ورد في القرآن ايضا ، عقدة لسانه ، ويدعو اخاه هرون الى مشاطرته اعباءه ، ثم تاتي تفاصيل عن عصا موسى ومعجزاتها وما وقع من تحديات فرعون ، وعندما اراد موسى ان يجتاز البحر الاحمر بقومه المومنين ، إلى سيناء،اشار بعصاه ، فجاءت ريح شرقية قوية ، ودفعت بالبحر بعيدا فجف ، وهناك اجتاز المومنون اليابسة ، دون ان تشير التوراة هنا الى مصير فرعون بل تتحدث عن مصير جيشه .

1- Ligue Catholique ... La bible , p XXVIII

2- OP . Cit , P , I

واختص القرآن بذكر ان موسى عندما ضرب بعصاه البحر ، انفلق اثني عشر طريقا ، كما تحدث عن غرق فرعون وانتشال جثته : «فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية» ، ويقول بعض المحدثين (بفتح الدال) ان المقصود هو تُوتْ عَنْخَ أمون الذي حفظت جثته بالتحنيط .

وعندما يلتقي موسى بشعيب ، النبي الصالح ، في مدين ، يسجد له تعظيما ، وقد تحدث القرآن عن سجود الملائكة لآدم ، وسجود إخوة يوسف له ، وخصص السجود لله في الاسلام بعد ان كان الساميون يسجدون لقوى الطبيعة ، وفي القرآن : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن » .

ثم تورد التوراة مجموعة من التعاليم كالنهي عن السرقة والزنا والكذب وقتل النفس ، وتدعو الى تحرير الرقيق في السنة السابعة من شرائه ان كان عبرانيا . ووقع الالحاح بشأن الشعب العبراني مرارا لتمييزه في القوانين وفي الافضلية عن باقي الشعوب ، وهذا ما لا يوجد في القرآن ولا في الانجيل .

ومن تعاليم التوراة ان يباح للانسان بيع ابنته ، وإن يقتل السارق،والمعتدي بالضرب على والديه ، وان يطبق القصاص : فالسّن بالسّن ، والاذن بالاذن ، والعين بالعين ، كما في القرآن ، ومن كسر سن خادمه او اتلفه اعتقه .

والثور يرجم إذا نطح رجلا او امراة ، ولا يؤكل لحمه في هذه الحالة . ومن سرق ثورا فذبحه او باعه عوضه بخمسة ، فان كان كبشا عوضه باربعة . ومن رعى في ارض غيره اعطى احسن ارضه عوضا ، ومن ضاجع بكرا تزوج بها واصدقها ، فان رفض ابوه تزويجه منها اصدقها المثل ، وتوصي التوراة خيرا باليتيم والأرملة ، وفي ذلك تتّحد الكتب السماوية .

ولا توخذ فائدة على سلف من عبراني . ولكن الموسوية فتحت باب المرابة على مصْرَاعَيْه لكل الشعوب .

كذلك توصي التوراة بعدم قبول الهدية وعدم قهر الغرباء ، وبعد ان تتناول شعائر الصلاة وغيرها تنتقل الى موقف طائفة اليهود الذين طلبوا ان يصنع لهم موسى الها ، وبعد ان حاول موسى صَدّهُم اشتطوا في الطلب ، فقام هرون يجمع الذهب من الاسر اليهودية ويسكبه عجلا ، فغضب الله عليهم وقال لموسى :« الآن ذرني فليتقدّ

عليهم غضبي»، وبعد ان استعطف موسى ربه وذكره بوعده لابراهيم واسحق واسرائيل وهو ان يعطيهم ارض كنعان التي سيملكونها الى الابد ، ندم الله (تعالى) على ما كان قد اعلن من سوء يلحقه بشعبه !

وإنه لغريب ان ينسب الندم الى الله ، لان الندم يقتضي تأرجُح التدابير الالهية بين الصواب والخطأ ، ويجردها من الارادة الثابتة .

وتلح التوراة في احترام يوم السبت كعطلة ، وتنص على ان يعاقب بالقتل من اشتغل هذا اليوم .

ولما كان قد تعين بناء بيت القربان فلا بد من تقديم القرابين والتحف الفنية اليه ، وحيث ان هذه التحف من ضمن الشعائر اليهودية فقد اكْتَسَبَت اليهود عبْر القرون مهارة خاصة في صياغة الذهب والفضة ونحت الحجر والمصنوعات الخشبية وغير ذلك .

وتنتقل التوراة مرة اخرى الى عدد من تشريعات العبادات والقوانين الجنائية كالقصاص والاضحية والفصح ورجم الزاني والزانية كما هو الحال في القرآن ، وتنص التوراة صراحة على آن الربا يوخَذُ من الاجنبي لا العبراني . وبالنسبة للطلاق ، فان عقد الطلاق يكتبه الزوج ويسلمه مباشرة لزوجته . وسنت التوراة الختان كما هو الشان في الاسلام ، واعتبرت ان الله رب العالمين واليه المصير ، وهي تغري المومن بان يطمع في عفو الله ورحمته ، وهنا يقوم القرآن بدور اكبر وأشمل .

والخمر مباح بصورة شبه مباشرة ، لكن احيانا يعتبر شارب الخمر غير عاقل واحيانا تقول التوراة : الخمر الجديد كالصديق الجديد ، إذا عتَّقته شربته بلذة ، وبالمقابل تكتفي حِكَم سليمان الداخلة في صحائف العَهْد القديم ، بالتحذير من عواقب الخمر ، اما القرآن فقد حرم الخمر بتاتا ، وقد اكدت التجارب العلمية الحديثة علاقته بالسرطان ، فضلا عن اخطاره المحققة في الميدان الاقتصادي والاجتماعي (تخريب الاسر ، ضعف النسل ، ضعف المردود ، الخ ...) .

وتكثر النصائح حول التعقل والحذر ، وهما صفتان تطبعان بشكل عميق سلوك ونفسية الانسان العبراني منذ احقاب بعيدة .

كذلك تنادي التوراة كالقرآن ، بإكرام الوالدين ، وبينما تتفق مع الانجيل في ان الله

لم يخلق الموت بل خلق الحياة ، وأنه لا يُسَرُّ بهلاك الاحياء ، فان القرآن يؤكد دور الانسان في الحياة الاخرى ، بصفته مسؤولا عن كل تصرفاته الدنيوية : « **وهو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا .** »

ويعود العهد القديم ليندد بمواليد الزنا وعبادة الاصنام ، ويذكّر باستمرار بالهجرة الى سيناء ويهتم بالفقراء ويبارك الزواج ويلح في عدم تضييع حقوق الصداقة ويقدر قيمة الطب والاطباء ويدعو الى كتابة البيوع كما هو الشان في القرآن الذي يلح اكثر من مرة في العمل الكتابي لانه وجد العرب حفاظا ورواة يعتمدون على شرف الكلمة الشفوية .

ويتناول كتاب النبوؤات قصص الانبياء وهجوم الاشوريين والبابليين على فلسطين والخلاص منهم ، ويعكس العهد القديم حزن العبرانيين وغضبهم المستمر على مصر وعدد من الشعوب الاخرى ، كما يتناول مَنْفَاهُم مرةً مرة ، ويندد بالوثنية في عدة مناسبات .

الانـــاجيـــــل

تتداول الاوساط المسيحية اربعة اناجيل كتبها فيما بين 50 م و100 م القدّيسون : مَتّى ومَرْقُص ولوقا ويُوحَنّا ، وتتشابه الثلاثة الاولى منها حيث تقول المراجع المتاخرة انها استندت على ما يظهر الى نفس النص ، وكيفما كان الامر فهذه الاناجيل لم تحرر الا بعد موت عيسى وطيلة مدة اقصاها سبعون سنة .

ويلحق بهذه الاناجيل ، اعمال الرُّسُل التي تضمنتها 22 رسالة ، احداها تنسب الى لوقا ، و14 الى بُولُس الذي قام بدور كبير في التبشير بالمسيحية بعد عيسى في انحاء الامبراطورية الرومانية .

ولما كان انجيل يوحنا يكاد يقتصر على المواعظ والمحاورة بين عيسى وعدد من اتباعه وخصومه ، وأن الاناجيل الاخرى تتشابه كما اشير الى ذلك سابقا ، فلتقتصر على تحليل انجيل متى من بينها ، وهو يبدأ بتفصيل شجرة النسب الخاصة بعيسى ويتحدث عن مولده من مريم العذراء وهي خطيبة رجل اسمه يوسف .

ويبدأ عيسى اتصاله بالجماهير من طريق معالجة المرضى وذوي العاهات . وقد ورد عنه في القرآن : «**ويبرئ الاكمة والابرص ويحيي الموتى باذن الله**» .

وبسبب هذه المعجزة يومن به عدد كبير من الفقراء والمشردين . ولم يكن عيسى يدعي انه جاء ليمحو تعاليم الانبياء الماضين ، بل ينادي بانه جاء ليتممها . وتتفق تعاليم عيسى مع الموسوية في تحريم الطلاق ، ومعها ومع الاسلام في تحريم الزنا وفي العمل بالقصاص ، ثم يبني تعاليمه على المحبة وعدم مقابلة الإهانة بمثلها : من لطمك على خدك الايمن فأدرْ له خدك الايسر ، وهذا الشق من التعاليم يناقض القصاص .

ويدعو عيسى الى الاحسان والصلاة ، أي الدعاء لله من اجل استنزال رحمته ومغفرته ، وينهى عن تكديس الثروات ويدعو الى الصدقة . وعندما يتولى علاج المكفوفين وذوي العاهات ، يدعو الحَوَاريّين الى القيام بنفس العمل ، ومن ثَمَّ نجد المبشرين والرهبان عبر العصور يهتمون بعلاج المرضى ويتخذونه طريقة لتنصير الشعوب الوثنية .

ويخاطب عيسى قومه : " لا تعتقدوا انني جئت احمل السلام الى الأرض ، اني لم آت لاحمل السلام بل السيف ، لقد جئت لأفرق بين المرء وأبيه ، وبين البنت وأمها ، وهو يشير بهذا إلى ما سيحدث من انقسام في الاسر والشعوب بسبب المسيحية ، كما تنبأ بان كثيرين بعده سيدّعون النبوة أو يزعمون انهم المسيح المنتظر ، وستقع حروب ، ويعذب المؤمنون ، وعندما يعم الانجيل العالم فستكون نهاية الكون . ومن علامات الساعة كسوف الشمس وخسوف القمر وأفول النجوم .

وأخيرا تردُ قصة نهاية عيسى . فحسب هذه الأناجيل تَمَّ قتله بغدر من احد الحواريين الاثني عشر ، وهو يهوذا الإسْخَرْيوطي . وكانت فلسطين تحت حكم الرومان ، وقائدهم بها بيلاط PILATE . وكانت الوثنية ضاربة الجذور في الاوساط الرومانية ، وهكذا تم صلب عيسى حسب الاناجيل ، على مشهد من سلطات الرومان واليهود والحاقدين ، وتقرر ان يخصص لقبره حراس حتى لا تسرق جثته ، وكان عيسى قد تنبأ أنه سيبعث حيا بعد ثلاثة أيام من دفنه ، ولذلك وجد قبره فارغا مع وجود حراسة ، ثم لقي عيسى النساء في الطريق فقال لهن : قُلْنَ لاخواني انني سألقاهم في الطريق . وقبض الحراس رشوة من اعداء عيسى ليقولوا (اي الحراس) ان تلاميذه هم الذين سرقوا جثته ، وعند جبل بالجليل ، خاطب عيسى حوارييه الاحد عشر بانه اعطي سُلطانا بالسماء وعلى الارض . ثم طلب منهم ان ينشروا المسيحية في العالم لانه سيظل معهم الى نهاية الكون .

وهناك انجيل بَرْنَابَا الذي هو احد الحواريين والضليعين في تعاليم المسيحية ، وانجيله هذا حاربته الكنيسة عبر القرون وأعدمت نسخه،وعثر على نسخة من نصه العربي في أوائل القرن 18 م في جو مسيحي خالص كما ذكر الشيخ ابو زهرة في محاضراته عن النصرانية ، وتناول هذا الانجيل اشياء هامة لم تذكرها الاناجيل الاخرى كتجريد عيسى من صفة الالوهية ، وتبشيره مراراً بنبوة محمد وعدم صلب عيسى بل قتل آخر يشبهه ، وقد نشر هذا الانجيل مع مقدمة نقدية لانطوان سعادة واخرى لمحمد رشيد رضا . وينكر رجال الدين المسيحيون وجود انجيل برنابا .

تعـاليـم زرادشـت

سبق الحديث عن زرادشت وكتابه أبِسْتا في اول هذا الفصل . وحسب زرادشت ، فان الاله (هرمزد) خلق بالتتابع ، السماء والماء والارض والاشجار والحيوانات والبشر ، وعند نهاية الكون يبعث الموتى ويعودون الى الايمان الصحيح الذي يمكنهم من الخلود والسعادة ، ومن التزم هذا الطريق جنب عذاب جهنم الذي هو ظرفيٌّ في كل حال .

وقسمت الابستا المجتمع الى ثلاثة اصناف او طوائف : الكهنة والمحاربون والفلاحون الذين فصّل عنهم الصناعَ فاصبحوا طبقة على حدة ، والحفلات الدينية كثيرة . ولا بد من حضور الكاهن في كل منها،وتعتبر الزرادُشْتية رجساً : مَسَّ الجثة ومواقعة بَغى أو امراة حامل او من دين آخر ، كما يُعَدُّ من الرجس ، الكذب والخديعة وضرب الغير أو قتل انسانٍ أو حيوانٍ . والطهارة من ذلك تكون ببول البقرة خاصة ، وبقتل الضفادع والنمل ، وبالضرب بالسوط أو الوخزِ بالإبرة ، أو بأداء دعيرة أو هدية لكاهن أو غيره الخ [1] .

واصبحت الزرادشتية دينَ الدولة الايرانية منذ القرن 3 م ثم وازَتْهَا او انفصلت عنها طوائف ذات عقائد مستحدثة الى ظهور الإسلام .

وهكذا فان التعاليم السماوية والمقاربة لها من بعض الوجوه تُتَمِّمُهَا تعاليم الرسل انفسهم او الدعاة المتعاقبين . وإذا كان القرآن قد تُمِّمَتْ تعاليمه بالاحاديث النبوية مثلما هو الشأن في شروح الآحبار بالنسبة للعهد القديم،واعمال الرّسل بالنسبة للعهد الجديد،فان

1- Julien Vinson, les religions actuelles , PP, 237 , 239 , 240 - 244

الذي يهمنا بالذات هو معرفة مدى الدور الذي ادته كل من الكتب الاساسية :

1- التوراة عملت على الحفاظ على شخصية الشعب العبراني من الوجهة الدينية . أما من الوجهة القومية فان هجرة افواج هذا المجتمع الى مختلف اقطار العالم أبعدته عن الوحدة القومية الاصيلة .

2- تتميز التوراة بتضمُّنها للعديد من الحكم المنسوبة الى الانبياء.واسلوب العهد القديم في جملته رائع يتسم بالحزن وروح الاصرار على رِبْح المستقبل . ومن الواضح ان الدراسات التي انْبَنَتْ على التوراة في الاوساط اليهودية قد ادت للمعرفة خدمة لا تنكر ، لا سيما في الادب والطب والفلسفة ، وهذا في الوقت الذي لا تتضمن فيه التوراة من الافكار العلمية ما في القرآن .

3- ان دور التشريع ضعيف في كل من العهدين القديم والجديد اذا ما قيس بدور القرآن الذي لا يكاد يوجد ميدان يرتبط بالمعاملات لم يرد فيه نص مهما كان غير شامل .

4- ان تعاليم زرادشت بالرغم من كونها تدعو الى الايمان بالله وبالبعث فهي تتخذ من الكَهَنَة محوراً تدور حوله كل حركة يقوم بها المومن . وهي لا تخلو من المؤثرات الوثنية التي يحط بعضها من العقلية الانسانية .

5- ان الانجيل او الاناجيل المتداولة لا تتضمن سوى نشاط عيسى في التبشير ومواعظة ومعجزاته ، ما عدا القليل جدا من التعاليم التي تهم الحياة اليومية ، وكلها دعوة الى المحبة والسلام ، وان لم تحترم نصوصها في الاوساط المسيحية على الدوام لاسباب مختلفة خصوصا السياسية منها .

6- ان القرآن هو مصدر جميع العلوم التي انبَنتْ عليها الحضارة الاسلامية ، بينماارتكزت المسيحية على اللاتينية والاغريقية ، وفي احسن الحالات عن طريق اعمال العرب والمسلمين او ترجماتهم عن الاغريقية .

7- ان التاثير العبراني في الحضارة العالمية ضعيف بالقياس الى التاثير الاسلامي ، اعتبارا لكل من القرآن والتوراة مصدرا حضاريا عالميا .

8- يتميز القرآن بعمق الاسلوب وسَبْرِ أغوار النفس الانسانية ، ويقترب من الحياة الواقعية اكثر مما يلاحظ في الانجيل والتوراة اللذين تغلب عليهما الروح العاطفية والتشَبُّث بمبادئ محدودة تتكرر غالبا ولا تشمل آفاق الحياة .

ومن ناحية اخرى يميل القرآن الى تحديد مسؤولة الانسان في الحياة الدنيا واعتبار هذه المسؤولية سُلّماً الى حياة نهائية هي الحياة الاخرى ، وهذه المسؤولية خاضعة لمحاسبة دقيقة في حياة الدار الاخرى حيث توجد عقوبات فظيعة يصورها القرآن بصور مختلفة لا سيما عقوبة الاحراق بالنار ، وهكذا فجهنم وعذابها يأخذان حيزا كبيرا في القرآن تاكيداً لمسؤولية الانسان الدنيوية ، وبمعنى آخر فإذا كان الانسان يخضع لسلطة قاهرة في جميع الانظمة الدنيوية ، فثمت سلطة قاهرة اعلى تحاسب الظالمين من جميع الحيثيات وتعاقبهم كما تعاقب المسرفين في ذنوبهم ، ونحن لا نجد في التوراة والانجيل هذا الاهتمام الملح بمصير الانسان في الآخرة ، ولا بتصوير هذا المصير تارة في شكل قاتم ، وطورا في صورة جذابة واعدة بالنعيم الابدي والمقام في جنة الخلد ، حسب نتائج الحساب الاخروي . ومن الاكيد ان هذا انذار لجميع الحضارات المادية التي حتى مع خضوعها لقوانين وانظمة وضعية دقيقة فانها لاتطبق العدل ولا تُعنى بالكرامة الانسانية الا حسب الظروف ولا تضمن في أوج رقيها تلك الطمانينة النفسية التي بحث عنها الانسان ولايزال في ظلمات حياته .

ومن الاكيد ان القرآن والتوراة والانجيل ، بقطع النظر عن دوْر الانسان في تحرير هذا او ذاك منها ، فهي تلتقي كلها في محاولة العمل على التخفيف من شرور البشرية وآلامها .

واما بالنسبة لمسايرة هذه الكتب السماوية لعوامل التطور والزمن فلذلك مقام آخر غير هذا .

التطور الاجتماعي

أصبح للأسرة في المجتمع العربي المسلم دور يفوق ما كان لها في الجاهلية ، وفي العهد النبوي ما يزال المجتمع الاسلامي كله عربيا او يكاد ، الا ان التزاوج بين العرب وغيرهم من المسلمين أصبح أكثر شيوعاً ، فلم يعد ينظر الى العرب كعنصر افضل من غيره كما كان يظن العرب انفسهم بل اخذت الوحدة الاسلامية مكان القومية . إن التصنيف القبلي لم يختف ، بل استمر مكانه باعتبار ان القبائل مجتمعات محلية تشترك

في تقاليد وانماط من الحياة خاصة بكل منها ، وحل الايمان والتقوى والعلم بالدين محل اية افضلية اخرى بين المومنين ، فالرؤوس الجبارة والمتعالية التي كانت تنظر الى الآخرين من عَلُ ، تَطامنت وقل لجوؤها الى التفاخر بالاحساب تدريجيا . والحزب القرشي لم يعد يحظى الا بتكريم معنوي ولم تعد له تلك السلطة السياسية والدينية القوية التي كانت له حتى فتح مكة .

وراجع العرب سياستهم مُكْرهين او طائعين بشان الرقيق والموالي . وقد تحدث ابو مسعود حسبما اورده مسلم بقوله : كنت اضرب غلاما لي فسمعت من خلفي صوتا : اعلم يا ابا مسعود ، الله اقدر منك عليه . فالتفت فاذا هو رسول الله (ص) ، قلت، يا رسول الله ، فهو حر لوجه الله ، فقال : أما إنْ لو لم تفعل لمسّتك النار ،

ورای الرسول رجلا يلطم جارية فامره ان يعتقها .

وروى الفارسي زادان قال : كنا عند ابن عمر ، فدعا بغلام له كان ضربه فكشف عن ظهره فقال : ايوجعك ؟ قال لا . فأعتقه ، ثم رفع عودا من الارض وقال : ما لي فيه من الأجر ما يزن هذا العود ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن لِمَ تقول هذا ؟ قال : سمعت النبي (ص) يقول : من ضرب مملوكه حدا لم ياته او لطم وجهه فكفارته ان يعتقه .

ومن هذه النماذج شيئ كثير في كتب الحديث النبوي .

وحددت مسؤولية الرجل في الاسرة من حيث النفقة والرعاية والحماية . وهذه المسؤولية اصبحت قانونا ، بل شريعة بعد ان كانت عرفا وتخضع للميز ، لان الرقيق والإماء محرومون في العصر الجاهلي من العطف والرعاية . وهكذا اصبح قطع الرحم وعقوق الوالدين وشتمهما من الكبائر ، وكان الجاهليون يقطعون ارحامهم فتعلموا بعد الاسلام كيف يحافظون على علاقات الاحترام والبر بالوالدين . ووضعت الام في درجة اولى من حيث التكريم والرعاية والبر ، وفي ذلك يقول الرسول : ان الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بامهاتكم ، ثم يوصيكم بآبائكم ، ثم يوصيكم بالاقرب فالأقرب .

والرسول اذا تكلم فلحادث طرأ . واعتاد زوار النبي ومن يزورهم ، أن يسألوه عن كثير من جوانب العلاقات العائلية والاجتماعية فيجيب بمثل هذا الحديث . وهكذا فلم تكن العلاقات مجرد اخلاق تضاف الى مكارم العرب القديمة ، بل شريعة تنطلق من القرآن

وتفصلها السنة ، وهي مع ذلك سلوك يلمس في النبي ، وبفضله يلمس في صحابته والاطارات التي تكونت على يده .

وأشعر القرآن العرب بان كرمهم او صدقاتهم لم تعد مِنة ولا تبرعا،بل واجبا ، بل ركنا من الاسلام ، فهذه الاشتراكية المنظمة بنص سماوي وتوضيحات نبوية،لا تحطم المجهود الشخصي للانسان ، بل تترك له مجالا كبيرا للتصرف في معظم ماله ، لكن الامة اذا احتاجت الى مساهمة اضافية يبررها الصالح العام فليس للفرد ان يتنصل ولو ادى الزكاة ، وهذا مادافع عنه ابو ذر باستماتة ، وما كان عملا مسبوقا في العهد النبوي حيث دعا الرسول الاغنياء في غزوة تبوك الى التبرع باكثر ما يمكن من اموالهم . ووضعت فكرة الاحسان ، لا مِنّة يرفضها الاسلام شكلا ومبدءا ، بل تكافلا حقيقيا بين المومنين . وقد كان العرب بحق ، يتباهون بالكرم ، ولكن الكرم كان لمن يطرُقُ بابهم ، واما الاحسان فافضله لِمن لا يسألون الناس الحافا ، فالمحسن هو الذي يطرق ابواب الاخرين ليحسن اليهم ، وكذلك كان يفعل الرسول ، وعلى سنته سار صحابته ومعاصروه . وحقا كان في العرب من يقوم بقليل من الاعمال الاجتماعية ذات المصلحة العامة تطوعا ، كحفر بئر أو تمهيد طريق او اطعام وإيواء الغرباء ، ولكن ذلك كان بدافع من غريزة قوية لدى بعضهم دون البعض ، وهي غريزة التعاون ، اما العصر النبوي فادخل المصلحة العامة في دائرة الاعمال الاساسية التي يتولاها ولي الامر بالمنطقة ، ولم يعد العمل الاجتماعي مجرد تبادل تجاري : ادفع لكي تستفيد . ولذلك كان على العمال ومن يكلفون بمصالح الاقاليم ان يبنوا المساجد ويردوا الصدقات على الفقراء ويؤمنوا الطرق ويسهروا على رد الحقوق لاهلها ، ويسهلوا حياة الناس اليومية ويمنعوا الغش والتدليس والتملص من اداء الدَّين والزكاة ، وكل هذه بوادر من التحولات الاجتماعية الكثيرة التي مست حياة المجتمع العربي بعد اسلامه .

وحوربت الكهانة واعمال السحر - بشدة وان لم ينقطع اثرها ، فالوعي الاجتماعي ضعيف في الوسط العربي ، ولكن الكهانة والسحر ابطلا ولم يرفع بعض الكهان رأسهم ليظهروا كمتنبئين الا عندما دنت وفاة الرسول (ص) ، وسرعان ما قُضِيَ على حركتهم في مهدها في اول خلافة ابي بكر ، وليس شيئا يسيرا ان يتحول مجتمع يلجأ الى الكهان

والعرّافين من حالة تخلف بالغ في الوعي الى مجتمع يحل الايمان بالله في نفسه محل الاعتقاد في الخرافات والاباطيل .

وحوربت السرقة وقطع الطرق بصرامة ، بفضل الإصلاحات الجبائية وانتشار فكرة الجهاد في سبيل الله والتي تخفي في طيها ايحاء جميلا بالتخلي عن زيف المغامرة الدنيوية وتحقيق حياة افضل في المستقبل .

وبفضل التشريع القرآني احيطت المرأة بسياج من الحماية لعرضها وكرامتها دون خنق ولا تضييق ، فكانت حالات الزنا نادرة جدا ، وكان فرض الحجاب على نساء الرسول والمومنين غير مانع اياهن من حضور المجالس الدراسية ومن حضور المعارك ، وتمريض الجرحى ، وحتى قضاء مآرب البيت في الاسواق ، وقرض الشعر ، ورواية الحديث النبوي ، وتعليم الآخرين دينهم .

ودخل المجتمع العربي في تشريع جديد ينظم شؤون الزواج والطلاق والميراث والتجارة والزراعة والبيوع ، ولذلك نرى الاحاديث النبوية تعزز القرآن الالهي في هذه الشؤون وتجيب عن تساؤلات السائلين والحائرين : يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم ... يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ... يسألونك عن الاهلة ... يسألونك عن الروح ... الخ ...

كان المجتمع العربي بعد الاسلام أمام ثورة ، وهي ليست ثورة ثقافية فحسب او سياسية تنشئ نظام حكم جديد فحسب ، بل هي ثورة حضارية اثارت انتباه المجتمع الانساني كله الى اخطاء الماضي والحاضر وقدمت اليه جملة من مؤثرات الماضي ووضعت خطوط النظام الاجتماعي والانساني المتكامل بالنسبة للحاضر والمستقبل . والمجتمع العربي لم ينتظر أجيالا ليدخل معالم الحضارة الجديدة ، بل بدأها مباشرة بعد نزول أول آية من القرآن : « **اقرأ بسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم .** »

وقد ظهر الفرق واضحا وشاسعا بين حياة المجتمع المومن في اول عهده بالايمان ، وبين المجتمع المشرك العريق في الشرك ، وهذا الفرق هو قَدْرُ ما بين الضلالة والهدى ، وما بين القناعة والشّره ، وما بين الغدر والوفاء ، وما بين الوعي والتخلف . كذلك كان مجتمع محمد بن عبد الله الذي خاطبه القرآن بقوله : «**اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء**

فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا . »

حكــومــة الرســـول

نحن في عصر الرسول أبعد ما نكون عن وجود صيغة مقنّنة للحكم على الطريقة التي تعرفها الآن الانظمة الدستورية او بقاياها ، فأي صورة كانت لهذه الحكومة ؟ هل هي جمهورية ام ملكية ام دكتاتورية ؟ . انها ليست هذه او تلك ، فقد مر عدد من الانبياء الذين كانوا ملوكا لهم وزراء وأجهزة تقليدية عرفتها عدة شعوب ، ومنهم سليمان وداود وحتى ابراهيم الخليل الذي قيل انه جمع في البداية بين النبوة والملك ببعض مناطق العراق ، ولكن حكومة محمد عليه السلام او نظام حكمه على الاصح ، كان من جهة ، يقارب النظام التقليدي الشوري الذي تقررُ فيه الجماعة او المؤهلون لتمثيلها اهم التدابير التي تمس حياة العشيرة. ثم كان هذا النظام النبوي من ناحية أخرى يسمو كثيراً عن هذا النظام العشائري بحكم خطورة التدابير المتخذة وتعقُّد القضايا وتنوعها وشمولها لأمة تتضخم رقعتها الجغرافية بسرعة منذ هجرة المدينة ، ومن ثم ، فالنظام النبوي هو قبل كل شئ يستمد خطوطه من التعاليم الالهية ، وهو نابع من تقاليد مجتمع شبه الجزيرة في الوقت الذي هيّئت اصوله لتكون صالحة لحكومة المجتمع الاسلامي مهما اتسع نطاقه او تجزأت رقعته ، وهذه الأصول هي الشورى والعدل من جهة الحاكم والانضباط من جهة المحكوم . وأصبحت الشورى النبوية قَبَساً لمن بعده من الخلفاء الراشدين ومن ساروا على دربه بعدهم ، وكل القرارات النبوية ذات الصبغة العامة تستند قبل كل شئ الى رأي الجماعة ، وبالأخص الجماعة الواعية ، لا كتمييز لها عن الآخرين بل لانها تنظر الى ابعاد القرار قبل اتخاذه .

وكان الرسول كثيرا ما يتخذ قراراً حاسماً بحكم مسؤوليته وبعد نظره ومن ثم فالنظام النبوي والراشدي سبق النظام الرئاسي الذي ياخذ في آن واحد برأي الناخبين وبحق المبادرة المخولة للمسؤول الاول في دائرة القوانين . وفي كل حال فمحمد بن عبد الله رسول اولا واخيرا ، وبهذه الصفة فمحمد الذي يحمل رسالة لها تبعات طقوسية وسياسية واجتماعية واقتصادية يجمع بين كل السلطات العليا في آن واحد :

1- التشريـــع
2- القــضـاء
3- التـنفـيـذ

وفي القرارات السياسية والعسكرية وطرق التنفيذ احيانا مجال كبير للشورى ، وهكذا فان الرسول (ص) كان في حلوله بالمدينة أو مكة او حيثما حل ، يتولى بنفسه ارشاد الآخرين افرادا وجماعات الى كيفية ممارسة شعائرهم ، اعتمادا على القرآن ، وتتميما بسنته ، وهو ايضا يتلقى التشريع عن طريق الوحي فيما يهم حياة المجتمع وقضاياه اليومية ، وعليه ان يتولى بنفسه تتميم مالم يرد مفصلا او منصوصا عليه في القرآن . وحيث ان المجتمع العربي يسمع لاول مرة في شبه الجزيرة عن قضاء متكامل يجمع بين المتقاضين والشهود ، وتقدم فيه البيّنة ، ويقام الحد ، ويرد كل حق الى صاحبه بالاكراه البدني عند الاقتضاء وان كل ذلك تبعا لتعاليم القرآن والرسول نفسه وربما باستشارة مع الصحابة ، فان محمدا يتولى بالمدينة هذه السلطة القضائية جملة وتفصيلا حتى يقدم احسن نموذج للقاضي الحازم في تقصيه للحق وتعمقه في الشريعة وقدرته على الاجتهاد .

ثم ان الرسول مع هذا ينفذ جميع القرارات والاحكام التي يتلقى الوحي بشأنها من السلطة الإلهية ، او التي يكون هو المشرع المباشر فيها ، فاعباء الرسول والحالة هذه جَسيـمة ، لا سيما اذا اضفنا اليها الشؤون الحربية والعمل السياسي والاتصالات العامة والتكاليف العائلية . وكيفما كان الامر ، فان دراسة فاحصة لسيرة الرسول وتدابيره تدل بوضوح على انه لم يكن متسلطا على المجتمع ولا مستبدا فيما يهم مصلحة الآخرين ، وعندما يتحداه خصومه والذين يتجاهلون مدى قدرته الانسانية يكتفي بقوله : " انما انا بشر مثلكم " وكان مع ذلك يعلم مدى الأثر العميق الذي سيخلفه في المجتمعات الانسانيـة ، القرآن ، الذي غير العديد من مفاهيمها بقدر ما غير من خرائط السياسة والاقتصاد على الصعيد الدولي .

ولم تكن الحكومة النبوية تتوفر على مبانٍ خاصة باستثناء المسجد الجامع الذي يعد مقرا لمجلس الصحابة الذين يستشيرهم الرسول ويدير مناقشاتهم ، وبنفس المسجد تنعقد

الاجتماعات العامة والمهرجانات الخطابية السياسية ، وبه ايضا تقرر الاحكام القضائية ومنه تتجه الخطابات النبوية الى العمال والملوك والامراء والزعماء ، وقد يقوم مسكن الرسول بدور مماثل عند الحاجة ، وقد تقرر اشياء تهمّ افرادا او جهات معينة او سائر المجتمع الاسلامي اثناء تنقلات الرسول الكثيرة كما حدث بعده في مختلف الحكومات الاسلامية .

غير ان بيت المال اختص بمقر ألحق بالحرم النبوي بالمدينة ، ونحن لا نعرف شيئا عن شكله ولا عن طريقة حفظ المال به ، ولكن من المؤكد انه كان بسيطا بساطة المسجد النبوي وبيت الرسول نفسه .

وكان الرسول يتولى في آن واحد ، شؤون المدينة الى جانب مهماته كرسول وقائد مجتمع ومُسَيِّر نظام حتى إذا غاب عن المدينة ترك من يتولى شؤونها في غيبته ، والواقع ان الدور التربوي والاجتماعي للمدينة لم يكن يقل عن دورها السياسي ، ففي حقل التعليم ونشر المعرفة على سبيل المثال حظيت المدينة بميزة الاستفادة المباشرة من تعاليم الرسول وتوجيهاته في الفقه والعبادات وفي السياسة والاخلاق وكثير من ميادين الحياة . وحيث ان المسجد النبوي هو في نفس الوقت معهد متعدد الاختصاصات لتلقين المعارف فان الاضطلاع بهذا الدور تشهده هذه المؤسسة ابتداء من عصر الرسول ، وهكذا كان الصحابة والزوار يتسابقون الى حضور المجالس النبوية والاستفادة بعضهم من بعض ، ولعائشة زوجة الرسول مقام كبير في رواية الحديث وتلقين المعرفة الدينية .

هذا باختصار ، دور المدينة كعاصمة للاسلام في عصر الرسول ، ونحن هنا بعيدون ان نلمس تاثيرا يذكر للانظمة الخارجية في النظام السياسي النبوي ، خصوصا وان النبي قد عاش اكبر فترة من حياته بمكة التي كانت لها انظمة اجتماعية وسياسية محددة ودور سياسي بارز .

وكان الرسول لا يقطع في مهمات الامر الا بعد استشارة متأنية لاصحابه ، وكان ابو بكر اكثر رفاقه ملازمة له واحفظهم لاسراره السياسية والعسكرية والخاصة وكان الشخص

الوحيد الذي يرافقه في هجرته الى المدينة ، وهو يتوجه اليه بالاستشارة قبل غيره في معركة بدر وغيرها [1] . ويميِّزه اميرا على الحج سنة 9 . وهي مهمة دقيقة وذات مستوى ديني وسياسي عالٍ بالنسبة للظروف التي كان يجتازها الاسلام .

وعندما اشتد المرض بالرسول قبل وفاته ، نراه يامر باغلاق ابواب المسجد الذي يسكن بجواره قائلا : [2] لايَبْقَيَنَّ في المسجد باب الا باب ابي بكر ، فاني لا اعلم احدا افضل في الصحبة عندي منه ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ، لكن اخوة الاسلام .

وكذلك يكلفه النبي بامامة المسلمين في المسجد النبوي بعد ان اصبح الرسول عاجزا عن اداء هذه المهمة بسبب مرضه .

ولم يكن الرسول يضغط على مساعديه الاقربين بتكليفهم مالا يحتملون ، وقد عرض على عمر بن الخطاب اثناء احداث صلح الحديبية سنة 6 ان يتوجه الى مكة في مهمة تفاوضية مع قريش ، فاجاب عمر [3] : ليس بمكة من بني عدي من يمنعني ، وقد علمت قريش عداوتي لها وغلظتي عليها ، واخافها على نفسي ، فأرسِلْ عثمان ، فهو أعزبها مني .

وفعلا ، لم يكره الرسول عمر على اداء المهمة ، ولو ألزمه لفعل ولكنه قد يعرّض للخطر ، بخلاف عثمان الذي كان اقل غلظة في مواقفه من قريش .

ولما كان الاعتراف بنبوة الرسول ، والدخول في الاسلام اقرارا بسلطته الساسية ايضا ، فإن ارتباط الرسول بالامة في هذه الحال يتم بالبيعة التي تكون جماعية او فردية ، وبصفة مباشرة او لعماله ورسله . وتمثل بيعة الرضوان في الحُدَيْبِيَّة ، وبيعة النساء والرجال في فتح مكة صورة مجسمة لبيعة الرسول ، فالأولى كان ضمن نصها مبايعة الرسول على الموت ، بسبب الموقف العدائي الشديد من قريش التي أصرت على حرمان المسلمين من اداء شعائرهم بالبيت الحرام [4] ، والثانية نصت على البيعة على السمع والطاعة لله ورسوله

1- مطهر المقدسي ، البدء والتاريخ ، 4 ، 187 . ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 199

2- ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 216

3- ن . م . ص . ص 138

4- ن . م . ص 171

فيما استطاعه المومن.وأورد القرآن بنود بيعة النساء في فتح مكة : «يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولايزنين ... الآية ...»

والحقيقة انه لا فرق في البيعة على شروط الاسلام بين الرجال والنساء في الصيغة ، لان الطاعة لله ورسوله بالنسبة للرجال تدخل فيها كل الاشياء التي يطالب بها النساء ايضا .

وكان الرسول يرفض ان يُنقص من الاسلام ركن في بيعة ، وهكذا فلما قدم عليه وفد ثقيف كان مما طلبه هؤلاء إعفاؤهم من الصلاة ، فكان رد الرسول : لا خير في دين لاصلاة فيه .

وإذا كان صحابة الرسول هم في ذات الوقت اهم الاطارات المساعدة له في الادارة المركزية فان هناك جهازا تنفيذيا مُهِمّاً على الصعيد المركزي هو جهاز الكتاب والتراجمة .

الكتابة والكتــــاب

منذ العهد النبوي تفتح صفحة جديدة في تاريخ العلاقات العربية على الصعيدين الاجتماعي والسياسي ، فان العرب نادرا ما كانوا يتخذون الكتابة ضمانا لمعاملاتهم وتحديداً لعلاقاتهم ، وان لم تكن الكتابة مجهولة لديهم.غير أن الرسول الذي قال وقد وجد العرب على هذه الحال : إنا امة لا نكتب ولا نحسب ، غير هو نفسه من العقلية العربية التي تعتمد الرواية والنقل الشفوي حتى لقد درست علوم الاسلام زمنا طويلا بنفس الطريقة . وفي مختلف الميادين يمثل النشاط النبوي صورة رائعة عن تمسكه بالعمل الكتابي ، حتى لكأنه تلقى ثقافة عن طريق الكتابة والتدوين وهو امر لم يكن . وبالنسبة للنشاط الاداري والعلاقات السياسية اصبحت مبادرة النبي خطة الزامية بعده ، حيث دونت الدواوين واصبحت الكتابة فنا ، بل فنونا متشعبة في العصور اللاحقة (تنويع الخط وقوانينه ، كتابة المصحف ، فن الترسل الخ ...)

كان من الاحداث البارزة في حياة الرسول بمكة قبل انتشار الاسلام وثيقة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية التي حررتها قريش واقرتها بتعليقها في الكعبة ، وكانت هذه المقاطعة ضد بني هاشم وبني عبد المطلب ، والتزم القرشيون أن " لا ينكحوا بني هاشم

وبني المطلب ، ولا ينكحوا اليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئا " [1] .

وعندما كان الرسول باتجاه المدينة مهاجرا اليها من مكة ، كان يطارده سراقة بن مالك الذي كلفته بذلك قريش ، وتذكر الروايات ان سراقة عندما اقترب من النبي (ص) وصاحبه ابي بكر ، ساخت قوائم راحلته في الرمل وسقط هو نفسه عن فرسه ، وحدث حينذاك إعصار فنادى الرسول ان يسامحه ففعل ، ثم الح سراقة في ان يكتب له الرسول كتابا يكون آية بينهما كما يحكي ذلك سراقة ، وحرر الكتابَ باسم الرسول ، ابو بكر الصديق وادلى به سراقة للرسول عندما كان بصدد فتح مكة [2] .

واول غنيمة حصل عليها المسلمون في السنة الثانية قَبْل معركة بدر الكبرى كانت بتعليمات كتابية من الرسول (ص) ، فقد وجه عبد الله بن جحش ضمن ثمانية من المهاجرين ليتخذ اتجاها معينا ، وأصحبه خطابا أمره ان لا يفضه حتى يسير يومين في طريقه ، فلما فتحه كان فحواه [3] : بسم الله الرحمن الرحيم ، سرعلى اسم الله وبركته ، حتى تنزل نخلة فترصد بها عبر قريش ، لعلك تاتينا منهم بِخَبَر" .

وكل معاهدات الرسول وعهوده كانت مكتوبة ، كما هو الشان مع قريش واليهود . وقد عرفنا شروط معاهدة الحديبية فيما سبق ، [4] وخلال هدنة الحُدَيْبية كتب الرسول الى جذام ببادية الشام يدعوهم الى الاسلام وحمل كتابه رفاعة بن زيد الجذامي الذي اعتنق الاسلام [5] .

وتعددت مكاتبات الرسول إلى الولاة والدعاة الدينيين كما وردت على الرسول اجوبة عدد من الملوك والزعماء الذين دعاهم الى الاسلام ، وعندما توجه خالد بن الوليد الى نجران لهذه الغاية ايضا اخبر الرسول كتابة بالنتيجة الايجابية التي حققها هناك [6] . بل كان علي بن ابي طالب اكثر نجاحا حيث اسلمت همدان كلها على يده ، وهي من اعظم قبائل اليمن ، ثم وجه بذلك رسالة الى الرسول [7] .

1- مطهر المقدسي ، بدء ، 4 ، 153 . ابن الاثير ، م . س . ص 59
2-مقدسي ، بدء ، 4 ، 172
3- ن . م . ص .183
4- ابن الاثير كامل ، 2 ، 135 - 140 . مقدسي ، بدء 224 - 225
5- ابن الاثير ، م . س . ص 141
6- م .س . ص . 200
7- م . س . ص . 205

وكان أكثم بن صيفي بعد من حكماء العرب . وكتب الى الرسول بشأن اسلام قومه فاجابه الرسول بما كان له وقع حسن في نفس اكثم [1] .

وكان طُلَيْحة بن خُوَيلد الاسدى من المتنبئين ، وعندما فر مع قومه امام احدى السرايا النبوية بنجد كان سنان بن ابي سنان رئيس بني مالك اول من اعلم الرسول كتابة بخبره [2] .

وكانت اقطاعات الرسول معززة برسوم يامر الرسول بكتابتها وتسليمها للمستفيدين. فعندما خصص لعدد من الصحابة والقرابة غلال خيبر من سهمه ، كتب بذلك رسما ثابتا [3] . وكذلك اقطع مُجّاعة اليمامي ، اقطاعات عقارية تضمنها مرسوم نبوي ويقول البلاذري : كانت أرضاً مواتاً .

وحينما توجه النبي الى تبوك وصالح سكان بادية الشام على الجزية كانت معاهدة الصلح تتضمن بنوداً بحمايتهم ، وتتكرر مثل هذه البنود بالنسبة لمختلف الجهات المفتوحة [4] .

واتخذ الرسول (ص) خاتما منذ السنة السابعة ليَمْهَرَ به خطاباته الى الملوك والرؤساء ونقش في فصّه : محمد رسول الله ، في ثلاث كلمات متتالية [5] . وكان من حديد ملون عليه فضة .

وعندما كان النبي (ص) في مكة كان كتّابه حسب الظروف َهم ابو بكر وعمر وعثمان وعلي . وعندما انتقل الى المدينة تعدد كتابه وهم :

1- أُبَيّ بن كعب ، وهو اول من كتب للنبي بالمدينة.وجمع بين تدوين الوحي وتحرير المراسلات النبوية ، وابتكر عبارة " وكتب فلان ..." في نهاية الخطاب [6] .

2- عبد الله بن سعد بن ابي سرح ، وهو قرشي اسلم ثم ارتد ورجع الى الاسلام

1- استيعاب ، ج ، 1
2- غلامي ، اصحاب بدر ص 93
3- بلاذري ، فتوح ، ص 40
4- ن ، م ، ص ، 119 - 126
5- ن ،م ،ص ، 80
6- مقدسي ، بدء ، 4 ، 228 . كتاني ، تراتيب ، 1 ، 177

عند فتح مكة ، وفي خلافة عثمان تولى عمالة مصر.وبدأ فتح المغرب الكبير او واصله بعد عمرو بن العاص (1) .

3- عبد الله بن الارقم الزهري وهو من كتاب الرسائل (2)

4- حنظلة بن الربيع التميمي ، وكان يعرف بالكاتب . وتوفي في خلافة معاوية (3)

5- معاوية بن ابي سفيان

6- العلاء بن الحضرمي

7- زيد بن ثابت الانصاري

8- خالد بن سعيد

9- ابان بن سعيد

10- خالد بن الوليد

11- عبد الله بن رواحة

12- محمد بن مَسْلَمَة

13- عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ بن سلول

وممن اسهموا في كتابة الوحي كلاً أو بعضاً ، زيد بن ثابت ، وأُبَيّ بن كعب ، وعبادة بن الصامت ، وابو الدرداء ومعاذ بن جبل ، وأبو ايوب ، وأبو زيد بن السكن .

ونقل الكتاني في التراتيب الادارية (4) ان الحصين بن نمير والمغيرة بن شعبة كانا يكتبان المدَاينات والمعاملات ، وتخصص الزبير بن العوام وجهم بن الصلت باموال الصدقات وشُرَحْبيل بن حسنة بكتب التوقيعات الى الملوك ، واوصل بعض من اهتم بالموضوع كتاب الرسول الى اثنين واربعين ونظم اسماءهم في ارجوزة (5) .

وكان الترجمان الرئيسي للنبي (ص) هو زيد بن ثابت الانصاري الذي تعلم الفارسية والحبشية والاغريقية والقبطية والسريانية (6) . وشارك هو وأُبَيّ بن كعب في كتابة الرسائل والإقطاع (7) .

1- ابن الاثير ، 2 ، 213 .
2- كتاني ، تراتيب ، 1 ، 120
3- ن . م . ص . 379
4- ن . م . ص . 124
5- ن . م . ص . 116
6- ن . م . ص . 202 - 203
7- ن . م . ص . 120 . وراجع عن كتاب الرسول دراسة في مجلة المؤرخ العربي ، 4 ، 1977 بغداد .

اما المادة التي استعملت للكتابة فكانت جلودا مدبوغة او لحافا ، وهي صفائح من حجارة بيض ، أو نحاساً او حديدا او عسيب نخل او عظم اكتاف الابل والغنم أورَقاً ، وعلى هذه الاشياء كان يكتب الفرس ، فنقل ذلك عنهم العرب [1] .

ادارة الاقاليـــم

كانت السياسة النبوية في التنظيم الاقليمي تراعي من جهة ، المصلحة العليا للامة ، من حيث تزويد بيت المال بايرادات شرعية يتم توزيعها على المحتاجين والمؤلفة قلوبهم وغيرهم ، او تستخدم للمرافق العامة من مساجد وآبار وغيرها فضلا عن رواتب الولاة والموظفين ؛ كما تراعي السياسة النبوية من جهة اخرى ظروف الاقاليم ، فهناك جهات احتُفظ بامرائها او حكامها السابقين وجهات عين عليها عمال جدد ، والأولى تشمل على الخصوص ، الجهات التي اعتنق حكامها الاسلام تلقائيا ، والثانية تشمل الجهات المفتوحة عنوة او التي يرى الرسول ضرورة مراقبتها وضبطها عن طريق العمال الذين ينفذون تعاليم الاسلام ، ويعينهم الرسول .

واما اختيار المدينة كعاصمة للرسول ، وبالتالي كعاصمة أولى للاسلام فلم يكن عن تخطيط سابق ولا اهداف رسمت مقدما ، ذلك ان الرسول هاجر اليها مع المسلمين الاولين بترغيب من الانصار ، فهناك اذاً ، وجد الامن والمجال الواسع لنشر دعوته بعيدا عن قومه الذين هم ايضا خصومه ، وحيث ان اسلام الانصار ادى الى اسلام قبائل اخرى تباعا ، فقد كان للمدينة ميزة استقرار الرسول بها بعد الهجرة واتخاذها عاصمة اولى للاسلام . وعرفنا ان كل هذا لم يمنع الرسول من اعطاء الاولوية في غنائم الحرب للمهاجرين بالذات . فهل كان يهد بذلك قصداً لجلب قريش إلى الإسلام ؟ أم هل كان يُمَهّد عمليا لتخصيص المهاجرين بالخلافة لفترة معينة على الاقل ؟ ان هذا ممكن اذا تأكدنا من اهمية الدور الذي قام به الى جانب النبي عدد كبير من المهاجرين كعلي وابي بكر وعمرو وسعد بن ابي وقاص وابي عبيدة بن الجراح وآخرين نراهم يظهرون باستمرار في حياته السياسية والدينية وحتى الخاصة ، ومن جهة اخرى فقد راى الرسول ان يخفف عن الانصار عِبْءَ ، ايواء المهاجرين ومشاطرتهم مواردهم مع فقر كثيرين منهم .

1- ن . م . ص . 122 - 123

وكانت المدينة ومكة والطائف من اكثر المراكز الحضرية سكانا واوفرها نشاطا في شتى المجالات ، وكانت المدينة عند هجرة النبي اليها بساتين وحصونا تحجز بينها حوائط دون تخطيط ، وانما بدأ تخطيطها باستقرار الرسول (ص) حيث اقطع الدور ووزع البلد احياء [1] ، وعرض الانصار عليه من اراضيهم ما يفضل عن حاجاتهم لايواء من امكن من المهاجرين ، ثم بنى مسجده بعد ان ابتاع ارضا اضافها لمسجد كان موقعه يتصرف فيه سعد ابن زرارة من رؤساء الانصار ، وكان الذي ادى عنه المال ابو بكر لان الارض كانت ملكا ليتيمين . [2] .

ومنع الرسول قطع الاشجار من حول المدينة والزم المخالفين يغرس كمية من الاشجار مكان كل شجرة مقطوعة [3] . ولم تكن هذه مجرد عملية للمحافظة على البيئة ، بل كانت خلق بيئة وتعهدها ايضا بالتنمية .

كذلك انشأ الرسول سوقا ورفع عنه كل ضريبة واتجه الى السكان بقوله : هذا سوقكم لاخراج عليكم فيه [4] .

وحيث ان المدينة مَلاذُ المومنين ومقصدهم كما هي محتشد عسكري توجه منه الحملات ضد الوثنيين وعباد الاصنام،فقد كانت ادارتها لا تَشْغُرُ بغياب الرسول قط ، وكان يعين من ينوب عنه في تسيير امورها او حمايتها كلما قرر الخروج عنها لمدة ، وهؤلاء الولاة المؤقتون لا يتكرر استخلافهم الا قليلا وبالنسبة لبعضهم فقط ، واكثر الذين رددت اسماؤهم ، هم سعد بن عبادة والسائب بن عثمان بن مظعون ، وسعد بن معاذ ، وابو لُبابة ابن المنذر ، وعثمان بن عفان ، وابن مكتوم ، وابو سلمة بن عبد الاسد ، وعبد الله بن رواحة ، وسباع بن عرقطة ، وابو ذر الغفاري ونميلة بن عبد الله الليثي ، وأبورُهم كلثوم ابن حصين الغفاري ، ومحمد بن مسلمة الانصاري [5] .

اما مكة فَعَيَّنَ الرسول (ص) عاملا قاراً بها هو عتاب بن اسيد منذ فتحها سنة 8 . وكان لا يزيد عمره عن العشرين الا قليلا مع زهده وورعه ، وخصص له الرسول درهما واحدا في اليوم راتبا له ، وكان معتزا بهذا المبلغ الزهيد ، وأسند اليه الرسول امارة الحج في هذه السنة ايضا ، وهو اول من حصل على هذا الشرف ، وسبق ابا بكر الذي قام بهذه المهمة في السنة التاسعة .

1- مقدسي ، بدء ، 4 ، 177 - 179

2- بلاذري ، فتوح ، ص 12

3- ن . م . ص 17

4- م . س . ص . 24

5- وردت هذه الاسماء في كتب المغازي والسير والتاريخ .

وكان نفوذ عتاب يشمل منطقة بني كنانة المجاورة ، وقد ظل عتاب عاملا الى ما بعد وفاة الرسول [1] . وفي الفترات القليلة التي اقام بها الرسول بمكة بعد الفتح كان يتولى بنفسه ادارة امورها .

واشتهرت مكة قبل الفتح بدار الندوة التي بنيت علي يد قصي بن كلاب فكانت بجوار البيت الحرام تجتمع بها قريش وتتشاور في امورها السياسية والحربية وتنطلق منها الحملات نحو المعارك وتعقد بها الانكحة [2] . ويظهر ان دور المسجد انطلق بالنسبة الى القضايا السياسية والاجتماعية من دار الندوة بالذات .

وما لبثت دار الندوة ان اصبحت ملكا خاصا لبعض رجالات قريش ، وانتقلت في عهد الرسول الى حكيم بن حزام بن خويلد ، هو ابن اخي خديجة بنت خويلد زوجة الرسول (ص) ، وكان حكيم هذا من اثرياء قريش ، واعتنق الاسلام عند فتح مكة ، وباع دار الندوة فيما بعد الى معاوية بن ابي سفيان ، لان حكيما عُمِّرَ اكثر من مائة عام ، وخاطبه عبد الله بن الزبير معلقا على عملية البيع : بِعْتَ مكرمة قريش ! فاجاب : ذهبت المكارم إلا التقوى ، وقيل ان الذي باع دار الندوة لمعاوية هو عكرمة بن عامر [3]. والحقت الدار بالمسجد الحرام في العصر العباسي بعد هدمها حسبما اورده الازرقي . وكانت مكة ترتوي من آبار يحفرها الخواص وتمدها المياه الجوفية التي تتسرب الى باطن الارض من الجبال [4] .

وروى مجاهد ان الرسول عليه السلام قال : مكة حرام لا يحل بيع رباعها ولا اجور بيوتها ، ولكن عددا من الفقهاء الاولين كمالك وابي الزناد اجازوا استغلال دور مكة .

وكان المسجد الحرام بدون جدار حتى سوّره الخليفة عمر بجدار قصير في خلافته [5] . وقد شهدت المواطن المقدسة ترميمات واصلاحات وزيادات متوالية عبر التاريخ الاسلامي .

1- ابن خلدون ، تاريخ ، 2 ، 859
2- بالاذري ، ص 70
3- ابن عبد البر ، استيعاب ، 1 . ازرقي ، اخبار مكة ، 1 . 269 مقدسي ، 4 ، 168 . بلاذري ، ص 69 .
4- بلاذري ، ص 70 .
5- ن . م . ص . 62

امـا الطائف فكانت تسكنها ثقيف ، وحولها جموع هوازن ، وكان بها حصـون تجمع باحدها السـكان قبـل افتـتاحه على يد الرسول (ص) سنـة 8 . كـذلك استقر عدد مـن يهود يثرب واليمن بالمنطقة ، فوضعت عليهم الجزية كما يقول البلاذري [1] ، وكانت بالطائف املاك عديدة للبورجوازية القرشية الصغيرة ، واعتبرت الطائف من اعمال مكة [2] .

وعين الرسول عثمان بن ابي العاص الثقفي والياعلي الطائف ، كما اقر مالك بن عوف رئيسا على قومه من هوازن بضواحي الطائف [3] ، ووصف عثمان هذا بانه كان صغير السن حريصا على الاسلام والتفقه في الدين . [4] واشتهرت ثقيف بعمليات الربا قبل اسلامها ، [5] وذلك بتاثير اليهود الذين خالطوهم من قديم . وقد استمر عثمان بن ابي العاصي على الطائف بعد موت الرسول ، ومالك بن عوف على الضواحي .

وهكذا فان نظام ادارة المناطق على يد الاشخاص الذين ينتمون اليها ويحظون بثقة سكانها عمل وضع قواعده في الاسلام ، الرسول (ص) بعد ان تاكد من صلاحية هؤلاء الاشخاص في عدد من المناطق التي كانت تنظر الى السلطة المركزية بشئ من الريبة والحذر.

وكان على البحرين حاكم فارسي هو المنذر بن ساوي الذي اعتنق الاسلام فأقر عاملا باسم الرسول (ص) وكان جل سكان البحرين نفسها من عبد القيس ، وجل سكان بواديها من تميم ، وكان اسلام المنذر بدعوة من الرسول (صّ) على يد العلاء بن الحضرمي وجاء في عهد الصلح [6] :

"بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمي اهل البحرين ، صالحهم على أن يكفونا العمل ويقاسمونا التمر ، فمن لم يف بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين " .

وإذا كان المنذر قد ثبت مكانه ، فان الرسول قد اسند للعـلاء بـن الحضرمي الاشـراف

1- ن . م . ص . 75
2- ن . م و ص .
3- ابن الاثير ، 2 ، 183
4- ن . م . ص . 194 . ابن خلدون ، 2 ، 823
5- بلاذري ،. ص 75
6- ن . م . ص . 106 ، 107

الديني والجبائي الى ان خلفه أبان بن سعيد بن العاص ، وهو من البيت الاموي ، اسلم ايام فتح خيبر [1] .

وهذه الازدواجية في السلطة او في اشخاصها لها نظائر في اقاليم اخرى ، فقد اقر الرسول على عمان ملكيها جيفر وعباد ، كما عين ابا زيد الانصاري وهو احد جامعي القرآن ، على شؤون الصلاة والتكوين العقائدي ، وعمرو بن العاص اميرا أو عاملاً إدارياً [2] وبذلك لم تبق للملكين الاسلطة رمزية ، وكان لهذا التدبير مبرر سياسي هو قرب عمان كجارتها ، من فارس .

اما اليمن فقد شهدت مرحلتين في تنظيمها الاداري ، فحينما اسلم عاملها الفارسي باذان [3] ، وكانت قبل اسلامه تابعة لفارس ، كانت كلها موحدة باشرافه ، واقر الرسول عليها باذان الى وافاته التي صادفت انصراف الرسول من حجة الوداع . وكانت حضرموت مع اليمن ، ولكي لا تصبح مملكة اليمن وراثية فقد عمد الرسول بعد موت باذان الى تقسيمها الى عدة مناطق [4] :

1- صنعاء : شمر بن باذان ، وهناك اختلاف فيمن تعاقب على صنعاء
2- مأرب : أبو موسى الاشعري
3- همدان : عامر بن شمر الهمداني
4- عك والاشعريين : الطاهر بن ابي هالة
5- نجران : عمر بن حزام او بن حزم الانصاري
6- مابين نجران وزمع وزبيد : خالد بن سعيد بن العاص
7- حضرموت : زياد بن لبيد البياضي
8- السَّكَاسك والسكون : عكاشة بن ثور الغوثي
9- كندة : عبد الله بن المهاجر بن ابي امية وكندة ليست من اليمن ولا جارتها جغرافيا ، فهي في وسط شبه الجزيرة الى الشمال ، ولكنها ارتبطت في الجاهلية بحلف معها .

1- بلاذري ، ص 111 . ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 203 . ابن حجر إصابة ، 1 ، 13
2- بلاذري،الفتوح ، ص 104 . ابن خلدون ، تاريخ ، 2 ، 884
3- ابن خلدون ، 2 ، 843
4- ن . م . ص . بلاذري ، ص 93

10- الجند : يعلى بن امية

11- جُرش : وهي مخلاف بشمال اليمن : أبو سفيان بن حرب.وحدث بعض التغيير في سلك العمال قُبيل وفاة الرسول [1] . فكان على صنعاء فيروز الديلي ومساعده داذَوَيْه وقيس بن مكشوح المرادي ، وكانوا يتشاطرون المهام السياسية والدينية والمالية .

واحتفظت نجران برؤسائها المحليين مع منسق منهم هو قيس بن الحصين [2] ، بالاضافة الى العامل الذي حددت مهمته في العمل الديني بصفة خاصة [3] .

ويعتبر مرسوم تعيين هذا العامل الذي احتفظت بعض المصادر بأصله حجة بالغة الاهمية في تحديد مسؤوليات العمل وحقوق المواطنين من مختلف الملل [4] .

واسند الرسول مهمة القضاء والشؤون الدينية بعموم اليمن ، الى معاذ بن جبل وكان قد كلفه الرسول في فتح مكة بالتكوين العقائدي للداخلين في الاسلام ، وكان اسند اليه الرسول مهمة جمع الصدقات (الضرائب والغلات الشرعية) ، [5] وكان على معاذ ان يتنقل بين اقاليم اليمن ليقوم بمهمة الارشاد والتكون العقائدي [6] .

ويلاحظ ان العديد من عمال اليمن أنصار ، نظرا لتقارب العادات والتقاليد ووحدة الأصل . ومنهم عَمْرو بن حزام وزياد بن لبيد ، كما ان فيهم عناصر يَمَنية كعامر بن شمر ومكية كخالد بن سعيد .

ومن المناطق التي كانت تدين بالولاء للبيزنطيين واحتفظت بإدارتها المحلية مع التزامها بالجزية : إيلة ، وهي من اعمال تبوك ، وكان المشرف عليها يوحنا بن رؤبة ، واذرح ، ومقنا [7] .

وكان على دومة الجندل امير عربي مسيحي هو أكَيدر بن عبد الملك الكِندي الذي اعتنق الاسلام على يد خالد بن الوليد [8] واحتفظ بماموريته ثم عين الرسول عبد الرحمن ابن عوف لمساندته .

1- ابن خلدون . 2 . 859

2- ن . م . ص 829

3- ن . م . ص

4- انظر النص في تاريخ ابن خلدون ، 2 ، 826 - 831

5- ن . م . ص 818 . بلاذري ص 94

6- طبري 3 ، 214

7- ابن الاثير ، 2 ، 191 . بلاذري ، ص 82

8- غلامي ... اصحاب بدر ، ص 82

وكان الرسول يحاسب عماله ويكره منهم قبول الهدايا ، واستعمل مرة على صدقات بني سليم شخصا اسمه ابن الليتية فلما جاء بالصدقات قال : هذا مالكم وهذا هدية ، فقال له الرسول : فهلا جلست في بيت ابيك حتى تأتيك هديتك ان كنت صادقا : [1]

ويستخلص من اختلاف الروايات بشان تعيين العمال :

1- ان بعض التعيينات لم تتفق عليها المصادر

2- ان عددا من المناطق احتفظت بزعمائها او حكامها ، وأضيف اليهم عامل للشؤون الدينية يسمى عامل الصلاة او صاحب الصلاة ، وهو يعين في كل منطقة كعامل اداري ايضا إذ لم يكلف الرسول الولاة المحليين بهذه المهمة .

3- في المناطق ذات الانتاج الوفير كثيرا ما يعين عامل آخر هو عامل الصدقة الذي يكلف باستخلاص الزكوات وصرفها بعين المكان في الوجوه المستحقة ، ويردّ الباقي على بيت المال .

القضاء والتوجيه الديني

ارتبط القضاء في العهد النبوي بالتكوين العقائدي ، فالذي يتولى الشؤون الدينية (صاحب الصلاة ، او عامل الصلاة) تسند اليه مهمة التوعية الدينية لعموم المواطنين في منطقة مسؤوليته ، وإلى ذلك ، فهو يقوم مقام القاضي الذي لم تنفصل سلطته عن مهمة التوعية ، ولذلك كانت مسؤولية الدعاة في غاية الدقة ، وتتطلب اناة وحسن معالجة ، ولا يقدِم الدعاة على اجراء يَمَس أوضاع المناطق الا بعد ان يتلقوا تعليمات الرسول ، وقد حفظ الطبري وثيقتين تمثل كل منهما مضمون الدعوة الاسلامية كما يبلغها الرسول دعاته وكل من الوثيقتين يهم بني الحارث بن كعب بنجران :

1- **الوثيقة الاولى** : كتاب من خالد بن الوليد الى الرسول ، والجواب النبوي : يقول خالد في كتابه : [2]

بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد النبي ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من خالد بن الوليد ، السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو ،

1- كتاني ، تراتيب 1 ، 237

2- طبري ، 3 ، 156

اما بعد ، يا رسول الله ، صلى الله عليك ، فإنك بعثتني الى بنـي الحارث بن كعب ، وامرتني اذا اتيتهم الا اقاتلهم ثلاثة ايام ، وان ادعوهم الى الاسلام ، فان اسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الاسلام ، وكتاب الله وسنة نبيه وان لم يسلموا قاتلتهم .

واني قدمت عليهم ، فدعوتهم الى الاسلام ثلاثة ايام كما امرني رسول الله (ص) وبعثت فيهم رُكبانا : يابني الحارث ، أسلِموا تَسْلَموا. فأسلَموا ولم يقاتلوا وانا مقيم بين أظهرُ هم،وآمرهم بما امرهم الله به وانهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الاسلام وسنة النبي (ص) حتى يكتب الي رسول الله .

والسلام عليك يا رسول الله ورحمته وبركاته .

وكان رد الرسول (ص) هو : [1]

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبي رسول الله الى خالد بن الوليد ، سلام عليك .

اما بعد ، فان كتابك جاءني مع رسلك يخبر ان بني الحارث قد اسلموا قبل ان يقاتلوا ، واجابوا الى ما دعوتهم اليه من الاسلام وشهادة ان لااله الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله ، وأنْ قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم وأقبل ، وَلْيُقْبِلْ معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

2- **الوثيقة الثانية :** تمثل منشورا خصصه الرسول لعمرو بن حزام الانصاري الذي ولاه الرسول الشؤون الدينية بنجران بعد قدوم وفدها على الرسول وهذا يعني ان النبي (ص) فضّلَ ان يخصص خالدا بالشؤون الادارية والعسكرية ويولي على الشؤون الدينية شخصا قريباً من اهل المنطقة بوصفه انصاريا ، وهذا هو المنشور النبوي [2] :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بيان من اللـه ورسوله : ياأيها الذين آمنوا أوفـوا بالعقود. عقد من محمد النبي ، لعمرو بن حزام ، حين بعثه الى اليمن :

أمره بتقوى الله في امره كله : فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

1- م . س . ص 156

2- م . س . ص 157

- وامره ان ياخذ بالحق كما امر به الله ، وان يبشر الناس بالخير ويامرهم به ويعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين ، وينهى الناس ، ولا يمس أحدٌ القرآن الا وهو طاهر ، ويخبر الناس بالذي لهم وبالذي عليهم ، ويَلِينَ للناس في الحق ويشتد عليهم في الظلم ، فان الله عز وجل كره الظلم ونهى عنه وقال : الا لعنة الله على الظالمين ، ويبشر الناس بالجنة وبعملها ، وينذر بالنار وبعملها ، ويستألف الناس حتى يتفقهوا في الدين ، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفريضته ، وما امر الله به في الحج الاكبر والحج الاصغر وهو العمرة .

وينهى الناس ان يصلي احد في ثوب واحد صغير ، الا أنْ يكون ثوبا واحدا يثني طرفه على عاتقه .

- وينهى ان يَحْتَبِيَ أحد في ثوب واحد يفضي بفرجه الى السماء .

- وينهى الا يعقص احد شعر راسه اذا عفا في قفاه

- وينهى اذا كان بين الناس هَيْج ، عن الدعاء الى القبائل والعشائر .

وليكن دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له ، فمن لم يدعُ الى الله ودعا إلى القبائل والعشائر ، فليقْطعوا بالسيف حتى يكون دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له .

- ويامر الناس باسباغ الوضوء وجوههم وايديهم الى المرافق وارجلهم الى الكعبين ، ويمسحون برؤوسهم كما امرهم الله عز وجل .

- وأمر بالصلاة لوقتها ، واتمام الركوع والخشوع ، ويغلس بالفجر ، ويهجر بالهاجرة حتى تميل الشمس ، وصلاة العصر والشمس في الارض مدبرة ، والمغرب حين يقبل الليل لا تؤخر حتى تبدو النجوم في السماء والعشاء اول الليل .

- ويامر بالسعي الى الجمعة اذا نودي لها ، والغسل عند الرَّواح اليها

- وامره ان ياخذ من المغانم خمس الله ، وما كتب على المومنين في الصدقة من العقار عشر ما سقى البعل ، وما سقت السماء وما سقى الغرب نصف العشر . وفي كل عشر من الإبل شاتان ، وفي كل عشرين من الابل اربع شياه وفي كل اربعين من البقر بقرة وفي كل ثلاثين من البقر تَبِيعٌ ، جَذَع او جَذَعَة ، وفي كل اربعين من الغنم سائمة شاة فانها فريضة الله افترضها الله عز وجل على المومنين في الصدقة ، فمن زاد خيراً فهو خير له .

- وانه من اسلم من يهودي او نصراني اسلاما خالصا من نفسه ودَانَ دينَ الاسلام ، فانه من المومنين ، له مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته او يهوديته فانه لا يفتن عنها ، وعلى كل حالمٍ ذكرٍ او انثى او عبدٍ ، دينارٌ وافٍ ، أو عِوَضه ثيابا ، فمن ادى ذلك ، فان له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منع ذلك ، فانه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعا ."

لم يكن هذا النص مجرد منشور وجه الى احدى الولايات الاسلامية ليكون السكان على علم منه ، لقد كان اكثر من ذلك ، ميثاقا شاملا لكل التوجيهات الاساسية التي يلتزم بها عامل الصلاة والسكان ، ومن بنوده الاولى ، الحرصُ على تطبيق العدل وتلقين القرآن ، ثم توضيح معالم الصلاة والزكاة والحج ونبذ التنادي بالقبائل والعشائر وتوضيح التزام اهل الكتاب تجاه السلطة الاسلامية ، ومعاملةُ من اسلم منهم ومعاملة غيرهم من المسلمين .

وقد رأينا ان هذا المرشد الديني مطالب باعطاء كل ذي حق حقه ، اي بممارسة مهمة القاضي ، وقد ميز الرسول اليمن لمقامها الحضاري والسياسي بخيرة القضاةِ المرشدين ، وهما علي بن ابي طالب ومعاذ بن جبل .

ويروي علي نفسه بعد ان عينه الرسول قاضيا على اليمن ومرشدا لها ، مادار بينه وبين الرسول من حوار بشان تعيينه . قال : (1)

بعثني النبي (ص) الى اليمين ، فقلت : يارسول الله ، ترسلني وانا حديث السن لا علم لي بالقضاء ؟ فقال : ان الله عز وجل سيَهدي قلبك ، ويثبت لسانك . واذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقض حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت من الاول ، فانه أحْرى ان يتبين لك القضاء .

كان الرسول لا يتوفر على اطارات ذات تجربة قضائية كافية ، ولذلك كان يسند هذه المهمة الى شبان برهنوا عن استفادتهم من صحبته وتكونوا على يده . وكذلك كانت الاطارات القيادية في جلها من الشباب ، وهكذا فان معاذ بن جبل وهو من شباب المدينة ،

1- ابن فرج القرطبي ، اقضية رسول الله ص 82

وصف بانه المقدم على الحلال والحرام ، وبانه امام الفقهاء وكنز العلماء وفخر شباب الانصار علما وحياء وسخاء [2] . وعندما اسند اليه الرسول قضاء اليمن سأله : بم تقضي ؟ قال : بما في كتاب الله ، ثم سأله : فان لم تجد ؟ قال : بما في سنة رسول الله . قال : فان لم تجد ؟ قال : اجتهد برايي .

وكان من اجتهادات معاذ في حياة الرسول ان رجلا ترك بنتا واختا فاورثهما معاذ النصف لكل منهما [3] .

وابتداء من العهد النبوي اخذ بعض تلاميذ الرسول (ص) يتصدّوْن للفتوَى في النوازل ومنهم عبد الرحمن بن عوف وأُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت .

وكان عبد الرحمان بن عوف من كبار تجار قريش واحد المهاجرين المرموقين،وهو من اعضاء مجلس الشورى الذي عينه عمر بن الخطاب قُبيل وفاته ، وتنازل عن شطر عظيم من امواله لعمليات المقاومة والنضال ضد المشركين ، وصفه الرسول (ص) بأنه " امين في السماء وامين في الارض " [4] . وهو ممن رووا كثيرا عن النبي (ص) وتوفي سنة 32 هـ في خلافة عثمان .

اما أُبَيّ بن كعب فيعد من فقهاء الصحابة ، وممن كان الخليفة عمر يسفتيهم في النوازل [5] كما كان يستفتي غيره من الصحابة ومن له حاجة الى رايهم .

ووُصف زيد بن ثابت في حديث نبوي بانه افرض الناس اي اعلمهم بالفرائض[6] وهي تزكية لهذا الصحابي الانصاري الذي كان كأُبَيّ بن كعب من القراء ، ومن الكتاب الخاصين للرسول (ص) .

وبرز دور آخرين من الصحابة في القضاء والاجتهاد الفقهي والفتوي ايام الخلفاء الراشدين ، فقد كانوا يتحرجون ان يتدخل احدهم في مثل هذه الميادين والرسول على قيد الحياة .

2- غلامي ، أصحاب بدر ، ص ، 204 .
3- ابن حجر ، اصابة ، حرف الميم (معاذ بن جبل)
4- غلام ، م ، ص ، 68
5- ن ، م ، ص 220
6- ن ، م ، ص 221

ومن البديهي ان يكون القضاء في العصر النبوي مثالا للنزاهة والعدالة المطلقة التي لا تراعي طبقية ولا حالات خاصة ، والامثلة في هذا الباب كثيرة ومنها أن الحد نفذ في حسان بن ثابت وعبد الله بن أُبَيّ ، وشخصين آخرين احدهما امراة ، عندما ثبت قذفهم ظلما لعرض عائشة زوجة النبي ، والتي برّأها القرآن [1] .

وقضى الرسول بتنفيذ حكم الاعدام في شخص تزوج امراة ابيه كما صادر امواله . [2]

ونعيد هنا قصة جماعة اللصوص الذين دخلوا المدينة جائعين فاكرمهم الرسول واستضافهم مدة حتى استرجعوا قواهم ثم هجموا على الابل فاستاقوها وقتلوا راعيها وغرزوا الشوك في عينيه ، فتمكن مبعوث النبي من القبض عليهم وامر بقطع ايديهم وارجلهم وسمل أعْينهم ، وهذا تنفيذ لعقوبة السارق التي هي القطع .

وطبقت عليهم الآية : « **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ،** » [3] كما طبق عليهم القصاص بسَمْل أعينهم .

ومن اطرف اجتهادات النبي (ص) ان عليا وفاطمة شكيا اليه ما يلقاه كل منهما من تكاليف الحياة اليومية ، فحكم لعلي بتحمل مسؤوليته خارج البيت وحكم لفاطمة بتحمل اعباء البيت [4] .

وذكر بعض المحدّثين [5] . ان أصحاب القضاء على عهد الرسول كانوا ستة ، وهم عمر وعلي وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وابو موسى الاشعري . ويظهر ان هذا التحديد مجرد راي شخصي لانه يحذف اسماء لامعة في العمل القضائي كمعاذ بن جبل وعتاب بن اسيد الذي جمع الى القضاء على مكة عمالتها [6] ، وهذا فضلا عن الدور القضائي لعمال الصلاة ايضا .

1- ابن الاثير ، 2 ، 135 . مقدسي ، بدء ، 4 ، 216.
2- ابن عبد البر ، استيعاب ، ج 1 . ابن فرج ، ص 11.
3- مقدسي ، 4 ، 233
4- ابن فرج ص 57.
5- كتاني - تراتيب.
6- ن ، م ، ص 267

أما المظالم فكان الرسول يَليها بنفسه ، وكان يستقدم وفود السكان من مختلف جهات جزيرة العرب ليستمع الى شكاياتهم ومطالبهم . وكان عمر بن الخطاب اول من عَيَّنَ مفتشا يتقصى اخبار الولاة ويحقق في الشكايات ، وهو محمد بن مسلمة [1] .

ولم يكن على عهد الرسول سجن خاصٌ بل يحبس الشخص او الاشخاص بموضع من المسجد او بدار خاصة ، وقد ثبت ان الرسول حكم بالسجن والضرب كما حكم بنفي الحَكَم بن ابي العاص الى الطائف ، وكان يقلد مشية الرسول وبعض حركاته [2] . وكان الذين يتولون تنفيذ حكم الاعدام بضرب الاعناق هم علي والزبير والمقداد ومحمد بن مَسْلمة وعاصم بن ثابت [3] .

وبالرغم من كثرة الجرائم والمخالفات فان العقوبات كانت لا تُتَّخذ الا بعد التحري والاثبات أو الاقرار من الجاني ، وحيث ان الامية كانت ضاربة اطنابها في شبه جزيرة العرب فقد لجأ الرسول الى معاقبة اسرى بدر من الفقراء بان يتولى كل منهم مقابل سراحه ، تعليم عشرة من الصبيان والراشدين [4]. وكانت الأمية فاشية في المدينة مع انها مركز حضري في نقطة حساسة من الخط التجاري الممتد من اليمن الى الشام والعراق ، والواقع ان قريشا كانت تتوفر على عناصر مُسْتَنيرة اكثر مما هو الشان بالمدينة ، ووضعيتها كمركز مسؤول عن تسيير اعمال الحج منذ عدة اجيال شجع على وجود وعي نِسْبِيّ بمكة .

وبدأ الرسول حركة التعليم والتوعية الدينية منذ ان جهر بالدعوة بادئا بالمومنين الاولين كعلي وابي بكر وعمر . ومن البعثات التعليمية الاولى وفد من ستة اشخاص وجهه الرسول الى بعض القبائل العربية بعد غزوة احد ، وقتل هؤلاء الاشخاص غدرا على يد هذيل في السنة الثالثة ، ومنهم عاصم بن ثابت وعبد الله بن طارق [5] .

وشهد نفس المصير وفد من اهل الصُّفة كانوا يتولون تعليم القرآن ليلا فوجههم النبي الى نجد لتلقين شرائع الاسلام ، فاحاطت بهم جماعة معادية بتحريض عامر بن الطفيل ، فأفنتهم الا عمرو بن امية الضمري ، وكان عدد القتلى من الوفد 39 شخصا [6] .

1- ن ، م ، ص 267 .
2- كتاني ، تراتيب ، 1 ، 301 .
3- يعمري ، عيون الاثر ، 2 ، 396 .
4- ابن فرج ، ص 26 .
5- مقدسي بدء ، 4 ، 209 . غلامي ، اصحاب بدر ، ص 146 . ابن خلدون ، 2 ، 768 .
6- مقدسي ، 4 ، 211 . ابن خلدون ، 2 ، 769 .

وكان مصعب بن عمير اول مرشد ديني وجهه النبي الى المدينة ، اسلم على يده عدد من الصحابة الذين اصبح لهم شان في الاسلام كأسيد بن حضير . وكان مصعب اول من تولى امامة الجمعة بالمدينة قبل الهجرة ، وقتل مصعب في غزوة احد وهو لا يتجاوز الاربعين [1] .

وكان من ابرز القراء والمحدثين والراوين عن الرسول : عبد الله بن مسعود [2] الذي كان اصلا من الموالي ، وتوفي في خلافة عثمان سنة 32 هـ .

ومن القراء ايضا أُبَيّ بن كعب ، وابو زيد قيس بن السّكن وعبادة بن الصامت وسعد بن عبيد وكلهم انصار ، وعلي وعثمان من المهاجرين .

ومن معلمي الصّفة عبادة بن الصامت [3] وهو ممن جمعوا القرآن على عهد النبي(ص) . واعتُبر الراشدون الاربعة فقهاء الى جانب آخرين كأبي عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن جبلة ، وأوس بن ثابت ، وذكوان بن عبد القيس ، وسالم بن عُمير .

واعطت المدينة من الفقهاء اكثر مما اعطته مكة بحكم ان الرسول اقام بالمدينة اطول مدة في العهد الاسلامي ، وفي المدينة كانت الظروف مواتية لتلقين المعارف الاسلامية اكثر مما هو الشان في مكة التي اضطهدت الرسول والمومنين .

التنظيم الاقتصادي

كان الاقتصاد العربي في العصر النبوي اقتصاد استهلاك وانتاج معا ولكن الاستهلاك ظل السمة الغالبة كما كان الشان في عصر ما قبل الاسلام باستثناء بعض المناطق المتفوقة اقتصادياً كاليمن . ولم يكن هناك اكتفاء ذاتي في عدد من المُنتجات كبعض المنسوجات والاسلحة وعدد من الادوات والمواد المتخذة في الحياة اليومية .

ويظهر ان شبه جزيرة العرب كانت تنتج ما يكفيها على العموم من مواش لاسيما الابل التي تعد مورد اقتصاد كبيراً ، وتقدر ثروة الشخص بما يملكه منها . وقد حدد الاسلام انصبة الزكاة عن مختلف الانعام ابتداء من حد ادنى تنص عليه السنة .

1- ابن الاثير ، 2 ، 67 . مقدسي ، 4 ، 166 . غلامي ، اصحاب بدر ص 88 .
2- اصحاب بدر ، ص 101
3- م ، س ، ص 185

ولقد كانت موارد الحكومة النبوية متنوعة بعد ان تعددت الغزوات والسرايا،وكان على جميع المسلمين الذين يملكون عروضا او مزارع او مواشي ان يؤدوا عنها مثلما يؤدي اهل الذمة الخراج والجزية . واهم الموارد :

1- الزكـــــوات
2- الاعشــــــار
3- الخــــراج
4- الجزيـــــة
5- الغنائم والنفْل (ما غنم بغير قتال) كالخيل والسلاح والاموال والمؤونة
6- ما يقدم من فدية عن الاسرى

وفرضت الزكوات في السنة التاسعة حيث نزل قوله تعالى : «**خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم** ... » وفي هذه السنة عُين العمال الاولون على الصدقات [1] وعلى هذا فلم يتم تحصيل الصدقات الا مرتين في العهد النبوي . والزكاة حسب ما نص عليه البلاذري لا تجتمع مع الخراج [2] . والبلاذري وان لم يشتهر بالفقه فقد تتبع بدقة تطورات الوضع الاقتصادي واجتهادات الفقهاء والصحابة .

وكانت اول غنيمة في السنة الثانية حصل عليها المسلمون بقيادة عبد الله بن جحش ، وفيها ابل ومعها اشخاص اقتيدوا أسارى ، وكانت قبل موقعة بدر الكبرى مباشرة ، وتَمَّ تخميسها اي تسليم خمسها للرسول حتى يقسمه بنظره .

وكانت غنائم بدر أضخم كماً وقيمة ، وهي تشتمل على سلع كثيرة لقريش على الرغم من ان اصحاب القافلة استطاعوا ان يهرّبوا قسما منها الى مكة ، وضمنه 70 فرسا .

وفي السنة الرابعة كان من اهم الغنائم مستغلات واراضي بني النضير ، وقد استفاد منها المهاجرون دون الانصار ، لكن عن طيب خاطر من هؤلاء [3] . وانما شكا انصاريان فقرهما للرسول ، وهما سهل بن حنيف وابو دجانة ، فاعطاها الرسول نصيبا ، [4] واشار البلاذري الى اقطاعات لابي دجانة هذا وأبي بكر ، وعبد الرحمن بن عوف . وخصص الرسول لنفسه ما يكفي مؤونة اسرته سنة ، وما فضل جعله للسلاح ودواب الجيش [5] . وفي السنة السادسة قسمت اموال يهود بني قريظة بين المسلمين .

1- طبري ، 3 . 155 ، مقدسي ، 5 ، 52
2- بلاذري ، فتوح ، ص 77
3- م . س . ص 27
4- طبري ، 3 ، 39 . بلاذري ، ص 27
5- بلاذري ، م . س .

وفي السنة السابعة تم الاستيلاء على اموال خيبر ، فقسمت بين المساهمين في الحديبية ، وروى البلاذري (1) ان الرسول قسم اموال خيبر ستة وثلاثين سهما نصفها بين الرسول وبيت المال والوافدين ، وفي رواية ، لم يختص الا بسهم واحد ، واما النصف الثاني فناب كل سهم مائة رجل اي ان المستفيدين كانوا الفا وثمانمائة . ونقل اليعمري عن ابن اسحق تقسيما غير هذا ، وكان الذي تولى عملية تقسيم الاسهم انصاريان هما جبار بن صخر ، وزيد بن ثابت من بني النجار [2] .

واتى ابن هشام بتفصيل دقيق لتوزيع الاسهم زرعاً على المستفيدين . [3]

اما فدك التي عرضت على النبي مشاطرته نصف اراضيها فقد قبل عرضها . ولما كان حصول المسلمين على هذه الاموال من غير قتال فقد تركت حرية البت فيها للنبي (ص) ، فكان يخصصها لابناء السبيل (الغرباء والمنقطعين) [4] .

وفي أيام بني أمية وقع استيلاؤهم على اموال فدك ، واخرجوها عن مصارفها باستثناء عمر بن عبد العزيز الذي ردها الى ما كانت عليه [5] .

واما يهود وادي القُرى فعرض عليهم الرسول الاسلام فابوا ، فافتتح اراضيهم عنوة ، وعاملهم كأهل خيبر ، ثم افتتح تيماء صلحا فكان سكانها يؤدون الجزية ، وكان افتتاحها سنة 7 هـ [6] .

وبلغت غنائم هوازن بعد معركة حنين اعدادا ضخمة من الانعام ، فضلا عن السبي فكان فيها : [7]

- 6 آلاف راس من السبي
- 24 الفا من الابل
- 40 الفا من الشياه او اكثر
- 4 آلاف اوقية فضة

واكبر نصيب من الغنائم ناله المؤلفة قلوبهم ، وبينهم ابو سفيان وابنه معاوية وصفوان بن امية ، وعددهم حوالي المائة ، وأدّى تقسيم الغنائم على المهاجرين وقبائل اخرى من غير الانصار إلى غضب جماعة الانصار ، وأما السبايا فقد اعيدت الى اهلها .

1- بالذري ، ص 38
2- يعمري ، عيون الاثر ، 2 ، 180
3- ابن هشام ، سيرة 3 ، 225 ، 228
4- بلاذري ، ص 41
5- بلاذري ، ص 43 ابن الاثير ، 2 ، 152
6- بلاذري ، ص 47 - 48
7- يعمري ، 2 ، 249

وروى الطبري بشان نتائج هذا التقسيم الحادثة التالية [1] :

" ... لما فرغ رسول الله (ص) من رد السبايا الى اهلها ركب واتبعه الناس يقولون : يا رسول الله ، اقسم علينا فيئنا من الابل والغنم ! ... حتى ألجأوه الى شجرة ، فاختطفت الشجرة عنه رداءه ، فقال : ردوا عليَّ ردائي ايها الناس ، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نَعَما لقسمتها عليكم ، ثم ما لقيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا .

ثم قام الى جنب بعير ، فأخذ وبرة من سنَامه فجعلهابين أصبعيه ، ثم رفعها فقال : أيها الناس والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبَرَة الا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط ، فان الغلول يكون على اهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة " .

وطمأن الرسول الانصار ، إذ كانت قريش في اول عهدها بالاسلام ، وما زال على المسلمين ان يخوضوا حروبا ضد الجيران المناهضين للاسلام ، ومن وراء هذه الحروب استفادةٌ للمحاربين وكسب للاسلام .

وكانت التحف والهدايا التي تقدم للاصنام مما يدخل في غنائم المسلمين وفيئهم الا ان الهدايا النفيسة والتحف الموجودة بالكعبة لم يسمح الرسول بتقسيمها .

ومنذ السنة العاشرة تعين على نجران ان تؤدي الفَيْ حلة لبيت المال كجزية جماعية مقابل بقاء نصارى نجران على دينهم ، وتم جلاء نصارى نجران في عهد عمر بعد نزاع بينهم وبطلبٍ منهم وان كانوا قد ندموا على ذلك ، وقد تناقص اهل نجران بعد جلائهم الى الشام او انصهروا في عدة مجموعات عربية [2] . ونقل البلاذري نص عهد للصّلح الذي حرر باسم الرسول لاهل نجران ، ومن شروطه استضافة مبعوثي النبي شهرا ومساعدتهم لقيادة اليمن بالسلاح عند الحاجة ، والتزام الرسول بعدم الزامهم بالحرب مع المسلمين وان لا يفتنوا عن دينهم ، الخ ... [3]

وكانت جزية اهل الكتاب في تبالة وجرش (وهما من مراكز نجد التابعة لمكة) دينارا واحدا عن الشخص البالغ [4] ، وطبق نفس المبلغ على نصارى ايلة وتبوك بالشمال . اما اهل مقنا بالشمال ايضا ، وكانوا يهودا ، فقد صالحهم النبي على ربُع ممتلكاتهم بما

1- طبري ، 3 ، 136

2- ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 199 . بلاذري ، فتوح ، ص 85 - 88

3- بلاذري ، م ، س

4- م ، س ، ص ، 79

فيها الاسلحة والدواب وانتاج الارض ، وكان ذلك في السنة التاسعة [1] .

وحصل المسلمون على اموال مهمة من دومة الجندل الواقعة بين المدينة ودمشق. وتضمن عهد النبي لاميرها أكيدر مجموع الاموال والممتلكات التي دخلت في ملك المسلمين [2] .

والتزم المجوس واليهود والنصارى من سكان البحرين باداء نصف غلاتهم وجزية دينار عن كل بالغ ، وبلغت قيمة الجزية ثمانين الف درهم ، وهو مبلغ قيل ان الرسول لم يتسلم مثله من قبل ولا من بعد [3] . كذلك الزم اهل هجر باداء جزية دينار عن كل بالغ .

وتجدر الاشارة الى ان القسم الاكبر من الاراضي العربية قُبَيْلَ الاسلام كان ملزما باداء الخراج او ضرائب معينة إما الى الفرس وهم اشمل سلطة في شبه الجزيرة او إلى الروم بالنسبة للجهات المتاخمة لبادية الشام . وكان سكان يثرب قبل الاسلام يؤدون خراجا مزدوجا ، أحدهما لعامل الجباية الفارسي ، والثاني لقريظة وبني النضير. وكان على تهامة ويثرب عامل جباية تابع لمرزبان (حاكم) الفرس [4] باليمن .

اما عمال الصدقات الذين نقل اليعمري لائحتهم عن ابن سعد ، فهم [5] .

1- عُيَيْنَة بن حصن إلى ابن تميم

2- يزيد بن الحصين ، او كعب بن مالك : اسلم وغفار

3- عباد بن بشر الاشهلي : سليم ومزينة

4- رافع بن مكيث ، جهينة

5- عمرو بن العاص : بنو فزارة . وذكر ابن الاثير [6] ان عَمْراً أخذ الزكاة في السنة الثامنة من أزدِعمان واخذ الجزية من مجوسهم ، وقد عرفنا ان تشريع الزكاة لم يتم الا في التاسعة .

1- م . س . ص 80
2- م . س . ص 82
3- م . س . ص 106 - 11
4- ابن خرداذبه ، مسالك ، ص 28
5- يعمري 2 ، 260 . ابن هشام ، 4 ، 182
6- ابن الاثير ، 2 ، 185

6- الضحاك بن سفيان الكلابي الى بني كلاب
7- بسر بن سفيان الكعبي الى بني كعب
8- ابن الاتبية الازدي الى بني ذبيان
9- احد بني سعد بن هذيم الى قومه
10- المهاجر بن ابي امية الى صنعاء
11- زياد بن لبيد الى حضر موت
12- عدي بن حاتم الى بني اسد وطيئ
13- مالك بن نويرة الى بني حنظلة .
14- الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم على بني سعد (وهم غير بني سعد السابق ذكرهم) .
15- العلاء بن الحضرمي: البحرين
16- علي بن ابي طالب : نجران

كما نجد خالد بن سعيد بن العاص يعين في السنة العاشرة على صدقات مراد وزبيد ومذحج [1] . وباليمن جمع معاذ بن جبل بين القضاء ومهمة عامل الصدقات [2] ، كما جمع عمرو بن حزام في نجران بين العمالة الادارية والجبائية ومهمة التكوين الديني [3] .

وقد بين الرسول اهداف الزكاة في خطاب وجهه الى احد امراء حمير زرعة ابن ذي يزن ، ونص الخطاب [4] .

"... اما بعد ، فاذا اتاك رسولي معاذ بن جبل واصحابه فاجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية ، فأبلغوه ذلك ، فان امير رسلي معاذ ، وهو من صالحي من قِبَلي ، وان مالك بن مرارة الرهاوي حدثني انك قد اسلمت اول حمير ، وفارقت المشركين ، فأبشر بخير .

وانا آمركم يا معشر حمير ألا تخونوا ولا تُحَادّوا ، فان رسول الله مولى غنيكم

1- ابن الاثير ، 2 ، 185
2- يعمري ، 2 ، 260 . ابن هشام ، 4 ، 182
3-- ابن الاثير ، 2 ، 185
4- بلاذري ، ص 94

وفقيركم ، وان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآله ، انما هي زكاة تزكون بها : هي لفقراء المسلمين والمؤمنين ، وان مالكا قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب ، وان معاذا من صالحي اهلي وذوي دينهم ، فآمركم به خيرا فانه منظور اليه والسلام . "

ولما كانت الحكومة النبوية قد تعززت مواردها بالاراضي التي تم الاستيلاء عليها عنوة من اليهود الذين حاربوا النبي ، وكذا بعض العرب الذين رفضوا الاسلام او الجزية، فقد استفاذ المجاهدون والمؤلفة قلوبهم من الاقطاعات التي تنازل لهم الرسول عنها اما تقديرا لكفاحهم او لحاجتهم او ضمانا لاخلاصهم للاسلام ، وهذا النظام كان معروفا لدى قادة الفتوح في مختلف الامم ، وظل كذلك حتى عصرنا هذا حيث يتبوأ قدماء المحاربين مكانا مفضلا في الاستفادة من بعض الامتيازات ، كما تراعَى مكانة بعض الزعماء والمسؤولين السابقين الذين توقفوا عن مناهضة النظام الجديد او انضموا اليه .

وهكذا حصل الزبير بن العوام على اقطاع من اراضي بني النضير ، وهو واحة تنتج كمية من التمر [1] . وطلب احد المسلمين في اليمامة من النبي ان يقطعه ارضا مواتا فقبل طلبه . [2]

ومن الاقطاعات السابقة لأوانها ما خصصه الرسول من مستغلات اراض شاسعة بفلسطين لاسرة تميم الداري ، وهم ستة نفر او ثمانية [3] ، وقد جاءوا الى الرسول يستقطعونه هذه الاراضي فكتب لهم على قطعة جلد ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله للداريّين اذا اعطاه الله الارض ، وهب لهم بيت عَيْنون وَحَبْرون وبيت ابراهيم .

شهد عباس بن عبد المطلب ، وجهم بن قيس ، وشرحبيل بن حسنة ... وكتب .

وكان هذا الحَدَثُ قبل الهجرة ، ودعا الرسول الداريين الى تجديد الاتصال به بعد الهجرة ، فلما وفدوا عليه كتب لهم عهدا جديدا وجعل الاقطاع ملكا لهم ولأعقابهم وشهد عليه الراشدون الاربعة ومعاوية بن ابي سفيان . [4]

1- ن . م . ص 31

2- ن . م . ص 119

3- القلقشندي ، صبح الاعشى ، 13 ، 118 - 119

4- م . س . ص 120

وكان في وفد طيئ الى الرسول (ص) لاعتناق الاسلام ، عدد من الشخصيات العربية المرموقة كزيد الخيل الذي اقطعه الرسول ارضا وبئرا معها [1] ..

ولكن الرسول رفض ان يقطع شخصا معدن ملح اظهر الرغبة في استغلاله ، واجاب الرسول طالب الاقطاع بقوله : إنه كالماء العذب [2] ، ومعنى هذا ان المعدن المذكور ضروري للاستغلال العمومي وللاغراض البشرية اليومية مثل حاجة الناس الى الماء . . وبالمقابل أقطع الرسول بعض الصحابة معادن اخرى [3] .

وقد اثيرت قضايا ومشكلات كثيرة في العهد النبوي تتعلق باستغلال الاراضي وسقيها وتقسيم غلاتها ، وكان الرسول (ص) يَبُتُّ فيما يعرض عليه منها فيغني بذلك ، التشريع الزراعي ، وتصبح احكامه اصولا لما سيقع من اجتهادات واحكام قضائية وفتاوٍ فقهية . وهكذا وضعت بين يديه قضية استغلال احد سيول المدينة ، والسيل هو الوادي الذي لا يجري بانتظام ويرتفع ماؤه ايام المطر ، واسم السيل " مهزوز". ولما كان يمر على اراض ينحدر السيل بانحدارها فقد وقع النزاع بشأن طريقة السقي ، حتى قرر الرسول ان يحبس الأعلى على الاسفل حتى يبلغ الماء الكعبين ، ثم يرسله الى الذي يليه ليسقي بنفس الطريقة [4] .

وفي باب التعسف في استعمال الحق كان لِسَمُرة بن جندب وهو من مشاهير رواة الحديث عن النبي (ص) ، نخل في حائط رجل من الانصار ، فكان سمرة يدخل ارض الرجل وهو بين اسرته فيتضايق الجار من ذلك ، فطلب من سمرة ان يبيعه النخل المذكور ، فرفض ثم رفع قضيته الى النبي (ص) ، فدعا سمرة الى ان يتنازل عن النخل بيعا فأبى ، فامر الرسول الانصاري عندئذ بقطع النخل [5] .

وامثلة التنظيمات النبوية في الميدان الزراعي كثيرة تضمنتها كُتُبُ الفقه والحديث . وبالنظر لقلة المياه السطحية فان العمل الزراعي كان يتطلب مجهودا بشريا كثيفا

1- ابن خلدون ، تاريخ ، 2 ، 39

2- بلاذري ، ص 99

3- ن . م . ص 21 - 22

4- ن . م . ص 17 ، ابن فرج ، اقضية ، ص 90 .

5- اقضية ، ص 91

ومتواصلا ، ولذلك لجأ الملاكون من عهد قديم الى طبقة الرقيق التي كانت كثيرة في بلاد العرب [1] ، وحتى داخل المجتمع العربي نفسه كان الاسر في حرب او غارة ، مبررا يعد طبيعيا للاسترقاق ، ومن المعلوم ان نظام الاسترقاق كان عرفا دوليا ، ولم يكن للعرب ان يتخذوا موقفا مناقضا على الفور ، لأن العرب ايضا يُؤسرون ويسترقون لدى الشعوب الاخرى ، ولم تكن هناك معاهدات دولية تلغي ما ليس صالحا او تقرر ما هو صالح ، غير ان الفرق بين المسلمين وغيرهم في معاملة الرقيق هو ما اوردته الشريعة الاسلامية في هذا المجال وهو يقدم امثلة جليلة في المعاملة الانسانية ، فضلا عن أن الموالي وعددا من المعتقين في الاسلام اسهموا في نشر المعرفة وكانت لهم اياد على ازدهار الحضارة الاسلامية لا تنكر .

وكانت الآبار وبعض المياه الراكدة القليلة معتمد السكان في عامة نشاطهم الزراعي . وقد تحدث بعض الجغرافيين عن الاماكن التي توجد بها هذه النقط المائية ، وهي تتناثر في المحاور التجارية وطرق القوافل ، حيث تستخدم للشرب والسقي [2] .

وكلما اتجه المار جنوبا نحو اليمن ، وجد ايضا عيونا كثيرة تغذيها الثلوج التي تنحدر مياهها عبر الجبال ، بالاضافة الى الامطار الموسمية [3] .

وكان التمر من اهم مُنْتجات الجزيرة في عهد الرسول ، ولمدة طويلة بعده ، ومن مراكز انتاجه ، اليمامة والمدينة ، والطائف التي تميزت بانتاج الزبيب ايضا ، وخيبر وتيماء ونجران وجرش وعمان .

ومن اهم الموانئ ، جدة التي ظلت مركزا تجاريا هاما عبر القرون ، وهي على بحر القلزم (البحر الاحمر) ، وصحار مركز عمان شرقي جزيرة العرب ، وعدن جنوب اليمن ولكن كانت قليلة السكان ، وتتوفر مع هذا على احجار اللؤلؤ [4] .

وكانت الاسواق الاسبوعية وغيرها من الاسواق الدورية تمثل ملتقيات تجارية حيوية

1- اصطخرى ، مسالك ، ص23

2- ابن خرداذ به ، مسالك ، ص 129 - 134

3- م . س . ص 134 - 135

4- اصطخرى ، مسالك ، 26

لضمان التبادل بين البوادي والمراكز الحضرية .

ومن اهم الاسواق السنوية سوق عكاظ الذي يقام في واحة كانت تحمل اسمه ، وموقعها قريب من الطائف [1] ، وكان السوق يعقد في شوال ، ويُعَدُّ عكاظ اكبر الاسواق الوطنية في بلاد العرب وتفيد اليه قاصدوه من العراق والشام فضلا عن سكان شبه الجزيرة . وكان مناسبة لعقد الصِّلات الاجتماعية وتنظيم بعض الانشطة السياسية ، وقد تتفق فيه بعض القبائل او العناصر على اعمال عدوانية او دفاعية تجاه اطراف أخرى ، وهو الى ذلك سوق ادبي يتنافس فيه الشعراء ويقدمون الجديد من انتاجهم .

وكانوا ينتقلون من عُكاظ الى المَجَنَّة فيقضون به عشرين يوما من القعدة ، وهو باسفل مكة على اميال منها ، ثم ينتقلون الى ذي المَجاز الذي يظل مفتوحا ايام الحج من فاتح ذي الحجة الى الثامن منه ، وهو بعرفة على ناحية من كبكب كما يقول ياقوت [2] .

وقد طاف الرسول قبل الهجرة بكل هذه الاسواق " يتتبع القبائل في رحالها ويغشاها في انديتها ، يدعوهم الى ان يمنعوه ليبلغ رسالة ربه " [3]

وكانت هناك عدة اسواق اخرى موسمية تنعقد بالتعاقب في بقاع بلاد العرب فتظل الحركة التجارية على النطاق الوطني في نشاط دؤوب ، ولا يستأثر اقليم دون آخر بهذا النشاط ، وجلها استمر في اداء مهمته مدة طويلة بعد الاسلام .

وبالاضافة الى المواشي والمُنْتَجات الزراعية وانواع التمر او الجلود والمنسوجات والاسلحة التي كانت تُتبادل في هذه الاسواق ، كانت هناك مُنْتجات البلاد المجاورة ، وكان تجار قريش واليمن من انشط العناصر العربية في ميدان التبادل مع الخارج ، وكانت الفضة من اهم السلع التي تدخل في تجارة قريش خاصة [4] . وبين صحابة الرسول كثيرون اشتهروا في ميدان التجارة كالزبير بن العوام وعثمان وابي بكر وعبد الرحمان بن عوف . وتناول الجغرافيون القدامى طرق التجارة الداخلية في شبه الجزيرة ، وكذا التي تربطها بالاقطار المجاورة . وجل الطرق الداخلية لم يدل عليه تغيير

1- اقضية ، ص 91
2- ياقوت ، م . س ، مادة مجنة ، ومجاز
3- مقدسي ، بدء ، 5 ، 165
4- ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 101

فيما بين العصر الجاهلي والقرون الاولى للإسلام [1] .

ولم يثبت ان الرسول سك عملة للتعامل ، فقد احتفظ بالنقود الدولية الرائجة في زمانه ببلاد العرب ، لا سيما النقود الفارسية والبيزنطية ، بالاضافة الى الفضة غير المسكوكة ، والى نظام المقايضة الذي كان شائعا بالبوادي .

التنظيم الحربي

شغل هذا التنظيم شطرا كبيرا من مرحلة الهجرة ، غير ان سنة كاملة مرت من الهجرة دون اي اصطدام حقيقي بين المسلمين والاطراف المعادية ، ثم مر شطر كبير من السنة الثانية قبل حصول اول مواجهة عامة هي موقعة بدر ، فمن البعثة الى حين هذه المواجهة فترة تناهز ثلاث عشرة سنة تمثل كلها مرحلة التحدي والتفوق القرشي ، والاضطهاد الذي لقيته الحركة الاسلامية والاذاية الجسدية التي مست الرسول والمومنين . اما المدة التي استغرقتها عمليات الجهاد فتناهز تسعة اعوام من حياة الرسول (ص) ، وخلالها قدم القرآن والسنة لعمليات النضال وما يتعلق بالحرب والسلم تعاليم كثيرة اعتمدت في التشريعات الحَرْبية بعد ذلك ايضا .

ولم يكن للمسلمين ولا لخصومهم جيش نظامي ، فكانت المواجهة من الجانبين تعتمد على التعبئة العامة ، أي استنفار القبائل او العناصر التي يحتاج اليها هذا الجانب او ذاك للقيام بعملية حربية ، والمفروض ان كل عربي من الذكور الراشدين يحمل سلاحه الخاص ، وحتى ان لم يحمله فلا شيئ يمنعه من حمله .

واغلبية الجيش الاسلامي من العرب طيلة الحكم النبوي ، لكن فئة الموالي والـمُعْتَقين تشغل مكانا بارزا في هذا الجيش اما جنودا او قادة ، وكثرة هذه الفئة تعود الى مبدأ المساواة البشرية في الاسلام والتي لا تفرق بين الاجناس والالوان واللغات والانتماءات الجغرافية ، ووجود عناصر منها في قيادة الجيش الاسلامي تزكية لهذا المبدأ بالذات ، ومن ابرز هؤلاء الموالي والمعتقين والذين ذكرت اسماء اكثرهم في فصول سابقة :

1- ابن خرداذبه ، ص 125 - 153 . اصطخري 21 - 28 .

1- ابو مرثد الغنوي [1] ، وهو من المهاجرين الذين شهدوا جميع معارك الرسول وتوفي بالشام سنة 12 هـ

2- ابنه مرثد بن ابي مرثد ، من المهاجرين [2] وشهد بدرا وأحدا ، وتولى قيادة سرية الى مكة في السنة الثالثة ، واستشهد يوم الرَّجيع .

3- عبد الله بن جحش من المهاجرين [3] وقواد السريا ، شهد بدرا ، وقتل في احد ، حيث دفن مع حمزة في قبر واحد .

4- عامر بن فهيرة [4] ، كان يعذبه مولاه الطفيل بن عبد الله ، فاشتراه ابو بكر واعتقه ، شهد بدرا واحدا ، وقتل في بئر معونة سنة 4 هـ .

5- بلال بن رباح مؤذن الرسول (ص) [5] واحد المهاجرين والمسلمين الاولين ، كان عبدا يؤذيه ابو جهل فاشتراه ابو بكر وأعتقه ، ولقي العذاب على يد أمية بن خلف حتى كتب لبلال ان يقتله في بدر . وكان من اعز الناس لدى الرسول (ص) ، توفي ودفن بدمشق سنة 20 . وهو ممن شاركوا في مختلف معارك الرسول ، واصله من الحبشة .

6- صهيب بن سنان [6] ، عربي الاصل ، سباه الروم في غزوهم للعراق ، فعرف بصهيب الرومي ، ثم اشتراه عبد الله بن جدعان واعتقه ، وشهد جميع المعارك في العصر النبوي ، توفي ودفن بالمدينة سنة 38 .

7- عمار بن ياسر [7] ، لقي الاذى على يد قريش ، هو وأبوه من مهاجري الحبشة والمدينة ، وكان من المستشارين الحربيين للرسول ، ولاه عمر الكوفة وقتل سنة 37 في صفين ، وكان مع علي .

اما قيادة السرايا وهي المواجهات التي لا يحضرها الرسول ، فكانت تسند الى عناصر تحظى بثقة الرسول ، واغلبيتهم من الشباب الذين يتوقدون عزما وحماسا للنضال . ومن قادة السرايا : عكاشة بن محصن [8] ، في الغمر " او الغمرة" وهي في الطريق بين

1- غلامي ، اصحاب بدر ، ص 88
2- ن . م . ص 90
3- ن . م . ص 91
4-ن . م . ص 105
5- ن . م . ص 106
6- ن . م . ص 108
7- ن . م . ص 111
8- ابن خرد اذبه ، مسالك ، ص ، 132

مكة والعراق ، وأبو عبيدة بن الجراح في ذي القصة [1] ، (بفتح القاف) على 24 ميلا من المدينة ، وزيد بن حارثة بوادي القرى حيث توجد جالية يهودية ، وهي في الطريق بين المدينة ودمشق ، وعبد الرحمن بن عوف بدومة الجندل التي توجه اليها خالد بن الوليد ايضا ، وهي فيما بين المدينة ودمشق ، وعبد الله بن رواحة بخيبر ، وعمر بن الخطاب [2] بتُربَة (بفتح الراء) وهي واد قريب من مكة ينبع من جبل السراة وعلى ضفتيه واحة تمتد على مسافة كبيرة ، وعمرو بن العاص [3] بذات السلاسل بالشام ، وأتبعت هذه السرية باخرى يقودها ابو عبيدة ومعه ابو بكر وعمر [4] ، (لأن عمرو بن العاص جبن عن المواجهة وحده) ، وعلقمه المذحجي الى ساحل البحر الاحمر [5] وهي سرية فريدة في العهد النبوي لانها وجهت الى البحر بمراكب حبشية ، وكان القصد منها مطاردة بعض المشركين ، واسامة ابن زيد الى البلقاء بفلسطين [6] وحمزة بن عبد المطلب بجُهَينة [7] ، وهي من قبائل قضاعة على ساحل البحر الاحمر شمالا .

واعظم سرية هيأها الرسول دون ان يبقى على قيد الحياة ليتَتَبَّعَ احوالها هي سرية أسامة بن زيد التي خصصها للبلقاء . وأثار تعيين اسامة على راس كبار المهاجرين والانصار احتجاجاتهم الى ان نفَّذ ابو بكر وصية الرسول .

وبعض هذه السرايا كانت مهمتها ان تقوم بعمليات سريعة واستطلاعية مالم تتمكن من تحقيق نتائج نهائية ، فسرية عمر بن الخطاب الى هوازن تُربَة لم تواجه مقاومة ، لان سكان المنطقة انسحبوا امامها ، بينما قامت سرايا اخرى بالاستيلاء على اموال وانعام في الجهات التي كلفت بغزوها ، واصيبت بعض السرايا بمواجهة قاصمة ، كسرية بشير بن سعْد الانصاري ، الى بني مرة بفدك ، فقد اصيب جنده كما تلقى هو نفسه طعنات قاتلة [8] .

1- ياقوت ، معجم البلدان ، مادة ": قصة"
2- مقدسي ، بدء ، 4 ، 227
3- ن . م . ص 232
4- ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 156
5- م . س . ص 239
6- م . س . ص 241
7- غلامي ، اصحاب بدر ، ص 74
8- ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 153

ولما كانت القاعدة العسكرية والادارية تقتضي ان يتحمل المسؤول الرئيسي الاخطاء غير المتعمدة لمساعديه ، فان الرسول عليه السلام ، بوصفه القائد العام للجيش ، كثيرا ما فاجأه هؤلاء المساعدون بتصرفات لا تتفق مع سماحة الاسلام وانفتاحه ، وهكذا قَتل اسامة في سرية جُهَيْنة شخصا وهو ينطق بالشهادة،فلما أُخبر النبي بما فعل ، سأله الرسول : كيف تصنع بلا اله الا الله ؟ ! [1] .

وبعث الرسول خالد بن الوليد داعيا الى الاسلام في جذيمة ، فتلقاه بعض رجالها بالسلاح ، فقال : ضعوا السلاح ، فان الناس قد اسلموا : فلما وضعوه قتل منهم عدداً دون ان يدعوهم الى الاسلام ، وتألَم الرسول لهذا التصرف وقال : اللهم إني ابرأ اليك مما صنع خالد ، ثم تولى الرسول دية القتلى وقدم خالد اعتذاره [2]

وكانت فرقة الرماة في الجيش النبوي تكون عموده الفقري • وبَرَز دور الرماة في اهم المعارك التي خاضها المسلمون ، وفي معركة أُحد كان فريق الرماة من خمسين نفرا يقودهم عبد الله بن جُبَيْر .

وفي المواجهة الكبرى يقسم الجيش الى مَيْمنة ومَيْسرة وساقة ومقدمة ، وهكذا ففي فتح مكة كان علي الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة الزبير بن العوام ، وعلى المقدمة ابو عبيدة بن الجراح . واحتفظ الرسول بالاحتياطي او الساقة حيث ضرب قبته باعلى مكة [3] .

وفي حُنَيْن كان على المقدمة في بني سليم ، خالد بن الوليد [4] ، وكان على الساقة في غزوة بدر قيس بن ابي صعصعة الانصاري [5] ، وفي غزوة مؤتة كان على الميمنة قطبة العذري ، وعلى الميسرة عَباية بن مالك الانصاري .

ويعهد بحمل الراية الى قادة معروفين بروح الشجاعة والتضحية ، ودورهم في ارشاد

1- م . س .
2- ن . م . ص 173
3- ابن خلدون ، 2 ، 800 ، 806 . كتاني ، تراتيب ، 1 ، 325 - 326
4- كتاني ، م ، س ، ص ، 326
5- ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 83 ، غلامي ، اصحاب بدر ، ص 227

الجيش الى المسالك وضمان التفاف المحاربين حولهم يتخذ طابعا من التنظيم والقداسة ، حتى ان الطرف المعادي يحاول ان يوجه طعناته اليهم قبل غيرهم ليثبط من عزيمة الجيش ، لا سيما الصفوف غير الامامية التي اذا افتقدت حامل الراية تصاب بالحيرة فيؤدي ذلك الى هزيمتها توقعاً لهجوم معمق داخل صفوفها ، مالم يرشح لحمل الراية شخص آخر او تقع منه المبادرة . وعقْد اللواء عند الذهاب الى الحرب من التقاليد الحربية القديمة لدى الشعوب . وكان الرسول اذا وجّه سرية عقد لواء وسلمه الى قائدها او مساعده .

وكان اول لواء عقد في العهد النبوي عند دخول الرسول (ص)إلى المدينة مهاجراً حيث حمل اللواء بين يديه بُرَيْدة [2] ، وليس هناك تحديد مُجْمَع عليه ، للفرق بين الراية واللواء وقيل ان اللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه ، والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح [3] ، وفي الحديث عن المغازي تكلّم الرواة تارة عن اللواء وتارة عن الراية او حاملها ، وقيل ان الرسول (ص) كانت له راية سوداء ولواء ابيض [4] ، وكان لكل قبيلة راية ، كما رُوي ان الرسول عقد لسعد بن مالك الأزدي راية سوداء فيها هلال ابيض [5] . ويبدو ان اتخاذ الهلال والحالة هذه ، ابتكار نَبَوي محض لا علاقة له بالتقاليد الاجنبية ، لان الهلال رمز مطالع الشهور للفطر والصوم ، كما ان العرب شأن شعوب سامية اخرى اعتمدوا الحساب القمري الذي وردت بشانه بعض الاشارات القرآنية . وروي ان الرسول كانت له راية مخططة من صوف فيها رسوم أهِلّة ، وكانت رايته الكبرى تدعى العقاب وهي سوداء ، كما ذكر ان لواءه كان منسوجا عليه : لا إله الا الله ، محمد رسول الله [6] .

واول لواء حربي عقده الرسول سلم لحمزة بن عبد المطلب في السنة الأولى وذلك في غزوة ودان التي سميت ايضا بالأبواء ، وهو مكان لقاء المسلمين فيها بقريش ولكن لم يحدث فيها قتال [7] . على أن هناك اختلافا في شهر وقوعها خلال السنة المذكورة . وكان لواء حمزة أبيض ، وحمَله أبو مرثد [8]

1- ابن الاثير ، م . س ، ص 159 ابن خلدون ، 2 ، 749
2- كتاني ، تراتيب ، 1 ، 317
3- م . س . ص 318
4 -م . س . ص 318 و 321
5- م . س . ص 320
6- م . س . ص 322
7-مقدسي ، بدء ، 4 ، 181 . ابن خلدون ، 2 - 744 .
8- ابن الأثير ، 2 77 - 78

وفي غزوة بدر حمل اللواء مصعب بن عمير ، وراية المهاجرين علي ، وراية الانصار سعد بن عبادة ، وكانتا سوداوين [1] .

وفي غزوة احد حمل اللواء مصعب بن عمير ، فلما قُتل حمله علي بن ابي طالب وفي هذه الغزوة قتل عدد كبير من حملة لواء المشركين واحداً بعد واحد ، وكان قتلهم على يد علي بن ابي طالب ، وكان آخر من قتل منهم غلام حبشي اسمه صواب الذي قطعت يداه فتلقى اللواء بصدره وعنقه حتى قتل وهو يقول : اللهم هل أعذرت [2] ؟!

وبعد احد استعد بنو اسد لغزو المدينة ، فوجه الرسول اليهم سرية بقيادة ابي سلمة الذي عقد له لواء [3] .

وعند توجه الرسول لفتح خيبر سلم الراية الى ابي بكر فقاتل قتالا شديدا ثم رجع دون فتح ، فسلم الرسول الراية الى عمر فقاتل بشدة ثم عاد ، فقال الرسول (ص) :

أما والله لاعطينها غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، وقد نسبت هذه الرواية الى بريدة [4] ، ومع أنه لا جدال في الكفاءة العسكرية العالية التي تميز بها علي ، فان الرسول عليه السلام لا يمكن ان ينقص من شخصية ابي بكر وعمر ، خصوصا على ملأ من الناس ، ولم يثبت قط ان بدر منه ذلك في رواية كهذه ، وقد حمل علي الراية النبوية في غزوة بني قريظة ايضا [5] .

ولما كانت حملة مؤتة التي واجه فيها المسلمون بجيش صغير جحافل الروم وانصارهم من العرب ، عين الرسول ثلاث قادة يتولون حمل الراية بالتتابع ، كلما استشهد واحد خلفه آخر وفعلا استشهد الثلاثة ، وهم زيد بن حارثة ثم جعفر بن ابي طالب ، ثم

1- م ، س ، ص 83 طبري ، 2 ، 272 . ابن خلدون ، 2 ، 749

2- طبري ، 3 ، 17 ، 18

3-غلامي ، اصحاب بدر ، ص 281

4- طبري ، 3 ، 93 . مقدسي ، 4 ، 226

5- ابن خلدون ، 2 ، 795 ، و777 .

عبد الله بن رواحة ، وتدارك الموقف بعد استشهاد عبد الله بن رواحة خالد بن الوليد فحمل الراية وانسحب بالجيش ، وقيل ان الرسول قال فيه : اللهم انه سيف من سيوفك ، فانت تنصره ، ولقب خالد منذئذ بسيف الله [1] .

وفي غزوة تبوك حمل الراية ابو بكر [2]

وعلى العموم يظهر علي بن ابي طالب كحامل للراية في جل المواجهات الكبرى عن المهاجرين ، وسعد بن عبادة عن الانصار . [3]

وقد تقوى الجيش الاسلامي من حيث العدد ، مع انضمام مزيد من المسلمين اليه ، وهكذا حضر في معركة بدر 314 رجلا مقابل 950 لدى قريش ، وفي أُحد الف مقاتل ثلاثة آلاف من المشركين ، وفي مؤتة ثلاثة آلاف مقابل مائة الف أومائتي الف لدى الروم ، وفي فبح مكة عشرة آلاف ، وفي حنين 14 الفا وفي تبوك ثلاثون الفا منها عشر آلاف فارس واثنا عشر الف راكب وثمانية آلاف راجل .

واستخدمت جميع الاسلحة التي كانت معروفة في هذا الوقت حتى عند البيزنطيين والفرس ، ومنها :

1- الدروع ، ج . درع ، وهو سلاح دفاعي استعمله الرسول في غزوة احد التي مُحِّص فيها المسلمون ، وكانوا في مائة دارع والمشركون في سبعمائة دارع [4] ، وكان للرسول ثلاثُ دروع يحمل كل منها اسما [5] ، ولبس في " احد" درعين إحداهما اسمها ذات الفضول والأخرى فضة ، وكان غنمهما من بني قَيْنُقاع [6] ، الذين كان بينهم ثلاثمائة دارع ، وكان للرسول ترس يتقي به الضربات المباشرة [7] .

1- طبري ، 3 ، مقدسي ، 4 ، 230 ، ابن الاثير ، 2 ، 259 ، ابن خلدون ، 2 ، 800

2- غلامي ، م . س ص 281

3- غلامي ، م . س . ص 281

4- طبري ، 3 ، 12 . مقدسي ، 4 ، 199 ، 202

5- ابن خلدون ، 2 ، 762

6- ابن الاثير ، 2 ، 215 . ابن خلدون ، 2 ، 759

7- ابن الاثير ، ن ، م ، وص

وفي فتح مكة كان الموكب النبوي يتكون من المهاجرين والانصار وهم يرتدون الدروع البيض [1] .

2- اسلحة الرمي ومنها النبل ، واستعمل في عدد من الغزوات كأحد ، كما اقتصرعليه في غزوة الخندق (الأحزاب) ، وبه تُرْمى السهام ، واستعان الرسول بالرماة في اهم غزواته ، وفيهم من اشتهر كزيد بن سهل ، وكان مِمَّن دافعوا عن الرسول في احد ، وشهدمعه عدة معارك ، وسعد بن عبادة حامل راية الانصار [2] . وكان تخلي الرماة عن مراكزهم في احد من اكبر اسباب هزيمة المسلمين .

وكان للرماة دور كبير في حرب الخندق من الجانبين المتحاربين معا .

واستعمل المنجنيق باشارة سلمان الفارسي في حصار الطائف سنة 8 وهو آلة تقذف بالحجارة على هيئة المدافع [3] ، وكانت رغبة بني ثقيف ان تواجه المسلمين بنفس السلاح ، وعلمت باستعداداتهم قبل ذلك ، فبعث رجلين يتعلمان في جرش صناعة المجانيق والدبابات ، ولم يتمكن المسلمون من اقتحام حصن الطائف فقد استعملت كوكبة من جيش الرسول دبابة بدائية من الجلد لنقب الاسوار والبحث عن ثغرة ، فارسل عليهم المحاصرون حديدا حاميا احرق الدبابة واصاب الكوكبة ، فأفرج الرسول عن الحصن [4] .

3- اسلحة الطعن واهمها الرماح والسيوف

اما مصادر السلاح فاهمها اليمن والشام والعراق .

وللخيل اهمية كبيرة في العمليات الحربية ، وكان الرسول يخصص مبالغ كبيرة لشراء السلاح توقعا لهجوم الجهات المعادية ، وهكذا كان الرسول يخصص من الفيئ نفقة سنة لبيته والباقي يشتري به خيلا وسلاحا كما فعل باموال بني النضير ومردود

1- ابن خلدون ، 2 ، 806

2- مقدسي ، 4 ، 220 ، 217 . ابن الاثير ،2 ، 124

3- غلامي ، ص 22 2 و 236

4- ابن الاثير ، 2 ، 181

5- بلاذري ، فتوح ، ص 74 . مقدسي ، يد، ، 4 237

بيع سبايا قريظة [1] ، وكان مع الرسول في عُمْرة القَضاء مائة فرس ، واستعمل على السلاح بشير بن سعد وعلي الخيل محمد بن مسلمة [2] .

ولم يثبت ان غزوة نبوية كلفت من الاموال ما كلفته غزوة مؤتة التي لم يكن عدد الجيش فيها يتجاوز ثلاثة آلاف ، فقد اهاب الرسول بالصحابة ان يكْتَتِبوا بقسط من اموالهم لتجهيز الجيش ، فانفق ابو بكر ما بقي يملكه من مال ، وصرف عثمان نفقات ضخمة قدرت بالف دينار وثلاثمائة بعير وقيل 950 ومعها خمسون فرسا [3] ، وسمي هذا الجيش بجيش العسرة لان الناس كانوا في عسروهم ينتظرون غِلالهم .

واكتتب عبد الرحمان بن عوف باربعمائة دينار لكل واحد من مائة رجل عاشوا بعد معركة بدر[4] .

وكان الرسول قبل اتخاذ قرار حربي يستشير قادة العرب وكبار الصحابة ، فقد تدخل في تقرير معركة بدر ، أبو بكر وعمر، والمقداد بن الاسود، سعد بن عُبادة [5] .

واتخذ الرسول قراراً انفراديا بالتنازل عن ثُلث غلال المدينة لغطفان على ان تتراجع عن اكتساح المدينة في غزوة الخندق (الاحزاب) ، ثم استشار سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، فرفضا هذا العرض واشارا بمجابهة الاحزاب ، وعمل الرسول بهذا الرأي [6] .

وكان من عادة الرسول ان يستشير ابا بكر وعمر وعليا وغيرهم في الاسرى فاستشارهم في اسرى بدر من المشركين ، فاشار عمر بقتل من استحق القتل ، ووافقه عبد الله بن رواحة الانصاري ، وعمل الرسول برايهما ، وكان رأي ابي بكر الفداء عن

1- كتاني ، تراتيب ،، 1 ، 330

2- طبري ، 3 ، 101

3- ابن الاثير ، كامل ، 2 ، 189 - 189 . ابن خلدون 2 ، 819 . غلامي ، اصحاب بدر ص 53

4- غلامي ، م . س. ص 69 . ابن الاثير ، 2 ، 84

5- ابن الاثير ، 2 ، 95 . مقدسي ، 4 ، 187 - 188

6- ابن الاثير ، 2 ، 124

الجميع فلم يوافق الرسول ، وقبل الفداء عن آخرين لم يستحقوا الاعدام [1] .

وتولى بعض الصحابة حراسة النبي في غزواته ، ومنهم سعد بن ابي وقاص الذي اصبح من كبار القادة بعد الرسول (ص) [2] . ويكون الرسول عادة في قبة او عريش يشرف منه على سير المعركة مباشرة [3] ، وأن لم يلزم هذه الخطة باستمرار ، وهو كقائد أعلى للجيش يختار طريقة تسيير المعارك وضبط عملياتها ومع ذلك لايقوم بأي تحرك نحو الواجهة الا بعد عملية استطلاعية يندب لها مخبرين اكفاء ، وهكذا بعث عليا والزبير ليتعرف على احوال المعسكر القرشي في بدر فوجدا سقاء من هذا المعسكر زود اركان حرب الرسول بمعلومات دقيقة عن تجهيزات قريش وتحركاتها [4] . وقبل ذلك بعث بمخبرين آخرين هما عدي بن ابي الزغباء وبسبس بن عمرو ليتعرفا على وقت مرور القافلة التي يقودها ابو سفيان [5] ، وكذلك بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد الى طريق الشام وعادا يوم بدر من غير ان يشهداها ، ولكن نالا سهمهما من الغنائم كما لو شاركا فيها فعلا . [6]

وفي غزوة الاحزاب بعث النبي بسعد بن معاذ وسعد بن عُبادة وعبد الله بن رواحة وخوان بن جبير ليتعرفوا على نوايا بني قريظة الذين كانوا في معاهدة سلم مع الرسول ، فوجدوهم قد تهيأوا لمجابهة القوى الاسلامية غدرا وبذلك اطلع الرسول مقدما على حقيقة امرهم [7] .

وشاءت الاقدار في هذه الغزوة ان تهب ريح عاصِفٌ على مخيم قريش وغطفان فاقتلعت خيامهم واثاثهم ، وبعث الرسول حذيفة بن اليمان ليستخبر عن امرهم فاتاه بخبر رحيلهم ، وحذيفة من الموالي الذين تولوا مناصب القيادة في الفتوح الاسلامية [8] .

وقبل فتح مكة اتخذ العباس بن عبد المطلب مبادرة باستطلاع أحوال قريش

1- ابن الاثير ، 2 ، 92
2- غلامي ، ص 66
3- طبري 2 ، 268 ، مقدسي ، 4 ، 187
4- طبري ، ن . م . ص . ابن الاثير ، 2 ، 83
5- مقدسي ، 4 ، 186 . ابن عبد البر . استيعاب ، ج 1
6- غلامي ، ص 61
7- ابن خلدون ، 2 ، 774
8- م . س . ص 777 ، ابن عبد البر ، م . س

وموقفهم حربا او سلما ، وتمكن من ان يستميل ابا سفيان ويقدمه الى الرسول حتى يعتذر عما سلف ويُسلم ، وكان الامر كذلك ، حيث ان اسلام ابي سفيان كان له اثر حاسم في عدم مواجهة قريش للرسول بالحرب في فتح مكة الا ما كان من افراد قليلين [1] .

وارسل النبي (ص) قبل غزوة حنين عبد الله بن ابي حَدْرد الأسْلمي ليستَعْلم عن معسكر ثقيف وهوازن وما يروج بشان الحرب [2] ، وقام انيس بن مرثد بمهمة مماثلة في هذه الغزوة [3] .

وبعث قبل غزوة احد ، بأنَس بن فضالة وأخيه مؤنس ، بعد ان اقتربت قريش من احد " فاخبره خبرهم وعددهم ونزولهم حيث نزلوا" ، واختلطا بمعسكر قريش كانهما منه [4] .

وممن تولوا إخبار الرسول بأوضاع قريش في مكة خلال الاستعداد لصلح الحديبية ، بُسْر بْنُ سفيان [5] .

ولما كانت الخدعة في الحرب مما يدخل في نطاق التخطيط العسكري فقد لجأ اليها الرسول (ص) اكثر من مرة ، فقد يوهم الجيش انه يتجه وجهة معينة ثم يغير اتجاهه بعد مسافة حتى يفاجئ العدو ، وكذلك عمل الرسول على التفريق بين الاحزاب عن طريق نُعَيْم ابن مسعود الاشجعي الذي اسلم خلال تحزب الاحزاب دون علمها ، فعمل على خلق الريبة فيما بينها حتى مزق وحدتها بالخدعة .

وقبل فتح مكة عمد الرسول الى توجيه تعليماته الى الجيش بايقاد آلاف النيران إيهاما لقريش بكثرة جحافل المسلمين . وأثر ذلك نفسيا على قريش [6] .

واتخذ القتال على الماء صورةً ملِحّاحاً في العصر الوسيط ، وبخاصة في صدر الاسلام ، لان منع الجيش من وُرُود الماء قد يؤدي الى هلاك دوابه . وهكذا ففي معركة بدر

1- ابن عبد البر ، م . س . ص ابن خلدون ، 2 ، 804

2- ابن خلدون ، 2 ، 812

3- استيعاب ، 1 ، ترجمة انيس بن مرثد

4- طبري ، ن ، م وص ابن الاثير ، 2 ، 83

5- مقدسي ، 4 ، 186 ، ابن عبد البر ، استيعاب ، ج 1

6- غلامي ، ص 61 .

حاولت بعض عناصر قريش منع الجيش الاسلامي من الاقتراب من حوض اقاموه فبادر حمزة الى احدهم فقطع رِجلَه وتلا ذلك عملية مبارزة بين المُعسكرين [1] .

وقاتل الجيش النبوي بني المصطلق وهم على موقع ماء يدعى المُرَيسِيع [2] وبعث الرسول بسرية يقودها زيد بن حارثة لتعترض قافلة لقريش على موقع مائي يدعى الفردة في منطقة نجد ، باتجاه العراق [3] .

وحارب المسلمون ايضا بطريقة البِراز التي هي من تقاليد العرب القديمة كما كانت من طرائق القتال عند غيرهم ، والعادة ان يسبق البراز الفردي الاشتباك العام ، ومن اشهر المبارزين علي بن ابي طالب وحمزة بن عبد المطلب الذي قُتل غدرا بسهم بعد ان اردى خصما له في المبارزة .

وفي غزوة الاحزاب استخف احد عتاة المشركين بعلي فتحداه علي وبارزه فقتله [4] ، وفي غزوة خيبر ، بارز احد زعماء اليهود واسمه مَرْحب ، محمد بن مسلمة فقتله ابن مسلمة ، وكان لليهودي اخ اسمه ياسر ، فبارزه الزبير فقتله [5] .

وعرف النظام النبوي فن الحصار الذي يستلزم اضافةً الى اسلحة الرمي الثقيلة كالمنْجَنيق ، الصمود في تطويق الحصون ، ومنع دخول الماء والمؤن اليها ، كما كان الشأن في حصار حصون خيبر وفدك ووادي القرى والطائف وغيرها ، وكانت هذه الحصون تفتح واحدا واحدا حتى لا تتوزع قوى الجيش الاسلامي عبثا ، وهكذا حُوصر بنو قريظة قرابة اربعة اسابيع ، وحوصر اهل وادي القرى اياما ... [6]

وكذلك تعرض المسلمون للحصار في منطقة المدينة التي طوقتها الاحزاب المتواطئة في غزوة الخندق والتي اشار فيها سلمان الفارسي على الرسول بحفر خندق يمنع المهاجمين

1- ابن خلدون ، 2 ، 774

2- م .س . ص . 777 . ابن عبد البر . م . س .

3- ابن الاثير

4- مقدسي ، 4 ، 218 . ابن اثير ، 2 ، 124

5-ابن الاثير ، 2 ، 148 - 149

6-مقدسي ، 4 ، 225 ، ابن الاثير ، 2 ، 127

من الزحف بخيلهم ، وساهم الرسول بنفسه في عمليات الحفر تنشيطا للمسلمين .[1] .

ومما يقدم للشبيبة الاسلامية رمزا بليغا في التضحية ، كثرة المحاربين والمناضلين من الشباب في صفوف الجيش النبوي ، وهكذا قتل في معركة بدر ، عمر بن ابي وقاص اخو سعد بن ابي وقاص [2] . وهو ابن ست عشرة سنة ، وكان الرسول قد رده عن المعركة ، فبكى لمنعه من المشاركة ، ثم سمح له فقاتل حتى استشهد . وحارب معاذ بن جبل في معركة بدر وهو ابن احدى وعشرين سنة .

وكان ممن منعهم الرسول من المشاركة في غزوة احد ، اسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وابو سعيد الخدرى ، وسنهم حوالي اربعة عشر عاما . واجاز الرسول سمرة ابن جندب ورافع بن خديج من الرماة وهما في سن الخامسة عشرة [3] .

وقتل عدد من الشهداء ، وسنهم دون الاربعين [4] ، وهناك كثيرون قدر لهم ان يشاركوا في كل الغزوات النبوية كعمار بن ياسر ومعمر بن الحارث ، وعامر بن ربيعة ، وهو من مهاجري الحبشة والمدينة ، والسائب بن عثمان ، ممن استخلفهم النبي على المدينة ، وشجاع بن وهب ، من مبعوثي الرسول الى الملوك ، وسعد بن زيد ومحمد بن مسلمة ، ممن استخلفهم الرسول على المدينة ، وأبو الهيثم مالك بن التّيهان ، وهو اول من بايع الرسول من الانصار ، وعبد الرحمان بن جبير من رواة الحديث ، وابو بردة بن نيار من رواة الحديث [5] .

ومما يدخل في عمليات اضعاف معنوية العدو ، سَبْي اطفاله ونسائه ورجاله فضلا عن الاستيلاء على امواله . واقرار التشريع النبوي للسبي الذي كان شائعا في الجاهلية ، انما كان في نطاق الاعراف الدولية التي ظلت مقبولة الى عهد قريب ، وقد تمّ سبي اطفال بني قريظة بعد مساهمتهم في غزوة الاحزاب ، كما سبيت نساؤهم ، ومنهن ريحانة القرظية

1- مقدسي ، 4 ، 217
2- غلامي ، اصحاب بدر ، ص 85
3- ابن خلدون ، 2 ، 763 . 764
4-غلامي ، اصحاب بدر ، ص 94 ، 124 ، 203
5- ن . م . ص 111 . 116 . 117 . 121 ، 126 ، 130 ، 139 ، 140 ، 142 ، 147 . 148 . 150 . 191 .

احدى نساء الرسول [1] .

ووقع السبي في عائلات بني الملوح من المشركين [2] سنة 8 .

ووقعت في السبي من نساء هوازن اخت الرسول من الرضاعة ، فمنّ عليها وردها مكرمة [3] . وساق المسلمون من سبي هوازن ستة آلاف شخص في غزوة حنين [4] . وقامت سرية اسامة في البلقاء بعمليات السبي والاحراق [5] .

وفي غزوة المصطلق سُبيت عدة نساء قُسمن بين المحاربين ، وعرض الرسول على احداهن وهي جُوَيْرية بنت الحارث الزواج فقبلت ، وكانت قد رغبت من قبل في فداء نفسها ، وعند فتح خيبر اصاب المسلمون من سبايا اليهود ، ومنهن صفية بنت رئيس يهود خيبر (حُيَي بن أخطب) التي انضمت الى اسرة الرسول (ص) .

أما الأساري ، وكثيرا ما يكونون من ذوي المكانة ، ومن اقارب واصهار الرسول ، فان معاملتهم تختلف حسب الظروف ، ولا سيما بالنسبة لمواقفهم من الاسلام والمسلمين ، وكان الرسول يستوصي بالاسرى خيرا ، وقد يتطلب الامر فداءهم أو إطلاقهم او اعدامهم . [6]

وهكذا استشار الرسول مجلس الصحابة في اسرى بدر ، وجلهم من ذوي الرّحم مع الرسول ، فاشار ابو بكر بإطلاق سراحهم ، واشار عمر بضرب اعناقهم او بإضرام النار عليهم في حفرة جماعية لايذائهم للرسول فاتخذ عليه السلام حلا وسطا ، وهو ان يفدوا انفسهم بالمال ، والزم عمه العباس بفدائين ، ثانيهما عن ابن اخيه عقيل ، كما الزمه بفداء اشخاص آخرين من قريش حتى خشي العباس الفقر لذلك [7] .

وبالمقابل ، امر الرسول باعدام عقبة بن ابي مُعَيْط ، والنضر بن الحارث ، ممن كانوا

1- مقدسي ، 4 ، 220 ، 221 . ابن الاثير ، 2 ، 2

2- مقدسي ، 4 ، 230

3- ابن الاثير ، 2 ، 180

4- ابن خلدون ، 2 ، 816

5-مقدسي ، 4 ، 241

6- مقدسي ، 4 ، 190 ، ابن الاثير ، 2 ، 92

7-مقدسي ، 4 ، 192 ، ابن الاثير ، 2 ، 93 ، طبري ، 3 ، 290 ، 294

شديدي الاذى على المسلمين في مكة [1] . ونفذ الاعدام الجماعي في سبعمائة من بني قريظة لاسباب سبق شرحها .

وبعد بدر ، بعث الرسول سرية بقيادة عمير بن عدي الانصاري لقتل عصماء بنت مروان ، وكانت تتآمر على المسلمين وتهجو الرسول مع بذاءة لسانها ، فنفذ امر الرسول فيها وهذه من الحالات المحدودة التي تم فيها اعدام امراة بسبب عدائها الشديد للرسول وتآمرها ضد المسلمين [2] .

وأطلق النبي (ص) بعض الاسرى في بدر بلا فداء ، ومنهم ابو عزة عمرو بن عبد الله بن جمح ، واشترط عليه الرسول ان لا يناصر اعداءه ، فنقض عهده وحارب في احد ، فأسره المسلمون واعدموه بامر نبوي [3] .

ومن الذين تم اعدامهم بامر الرسول او باذنه خارج فترات الحرب ، كعب بن الاشرف الطائي ذي الام اليهودية والذي كان شاعرا يتشَبَّبُ بنساء المسلمين ويحمّس المشركين ضدهم [4] ، وسلام بن ابي الحقيق من زعماء خيبر ممن آذوا الرسول واصحابه فاحتال بعض الخزرج في قتله بإذن الرسول واعدموه في منزله [5] .

اما قتلى المسلمين في الحروب فيتم بعد صلاة جماعية ، بينما تدفن جثث الاعداء في خنادق كبيرة على قدر عدد الموتى ، وقد تم طرح جثث قتلى بدر من المشركين في بئر يدعى القليب ، كما طرحت مآت من جُثَث بني قريظة في خنادق بسوق المدينة ، وقد يدفن المسلمون مثنى أو اكثر ، وقد يتم دفنهم بالمدينة اذا جرت الحرب قريبا منها .

وتقسم الغنائم والانفال في عين المكان او بعد مغادرة ارض المعركة [6].وقد تبلغ الغنائم قيمة مالية كبيرة كما حصل في غزوة حنين حيث اصاب المسلمون " من النعم والاموال ما لا يحصى " [7] ، وطبقا لتعاليم القرآن الكريم ينال المؤلفة قلوبهم نصيبا مشجعا حتى يزداد تقريبهم للاسلام . واذا كان الرسول يحتفظ بالخمس فإنه يعود الى

1- مقدسي ، 4 ، 192
2- مقدسي 4 ، 194 ، ابن خلدون ، 2 ، 779
3- ابن خلدون ، 2 ، 867
4- م .، س . ص 757
5- م . س . ص 761
6- مقدسي ، 4 ، 192
7- ب ن . م . ص . 237 . وانظر ايضا : 234 و 238 . ابن الاثير 2 ، 90 ، 128 ، 150

توزيعه على المستحقين حسب تقديره [4] .

وهكذا رأينا ان الشريعة الاسلامية كما طبقت في العهد النبوي قد دخلت ابواب الحياة البشرية والاجتماعية بشكل واضح متوازن ، ولم تتجاوز بعنف بعض الاعراف الدولية التي كانت عريقة الجذور في المجتمعات البشرية،وذلك حتى لا تضطر الشريعة للتراجع كما تفعل بعض تشريعات الدول الحديثة . وغير معقول ان تخطو الشريعة الف سنة لترجع الف سنة ، وإذا كان الاسلام قد شمل بتعاليمه كل ميادين الحياة فان هذه الميادين اتسعت وتشعبت بعد الرسول واتساع الفتوح ، ولكن الراشدين والصحابة كانوا في مستوى المسؤولية فأغنوا باجتهاداتهم التشريع وأضفوا بمبادراتهم على الدين الحنيف تلك الروح التقدمية التي فهمها الجامدون المتأخرون سلفية متحجرة تقف بانتهاء عهدهم ولاتتقدم كما شاءوا لها ان تتقدم وكما احب الرسول ان يكفُلَهَا مقدما بروح الاجتهاد والنظر العميق لاصول الاسلام .

4- ابن الاثير ، 2 ، 183 .

⋙ الفصل الثالث ⋘

الفكر والادب

إذا كان العهد النبوي قد شهد تغيُرات جذرية في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فذلك كان بفضل الثورة الفكرية التي اعلنها القرآن وحدد معالمها واهدافها ، فالعهد المحمدي لم يرسم آفاق المستقبل فحسب ، بل رسم آفاق حاضرة ايضا ، ولولا هذا المنهج الجامع بين الوحي الالهي والفكر النبوي والتطبيق العملي المباشر لنشأ فراغ لا يمكن تقدير مداه ، في التعرف على العهد النبوي نفسه ، وفي تلمس آفاق المعرفة الانسانية من خلال القرآن والسنة ومناقشات الصحابة . ومن تعمق في دراسة العطاء الفكري والمعالم الثقافية لهذا العهد يندهش حقا من وجود بوادر بارزة لحركة فكرية قوامها الدراسات الفقهية والجدال العقائدي بين الرسول والمناهضين للاسلام ، مع وقفة ثابتة ومتجذرة للوجود الاسلامي وانتصاره من وجهة المبدأ والفكر في عموم جزيرة العرب ، انطلاقا من العهد المحمدي ، بالرغم من الردة العابرة والتي انتشرت باليمامة قبل وفاة الرسول عليه السلام ، ثم ازدادت انتشارا في عهد ابي بكر حتى وقع القضاء عليها نهائيا بعد ثمانية اشهر .

فلننظر اذاً ، في قيمة هذه المعالم الثقافية ومدى التحولات التي احدثتها في الاساليب الفكرية للعهد النبوي .

1- القرآن

اول ظاهرة تلفت النظر بالنسبة للقيمة الفكرية للقرآن ان مضمونه يعايش واقعا موجودا ومعاصرا لنزوله ، دون ان يهمل تطورات الماضي وانعكاساته السلبية والايجابية بالنسبة للمجتمع الانساني ، ثم هو يخطط ايضا لمستقبل الانسان انطلاقا من الحاضر والاسلوب القرآني في بيانه اثار اعجاب العرب الى درجة ان اشدهم عتُواً قالوا : ان هو الا

سحر مبين ، وانتهى آخرون الى محاولة تقليده عبثا ، ابتداء من مُسَيْلمة وسجاح وخلال اجيال متوالية في جهات مختلفة .

ومن اهم جوانب الفكر القرآني التي اثارت اهتمام العصر النبوي ، أو أثارَ القرآن اهتمام العرب بها خلال هذا العصر ، قضايا الايمان.والجَدَل العقائدي،والحوار مع الرسول (ص)،والفكر الفلسفي والعلمي بشان الكون وظواهر الطبيعة :

ا - الايمـــــان

يرفض القرآن الضغط على الناس في اعتناق العقيدة : لا إكراه في الدين . والإيمان ليس مقصورا على التصديق بوجود اله واحد وبوجود يوم بعث وحساب ، بل هو يتخذ صورا شتى حسب الظرورف التي تحيط بالمومن ، ولكن هذه الصور تكوّن مجموعا متكاملا :

«ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة . والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين في الباساء والضراء وحين الباس ، اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون .»

«فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله .»

ويلاحظ اقتران الايمان بالعمل الصالح في عدد كبير من آيات القرآن .

« انما المومنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون اولئك هم المومنون حقا ...»

وهذه الآيات الاخيرة التي وردت في سورة الانفال نزلت في شخص الحارث بن مالك الانصاري ، فقد مر بالرسول (ص) . فسأله الرسول : كيف اصبحت يا حرث ؟

فقال : اصبحت مومنا حقا قال : انظر ما تقول ، فان لكل شئ حقيقة ، فما حقيقة

ايمانك ؟ " فقال : عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا ، فأسهرتُ ليلي ، وأظمأت نهاري . وكأني انظر الى عرش ربي بارزا ، وكأني انظر الى اهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني انظر الى اهل النار يتضاغون فيها . فقال الرسول : "عَرفتَ فالزَم" [1] . وهكذا نزلت الايات المذكورة تزكية لايمان هذا الرجل والذين هم على مِنْوَاله .

وكان بعض الاعراب قد اسلموا فاذا قدم احدهم المدينة وولدت امراته غلاما وحسن حاله قال عن الاسلام : هذا دين صالح ، واذا اجدب العام أو لم تلد امرأته قال هذا دين سوء ، فنزلت الآية :**«ومن الناس من يعبد الله على حرف فان اصابه خير اطمأن به وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة» (سورة الحج)** [2] .

وبالطبع نال القرآن من ضعفاء الايمان ، وندد على الخصوص بالمنافقين الذين تناولهم غير ما مرة،وكانوا يعايشون الرسول والمسلمين،ويتغاضى الرسول عن تصرفاتهم،ولم يقبل الله منه أن يستغفر لهم :**« استغفر لهم اولا تستغفر لهم . ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم »**

ويضع القرآن الايمان في درجة لا يعلو عليها شئ في حياة الانسان ، ومن ثم فالمومنون الذين عايشوا النبي ، وبالتبعية سائر المومنين ، هم مطوقون بواجبات يذكرهم القرآن بها باستمرار، وهي كثيرة وتتناول كل ميادين الحياة الدنيوية فضلا عن ارتباطها بالاعداد للآخرة .

وعندما استمر بعض المومنين في ممارسة الربا ايام الرسول (ص) ، خاطبهم القرآن ، **«يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كانوا مومنين .»**

وعندما كان بعض المومنين يقلدون عادات الجاهلية في منع المراة من الزواج من غير اقاربها اذا مات عنها زوجها ، نزل قولهالله تعالى في سورة النساء : **«يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها»** .

وليس من الايمان ان يترهب المومن . وذلك ان جماعة من اصحاب الرسول رغبوا في تقليد حياة الرهبان والتخلي عن شهوات الدنيا فقال لهم الرسول (ص) : لكني اصوم وافطر واصلي وانام وانكح النساء ، فمن اخذ بسنتي فهو مني ، ومن لم يأخذ بسنتي

1- ابن كثير ، تفسير سورة الانفال

2- ابن كثير ، تفسير سورة الحج

فليس مني ، ونزل قوله تعالى في سورة المائدة تاكيدا للكلام النبوي : « **ياايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولاتعتدوا**»[1]

ب - الجـــدل

هذا الجَدَل انصبَّ بالخصوص على ثلاثة اطراف : المشركون ، واليهود ، والنصارى . والمشركيون في عامتهم سطحيون في تحدياتهم ومناقشتهم العقائدية للرسول ، إذْ ليس لهم علم بالديانات السماوية التي سبقت الاسلام ، انما يدافعون بالدرجة الاولى عن مصالح مادية برهنت الايام على تفاهتها ، فيما حققه المسلمون من فتوح مباشرة بعد وفاة الرسول (ص) .

ومن نمادج جدل المشركين تنقيصهم للمسلمين بعد تحولهم لمدة اقل من سنة ونصف الى بيت المقدس في صلواتهم ، فرد القرآن :« **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب ، فاينما تولوا فثم وجه الله**» . وقيل ان الآية نزلت في المنافقين ايضا [2] .

ومما ورد من جَدَل المشركين وتحدياتهم للرسول في سورة الانعام :

«**ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين**» . وقد تناول القرآن قضية البعث مرارا بالنسبة لطائفة المشركين ، وذلك في غير سورة الانعام ، ومن ذلك : « **يسئلون ايان يوم الدين يومهم عن النار يفتنون** » وقوله تعالى : «**عم يتساءلون ؟ يتساءلون عن النبإ العظيم الذي هم فيه مختلفون كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون** » . وكلما انكر المشركون البعث رد القرآن بتأكيده ، وقد يـذكر الناس جميعا بنشأتهم الاولى وبمراحل حياتهم كلها ليبرر مبعثهم ، فقد ورد في سورة الحج قوله تعالى : «**ياايها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم .**»

1- ابن كثير ، تفسير سورة المائدة

2- ن . م سورة البقرة .

ومن التحديات الجدلية لدى المشركين ان طلبوا من الرسول غير ما مرة آيات تدل على نبوته ، وجلها غير معقول ، فاستحلفهم الرسول ذات مرة إن جاءهم بآية ليومِنُنَّ بها ، فطلبوا منه ان يحول الصّفا ذهبا ، فلما اوحي اليه ان يخيّر بين تعذيبهم ان رفضوا الايمان وبين تركهم يتوب من يتوب منهم ، اختار التوقف في امرهم ولم يستجب لما طلبوه ، وفي ذلك ورد في سورة الانعام :

«واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليومنون بها ، قل انما الآيات عند الله ، وما يشعركم ، انها إذا جاءت لا يومنون ؟

وفي الرد على النصارى ركز القرآن بوجه خاص على قضية التثليث ومبالغة الذين يقدسون عيسى بافراط ، وجاء في سورة المائدة (وقسم كبير منها خصص لهذا الموضوع وللموقف المسيحي بوجه عام) :

« ياأهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته» .

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئا ان اراد ان يهلك المسيح بن مريم وامه ومن في الارض جميعا ؟»

«لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم .»

وخصص قسم كبير من سورة آل عِمران للرد على وفد نصارى نجران ، وبهذا الشأن ذكر ابن اسحاق ان الوفد كان من ستين شخصا بينه اربعة عشر من اشرافهم ، وبينهم حسب روايته:العاقب عبد المسيح وأبو حارثة بن علقمة والأيهم ، وهم من الملكانية ، فجرى حوار بينهم وبين الرسول . سالهم الرسول عن المسيح فقالوا هو الله ، وقالوا مرة هو ولد الله ومرة هو ثالث ثلاثة ، الأولى لانه كان يُحْيِي الموتى ويبرئ الاكمة والابرص ويخبر بالغيب ويخلق من الطين طيرا ، والثانية لانه لا يُعْلم له اب ، وتكلم في المهد صبيا ، والثالثة لان الله يتحدث بضمير الجمع فيقول : فعلنا وامرنا وخَلَقْنا ولو كان واحدا لاتخذ ضمير المتكلم الواحد .

ودعا الرسول اثنين من احبار نجران الى الاسلام وهما السيد والعاقب فقالا : قد اسلمنا قبلك ، فقال : كذبتما ، يمنعكما من الاسلام ادعاؤكما لِلّه ولداً ، وعبادَتُكُما الصليب ، واكلكما الخنزير ، فسالاه : من ابو عيسى ؟ فصمت الرسول (ص) حتى جاءه

الرد وحياً ، وهو نيف وثمانون آية من آل عمران وهي تشرح مولد عيسى وانه خُلق بإذن الله ولُقِّنَ الحكمة والتوراة والانجيل وأرسِلَ الى بني اسرائيل تدعمه المعجزات السابق ذكرها . ثم تتحدث الآيات عن وفاة عيسى ورفعه الى السماء ، وتعود لتكرر ان عيسى خلق كآدم من تراب ، ثم يامر الله تعالى رسوله بدعاء النصاوى ذكورا واناثا ، وصغارا وكبارا ليعلنوا مع الرسول ان من كذب في دعواه من الفريقين استحق لعنة الله ، ثم دعا القرآن اهل الكتاب جميعا الى الاجتماع على كلمة واحدة في عبادة الله : « **قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون** » .

وبعد ان طلب الحِبْرَان مهلة للتشاور ، رفضا عرض النبي واذعنا مع قومهما لاداء الخراج . وهناك من الروايات ما يتحدث عن اسلام الوفد ، أو يَخْلِطُ القصة باسلام وفد نصارى الحبشة " ولكن يتبين من سياق الاحداث ان نجران وَفَدَ منها على الرسول وفد آخر من بني الحارث بن كعب دخلوا في الاسلام وهو غير الوفد المسيحي المذكور . وأما أحْبار الحبشة الذين اتصلوا بالرسول في مكة قبل الهجرة فهم الذين يحتمل ان يكونوا موضع الآية الكريمة «**ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون** » كما يحتمل ان يكونوا من وفد نجران الذي اسلم وكان فيه مسيحيون ايضا وذلك سنة 10 هـ .

وكان اليهود اشد المناهضين تعنُّتاً ، وهكذا خاطبهم القرآن احيانا بلهجة اقوى مما خاطب بها النصارى ولكن مع دحض الحجة بحجة ابلغ ، ومما عاب القرآن عليهم انهم كانوا يدعون الى النزاهة في القول والفعل والاخذ بالحق فنزلت في ذلك اية من سورة آل عمران : «**اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب**» ؟ ونسيان انفسهم معناه انهم لم يدخلوا في الإسلام مع شهادة التوراة بظهوره في وقت لاحق ، وهم يتلون ذلك في هذا الكتاب بالذات .

وَعَيَّرَ القرآن اليهود غير ما مرة بتحريف أحبارهم للتوراة ، بل ذهب الامر بهم الى وضع كتاب ديني نشروه بين العرب بثمن بَخْس [1] ، ولو ان في العرب قلة تقرا وتكتب ، وجاء في سورة البقرة : « **فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من**

1- ابن كثير ، تفسير سورة البقرة

عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . »

وتضيف هذه الحجة التي يسجلها القرآن مزيدا من المبررات التي ادت الى اجلاء اليهود عن الحجاز ، لأنهم عملوا على احداث البلبلة والتشكيك في الرسالة المحمدية بكل الوسائل المادية والمعنوية ، وبالتالي فقد نشطوا في مجال الجَدَل الفكري بشكل هِسْتيري ، ولذلك عاتب ابن عباس في وقت مبكر من صدر الاسلام هؤلاء المثقفين المسلمين الذين اعتمدوا على الإسرائيليات بالرغم من أن القرآن الح غير ما مرة على تحريف الاحبار لمضمون التوراة فَأَحْرَى لغيره [2] .

وأنكر اليهود المعاصرون للرسول أنْ ينزل كتاب سماوي على بشر ، فرد عليهم القرآن يسألهم عمن انزل التوراة على موسى ، ويشير مرة أخرى الى تحريفهم لها وهذاما تذكره سورة الانعام : «**وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما انزل الله على بشر من شئ . قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس ؟ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا .**»

وروى قتادة [3] ان فريقا من المسلمين والنصارى واليهود تجادلوا وتفاخروا بشان الكتب المقدسة ، وقال بعضهم ان كل كتاب يقضي على ما قبله ، فخاطب الله المسلمين كما خاطب اهل الكتاب بصفة غير مباشرة يذكر الجميع بان من اساء العمل من اي فريق سيُجْزى به ، ومن آمن وقرن ايمانه بالعمل الصالح ادخل الجنة ، ثم يُرْدِف القرآن في سُمُوٍّ متناهٍ ، أن أحْسن دين هو ملة ابراهيم الذي اتخذه الله خليلا ، وهذا يعني ان اصل الاديان الثلاثة ملة ابراهيم ،وان الاسلام اعاد لهذه الملة شخصيتها ، فلذ قة الجَدَل الفكري والعقائدي في القرآن اتجهت تواً الى الاتفاق حول ملة ابراهيم التي هي ملتقى هذه التيارات العقائدية جميعا ، وهذا نص الآيات المتضمنة لهذه المعاني ، وهي من سورة النساء :

«**ليس بامانيكم ولا اماني اهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مومن فاؤلئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ، ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا ؟ واتخذ الله ابراهيم خليلا .**»

2- م . س .ج 1 ، 82
3- م . س . ص 439

وذكر المقدسي [1] جماعة من اليهود الذين كانوا يجادلون الرسول ، ومنهم حُيَيّ بن اخطب، واخواه، والربيع بن ابي الحقيق، وكعب بن الاشرف، وشاس بن عَمْرو ، وغيرهم، كما تناول ابن هشام جملة من نماذج الجدل بين الرسول واليهود [2] .

د - اسئلة المستفسرين

وكان المسلمون يسالون الرسول عن شؤون دينهم فيتلقى رد القرآن بشان اسئلتهم او تساؤلاتهم ويكون ذلك حكما اصليا قد تُتَمِّمُهُ السنة او تشرحه او تفرعه او تنطلق منه لنماذج او نوازل مختلفة .

سأل اعرابي الرسول [3] : اقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فنزل في سورة البقرة قوله تعالى :

« **وإذا سالك عبادي عني فاني قريب ، اجيب دعوة الداعي اذا دعان**» .

ورد القرآن على اسئلة كثيرة تتناول شؤونا متباينة من الكون والدين والعقيدة والحياة :

«**يسالونك عن الأهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج**» "

أي ان الهلال يعرف الناس به اوقات صَلَواتهم الليلية وصيامهم وافطارهم وحجهم .

«**ويسالونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء في المحيض ...** »

« **ويسالونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم** »

« **ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا** ، »

ومن عَجَبٍ فان الروحانيات ما تزال موضع جَدَل ، وما زال عباقرة العلم ينبشُون قشورها فاين هم من جوهرها ؟

ومن صور الفكر القرآني :

1- ضرب الامثال : «**مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة . مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ما**

1- مقدسي ، بدء ، 4 ، 179 .

2- ابن هشام ، سيرة ، 2 ، 137 - 158.

3- ابن كثير ، تفسير سورة البقرة

حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون» . «مثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث» .

2- قصص الانبياء والامم الماضية التي بادت او استحقت عقابا إلَهيّاً ، ووجهت هذا القصص الى المشركين خصوصا قبل الهجرة النبوية .

3- التنبيه الى الكون وظواهر الطبيعة ، فعندما تساءلت قريش كيف يسع الناس اله واحد ؟ اي كيف يكفيهم اله واحد . رد القرآن بقوله تعالى :

« ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » .

وآيات الكون والطبيعة كثيرة تناولت الجبال والرياح والمطر والنبات والبحر والمعادن والبرق والرعد وغير ذلك . ولكن مما يلفت النظر في عصرنا هذا ان بوادر تغيُّر الطبيعة والطقس وتكاثر الزلازل وتزحزح بعض بقاع الارض تدريجيا ، من الامور التي تمثل اتجاه الكون نحو الانهيار حسب تساؤلات حائرة لعدد من العلماء . وعندما نعود الى القرآن الذي خاطب العرب قبل غيرهم من حيث الزمان والمكان والمبررات الداخلية لبلاد العرب ، نراه يصور نهاية الكون بحركة الجبال ودكها وبتزلزل الارض وانفجارها وانشقاق السماء وتبعثر النجوم او اختفائها الى غير ذلك من صور الهول التي بعد نزول القرآن بألفٍ وأزّيَدَ من اربعمائة سنة تبدأ بوادر هذا الهول متواضعة بطيئة ، ولكنها تحمل الذين لم ينعموا بمعرفة اسرار القرآن من غير المسلمين على أن يسايروا حكمته من غير قصد ولا شعور ، وبشكل تجاوز التصوير القرآني مدركاتهم واستنتاجاتهم السطحية .

2- التـــفسيـــر

لم يكن ما يسْمَعه الصحابة وسائر العرب من القرآن يفهمونه ، فإن القرآن تضمن

مصطلحات جديدة في الدين وأورد عبارات لم يعتدها العرب ، وفنونا مختلفة من الاساليب غير مالوفة ، وهناك مصطلحات من لهجات عربية مختلفة او من لغات غير عربية فلا بد أن يلجأ الصحابيون الى الرسول في تفسير ما غمض عنهم ، ولا بد ان دورهم في تقريب معاني القرآن الى أذهان الآخرين كان دورا في منتهى الاهمية بعد دور الرائد الأول عليه الصلاة والسلام . وبعض التفسير بدأ مباشرة في العهد النبوي وبعضه الآخر بدأ في العهد الراشدي وفي كلتا الحالتين فدور الصحابة اساسي يعطي للعهد النبوي بطبيعة الحال دور الرِّيادة ، خصوصا وان هناك تعاليم وتشريعات ونوازل خاصة .

ونجد من بين الصحابة والتابعين الذين لهم دور في تفسير القرآن : أنس ابن مالك ، وعكرمة ، وقتادة ، ومجاهد ، وعبد الله بن عُمر ، وعبد الله بن عباس .

ومما تميزت به المرحلة النبوية أن الذين تصدّوا لتفسير القرآن هم المحدثون وهذا يزيد من الثقة في تفسيرهم الذي لا يتجاوز عادة ، معنى محدّدا موجزاً ، وقد اهتم البخاري كمحدثين آخرين ، بتجميع اكثر ما يمكن من تفسيرات الرسول (ص) وعدد من الصحابة والتابعين ومن دونهم .

ومن التفسيرات النبوية ما حدث به ابو هريرة عن الرسول (ص) في قوله تعالى :

« **لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل** » ، قال رسول الله (ص) :

لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس اجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها .

وسأل عدي بن حاتم الرسول (ص) عن الخيط الابيض من الخيط الاسود هل هما خيطان ، فأجابه مداعباً : إنك لعريض القفا إن أبصرت الخَيْطَيْن ، ثم قال لا ، بل هو سواد الليل وبيض النهار [1] . وقد وردت آية :

«**وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر**» بشأن رمضان ، في سورة البقرة .

1- صحيح البخاري ، 5 ، 196

ورُوِي عن ابي سعيد المعلي ان الرسول فسر السبع المثاني بالفاتحة [1] وورد في سورة "براءة" قوله تعالى :

« ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها اربعة حرم» .

فقال الرسول (ص) موضحا : ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والارض ، السنة اثنا عشرة شهرا ، منها اربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر ، الذي بين جمادى وشعبان [2] .

ومن تفسيرات الصحابة من حيث الموضوع او سبب النزول ما ذكره انس بن مالك عن آية الحجاب حيث قال [3] : لما اهديت زينب بنت جحش رضي الله عنها الى رسول الله (ص) ، كانت معه فصنع طعاما ودعا القوم ، فقعدوا يتحدثون فجعل النبي (ص) يخرج ثم يرجع وهم قعود يتحدثون . فنزل قوله تعالى :

«يا ايها الذين امنوا لاتدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إناه» ، (الى قوله من وراء حجاب) ، فضرب الحجاب ، وقام القوم . وفسر عبد الله بن مسعود [4] آية :« **فارتقب يوم تاتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب اليم ربنا اكشف عنا العذاب انا مومنون** » بان الرسول دعا على قريش بعد ان ابطؤوا عن الاسلام . ان يسلط عليهم سبع سنين من القحط كسبع يوسف ، فاخذتهم سنة مجهدة حتى اكلوا الميتة والجلود وجعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخانا من الجوع ، وهذا التفسير الاول (الذي حولته التاويلات الحديثة الى القنابل ذات التفجير الاقصى بما فيها القنبلة الذرية) ، هو اقرب الى الحقيقة والاصل

وممن تاثروا بالعهد النبوي عبد الله بن عباس مؤلف اول تفسير كامل للقرآن او منسوب إليه كتأليف ، وتركه الرسول مراهقا دون الخمس عشرة [5] ، ولكنه اظهر نبوغا عظيما واعتبر في عداد الصحابة . ومن تاويله القرآن :

1- م . س . ص 222
2- م . س ، 204
3- م . س . ج 6 . ص 25
4- م .س .ص 32
5- ابن حجر ، اصابة ، 2 ، 330

- في سورة النساء : **لاتعضلوهن** : لا تقهروهن .

- «**ولكل جعلنا موالي**» : اي ورثة

- **والذين عاقدت ايمانكم** : كان المهاجر بالمدينة يرث الأنصاري دون ذوي رحمه ، لما كان من مؤاخاة الرسول للمهاجرين والانصار ، فلما نزلت : (ولكل جعلنا موالي) نسخت وذهب الميراث وحلت الوصية [1] .

في صورة اسرائيل [2] : « **فسينغضون اليك رؤوسهم** »، أي يهزونها .

- «**وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس**» ، هي رؤيا عَيْن ، أُرِيهَا رسول الله (ص) ليلة أُسْرِيَ به ، والشجرة الملعونة ، هي الزقوم .

في سورة الانعام [3]

- «**ثم لم تكن فتنتهم**» اي معذرتهم

- «**ذرا من الحرث**» : جعلوا للّه من ثمراتهم نصيبا وللشيطان والاوثان نصيبا .

وذكر ابن عباس أن بني إسرائيل كان فيهم القصاص ولم تكن فيهم الدية فخاطب الله المسلمين باداء الدية في آية القصاص : « **فمن عفي له من اخيه شئ فاتباع بالمعروف**» ، والعفوُ أنْ يقبل الدية في العَمْد [4] .

وانكر معاوية ان تكون آية [5] : «**والذين يكنزون الذهب والفضة**» (سورة براءة) قد نزلت في غير اهل الكتاب ، فرد ابو الدرداء بطريق غير مباشر : انها في المسلمين وأهل الكتاب .

وساهم نساءُ الرسول في توضيح العديد من الآيات التي ترتبط بالمرأة كآيات الحجاب والحيض والطلاق . واكثرهن رواية في ذلك عائشة (رض) .

3- الحـــديـــث

يتخذ الحديث النبوي ثلاث صِيَغ :

1- بخاري ، صحيح ، 5 ، 178 - 179

2- م . س . تفسير سورة بني اسرائيل ، ص 223 .

3- م .س . ص 192

4- م . س . ص 154

5- م . س . ص 203

- اقوال الرسول مروية بسند .
- اخبار يرويها الصحابة بشأن فعل او حادث يتعلق بالرسول ، وقد يشمل بعض اقواله .
- احاديث قُدْسية يتحدث الرسول (ص) بها على لسان الباريء عز وجل .
وشملت الكتب الصحاح كل هذه الاصناف مع اختلاف في الترتيب والتبويب وفي السند احيانا ، وتناول الحديث النبوي توضيح عدد من آي القرآن كما تناول وجوه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والحربية والاخلاقية مما لم يفصله القرآن او نزلت بشأنه نوازل منفردة .

ومن أقوال الرسول (ص) [1] : ان مَثَلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنَى بيتا فأحسنه وأجمله ، الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللَّبنة ؟ قال : أنا اللَّبنة ، وانا خاتم النبيين .

وروى المغيرة بن شعبة ان الشمس كسفت على عهد رسول الله (ص) يوم مات ابراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت ابراهيم ، فقال رسول الله (ص) : ان الشمس والقمر لاينكسفان لموت احد ولا لحياته ، فاذا رايتم فصلوا وادعوا الله [2] . وجاء في خطبة نبوية على المنبر : ما بال اقوام يشترطون شروطا ليس في كتاب الله ؟ من اشترط شرطا ليس في كتاب الله فليس له وان اشترط مائة مرة [3] .

وفي باب تطويل الصلاة يقول الرسول [4] (ص) : إذا صلى احدكم للناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير ، وإذ صلى احدكم لنفسه فليطول ما شاء .

ومن الحديث النبوي ما يكون حوارا بينه وبين غيره ، ويتميز الحوار ، شأن معظم اقوال الرسول (ص)، بالايجاز والتركيز والوضوح ، روى عَمْرو بن العاص [5] ، قال :

قال لي النبي (ص) : انك لتصوم الدهر وتقوم الليل ؟ فقلت نعم : قال ، انك ان فعلت ذلك هجَمت له العين ونَفَهتْ له النفس، لأصَامَ من صام الدهر كله ، قلت : فاني اطيق

1- م . س . ص 162
2- م .س . ، 62 - 25
3- م . س . 1 ، 117
4- م . س . 1 ، 172
5- م . س . 2 ، 246

اكثر ذلك : قال : فَصُمْ صومَ داود عليه السلام ، كان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفرُّ إذا لاقى .

ومن نماذج الخبر ما رواه أنس بن مالك إذ يقول [1] : كنت امشي مع النبي (ص) وعليه بُرْد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه اعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت الى صفحة عاتق النبي (ص) قد اثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال (أي الاعرابي) : مُرْلي من مال الله الذي عندك ! فضحك ، ثم امر له بعطاء .

وروى ابو هريرة [2] : بينما يهودي يعرض سلعته أُعطِيَ بها شيئا كرهه فقال لا ، والذي اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجل من الانصار ، فلطم وجهه وقال : تقول : والذي اصطفى موسى على البشر ، والنبي (ص) بين اظهرنا ؟ فذهب الى الرسول (ص) فقال : يا ابا القاسم ان لي ذمة وعهداً ، فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال : لِمَ لطمت وجهه ؟ فذكره فغضب ، النبي (ص) حتى رؤي في ووجهه ثم قال : لا تفضلوا بين أنبياء الله ...

ومن الاحاديث القدسية ماروي عن ابن عمر ؛ سمع رسول الله يقول [3] : إن الله يُدْني المومن فيضع عليه كفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا فيقول نعم إي رب ، حتى اذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه : « هلك قال : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتابَ حسناته .

ومنها الحديث القدسي المعروف الذي من فقراته : يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما يوم القيامة ، فلا تَظالَموا . . .

ورواة الحديث عن الرسول (ص) يعدون بالمآت ، كتب عن طبقاتهم كثيرون كابن حَجَر في الاصابة (اربعة مجلدات ضخام) وابن عبد البر في الاستيعاب . وهم يتفاوتون من حيث عدد الاحاديث التي رووها وحتى من حيث تكوينهم العام ، فنحن نلمس على سبيل المثال تفوق علي من حيث التكوين وان كانت مروياته دون مرويات ابي هريرة عددا . ولذلك فليس كل صحابي متضلعا بالضرورة ، غير ان العلماء منهم بالدين جملة

1- م . س . 4 ، 60
2- م . س . 4 132
3- م . س . ص 3 ، 97

ليسوا قلة ، واكثرهم رواية الصقهم بالرسول في حَلّه وتَرْحاله ، كأنس بن مالك ، وعبد الله ابن مسعود ، وابي هريرة .

وميزة الحديث في العهد النبوي انه اقترن بالحياة الواقعية لهذا العهد شانه في ذلك شان القرآن ، ثم ان القرآن،وتليه السنة النبوية أقوالاً وافعالا وتقريرات،قد اعطيا فيضا غزيرا من المعرفة التي كونت محور الثقافة الاسلامية بكل توسعاتها وتطوراتها منذ العهد النبوي حتى عصرنا هذا ، وبدون شك الى ما بعده .

اين كان اهم ملتقى فكري في العصر النبوي ؟ انه لم يعد عكاظ حتى مع استمراره ، لان عكاظ لم يكن مجاله الفكري سوى الشعر ، اما هذا المنتدى النبوي الكبير ، فهو بالطبع المسجد النبوي بالمدينة ، ثم بيت الرسول (ص) المجاور له . ففي هذا المكان المقدس كان الصحابة يتلون آيات الله او يسمعونها او يستفسرون عنها او يتلقّون الأحاديث النبوية التي قد يكون مجالها ايضا خارج المدينة ، إما في الطريق الى غزوة ، أو نشاط نبوي معين ، فكان المسجد النبوي ككلٍّ ، اول جامعة في الاسلام دون منازع .

4- الأ د ب

القرآن وحي الهي ، والحديث اقوال النبي واخباره التي رواها الصحابة ، والتفسير عمل نبوي اولا ثم عمل الصحابة ثانيا .

أما الادب فان كان من جهة ، يجعل اسلوب القرآن دليلا للشعراء يغنيهم بالمصطلحات والمعاني والصور التي لم يالفوها في العهد الجاهلي ، فهو من جهة اخرى يعتمد على الفطرة الشعرية لدى العرب ، ومعنى هذا انه الجانب الشعبي من الفكر العربي ولا يعني هذا ان القرآن والحديث اختصت بهما النخبة ، بل يعني ان الذي ينتج الأدب هم المنتمون الى الشعب العربي طالما ان القرآن وحي الهي ، والحديث من وضع الرسول او عمله .

وهنا لن نعود الى اسلوب القرآن نفسه ولا إلى أسلوب الحديث النبوي.فمَا كتبه البلاغيون والضليعون في أسرار اللغة كالجرجاني وابن جنّي والباقلاني وغيرهم يُغني بل يتجاوز طاقة المتعمق في عصرنا هذا بالنسبة للقرآن على الاخص ، ولكن لا بد ان نكتشف

فيما بعد ، شيئا من نماذج التأثير القرآني في الشعر العربي وفي الادب العربي عموما خلال عصر النبي (ص) . والحديث النبوي اقل اثرا ، لان العرب انجذبوا بكل طبقاتهم نحو القرآن ، والحديث عادوا اليه للمعرفة نفسها ، وللتوسع في هذه المعرفة ، والقرآن أُلزِم الناس بتلاوته ، وفي عهد عمر كان عطاء الحفاظ اكثر من غيرهم ، ثم ان القرآن وحي اقتنع به العرب في خاتمة المطاف ، فكان له من الوقْع ما ليس لغيره .

لكن الحديث لم يكن بعيدا عن التيارات الفكرية ، فَهُوَاتُه والذين يرددونه كثيرون ، وكثيراً ما يكون حديث المجالس بل هو كان كذلك دائما يُروَى شفويا لأجيالٍ متلاحقة ، وعندما يقول الراوي : سمعت رسول الله (ص) يقول : فهو في ذات الوقت يُشعُّ نموذجا أدبيّاً ، ويقدم توجيها تشريعياً او اخلاقيا او ما الى ذلك .

والادب النبوي يشمل خطب الرسول كالتي القاها بالمدينة او عند فتح مكة ، وكخطبة الوداع ، ووردت في فصول سابقة من هذا الكتاب فقرات كثيرة منها ، وخطابات الرسول الى الملوك والامراء رزعماء القبائل ، وقد مرت كلها تقريبا مع تواريخها ونصوص الرد عليها وكذا نماذج من مراسلات الرسول في مواضيع مختلفة ، وبعض عهود الصلح .

والاسلوب النبوي يتميز كله بالإيجاز ووضوح القصد مع إدخال مصطلحات تلائم لغة المخاطب كما هو الشان في خطابات الرسول الى بعض امراء حمير والى هرقل وغيره ، وتضمن الاسلوب النبوي عدداً كبيرا من المصطلحات والتعابير الدينية او التشريعية كالتي وردت في خطبة الوداع وفي الاحاديث النبوية .

وأما خطب الصحابة لهذا العهد فلم يهتم المؤرخون والادباء بتدوينها ، مع ان بينهم من قاد سرايا وحملات مهمة ، وفيهم من تولى عمالة منطقة ، فلا بد ان يجمعوا الناس في مسجد او ساحة ، ولا بد ان يوجهوهم في شؤون الشريعة والعبادة ومدافعة المناهضين للاسلام ، ولذلك فقليلة جدا هذه النماذج الخطابية للصحابة . وبدلا من ذلك عُنِيَ الرواة بما يقصه الصحابة من احداث وقعت في عهد الرسول (ص) . وهذا الادب القصصي يشغَل حَيِّزا غير قليل من نثر العهد النبوي . ودوَّن المؤرخون واصحاب السير ما يقدم نظرة طيبة عن الادب الصحابي ، وهذه القصص انما قصد بها ضبط الاحداث التي وقعت في العصر النبوي وان كان بعض المؤلفين كابن اسحق وابن هشام والطبري يَرْوُونها بروايات مختلفة

حول الحَدَث الواحد . وبمقارنة اسلوب الروايات نلمس اثر الراوي الاصلي او الذي نقل عنه الكاتب مباشرة ، وهي وُصِلَتْ بالسَّند كالاحاديث .

ومن النماذج القصصية حادثة اهل الإفك كما روتها عائشة ام المومنين وتغمُرها مُسْحَة البساطة والتسلسل المنطقي للاحداث ، وليس في الاسلوب تقعُّرولا غريب من الالفاظ ولكن القصة في حد ذاتها رائعة تمثل مُسْحة من الذكريات الحزينة وتمر مراً خفيفا ومعبرا ، على دور حَمْنة بنت جحش في اشاعة الحادثة التي لُفقت خيوطها ، وتصور موقف علي كمعاد لها بشكل غير مباشر ، لانها تروي ما سمعت وما رأت . وفيما يلي فقرة من هذه القصة ، وهي تتناول استشارة الرسول لبعض افراد اسرته بشان عائشة [1] :

« . . . فدعا علي بن ابي طالب واسامة بن زيد ، فاستشارهما ، فاما اسامة فاثنى خيرا وقاله ، ثم قال : يارسول الله ، أهْلُك ولا نعلم عنهن الاخيرا وهذا الكذب والباطل ، واما علي فانه قال : يا رسول الله ، ان النساء لكثير وانك لقادر على ان تستخلف ، وسل الجارية ، فانها تصدقك ، فدعا رسول الله (ص) بُرَيْرة يسالها ، فقام اليها علي فضربها ضربا شديدا وهو يقول : اصدُقي رسول الله ، فتقول : «والله ما اعلم الا خَيْراً ، وما كنت اعيب على عائشة الا اني كنت اعجن عجيني فآمرها ان تحفظه فتنام عنه فياتي الداجن فياكله» . ثم دخل علي رسول الله وعندي أبواي وعندي امرأة من الانصار وانا أبكي وهي تبكي معي ، فجلس فحمد الله واثنى عليه ثم قال : يا عائشة ، انه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتقى الله ، وان كنت قد قَارفْتِ سوءا مما يقول الناس فتوبي الى الله يقبل التوبة عن عباده .

فوالله ما هو الا ان قال ذلك ، تقَلّصَ دمعي حتى ما احس منه شيئا . وانتظرت أبَويَّ ان يجيبا رسول الله (ص) فلم يتكلما ، وايْمُ الله لأنا كنت احقرَ في نفسي وأصغر شأنا من أن يُنزل الله عز وجل فيَّ قرآنا يُقرأ به في المَسَاجد ويصلَّى به ، ولكني قد كنت ارجو ان يَرَى رسول الله في نومه شيئا يكذب الله به عني ، لما يعلم من براءتي ، او يخبِّر خبرا ،

1- طبري ، تاريخ ، 3 ، 69

فأما القرآن ينزل فيّ ، فوالله لنفسي كانت احقر عندي من ذلك ... »

وكل القصة تصور المراة في حقيقتها البشرية عندما تكون ألْصَقَ ببيئتها ومتأثرة بها اكثر من غيرها ، وبَيئتُها طاهرة أنشأتها على الطُهْر . ولذلك كانت الخَيْبَة رد فعلها بعد ان لاذ والداها بالصمت وليس لهما ان يتخذا موقفا أمام الرسول (ص) . والحق ان هذه القصة جديرة بان يكون لها مكان في الأدب الجامعي النسوي المعاصر لقيمتها الفنية والتاريخية معا .

واذا كانت قصة الإفْك تذكر كل التفاصيل بالنظر لخطورة الموضوع فان بعض الروايات التاريخية كما رواها عدد من الصحابة تَقْفز بالاحداث قفزاً سريعا وتجعل بعضها يلاحق بعضا . ولكن الأسلوب يظل واضحا بعيدا عن الصنعة خاضعا لنظرة الراوي الاصلي . ومن ذلك مارواه هشام بن عروة عن ابيه بشان اسلام الأنْصار وهجرة الحبشة اذ يقول : (1)

«لما رجع من ارض الحبشة مَنْ رجع منها، ممَّنْ كان هاجر اليها قبل هجرة النبي (ص) الى المدينة ، جعل اهل الاسلام يزدادون ويكثُرُون ، وانّه اسلم من الانصار بالمدينة ناس كثير ، وفشا بالمدينة الاسلام فطفق اهل المدينة ياتون رسول الله (ص) بمكة،فلما رات ذلك قريش تذامرت على ان يَفْتنوهم ويشتدوا عليهم فأخذوهم وحرصوا على أن يفتِنوهم ، فاصابهم جهد شديد ، وكانت الفتنة الآخرة ، وكانت فتنَتَيْن ، فتْنَةٌ أخرَجت من خرج منهم الى ارض الحبشة حين امرهم بها واذن لهم في الخروج اليها ، وفتنةٌ لما رجعوا ورأوا مَنْ ياتيهم من اهل المدينة . ثم انه جاء وسولَ الله (ص) من المدينة سبعون نَقيباً ، رؤوس الذين اسلموا،فوافوه بالحج ، فبايعوه بالعقبة وأعطوهُ عهودهم على أنّا منك وانت منا ، وعلى انه من جاء من اصحابك او جئتنا فانا نمنعك مما نمنع منه انفسنا ، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك ، فامر رسول الله (ص) اصحابه بالخروج الى المدينة ، وهي الفتنة الآخرة التي اخرج فيها رسول الله وأصحابه وخرج ، وهي التي انزل الله عز وجل وجل فيها :

«**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ».

ففي هذه الرواية القصصية ، أي المسرودة بشكل قصصي، تتراكم عدة احداث :

1- م . س . ج . 2 ، 240

انتشارا الاسلام بالمدينة مع تاخير الحديث عن بيعة العقبة التي مهدت لهذا الانتشار، والضغط القرشي على المسلمين ، وهجرة الحبشة،ثم بيعة العقبة الثانية،وهي التي انتشر بها الاسلام في المدينة بسرعة وعلى نطاق واسع . غير ان الراوي انما قصد بانتشار الاسلام المرحلة الاولى منه بعد بيعة العقبة الاولى ، وبذلك فأن الاحداث مع تَدَفُّقِها في ذهن المتحدث متسلسلة زمنا [1]، اما الاسلوب والتعبير فاقرب ما يكون الى لغة الحياة اليومية لهذا العهد ، وهي لغة فصيحة قريبة المنال .

وتَخَيَّلَ العرب قصص الجن ، فقد أُولِعوا بذلك في العصر الجاهلي ، وان في كتاب "الاغاني" للأصبهاني لنماذج منه كثيرة ، وبعض هذه القصص رويت على لسان شخصيات لا يتطرق الشك الى مروياتها كعبد الله بن عباس واسماء بنت ابي بكر [2] . وتختار هذه القصص بعض الفترات الحَرِجة من حياة المسلمين كالفترة التي دبرت فيها قريش محاولة اغتيال الرسول وفترة توجهه الى غار حراء.وهكذا فأسماء تشير إلى ان اسرتها لم تعلم اين توجه الرسول مدة ثلاث ليال حتى خرج رجل من الجن من اسفل مكة يغني بابيات من الشعر غناء العرب والناس يتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من اعلى مكة . . . ثم تروى اسماء أبيات الشعر التي قالها الجني ، فهلْ ما أُسند من هذه الروايات الى صحابة اجلاء يمكن أخذه بعين الاعتبار ؟ لكن الذي يهم هنا هو الجانب الأدبي الذي يمثل الخيالَ والسبك القصصي الفطري فيه مقاما متميزا يتأثر بحقبة ماضيةً على كل حال ، كما ان حديث الجن الذين استمعوا الى الرسول اشار اليه القرآن بشكل واضح ، قد يشجع بعض الرواة على تخيُّل قصص الجان ونسبتها الى كبار الصحابة ، لكن هَيْهات ان يكون صدق الخيال كصدق الحقيقة .

وفي ادب العهد النبوي خُطب القاها بعض رؤساء الوفود بِمَحْضَره كتلك التي ألقاها عُطارد بن حاجب باسم وفد تميم في السنة التاسعة ، وهي خطبةُ مفاخرة القاها ضمن مناظرة نثرية شعرية بين الوفد التميمي وخطيب الرسول وشاعره ، وادت هذه المناظرة التفاخرية الى إسلام تميم .

1- انظر نموذجَيْن آخرين . ن . م . ص 237 ، 288 ، ونماذج اخرى في صحيح البخاري . ج . 7 . ص 39 ، 40 ، 43 ، 63 ، الخ

2- طبري ، 2 ، 242 ، 247 . ابن هشام ، سيرة ، 2 ، 95

قال عطارد [1] ، : " الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن ، وهو امله الذي جعلنا ملوكا ووهب لنا اموالا عظاما نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أَعَزَّةَ اهل المشرق واكثره عددا ، وأيسره عدة ، فَمَنْ مِثْلنا في الناس اولى فضلهم ؟ فمن فاخر فليعدّد مثل ما عددنا ولو نشاء لاكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الاكثار فيما اعطانا ، وانا نُعرَف بذلك . . . اقول هذا ، لِأَنْ تاتوا بِمثل قولنا وأَمرٍ أفضلَ من امرنا . "

ورد عليه بامر الرسول (ص) ، ثابت بن قيس فقال : [2]

"الحمد لله الذي السمواتُ والارضُ خَلْقُه ، قضى فيهن امرَه ، ووسع كرسيُّه عليه ولم يك شئ قط الا من فضله . من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، اكرمه نسبا واصدقه حديثا ، وافضله حسبا ، وانزل عليه كتابه ، وائتمنه على خَلْقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس الى الايمان به ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رَحِمه ، اكرم الناس حسبا ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعالا ، ثم كان اولَ الخلق إِجَابَةً ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله (ص) ، نحن . فنحن انصار الله وَوُزَراء رسول الله،نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جَاهَدْنا في الله ابدا ، وكان قتله علينا يسيرا ، اقول قولي هذا ، واستغفر الله لي وللمومنين والمومنات والسلام عليكم . "

ومع ان الخِطابَيْن من عصر واحد وفي مقام واحد ، فالبَوْنُ بينهما شاسع من حيث المحتَوى والمؤثرات ، فالاول لفظا ومدلولا يبينُ عن القوة والمَنَعَة ووفرة المال والسلاح ، والثاني محوره الانصار ، لان الرسول قبل هذه المفاخرة بين مجتمعين مُتَبَايِنَيْن ، لكن الخطيب هنا لم ينس الماضي وان ذكره بسرعة ومن غير الحاح ، فالانصار من اصل يمني ، وملوك اليمن كان لهم تفوق سياسي بالنسبة لسائر جزيرة العرب ، ثم ان الخطيب لم يُغْفِل المهاجرين وهم اسبق الناس إسلاما . أما اهم المؤثرات في خطبة ثابت فقد أشَعَّتْ من القرآن ، كعبارات الايمان والجهاد ونزول الكتاب وائتمان الله للرسول،والفخر بالعقيدة ابلغ من الفخر بالمال والقوة .

1- ابن هشام ، 4 ، 153

2- م ، س .

وهكذا كان النثر ياخذ بالمؤثرات الاسلامية بصورة مباشرة ، من القرآن والحديث في العصر النبوي نفسه ، فامؤثرات الجاهلية لم تختفِ تماماً في الاسلوب الأدبي ، ولكن المؤثرات الاسلامية تنفذ بعمق الى الادب الاسلامي الذي يصوغه مسلمون مومنون .

الشـــعـــر

وأما الشعر فكان ذلك التعبير الفطْري المقفى والذي يتناول الحياة العامة وبالاخص الدينية والسياسية ، فالغزل قد اختفى ظِله او كاد ، لا من الواقع جملة ، ولكن من اهتمام الرواة . فاذا كان المسلمون في عنفوان ثورتهم العقائدية قد تَخَلّواْ تقريبا عن هذا الباب ، فان في الطرف الآخر ، المشركين ، الذين لم يتورعوا عن التّشْبيب بسيدات البيوت الاسلامية .

وحيث ان الشعر انفذُ وقْعاً من النثر ، وأنَّ الجاهليين والمشركين وحتى اليهود اعتمدوه في المفاخرات الحربية وتسجيل الانتصارات وتَعْدادِ هزائم الاطراف المغلوبة ، فان الحركة الاسلامية قارعت الآخرين بنفس السلاح دون ان تفترَ عزيمتها عن الاحتماء بالقرآن وبلاغته وما يكشُفه من عيوب الآخرين وفضائحهم .

والحق ان الشعر العربي لهذه الحقبة كسابقِه وكلاحقِه لفترة طويلة ، تتداخَلُ ابوابه بعضها في بعض ولكن هذه الابواب يمكن تصنيفهاَ في النهاَية وباعتبار غالبية قصائد هذه الحقبة كالتالي :

ا- ما يتناول عهد الرسول قبل البعثة ، ويمكن ان يطلق عليه ادب مقدمات البعثة .

ب- الإسلاميات وهي الاشعار والقصائد التي تتناول اعتناق الاسلام ومدح الرسول . والدفاع عنه وعن دينه وانصاره والمومنين به ، وقضايا الهجرة واحداثها .

ج - الفخريات ، وهي تضرب في وجوهٍ من الفخر متباينة ، كالفخر بقتل شخص مناهض للاسلام ، وكالفخر بالاسلام نفسه .

د - اشعار المغزي والفتوح .

هـ - اليهوديات ، وهي ما قاله شعراء من اليهود او ما قيل رداً عليهم او بشأنهم .

و - الرّدّيّات ، وهي تتناول الردة والمرتدين .

ز - الرثاء او المرثيات

وما قيل في الاسلاميات والمغازي يكوّن معظم الشعر العربي لهذا العصر ، وعلى الاقل فقد عُنِيَ الرواة به اكثر من غيره . وفي كل حال ، فان الشعر يُغْني تاريخ العهد النبوي بالكثير من المعلومات ، كما يعتبر الجانب الديني منه تَحَوُّلا جديدا في نفسية العربي المسلم الذي صار شعره ذا بعد انساني عميق يتجاوز الأحاسيس القَبَلِيَّة ويرتبط بالافق الالهي الذي لم يكن له سوى مجال ضعيف خافت فيما سبق ، لدى قليل مِنّ شعراء العهد الجاهلي . فلننظر إذاً ، في ابواب الشعر المذكورة واحداً واحداً :

ا - شعر مقدمات البعثة

وهو يمثل الفترة الممتدة من مولد الرسول عام الفيل الى مبعثه . وممن تناولوا هذه الفترة عبد الله بن الزِّبَعْرى ، وأبو قيس بن الأسلت الأنصاري ، وأمية ابن أبي الصلت ، وورقه بن نوفل ، ومن موضوعاته قصة الفيل ودخول الاحباش الى الحجاز وبناء الكعبة ومبعث الرسول (ص) . ومن شعر ابن الزبعرى عن هجوم الاحباش على منطقة مكة :

فتنكّبوا عن بطن مكة إنها ... كانت قديما لا يرام حريمها
سائلْ أمير الجيش عنها ما رأى ... ولسوف يُنْبِي الجاهلين عليمُها
ستون الفا لم يئوبوا أرضَهم ... إذْ لم يعش بعد الإياب سقيمُها
كانت بها عادٌ وجُرْهُمْ قبلهم ... والله من فوق العباد يقيمها

ويشير البيت الثالث الى عودة ابرهة سقيما الى صنعاء حيث مات [1] كما يفيد هذا البيت ان عدد المهاجمين كان ستين الفا .

وعندما اخبرت خديجة ورقة بن نوفل بتردد جبريل على الرسول قال ورقة في ذلك قصيدة يعرب عن تشوقه لمبعث الرسول ويؤكد صموده الى جانبه اذا امتد به العمر ، ومن هذه القصيدة :

1- ابن هشام ، سيرة ، 1 ، 50 - 51

ووصفٌ من خديجة بعد وصف | فقد طال انتظاري ياخديجا
بان محمداً سيسود فينا | ويخصم من يكون له حجيجا
فيلقى من يحاربه خساراً | ويلقى من يسالمه فلوجا

ثم يتحدث عن عداء قريش الذي يتوقعه ، ويتمنى ان يكون حيا ليقف بجانب الرسول :

فإن يَبْقوا وأبقَ تكن امور | يضج الكافرون لها ضجيجا
وان أهلِك فكل فتى سيلقى | من الاقدار مَتْلَفَة حَروجا

وبين الاشعار والقصائد المتعلقة بالبعثة ما نسب الى كهان او جن ، وهي بدون شك في أغلبها من عمل العناصر المتشبثة بالاسلام او المتعاطفة معه ، وهي تحاول ان تملأ فراغا في محيط المشركين الذين يتعلقون بالكهان وتجتذبهم احاديث الجن وما يُروى بشأنهم . ومن نماذج هذا الشعر ما نُسب إلى كاهن اسمهُ خطر بن مالك [1] :

أخبركم بالحق والبيانِ | أقسمتُ بالكعبة والأركانِ
والبلدِ المؤتمن السدّانِ | قد مُنع السمعَ عتاة الجانِ
بثاقب بكف ذي سلطانِ | من أجل مبعوث عَظيم الشانِ
يبعثُ بالتنزيل والفرقانِ | وبالهدى وفاضل القرآنِ

تَبطُلُ به عبادة الاوثان

فمصطلحات كالتنزيل والقرآن لم تكن معروفة قبل البعثة بما عرفت به بعدها ، والقرآن لم يكن قد نزل منه شئ ، فكيف ياتي لفظه على لسان كاهن لم يثبت أن الرسول نفسه قد نطق به أو عرفه قبل الوحي ؟

وعلى هذا يكون هذا الشعر المنحول متأخرا زمنا عما قبل البعثة ولكنه معاصر للرسول (ص) .

1- يعمري ، 1 ، 98

ب - الاسلاميات

ويتناول هذا الباب اعتناق الاسلام ونبذ الاصنام والتنويه بالدين الجديد والدفاع عنه كقضية ، وعن رسوله كصاحب رسالة ، كما يشتمل على قصائد في مدح الرسول او بعض صحابته ، وبينه ما يتناول الهجرة الى الحبشة او المدينة . وشعراء الإسلاميات كثيرون ، وأغزرهم شعرا حسان بن ثابت ، وكان يرد على المناهضين للإسلام قبل اسلام عدد منهم كعبد الله بن الزِّبَعْرَى . وكثيرا ما كان الرد ياتي بامر الرسول ، فكان شعراء الاسلاميات يعايشون احداث الاسلام وتطوراته ، وما كان الاسلام ليستغني عن الشعر في هذه الحقبة وهو مازال يفرض نفسه كوسيلة تخاطب تُفرّغ فيها المعاني السياسية والعقائدية في الاتجاهَيْن ، المدافع والمناهض . ورأى القرآن في الشعراء لا يتناقض مع مسؤولية الصالحين منهم في الميدان الشعري **«والشعراء يتبعهم الغاوون الم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون ؟ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا»** .

ويتردد كثيرا في شعر الاسلاميات ، الحديث عن عبادة الاصنام كدين ضلالة واستبدال الاسلام ، بها . قال مازن بن الغَضُوبة عن كسره لصنم بعمان اسمه (بادر) : [1]

كَسَرْتُ بـادر أجـذاذاً وكـان لنا ... ربّاً نُـطيف به ضَلاً بتَضْـلال
بالهاشمّـي هَـدانا مـن ضلالـتنا ... ولـم يـكُن دينـه مني على بال
يا راكـبا بلّغَن غَمْـراً وإخوتهـا ... أنـي لِمَنْ قـال ربي بـادرٌ قالِ !

وتأثر شعر الاسلاميين في غالبيتهم بالفاظ القرآن وعباراته ومعانيه ، ومن ذلك قول زيد بن عمرو بن نفيل : [2]

وَأسلَمْـت وجـهي لِمَنْ أسْلمـت ... لـه الأرض تحـمل صَخـرا ثقالا
دحـاها فـلما رآهـا أسـتـوت ... علـى المـاء أرسى عليها الجبالا
واسـلمتُ وجـهي لمـن اسلـمت ... لـه المُزْنُ تحـمل عـذبـا زُلالا
إذا هـي سـيقت الـى بلـدةٍ ... أطاعـت فسـحّت عليـها سجالا

1- يعمري 1 ، 95
2- ابن هشام ، 1 ، 213
3- م . س . ص 208

وتحدث زيد بن عمرو هذا عن اعتناق الاسلام بعد ان فارق الاصنام وتاه بينها لكثرتها وعدم نفعها : [1]

أربّاً واحـــدا ، أم ألــــفَ ربٍّ أديـــنُ إذا تـــقسّمـــتِ الامـور؟
عـــزَلتُ الـــلات والعُزى جميعـا كـــذلك يفعـــل الجلـــدُ الصبور
فـــلا الـــعـزى أدينُ ولا ابنتَيْـها ولا صَنَمَـــيْ بـــني عمـــرو ازور
ولا هُبــَلاً أديـــن ، وكـــان ربـــا لنا فـــي الـــدهر إذْ حلمـــي يسير
ولكـــن اعـــبد الـــرحـــمن ربـــي ليغفـرَ ذنـــبي الـــربُّ الغـــفور
فـــتـــقوى الله ربّكم احفظـــوها مـــتى ما تحفـــظوها لا تبـــوروا

وعندما اسلم ابن الزبعرى اعترف باخطائه الماضية واكد ايمانه : [2]

فاليـــوم آمَـــنَ بالنـــبي مـــحمـدٍ قـــلبي ، ومخـطئ هـذه مـحـــروم
فاغفر فدًى لك ، والـــديَّ كـلاهما ، زَلَلي ، فانـــك راحـــم مـــرحـــوم
ولـقـد شـهـدت بـأن ديـنك صادق حـــق وانـــك فـــي العـــبـاد حسيم
والـلـه يشـهـد ان احمدَ مصطفىً مـــستقبَل فـــي الصـالحـين كريم

وابن هشام الذي ينقل هذه القصيدة عن ابن اسحق يقول ان بعض اهل العلم بالشعر ينكرها له ، وهي في اربعة عشر بيتا . ومما يؤكد احتمال نسبتها الى ابن الزبعرى انه ليس في أبياتها مؤثرات قرآنية ولا عبارات اسلامية متميزة لان صاحبها حديث عهد بالاسلام .

ومن الشعر ما اتخذ صورة الوصايا التي توازي تعاليم الاسلام وكتابه ، وابدع فيه ابو قيس صرمة بن ابي انس ، من بني عدي بن النجار الانصاريين . وكان قد ترهب في الجاهلية وادرك الاسلام شيخا كبيرا . وتقمص الشخصية الاسلامية في شعره بشكل عميق فحض على تقوى الله والتمسك به وعلى العناية باليتيم وعدم الاطمئنان الى الدَّعَة ولين الايام . وقال يميز بين موقف قريش وموقف الانصار من الرسول ودين الاسلام . [3]

1- م . س . ص 3 . 45
2- م . س . ، 2 ، 113 - 114
3- م . س . ص 114

ثَوَى في قريش بضع عَشْرَةَ حَجّةً يذكّرُ لو يلقى صديقا مواتيا
ويعرض في اهل المواسم نفسه فلم يَرَ مَنْ يُؤْوِي ولم ير داعيا
فلما اتانا أظهر الله دينَه فأصبح مسرورا بِطِيبَة راضيا
بذلنا له الأموال من حِلِّ مالنا وأنفسنا عند الوغى والتأسيًّا

وكان أقوى موقف في الثبات الى جانب الرسول ، هو موقف بني عبد المطلب ، وبالاخص موقف ابي طالب الذي خاطب ابا لَهَب يُحَرِّضُه على قريش وينتهي الى اعلان نصرة الرسول (1) :

ولا تقبلن الدهر ما عشت خطة تسب بها إمَّا هَبَطت المواسما
وولّ سبيل العجز غيَرك منهم فإنك لم تُخْلَقْ على العجز لازما
جزى الله عبد شمس ونوفلا وتَيْماً ومخزوما عُقوقا وماثما
بتفريقهم من بعد وُدٍّ وألفة جماعتنا كيما ينالوا المحارما
كذبتم وبيت الله نَبْزي محمدا ولمَّا تروا يوما لدى الشِّعب قائما

وقد قيلت هذه القصيدة بِشَأنِ حصار قريش لبَني هاشم . ونُسب الى ابي طالب شعر كثير فيه ما ينوه بالاسلام علانية (2) ، وهذا ما لا يتفق مع مَرْوِيات البخاري والطبري وغيرهما .

ومن أمتع ما قيل في مدح الرسول ودينه وخصص لهذا الموضوع بالذات ، قصيدة أَعْشَى بني قيس بن ثعلبة ، وهي تبدأ بالنسيب وتنتقل الى شخصية الرسول وتذكر بعض الوصايا النبوية بشان التقوى وتجنب عبادة الاصنام ، وصلة ذي القربى . وحسب رواية ابن هشام فان الاعشى لم يسلم ، وقال هذه القصيدة قبل اسلامه وذلك لانه لم يشأ أن يتخلى عن تعاطي الخمر (3) . ومطلعها .

1- م . س . 2 ، 15
2- انظر مثلا ، م ، س 1 ، 245 . و2 ، 4 .
3- انظر تعليق السُّهَيْلي ، في سيرة ابن هشام 2 ، 26

ألم تـغتمـض عيناك ليـلة أرمــدا   وبــت كـمـا بـات السـليم مسـهـدا

ويشير الى ناقته :

فآليـت لا ارثي لها مـن كلالـــــة   ولا مـِـن حَفَى حتى تـلاقي محمدا

وإلى الرسول (ص) :

نـبـيـا يـرى مـالا تــرون وذكــره   اغـار لـعـمـري في الـبلاد وأنجدا

وإلى بعض وصايا الرسول :

فـايــاك والميـتـات لاتَقْرَبَنّــَّـهـا   ولا تـاخذَنْ سـهـما حديدا لتُفصدا
ولا النُّـصُـبَ المنصوبَ لا تَنْسُكَنَّه   ولا تـعـبـدِ الاوثان ، واللهَ فاعبدا

ومدح مالك بن عوف من زعماء هوازن ، رسول الله (ص) بالجود والشجاعة والقدرة على كشف ما يحدث في مستقبل الاشخاص : (1)

مـا ان رأيــت ولا سـمعــت بمثله   فــي الــنــاس كلهم بمثـل محمد
أوفــى وأعـطى للجزيل اذا اجتدى   ومــتى تــشأ يُخبرك عما في غد
واذا الكــتيـبة عــردت انـيابهـا   بالسَّمْــهَري وضــرْب كــل مــهنَّد
فكــأنه لـيث عـلى اشبـالــه   وســط الهَبـاءة خـادرٌ في مَرصَد

واشهر قصيدة مدح الرسول هي لامية كعب بن زهير التي أنشدها بين يدي الرسول (ص) بعد فتح مكة وقد جاء تائبا ، وبدأها بالنسيب الذي يتمحْوَرُ حول (سعاد)

1- ابن هشام ، 3 ، 103 .

بعد ان بعدت ديارها فلا يبلغ اليها الا على ناقة لها اوصاف خاصة افاض الشاعر في وصفها ثم انتقل الى ما هو معرض له من الخطر بسبب بقائه على الشرك ، ومن ثم الى اتصاله بالرسول يَمْدَحُهُ مثلما مدح المهاجرين .

ومطلع القصيدة :

بانــت سعــاد فقلبي اليوم مَتْبُول   مُتَيَّمٌ إثـرها لـم يُفـدَ مكبول [1]

ومن مقاطعها :

إنَّ الـرسول لنـور يستضاء بـه   مهنَّـد مـن سيـوف الله مسلول
فـي عـصبة من قريش قال قائلها   ببـطن مـكـة لمـا أسْلمـوا زُولوا
شُمُّ العـرانين ابـطالٌ لَبُـوسُـهُـمُ   مـن نسـج داود في الهيجا سَرابِيلُ
لا يـقـع الطـعنُ الا في نحورهم   ومـالهـم عـن حياض الموت تهليل

وليس في هذه القصيدة مؤثرات اسلامية بل هي الى الشعر الجاهلي اقرب ، ويلاحظ ان كعب بن زهير اهمل الأنصار في لاميته لان احدهم اشار على الرسول بقتله بعد ان اتصل بالرسول ، غير انه مالبث ان مدحهم في قصيدة اخرى بعد ان سخطوا موقفه :

وَرِثُـوا المـكـارم كـابراً عن كابرِ   إن الخيـار هـمُ بـنـو الاخْيَـارِ [2]

وكان حسان بن ثابت شديد التعصب للانصار وان كان شاعر الرسول مدافعا عن دينه :

يـؤاسـون جـارهـمُ فـي الغِنى   ويـحمـون مـولاهـمُ ان ظُلم [3]
فلـما اتـانا الـرسـول الـرشـيـد   بالحـق والـنـور بـعـد الظُّلَـم
فـقـلنا صـدقـت رسـول المـليـك   هلُمَّ اليـنا وفـينـا أقِم

1- م . س . 4 ، 109
2- ن . م . ص 117
3- ن . م . ص 151

ومدح حسان بن ثابت ابا بكر مُنَوِّهاً بموافقة لصالح الرسول والاسلام : [1]

إذا تـذكـرت شَجـواً من أخي ثقة   فـاذكـر اخـاك ابـا بـكر بما فعلا
خـيـر البـرية اتقـاها وأعدلُها   بـعد النبـي واوفـاها بمـا حملا
الثـانيُ التـاليُ المحمودُ مشـهـدُهُ   واول النـاس مـنهمُ صـدَّقَ الرُّسُلا

وكان حسان ممن وقع عليهم الحد في قضية الافك ، وقال بعد ذلك يعتذر لعائشة ويمدحها [2] :

عـقيـلة أصـل مـن لُؤي بن غالب   كـرام المسـاعي مجدُهُم غير زائل
مـهذبـة قـد طيـب الله خِيمَها   وطهـرها مـن كـل بغْي وباطل
فـان كـان مـا قـيـل عـنـيّ قلته   فـلا رفـعتْ سـوطي اليّ انا مـلي
وكيـف وودي ما حييت ونُصـرتـي   لآل رسـول الـلـه زيـنِ المحـافـل

ونالت الهجرة نصيبها من ادب العهد النبوي ، وبرّر الشعراء هجرة الحبشة بما لاقوه من قهر واضطهاد على يد قريش التي كفرت بالله لشركها وكفرت بالرسول فلم تصدق رسالته ، فوجد المهاجرون الأمن في مهجرهم واستطاعوا ان يعبدوا الله ويمارسوا شعائرهم بحرية ، بل ان ابا طالب ارسل الى النجاشي شعراً يُنَوِّهُ فيه بموقفه وبحميد خصاله [3] .

ومن امتع ما قيل في هجرة الحبشة ابيات لعبد الله بن الحارث [4] :

يا راكـبـا بلغَنْ عنّي مغلـغلـة   مـن كـان يـرجو بـلاغ الله والدين
كل امـرئ مـن عبـاد الله مضطهَدٍ   ببـطن مكـة مـقهـورٍ ومفتونِ
إنـا وجـدنا بـلاد الله واسعـة   تُنْـجي مـن الـذل والمخـزاة والهُونِ
فـلا تـقيـمـوا على ذل الحياة وخزْ   ي فـي الممات وعيبٍ غير مامـون

1- طبري ، 2 ، 214
2- يعمري ، 2 ، 379
3- ابن هشام ، 1 ، 286 - 288
4- م . س . ص 286

وكانت الهجرة الى المدينة موضعَ عناية الشعراء ، وبعض الاسر الكبرى هاجر قسم منها وظل آخرون على شركهم كأسرة بني غَنْم التي قال شاعرها ابو احمد بن جحش وهو يعبر عن رفضه للاستجابة لزوجه التي نصحته ان يهاجر الى غير يثرب [1] :

تقول : فإمّا كنت لابد فاعلا ... فيمِّم بنا البلدان ولْتَنْأ يثربُ
فقلت لها ، بل يثرب اليوم وجهُنا ... وما يشإ الرحمنُ فالعبدُ يركبُ
الى الله وجهي والرسول ؛ ومن يُقِم ... الى الله يوماً وجهَهُ لا يخيَّبُ

ونوه حسان وهو أنصاري ، بالمهاجرين وموقف الانصار منهم اذْ رحبوا بهمْ وشاطروهم ثم حاربوا الى جانبهم في معركة بدر [2] .

ج - الفخريات

تشمل في معظمها الفخر بقتل شخص ، أو بالأحساب ، او بانتصار في معركة او بالاسلام ومزاياه .

قال المجذر يفخر بقتل ابي البُخْتري في (بدر) (وكان أبو البختري مشركا ولكنه لم يكن يعرض للرسول بأذى ، ورفض ابو البختري ان يسلم نفسه لقاتله ، لان الرسول كان لا يرغب في قتله) [3] :

إما جهلتَ او نسيتَ نسبي ... فأثبت النسبة أني من بَلِي
بَشَّرْ بيُتْمِ مَن أبوه البختري ... او بشِّرَنْ بمثلها مِنِّي بَني

وامر الرسول عبد الله بن انيس بقتل سفيان بن خالد الهُذلي اللحياني، وكان يتهيأ لغزو المسلمين وحرب الرسول حول المدينة ، وجمّع الحشود لذلك ، فاحتال ابن أنيس حتى اتصل به وقتله غيله وقال بهذا الصدد [4] .

1- م . س . 2 ، 84
2- م . س . ص 123
3- م . س . 2 ، 198
4- يعمري ، 2 ، 56

اقــول لــه والسيــف يعجُم راسه　　انــا ابــن أتيــسٍ فارساً غيرَ قُعْدد
وقلــت لــه خــذها بـضربة ماجدٍ　　حنــيــف عــلى دين النبي محمدِ
وكــنــت اذا هــم النـبي بكــافــر　　سبــقت اليــه باللـسان وبــاليــد

ولا بد ان نلاحظ ان الفخر بقتل عدوٍ لم يعد ياخذ ذلك المظهر من التّعَالي والازدراء الذي كان يقابِل به القاتل قتيله في الجاهلية ، فحتى مع الفخر بالأنساب احيانا وفي إطار محدود يشبه ان يكون فلتةً لسان فان القتل يكون مبّرره دينيا ، فالشاعر يتخذ من نصرة العقيدة مبرراً بعد ان كان القتل فيما مضى أخذاً بالثار ، وهذا تطور سريع في ذِهْنِيَّة المسلم العربي الذي فترت حدة أنانيته الى حد كبير . قال علي ابن ابي طالب بعد قتل عمرو بن عبدود في غزوة الاحزاب [1] :

نَصَرَ الحــجــارةَ من سفــاهة رأيه　　ونــصرتُ رب مــحمــد بصــوابي
لا تَحــســبنَّ اللــه خــاذلَ دينه　　ونــبــيِّه يــا مــعــشر الاحــزاب

وعندما تقدم الزبرقان بن بدر مشركا الى الرسول ، واذن له الرسول في ان يلقي شعره لم يزد على ان فَاخَرَ بالكرم والحسب وقهر الضعاف واستقبال سراة الناس ، فلما دعا الرسول حسان بن ثابت الى الرد عليه باسم الانصار ، ذكر ماضيَهم في المجد وحاضرهم في حماية الاسلام والرسول والمهاجرين [2] فالروح القَبَلِيَّة لم تختف هنا ايضا ولكن الاعتبار العقائدي اخذ بعدا كبيرا في الحالة الثانية . ويظهر الفخر الديني في شعر حسان باستمرار ، وهو مع هذا يجعل الانصار محوره [3] :

كنــا ملــوك النــاس قــبل مـحمد　　فلـما اتــى الاســلام كان لنا الفضل
واكــرَمَنَا الــلــه الــذي ليس غيره　　الــه يــأيام مـضت مــالَها شكــل

1- ابن هشام ، 3 ، 153
2- طبري ، 3 ، 151
3- م . س . 4 ، 149 . وانظر ايضا ص 150

د - اشعار المغازي والفتوح

اخذ هذا الباب بقسط كبير من الشعر ، وهو يعبر عن المؤثرات الاسلامية واعتبار التشبث بالعقيدة عاملا في النصر . واكثر المعارك والفتوح نصيبا من هذا الشعر ، غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وفتح مكة ، ثم غزوة حنين .

ومما يلفت النظر هنا ان الفاظ الشهادة ومعانيها لم تبرز بعد في البدريّات الا نادرا ، وذلك ان بدراً أولى مواجهة حقيقية بين المسلمين وجيش المشركين ، لكن الشعراء يحلو لهم ان يرددوا اسماء القتلى من الاعداء كما عند حسان [1] :

بنـــو الأوسِ الـغطــارِف وازَرَتــها بنـــو الــنجار فــي الديــن الصليبِ
فــغــادرْنــا ابـا جـهــل صـريعا وعـتـبة قــد تـركـنـا بالجَبُــوب
وشـيـبـــةَ قــد تركنا فــي رجــال ذوي حـسَب اذا نُـسـبوا حـسـيبِ

ومعـركة بدر مثل معارك اخرى كانت موضع صراع شعري حاد بين المسلمين واعدائهم ، فضرار بن الخطاب من الحزب القرشي يسفه الشعراء من فريق الانصار ويعتبر ان انتصار بدر ما كان الا بفضل تلك الفئة التي تنتمي لقريش وعلى رأسها محمد ، وهو يقصد المهاجرين ، وهذه النزعة القَبَليَّة الحادة من ورائها محاولة غير مجدية لإحداث الفرقة بين المهاجرين والانصار ، ومع ذلك يرد عليه كعب بن مالك باسم الانصار ، مفتخرا بحمايتهم للرسول وباعتناقهم الاسلام وقضائهم على العُتاة أمثال ابي جهل وعتبة وشيبة ، ومستقرهم النار ، لانهم كانوا يصفون الرسول بالساحر . وفي كل ذلك يتحاشى كعب بن مالك ان يشير الى المهاجرين [2] ، بينما عَيَّرَ حسان قريشا بالذل والهزيمة . ولحسان في بدر شيء كثير ، ولكن صُوَرُهُ الشعرية وفحوى شعره يكرر بعضه بعضا بل يصبح هزيلا في بعض الاحيان [3] :

1- ابن هشام ، 3 ، 135
2- ن . م . ص 264 - 265
3- ن . م . ص 282

فـمـا نـخشـى بحـول الـله قـوما   وان كثُرُوا وأجـمـعـت الزُّحـوفُ
ولـكـنا تـوكـلـنا وقـلـنـا   مآثـرنا وَمَـعْـقِلُـنا السـيـوف

ومن حزب المشركين نجد شعراء كطالب بن ابي طالب الذي لم يثبت اسلامه ، وعبد الله بن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب ، يتفجعون على قَتْلاهم من بدر ، وأغرب من هذا ان طالب بن ابي طالب ينسب انتصار المسلمين لمعونة الله كما انتصر العرب على الاحباش عام الفيل ، ثم بعد هذا يتفجع على مقتل ابي جهل الذي رثاه ايضا ضرار بن الخطاب [1] . كذلك نسبت الى امية بن ابي الصلت قصائد لصالح قريش ، وقالت هند بنت عتبة تبكي اباها وتندد ببني هاشم وبني عبد المطلب [2] :

اعـيني جُـوداً بدمـعٍ سَـرِب   عـلى خـير خِنْـدفَ لم ينقلـب
تـداعَى لـه رهـطه غـدوةً   بنـو هـاشم وبـنو المطـلـب
يـجُرُونـه وعفـيـرُ التـرا   ب عـلى وجـهـه عارياً قـد سُلِب

وشاركت سيدات أخريات بالشعر أنشأنه باكيات أقاربهن وأزواجهن ، ومنهن صفية بنت مسافر ، وقُتيلة بنت النضر بن الحارث التي وجهت الى الرسول عتابا على اعدام والدها وعدم المنّ عليه او مفاداته [3] :

أمحـمدٌ يا خيـر ضنْءِ كـريـمة   فـي قـومها والفحل فحل مـعـرق
مـا كـان ضـرك لـو مَنَنْتَ وربما   مـنَّ الفـتـى وهو المغيظ المحنَق

وكذلك نسب الى عـاتكة عمة الرسول (ص) اشعار تندد فيها بالمشركين وتُعَيِّرهم بهزيمة بدر فأخذ عليهم التكذيب بالرسالة المحمدية [4] .

1- م . س ص 273 ويشك ابن هشام في رثاء ضرار لأبي جهل
2- ن . م ص 282
3- ن . م . ص 283
4- ياسين العمري ، مهذب الروضة ، ص 88

وكان ابو سفيان اشد الغاضبين حنَقا على قتلى القُلَيب (بئر دفن فيها قتلى المشركين) ، ولذلك قرر مع سائر زعماء قريش ان ياخذ بثار رفاقه ، وتوجه الى الانصار خاصة ، لانه يعلم ان المهاجرين وهم في قلة عدد ما كان لهم ان يغامروا وحدهم في معركة بدر [1] .

ان يــك يــومُ القُليب كــان لهــم ... فــإن مـــا بعــدهُ لكــمُ دُوَلُ
آليــت لا اقــرب النســاء ولا ... يمــسَّ رأســي جلــديَ الغُســُلُ
حــتــى تُــبيــروا [2] قــبائـل الاوس والخـزرج ، ان الــفــؤاد مــشــتـعـل

وانتقمت قريش لهزيمة بدر ، فكان انتصارها على المسلمين في أحد وهو انتصارها الوحيد على الجماعة المسلمة . ومن البديهي ان يكون هذا الانتصار موضع فخر للمشركين وتَشَفٍّ غير مكبُوت ، من المسلمين . وشعراء الجانب الإسلامي يتخدون آلان موقفا دفاعيا ولا تَهِنُ عزيمتهم لانهم يدافعون عن عقيدة لاعن عصبية ولا مصالح اقتصادية ، بل الحقيقة ان مصالحهم الاقتصادية والعائلية ضحوا بها كلٌ في غاية حدود التضحية .

وكما كان ابو سفيان اشد الحانقين من قريش في بدر ، كان اكثرهم ارتياحا في احد ، فعبر عن ارتياحه هذا شعرا ، ورد عليه آخرون كحسان والحارث بن هشام [3] ، وحتى هـند التـي لاكت كبد حمزة لقيت نصيبها لامن رده فحسب ، بل ومن هَجْوِهِ الفاحش ايضا [4] . وهكذا كان شعر المغازي يفضح الكثير من اسرار الرجال والنساء ويساهم في ضبط الحقائق والاحداث ، بل يضيف من المعلومات ما لم تقدمه الروايات المنثورة ، وعلى سبيل المثال فإن حسان بن ثابت يذكر عتبة بن مالك (عتبة بن ابي وقاص) بوصفه الشخص الذي عمل على كسر رباعية الرسول (ص) [5] :

1- طبري ، 3 ، 22
2- تُهلكوا
3- طبري ، 3 ، 22
4- ن . م . ص 23
5- ن . م . ص 72

اذا الله جـازى معشـراً بفعالهـم ... وضـرَّهُم الـرحـمن رب المـشـارق
فأخـزاك ربـي يـا عُتَيْب بن مالكٍ ... ولقـّاك قـبـل الموت احدى الصواعق
بسـطت يمـينا - لـلـنبـي تعمُّداً ... فأدميـت فاه - قُطِّعت بالبوارق [1]
فـهـلا ذكـرت الـلـه والمـنزل الذي ... تصـيـر اليه عند إحدى البَوائق ؟

وممن فَخَروا بانتصار قريش في أحد ، هُبيرة بن ابي وهب ، وابن الزِّبعرَى ، كما تَوَلّى الرد عليهم حسان ، وضرار بن الخطاب ، وكعب بن مالك الذي انشأ ما يشبه ملحمة تنوه بشجاعة اهل المدينة واستجابتهم لنداء النبي ، بجيش من اربعمائة مقاتل ضد ثلاثة آلاف ، ثم دارت الحرب ولم يَهُن المسلمون للهزيمة . وكان لقتل حملة اللواء من قريش نصيب من هذه الملحمة النادرة في شعر هذا العصر [2] .

وكان مَقْتل حمزة موضع فَيْض من الشعر الاسلامي شارك فيه ايضا ضرار وحسان وكعب بن مالك ، بل ان مقتل المشركين اثار لوعة تَصيرهم ابن الزِّبعرَى ايضا [3] . ومما يثير الانتباه ان الحديث عن المهاجرين في بدر وأحد يكاد يختفي لان الذين دافعوا من الشعراء عن الحزب المحمَّدي هم في غالبيتهم من الانصار ، كما ان المهاجرين تحاشوا أن يثيروا الفوارق الحزبية وهم في ضيافة الانصار . وانطلاقا من غزوة احد يشيع لفظ الشهادة ومدلولها أكثر فأكثر على لسان الحركة الاسلامية وشعرائها ، كقول حسان في حمزة مخاطبا الاعداء :

مـــالَ شَهيدا بـــين اســـيافكـــم ... شُلَّـــتْ يـــدا وَحْشِيٍّ مِنْ قاتـــل

وتَساجلَ ابن الزِّبعرَى وحسان بشان غزوة الاحزاب ، فسجل ابن الزِّبعرَى مساهمة غطفان من طريق زعيمها عيينة ، ودور الخنادق في رد الاحزاب عن المدينة . أما حســـان

1- ج . بارق ، السيف ، لانه يبرق
2- م . س. ص 65 - 68
3- ن . م . ص 72

فأشار الى رغبة الاحزاب في قتل الرسول والاستيلاء على الغنائم ، ثم إلى هبوب العاصفة القوية التي بددت جموعهم فكفى الله المومنين القتال ، كما ورد في القرآن ، وكما اقتبس ذلك حسان [1] .

اما خَيْبَرَ فكان حظها على الاخص من الرجز سواء من جانب المسلمين او اليهود . وسيبرز الرجز بالحاح في معارك لاحقة وبالأخص في العصر الراشدي [2] ، ويظهر كعب بن مالك مرة أخرى كناطق باسم الحزب المحمدي .

ومن الطريف ان قصيدة من الرجزأ هاجت فتح مكة بحسب رواية الطبري عن ابن اسحق [3] ، وهي قصيدة انشدها بين يدي الرسول (ص) عَمْرو بن سالم الخزاعي المكي في المدينة . وفيها يذكر نقض قريش لعهد الحُدَيْبيَّة وقتلها لعدد من خزاعة وهم في الصلاة . وأحداثُ فتح مكة تتفق تماما مع فحوى هذه القصيدة ، والرسول يقف في فتح مكة موقف المحافظ على عهده لطائفة المومنين وضد نقض العهود ، وهذا درس للجماعة التي تنقض مواثيقها دون ان تضع العواقب في حِسَابها .

وعندما استقبل الرسول ابا سفيان بن الحارث (وهو غير ابي سفيان بن حرب) انشده معتذراً عن شِركه وعدائه القديم للرسول ، وذلك ضمن قصيدة [4] .

وهـــادٍ هَدَانــي غيرَ نفسي ونالني　　　مـــعَ الــلــه مـــن طرَّدتُ كل مطَّرَد

فلما بلغ هذا البيت ضرب النبي في صدره وقال : انت طردتني كل مطرد ! . ويبدو من خلال هذا الرد النبوي وغيره مدى انفعالاته الانسانية التي تتجاوب مع الشعر في اتجاهه البَرِئ الصادق ومن غير ان يتعارض هذا الشعر مع العقيدة .

وعرفنا في فصل سابق ان فتح مكة يكوّنُ مع نزول القرآن واسلام الانصار اكبر اسباب انتشار الاسلام وانتصاره داخل الجزيرة وخارجها ، فلا عجب ان يحظى فتح مكة بالكثير من الشعر الاسلامي ، وبهذا الفتح تخمد انفاس شعراء قريش في عدائهم للجماعة المحمدية،

1- يعمري ، 1 - 91

2- يراجع كتاب "السياسة والمجتمع في عصر الراشدين " طبع لبنان (للمؤلف) ،
وانظر بالنسبة لخَيْبر ، الكامل لابن الاثير ، 2 ، 147 - 149 . وابن هشام 3 ، 225

3- طبري ، 3 ، 11 . ابن هشام ، 4 ،

4- ابن هشام ، 3 ، 115

لأن هؤلاء الشعراء اسلموا او التزموا الصمت ، وبذلك تحول الشعر كله لصالح الاسلام ، وهذه خطوة جديدة في تطور ادب العهد النبوي ، وسبق عرض نموذج من شعر ابن الزبعرى عند اسلامه ، وذلك في باب الاسلاميات .

ومما يلفت النظر إسهام عدد كبير من خزاعة في التنويه بفتح مكة ، كعَمْرو بن سالم وجعدة بن عبد الله وبُجَيد بن عَمْران [1] ، بالاضافة الى اسهام شعراء آخرين كحسان ، وعباس بن مرداس ، وبجير بن زهير اخي كعب ابن زهير[2]، وبقي حسان انصارياً حتّى عند فتح مكة . ويتسم شعر الفاتحين بشئ من الزهو والارتياح لما حل بقريش من هوان ، واما موقف شعراء خزاعة فبالنظر للعداء الموروث بعد ان زحزحها قصي بن كلاب القرشي عند السيادة على مكة والكعبة ، صارت خزاعة في وضع هامشي .

وإلى مؤتة خرج الغزاة موطنين انفسهم على الشهادة ، فلم يكن المجال مَجَالَ انتصار امام امواج بشرية متلاطمة من الاعداء . وهكذا يردد عبد الله ابن رواحة [3] :

لكنني اسال الرحمن مغفرةً وَشَرْبَةً ذات فرع تَقْذِفُ الزَّبَدا
او طعنةً بيدَيْ حرّان مُجهِزَةً بحربةٍ تنفُذُ الأحشاء والكَبِدا
حتى يقولوا اذا مروا على جَدَثِي أرشدك الله من غازٍ وقد رَشَدَا

ونالت حُنين نصيبا وافرا من اهتمام الشعراء حيث يبدو ان حسان بن ثابت تخلى كليا او كاد عن مكانه لعباس بن مِرْدَاس الذي خصص لحُنَيْن والطائف فَيْضا من القصائد يكاد يغطي ديوانا صغيرا قائما بذاته [4] . وابن مرداس شاعر كبير من سليم التي تقطن مواقع متفرقة من نجد ، وقد حذر هوازن من حرب الرسول وابلغها علانية اسماء القبائل الكبرى التي تقف الى جانبه،ونوه في جل قصائده بموقف قومه سليم ، وفي جميع الاحوال فالقبائل الاسلامية عنده تسير لنصرة الحق وتنفيذ التعاليم النبوية ، ويتضح ان ابن مِرْداس وضع نفسه مكان حسان كما وضع بني سليم مكان الانصار في وقوفهم الى جانب الرسول في فتح مكة وغزوة حنين .

1- م . س . ص 50 - 53
2- ن . س . ص 45 - 53
3- طبري . 3 - 107 . وانظر ص 108 - 109
4- ابن هشام ، 63 ، 70 ، 77 - 85 ، 102

وكان شعراءَ حُنَيْن : مالك بن عوف قبل اسلامه وبعده ، وكعب بن مالك وآخرون ، ومن اهم الظواهر المميزة لشعر المغازي والفتوح انه نادرا ما يعطي للروح العسكرية نفسها تلك القوة التي نجدها بارزة في الشعر الجاهليّ وفي الحروب الكبرى التي خاضها المسلمون في عصر الراشدين حيث يصرع الابطال وتسفك الدماء بغزارة ويُقَعْقِعُ السلاح من المحاربين ويموج الاعداء بعضهم في بعض ، فالعرب المسلون حرصوا على أن يكون القتلى في اقل نطاق ممكن ، والتصوير الشعري يميل الى تلوين الصِّيغ بالطابع الديني ، فالعداء خفَّتْ حدَّتُه بين المقاتلين العرب الى درجة كبيرة ، فقد كان الاسلام عجيبا في نفوذه الى هذه الروح العربية التي اعتادت من قريب ان تلح في ذكر ايامها وغاراتها وسَبْيِها . حقا لقد كانت رسالة محمد (ص) بشرية حتى في مجال تهذيب الفطرة الشعرية ، وبصورة فَوْرِيَّة ، ولم يكن غير محمد بقادر على هذا الدور السامي.وخلال العصر الأموي تعود الإحن القبلية الى سابق عهدها بل اشد ، وكان لا بد من انتظار العهد العباسي لِتَخِفَّ هذه الاحن حدة من جــديـد .

هـ - اليهـوديات

كان اليهود يرتجلون شعرا فِطْرِيا كغيرهم من العرب ، لكن الرواة لم يحتفظوا الا بالقليل منه ، وقد عرفنا ان اليهود لِتَخَلُّفهم الفكري في غالبيتهم لم يؤثروا في المجتمع العربي من الوجهة الثقافية تأثيرا يستحق الذكر ، بل 'عكس هو الذي حصل من حيث اللغة ، والحقيقة ان عدد اليهود لم يكن كبيرا في الحجاز ، بالقياس الى دورهم السياسي والاقتصادي . فعند جلائهم ، وبِتَتَبُّع اخبار هذا الجلاء لا يبدو ان مجموعهم كان يتجاوز آلافا قليلة ، وما حفظ من الاشعار التي قالوها قليل جدا ولكن ما قيل ردا عليهم او بشأنهم كَطَرَف معاد للجانب الاسلامي يكوِّن نظرة عن الموقف الاسلامي الذي يميل الى التعاطف مع بعضهم احيانا،والى الارتياح للتخلص منهم احيانا،باعتبار ما كان من استعلائهم وطغيانهم الاقتصادي منذ زمن طويل،فضلا عن مناوراتهم ضد الرسول والاسلام .

يقول حسان في قتل كعب بن الاشرف وسلام بن ابي الحقيق [1] :

لِلّــه دَرُّ عصــابَةٍ لاقَيْتــهُمْ يا ابن الحقيــق وانت ياابْنَ الأشرف
يَسْرُون بالبيــض الخفاف اليكــمْ بَطَراً كَأُسْــدٍ فــي عرينٍ مُغــرف
حتــى اتوكم فــي محــل بلادكم فَشَــقَوكُمُ حَتْــفا بِبِيــض وُذَّفِ

وكانت الأطراف العربية الاخرى غير الأنصار في كل من نجد والحجاز اقل عداء لليهود وممن اثر فيهم قتل حُيَيّ بن أخطب ، جبل بن جَوال الثعلبي الذي ردد مقولة (من يخذُلِ الله يُخْذَل) . وكان حُيَيّ قد فاه بها قبل اعدامه بمحضر الرسول (ص) [2] :

لعمــرك ما لام ابن أخطــب نفسَهُ ولكنــه من يخذُلِ الــلــهُ يُخذَلِ
لجــاهَدَ حتــى ابلغ النفس عُذرَها وقَــلْقَــلَ يبــغي العز كل مقلقلَ

وكذلك نوه ثابت بن قيس باليهودي الزبير بن باطا ، وكان لهذا اليهودي منة عليه ، فعفا الرسول عنه عند إعدام بني قريظة [3].

وارتجز مرحب اليهودي في خيبر وهو يخرج للمبارزة .

قــد علمت خيــبر أنّــي مَرْحَبُ شاكــي الســلاح بطــل مجرَّب [4]
أطــعَنُ احيانــا وحِينًا أضــرب إذا اللــيــوث اقبلــت تحــرَّبُ
كــان حِمَايَ لِلْحِــمى لا يقــرب

وكذلك ارتجز اخوه ياسر شعرا مشابها وردَّ مُبارِزاهما : علي ، والزبير ابن العوام برجزٍ على نفس النَّمَط .

وتصدّى سَمَّاك اليهودي للذين تفاخروا بجلاء بني النَّضِير وقَتَلَ بعض زعمائهم مثل

1- طبري ، 3 ، 8 ، ابن هشام ، 3 ، 12
2- طبري ، 3 ، 56
3- م .س . ص 54
4- طبري ، 3 ، 93 - 94

كعب بن الاشرف ، وهكذا نرى في هذه اليهوديّات نكهة خاصة تجمع بين رثاء القتلى والتنديد بِقَطْع النخيل والتهديد بالانتقام كما عند سماك [1] . وبينما يعيب كعب بن مالك على بني النضير عدم ايمانهم بالرسول مع ماالأحبارهم من حقائق عن صدق نبوته [2] نرى عباس بن مرداس يمتدح رجالاتهم وبنوه بكرمهم [3] :

قَبِـكَ بنـي هَرون واذكر فعالهـم … وقَتْلـهُمُ للجوع إذْ كنـتَ مُجدبا
أخوّاتُ أذرِ الـدمع بالـدمع وابكهمْ … وأعـرض عن المـكروه منهم ونَكّبَا
فـإنّكَ لـولاقيتهـم في ديارهـم … لألفيْـتَ عـما قـد تـقـول منكّبـا
سِـراع الى العليا كِرام لَدى الوَغَى … يقـال لِبَـاغِـي الخَيْـرِ أهْلا ومرحبـا

وابن مرداس هنا يدافع عن بني النضير في تعاملهم اليومي ولا يلتفت الى موقفهم من الرسول والمسلمين ، كما انه يرد على خوّات بن جبير الانصاري الذي عاب عليه امتداح بني النضير . والحقيقة أن شعر بن مرداس هذا ، مما أنشأه قبل اسلامه الذي تأخر الى وقت قريب من فتح مكة .

على أن الرسول (ص) لم يحاسب او يحاكم جماعة الشعراء الذين تعاطفوا قبل اسلامهم مع الجماعات اليهودية .

وكان حسان بن ثابت ممن نوهوا بتصفية بني قريظة بعد تواطئهم مع قريش فاستحقوا بذلك مصيرهم [4] :

تفـاقَدَ معشـر نَصَروا قـريشـا … وليـس لهـم ببلـدتهم نصيـر
هُمُ أوتـوا الكـتـاب فـضيّعـوه … وهـم عُمْيٌ مـن التـوراة بُورُ

وذكـر جَبَـل بـن جَوال الثعلبي باسم اليهود مصير بني النضير وقريظة وموقف الاوس . ومما قاله [5] .

1- ابن هشام ، 3 ، 115 - 116
2- م . س . ص 115
3- م . س . ص 117 - 118
4- م . س . ص 169
5- م . س . ص 170

وجـــدنا الــمجد قد ثبتــوا عليـه　　بمـــجـــدٍ لاتغيّـبــــــه البـــدور
أقيـــموا ياســـراة الاوس فيـــهـــا　　كانكـــمْ مـــــن المَخْـــزاة عُـورُ

و - الرِّديّـــــــات

بين المشركين من أسلموا ثم ارتدوا ، وبينهم من تاب وعاد الى الاسلام كعَمْرو بن معد يكرب اليمني ، والردة ظاهرة طبيعة فيمن ضَعُف ايمانه او نظر إلى العقيدة من باب المصلحة او عاداها لوتيرة . والرواة نقلوا اشعار المرتدين وحتى التائبين بامانة ، وتختلف هذه الرديات اختلافاً بيّناً عن الاسلاميات ، فهي لا تثبت لدليل ولاتَنْبعُ من قلب ، والدفاع فيها واهٍ او منعدم ، بينما الاسلاميات تعبر عن التحول في مجرى حياة المومنين وتوحي بالثقة بالله وبالنفس وحسن المصير .

ومما ساقه الطبري وابن هشام [1] نقلا عن ابن اسحاق ، أنَّ مقيس بن صُبابة قدم من مكة مسلما على الرسول في السنة السادسة وادعى أن أخاه قتله احد المسلمين خطأً ، وبعد ان ثبت اسم القاتل ومكانه بالمدينة امر الرسول له بدية اخيه ، وبعد ايام تمكن مقيس من القاتل فاغتاله ثم عاد الى مكة مرتداً وقال في قاتل اخيه :

وكانـــت هموم النفس من قبل قتلـه　　تُلـم فتحميـــني وطـــاءَ المضاجع
حلَـــلْــت به وَترى وادركت ثـؤرتي　　وكنـــت الـــى الأوثـــان أول راجع
ثـــأرت بــــه قهـرا وحمّلتُ عَقْلَـه　　ســـراة بني النجـــار ارباب فـــارع

واما عمرو بن معد يكرب ، فارتد بعد وفاة الرسول (ص) ، وكان يكره امارة فروة ابن مسيك المرادي على بني زيد قومه [2] :

وجـــدنا ملـــك فـــروة شَرَّ مُلك　　حمـــاراً ســـاف مَنْخـــره بقَـذْر
وكنـــتَ اذا رايـــت ابا عميــــر　　تـــرى الحـــولاء من خبث وغدْرِ

1- ابن هشام ، 3 ، 185 ، 3 ، 185 ، طبري ، 3 ، 66
2- طبري ، 3 ، 160

وما لبث معْديكرِب ان عاد الى الاسلام وساهم في معارك الفتوح .

ويُلْحَقُ بالرديات ما يتعلق بالردة الجماعية في بعض اوساط العرب كاليمامة واليمن وكردة بني ذبيان الذين رفضوا خلافة ابي بكر حيث قال قائلهم عبد الله (1) الليثي :

اطــعنا رســـول الله ما كان بيننا — فَيَـــا لَعِـــبَاد الله ما لأبي بكر ؟
أيُورِثُـــنا بَكْـــراً إذا مــات بعده — وتـــلك لعــــمر الله قاصمة الظهر

وكانت ردة ذُبيان مباشرة بعد وفاة الرسول (ص)

ز - المرثيـــــات

يتمحور جلها حول قتلى المعارك . والذين ماتوا خارجها هم اقل حظا . وقتلى المسلمين هم مجاهدون وشهداء ، وهم شجعان الحروب ، أما باقي الصفات فلا تختلف كثيرا عما اعتاده شعراء العهد البائد .

قال حسان يرثي شهداء بئر مَعُونَة (2) :

عـــلى قتلى معونـــــة فاستهلّـي — بـــدمع العيــــن سَحّاً غيـــر نزر
علـــى خيل الــرسول غداة لاقــوا — منـــايـــاهـــم ولاقتـــهم بقـــدر

وبكّى حسان بصدقٍ ، شهداء مؤتة ، واظهر من التعاطف مع بني هاشم بعد مقتل جعفر في هذه الحروب ما لم يظهره الأنْصَاريُّ عبد الله بن رواحة . بل اننا لَنشْتَمُّ في هذا الوقت المبكر جدا من الاسلام نزعة سياسية نحو البيت النبوي عموما لأن بفضلهم تنفرج الكرب في ما يحُلُّ المسلمين من محن ، وهذا كان رأي حسان على الأقل (3) :

1- طبري ، 3 ، 223
2- ابن هشام ، 3 ، 107
3- م . س . ج 4

وكنـــا نرى في جعفر من محـــمد | وفـــاءً وأمـــراً حازما حـين يامرُ
فـــما زال في الاسلام من آل هاشم | دعـــائمُ عــزٍّ لا يَزُلْنَ ومَفْـــخَـرُ
هـــمُ جبـــل الاسلام والناس حولهم | رِضَـــامٌ الى طوْدٍ يـــروق ويقـهرُ
بَـــهَا لِيلُ منهـــم جعـــفر وابن أمِّه | علـــي ومنهـــم احمدُ المتـــخيَّـــر
وحـــمزة والعباس منْهُم ، ومنْـــهُمُ | عقيـــل وماء العود من حيث يعْصَرُ
بهـــم تفرج اللأواء في كل مـــازق | عمـــاسٍ اذا ما ضاق بالنَّاس مَصْدَر
هُـــمُ اوليـــاء الله انـــزل حكمه | عليـــهـــم وفيهم ذا الكتابُ المطهرُ

وكان رثاء الرسول (ص) اقوى تفجعا ، ومعاني الرثاء تتجه نحو تمجيد الرسالة النبوية وصاحبها ، ولكن الرثاء لا تُشَقُّ فيه جيوب ولا يولولُ فيه النساء أو يخرج الراثي عن حدود الوقار كما نهى عنْ ذلك صاحب الشريعة الاسلامية عليه الصلاة والسلام . وكان من ارق المرثيات ما ابدعته اسرةِ الرسول لاسيما ابنته فاطمة وبعض نسائه .

قالت فاطمة (رض) : (1)

اغبـــرَّ آفـــاق السمـــاء وكُوِّرت | شـــمس النهـــار وأظلَمَ العَصْران
فالارض مـــن بَعْدِ النبـــي كئيبة | اســـفاً عليه كثيـــرة الرجَفـــان
فَلْيَبْـــكِه شرق البـــلاد وغربهـــا | ولْيبْـــكـه مُضَـــرٌ وكلُّ يَمَـــان
وليـــبكِه الطود المعـــظـــم جَوُّهُ | والبـــيت ذو الاستـــار والأركان

ورثى حسان الرسول (ص) بشعر ذكَّر فيه بدور صاحب الرسالة واشار الى حزن نسائه : (2)

من ذا الـــذي كان فينا يُسْتَضَاءُ به | مُبَـارك الأمـــر ذا عدل وارشـاد ؟
امســـى نساؤه عطلن البيوت فـما | يضربـــن فـــوق قَفَـــا ستْرٍ بأوتـاد
مثـــلَ الرواهـــب يلبَسْنَ المَبَاذلَ قد | أيْقَـنَّ بالبؤس ، بعد النعمة ، البادي

1- يعمري ، 2 ، 423 ، وانظر لماذج لشعر نساء الرسول في مهذب الروضة للعُمري ص 80 ، 94 ، الخ ...
2- ابن هشام ، 4 ، 236 . وانظر ابتداء من ص 232

على أن ادب العهد النبوي لم يَخْلُ من بعض الابواب الأخرى كالهجو والعتاب . وسجل ابن هشام هجواً في رسالة الرسول (ص) قاله مشرك اسمه ابو عفك الذي لم يرتَحْ لدعوة الرسول الى الاخذ بالحلال ونبذ الحرام ، فبعث الرسول سرية لقتله كما تولى الرد عليه سيدة اسمها امامة المزيرية [1] . على ان الهجو على قِلّتِه نسْبِيّاً يتناول الاطراف المعادية للاسلام بشكل خاص ، لان الادب الاسلامي النبوي لا يسمح بالسِّبَاب في ظل تعاليم الرسول ، فلاسبَاب بين مسلمين ، وإلا لم يعد للإسلام معنىً وهو دين أُخُوّة وتعاطف .

التيارات الفكرية والسياسية

مما لا شك فيه ان الحديث عن التيارات الفكرية والسياسية في ظل الاسلام الفطري ، اسلام الاخوة والتعاطف الانساني ، وفي حياة صاحب الرسالة المحمدية بالذات ، يبدو لأوّل وهلة ضَرْباً من المغامرة او التجاوز ، لكن اذا كان في صحابة الرسول من استبد باهتمامه القرآن حفظا ومعرفة ، او كانت نزعته حديثية اشتهر بها اكثر من غيرها ، او يبدو في ادبه أنصاريا دون أن يفقد روحه الاسلامية العميقة ، فهو يسير في تيَّارٍ متميز ، والتيار ليس بالضرورة مذهبا لان المذهب له قواعد وخط مرسوم مقدّما وله دعاية ودُعاة . والتيار ينبثق من فكرة وميل ، ونحن هنا في الاطار الفطري الصِّرْف ، فلا احد ولا شئ يقود هذا التيار ، ولكنه موجود ، وفي أغلب وجوهه محمود . ولا شك ان اكرم هذه التيارات مقاما هو تيار القراء قبل غيرهم ، وهم حفاظ القرآن بل جنوده المجهولون في هذا العصر الذهبي ، لأنهم ايضا مرشدون دينيون لا يدْعون الى افكار خاصة بل يفقّهون الناس في الدين حيثما وُجِّهوا ، وكذلك كانت وفود الرسول الى العديد من القبائل يقصدها هؤلاء القراء الذين لاهمَّ لهم في الحياة الا هذا العمل السلمي التثقيفي . وكثرا ما تعرض القراء للخطر كما حصل في بئر معونة حيث سفكت دماؤهم جميعا ، وكما حصل على الخصوص بعد وفاة الرسول في مواجهة ردة بني حنيفة بزعامة مُسَيْلمة ، فقد حُشدَ في هذه الحرب معظم القراء وقتل اغلبهم حتى كان قتلهم سببا في جمع القرآن .

1- م . س . ص 204

ثم هناك تيار المحدثين كأبي هريرة وابي ذر وانس بن مالك ، وهذا التيار يعتز بصحبة الرسول والاستماع اليه ، وهو اقل ميلا الى خوض الحروب والانغمار في العمل الدنيوي ولكنه شديد التعظيم للرسول ويَتَتَبَّعُ بدقة اعماله ويسجل اقواله ، وبفضله انتقلت السنة الى الاجيال اللاحقة ، وبفضله بدأ تكوين اطارات المدرسة الحديثيّة التي اعتزت بها المدينة فترة طويلة ، وبينما ارتبط المحدثون بشخص الرسول تكونت لدى القراء شخصية مستقلة ، فهم في غالبيتهم خالطوا البدو ، كما أن وسطهم الاصلي الغالب بدوي ، فهم متشبثون بالقرآن وتعاليم القرآن ، ولا يعني ذلك انهم يخرجون عن تعاليم الرسول ، بل كانوا يطبقونها احسن تطبيق ، ولكنهم كانوا شديدي الميل الى التقشف والزهد في معظمهم ، ولذلك هيأوا لحركتين مختلفتين إحداهما حركة التصوف والاخرى حركة الخوارج ، وإذا كان التصوف قد بدت معالمه في العصر النبوي على يد القراء ، فان الخوارج من القراء يظهرون كما هو معلوم في عهد علي الخليفة .

وحيث ان القراء عاشوا أو جلُّهم بعيدا عن الرسول (ص) فان حركة تفسير القرآن في خطواتها الاولى بدأت على يد المحدثين قبل غيرهم ، مع ان المحدثين اللاحقين سيرفضون في حركة شبه تضامنية ، أن يتناولوا تفسير القرآن تحرُّجاً .

واذا تركنا جَانبا ، الحزب القرشي والحزب اليهودي وكلاهما ذو اتجاه اقتصادي وسياسي محدد (قريش:الهيمنة التجارية والسيادة على الكعبة ، واليهود : الاستغلال الزراعي والصناعات اليدوية وقوة النفوذ بالمدينة) ، فان التيار السياسي البارز هو تيار الانصار . إنه غير موحّد ، وقد يعز على الباحث ان يكتشفه بوضوح في الكتابات والمستندات التاريخية حيث يقدم الانصار كرجال تضحية من اجل الرسول والمهاجرين ، وهذا شئ لا ينكر مطلقا ، ولكن القصائد التي أنشأها شعراء من الانصار وعلى رأسهم حسان ، أبانت عن وجود تيار أنصاري قوي يعتز في آن واحد باصوله اليمَنيَّة وحمايته للاسلام ورسوله ، وذلك دون جرح المهاجرين ، إذْ لا يمكن ان نغْفُلَ ان القرآن الكريم مجد فضل الانصار وتضحياتهم واشاد بتضحيات المهاجرين ايضا ، وصحيح ان الانصارلم يكونوا في العصر النبوي حركة ولا هم اظهروا رَغْبتهم او لَمحوا الى تكوينها ، وكذلك خمدت فكرة تقاسم الحكم بينهم وبين المهاجرين في مهدها في بيعة ابي بكر ، ولكن

النّزَعات اليمنية في مواجهة القيسية اتخذت ابعادا خطيرة في العهد الاموي ، وسنقول هنا وان كان المقام مقام عصر لاحق ، ان الامويين القرشيين لم ينسوا ابدا ان الانصار حطموا العصبية القرشية ودخلوا مع الرسول الى مكة فاتحين ، بعد ان سحقوا في بدر كبرياء قريش وجنْدَلوا ابطالها فكانت فتنة القيسية واليمنية فتنة مشؤومة .

لكن الرسول وهو في بيئة تُعَدُّ العصبية جزءا من نشاطها اليومي لا ينفصل ، كان اسمى من ان يفتح للعصَّبية باباً في دينه وهو رسول الانسانية الذي تقول تعاليم كتابه السماوي : «**ياايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة**» ، وتقول : «**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شئ**» ، وتقول : «**ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم**» ، وتقول : «**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**» .

ان التيارات التي مر الحديث عنها لم تشْتطَّ في شئ ، ولا هي فتحت عمداً ابواباً للشقاق المذهبي ، فما كان فريق يطمع في امتياز على غيره ، ولا كان الشعور العام بان الرسول (ص) يُحَابي هذه الجماعة او يختص بالفضل تلك ، لان الجميع يسير طبقا لتعاليمه وكل يكمل الآخرين . ولو سار المسلمون بعد صَدر الاسلام على سَنَن الرسول وهدي القرآن لما كان في الخوارج ولا غيرهم من ذوي المذاهب الاسلامية غُلاة وبالتالي حروب واضطهادات لحرية الفكر .

وأخطر تيار حقيقي بَدَتْ معالمه في الأفق في واخر عهد الرسول هو تيار الردة الجماعية باليمامة وفي انحاء من اليمن ، وقد نشأ نتيجة لطموحات انتهازية من بعض المتَنَبِّئين مع محاولات استقلالية داخل اليمن ، واتخذ فَرْض الزكاة واحيانا الصلاة ذريعةً ظاهرية لهذا التمرد العقائدي الذي انتهى اثره بعد تولية ابي بكر وقيامه بقمع حركة الردة في مجموع انحاء شبه جزيرة العرب .

وكان الرسول (ص) مطمئنا الى مصير الاسلام قبل وفاته ، لان الاسلام اكتملت اصوله التي تتجه كلها نحو الوحدة والعمل الجماعي انطلاقا من الاركان الخمسة ، وانتهاء بالوحدة البشرية التي تقوم على التعايش العقائدي وعدم الاكراه في الدين والمذهب ، والمحافظة على العهود ، ورعاية المحرومين ، من جميع الانتماءات ، وانشاء علاقات مودة

انسانية بين المجموعات الانسانية لاعبْرة فيها بلون ولا جنس ولا دين ولا حدود .

لقد ولد محمد عربيا ، وبلغته نزل القرآن ، ولكنه بُعث انسانا ، ورسالته اتجهت الى كل البشر ، وهذه ميزة خصه الله بها وحده ، فطُوبىَ لمن سَبَر اغوار هذه الرسالة ، وآمن بها ودافع عنها دفَاعَ المُتَبصر :

" **يهدي الله لنوره من يشاء . . ومن يعتصم بحبل الله فقد هدي الى صراط مستقيم** " .

ملحـــق :

ابرز الصحابة والاطارات التي ساندت الحكم النبوي وأسلمت قبل فتح مكة [1]

أبـان بن سعيد بن العـاص

ينتمي الى البيت الاموي ، أسلم فيما بين الحُدَيْبِيَّة وخيبر ، وأجار عثمان في مفاوضات الحُدَيْبِيَّة ، وقاد بعض السرايا النبوية ، وتولى عمالة البحرين بعد العَلَاء بن الحضرمي . وساهم في حروب الشام ، وقتل في موقعة اجنادين (أو غيرها) وتوفي في نهاية خلافة ابي بكر أو بداية خلافة عمر .

ابــــن ام مكتـــــوم

عبد الله بن ام مكتوم الأعمى قُرَشِيٌّ من بني عامل ، من اوائل المسلمين والمهاجرين ونزل بدار القُراء بالمدينة ، واستخلفه الرسول على المدينة غيرما مرة وكان يؤذن للرسول (ص) مع بلال . وشهد القادسية .

ابــــن عبـــــاس

عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم الرسول (ص) ، ولد بمكة في السنة الثالثة قبل الهجرة على الارجح ، بالشِّعب الذي حوصر به بنو هاشم والرسول (ص) ، ودعا له النبي عليه السلام بقوله : اللهم فقهه في الدين وعلمه التاويل ، وقال عنه عمر في احدى المناسبات : ذاكم فتى الكهول ، له لسان سؤُول وقلبٌ عقول . وكان عمر بن الخطاب يستشيره في خلافته ويعمل برايه . وتولى في عهد علي ادارة بعض مناطق العراق والحجاز ثم اختلف معه اخيرا . وكُفَّ بصره في آخر عمره وتوفي سنة 68 / 687 م ، ويمثل في العصر النبوي ابرز تطلعات الجيل الصاعد ، في ميدان اكتساب المعرفة ومساندة الحكم النبوي .

1- هذه اللائحة تشمل بالدرجة الاولى اولئك الذين يبدو تحركهم في مجال الاحداث اكثر من غيرهم . ومراجع التراجم هي طبقات ابن سعد والاصابة والاستيعاب والاعلام للزركلي واصحاب بدر للغلامي .

ابن مسلمة

محمد بن مسْلمة من انصار المدينة من الاوس ، ولد قبل البعثة باثنين وعشرين عاما. وكان من السابقين الى الاسلام، وشهد مختلف المعارك في العهد النبوي وقاد عدة سرايا واستخلفه الرسول في غزوة تبوك.وعينه عمر متفقدا اداريا وماليا . وتوفي سنة ثلاث واربعين في اول خلافة معاوية .

ابو بكر الصديق

عبد الله بن ابي قحافة ابو بكر الصديق ، كان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة فسماه الرسول (ص) عبد الله . وهو مكي من قريش ، ولد بعد عام الفيل بسنتين ونصف واشتغل بالتجارة مع خبرة جيدة بأنساب العرب وحسن معاشرة .

وهو اول الرجال اسلاما، وأسرعَ بتصديق نبوة الرسول دون استفسار، فلقّبه الرسول بالصديق . وانفق كل ماله على المسلمين ، واعتق عددا كبيرا من الموالي والاماء ، خصوصا الذين آمنوا وكانوا تحت العذاب ، ولم يفارق الرسول بمكة حتى لجأ الى غار ثور ثم هاجرا معا الى المدينة . وكان اقرب الصحابة الى الرسول وألزمهم له ، وأمّره الرسول على الحج وساهم معه في غزواته وكان اعز مستشاريه . خلف الرسول (ص) في السنة 11 وقضى على حركة الردة وفتح قسما كبيرا من الشام ، وتوفي سنة 13 هـ .

ابو ذر الغفاري

ابو ذر جُنْدُب بن جُنادة ، اختلف في نسبه بعد والده ، وهو واحد من الخمسة الاوائل في الاسلام ، وعندما اسلم على يد الرسول أعلن اسلامه بالبيت الحرام صارخا بالشهادتين باعلى صوته، فضربه القرشيون حتى خلصه منهم العباس ، وقيل كان اول من حَيّى الرسول (ص) بتحية الاسلام . وكان اسمر طويلا نحيفا ، هاجر الى المدينة بعد بدر ، وهو من غفار التي تمر بها القوافل في طريق الشام ، وكان زاهداً بطبعه مع تقرب من الرسول ، وهو ممن شاركوا في تَبُوك ، وقدِم اليها ماشيا على مسافة طويلة ، قال عنه علي : ابو ذرّ وعاء مُلئ علِماً . وكان يعد في درجة عبد الله بن مسعود ، وقال عنه الرسول (ص) ما اقلت الغبراء ولاأظلت الخضراء اصدق لهجة من ابي ذر .

التحق ببادية الشام بعد وفاة الرسول (ص) ونادى في عهد عثمان بوجوب ارغام

الاغنياء على التنازل عن اموالهم غير الضرورية للفقراء ، واحدَثَ لاجل ذلك بلْبَلة بالشام حتى دُعي الى سكنى الرَّبَذَة حول المدينة ، وهو من كبار المحدثين ، توفي سنة 32 هـ وتولى تجهيزه والصلاة عليه صديقه عبد الله بن مسعود الذي أصبح يرعَى اسرته .

ابو عبيدة بن الجراح

ابو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجَرَّاح قرشي من بني فِهر ، اسلم مع عبد الرحمن ابن عوف وآخرين بمكة،بين العشرة الاولين من المومنين كما اسلمت امه أُمَيْمَة ، وآخى الرسول بعد الهجرة بينه وبين ابي طلحة الانصاري ، وهو من الذين شهدوا بدراً وغيرها وقاد بعض السرايا كسرية ذي القصة قرب المدينة ، كما تولى قيادة أحد الاجنحة الجهادية في فتح مكة ، واشتهر بالامانة ، ولذلك اسند اليه الرسول (ص) أمانةً بيت المال ، وقال عنه : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الامة عُبيدة بن الجراح ، وكان ابوه مشركا وتصَدّى له اكثر من مرة في بدر وابو عبيدة يحاول التملص منه ، فلما احس بالخطر قتله . وقيل نزل في ذلك قوله تعالى : «**لا تجد قوما يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءَهم . . . . الآية**» ، ووصف بانه كان نحيفا مَعْروقَ الوجه طويلا خفيف اللحية ، وكا من احب الصحابة الى الرسول بعد ابي بكر وعمر ، وتولى قيادة الحرب بالشام بمجرد استخلاف عمر ، وكانت وفاته في طاعون عَمْوَاس الواقعة بين الرملة وبيت المقدس ، وذلك سنة 18 ، وكان عمره عند وفاته 58 عاما .

ابو مرثد الغنوي

ابو مرثد الغنوي كنَّاز بن الحصين من بني سعد بن قيس عَيلان حليف حمزة واحد المهاجرين ، شهد بدرا وسائر غزوات الرسول ، وآخى الرسول بينه وبين عبادة بن الصامت وتوفي سنة 12 ، واشتهر مرثد ايضا بروحه النضالية ، واستُشْهِد في حادثة الرجيع .

ابو هريرة

عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، اسلم في السنة السابعة خلال غزوة خَيْبَر ، دُعِيَ بأبي هريرة لانه حمل هرة في كمه ، وقيل سماه الرسول عبد الله ، وكان اسمه في الجاهلية عَبْدَ شَمْس ، والاختلاف في اسمه الحقيقي شديد ، وهو اكثر المحدثين رواية عن الرسول ،

روى اكثر من خمسة آلاف حديث لانه اتجه الى هذا الجانب وحده بعد اسلامه ، وكان لا يكتب ، خلافا لعبد الله بن عمر ، وكان يجرؤ على استفسار الرسول عن اشياء لا يسأله عنها غيره . ، ورافق العلاء بن الحضرمي الى البحرين . ولاه عمر هذه المنطقة في خلافته فاستعفاه بعد مدّة. وجمع ابو هريرة بين الفتوى والحديث ، وتوفي سنة 59 بالمدينة .

أُبَيّ بن كعب

عرف باسمه وهو انصاري خزرجي من بني النجار ، كان من وفد الانصار في العقّبة الثانية ، فاسلم على يد الرسول (ص) وشهد بدرا وسائر غزوات الرسول . وهو من القراء والمُفْتِين ، وأحد كتاب الوحي والمراسلات النبوية ، ومن ابرز فقهاء الصحابة . وكان أول من كتب للرسول بالمدينة ، وكان رَبْعَةً أبيض اللحية ، وتوفي على الارجح في خلافة عثمان سنة 30 .

اسامة بن زيد

من الاطارات الشابة ، وابوه زيد بن حارثة بن شراحيل من كبار الصحابة ، وامه هي أم أيمن حاضنة الرسول (ص) واسمها الحقيقي بركة ، وكان الرسول يعتز به ، وشارك في عدد من الغزوات والسرايا ، وهو من رواة الحديث عن الرسول (ص) . عينه الرسول على جيش كان مهيأ لغزو الشام فتوفي عليه السلام قبل خروجه . ثم بعثه ابو بكر رغم اعتراض عدد من الصحابة لصغر سنه . اعتزل اسامة الفتنة بين علي ومعاوية ، قيلَ ندمَ لكونه لم يساند عليا ، وتوفي بالجرف حول المدينة في أواخر خلافة معاوية سنة 54 الى 59 حسب الروايات .

أسيد بن حضير

أسَيْد بن حضير(او الحضير) . انصاري خزرجي من بني الاشهل . وهو من نُقباء العقبة ، وأسلم على يد مُصعب بن عُمَيْر قبل هجرة الرسول (ص) ولم يثبت ما اذا شهد بدرا ، آخى الرسولُ بينه وبين زيد بن حارثة ، وكان من كبار الانصار . توفي في خلافة عمر سنة 20 او 21 ودفن بالبقيع وصلي عليه الخليفة .

أنس بن مالك

أنس بن مالك بن النضر ، أنصاري خزرجي من بني النجار ، وفدت به امه على

الرسول وهو ابن عشر سنين فَضَمَّهُ الى اسرته وكان يخدمه ، ولزمه وروى عنه الكثير من الاحاديث ، وشهد مع الرسول غزواته ثم شارك بعده في الفتوح وسكن بالمدينة ثم بالبصرة حيث توفي من سن عاليّة حوالي 90 هـ .

باذان الفارسي

كان من عمال كسرى الثاني ، عينه على اليمن ، ولما مات كسرى بعث الى الرسول مُخْبِراً باسلامه فأقرَّهُ عاملا على اليمن ، فلما توفي باذان بعد حجة الوداع وزع الرسول اليمن أقاليم وعين لجله شَهْر ، أو شِمْر على بعضها وكان له فضل في قمع حركة الردة بعد وفاة الرسول (ص) .

البراء بن (معرور)

أنصاري خزرجي من بني كعب بن سَلَمة ، وكان من النقباء في العقبة الاولى قبل الهجرة ، وكان اول من استقبل الكعبة في الصلاة وأصر على ذلك مع توجه الصحابة غيره إلى بيت المقدس مدة ، وكان كبير وفد الانصار في العقبة الاولى . وتوفي مباشرة قبل الهجرة النبوية ، وفضلُه هو ، في اسبقيته الى الاسلام واقتداء قومه به ، وأوصى للرسول بثلث ماله ، فرده على اسرته (اسرة الهالك) .

بشير بن سعيد

خزرجي من الانصار يكنّى بنجله (ابا النعمان) ، وشهد بدراً وأحُداً وما بعدها . وهو أول من بايع ابا بكر من الانصار فاقتدوا به ، قاد سرية الى فدك وأخرى الى وادي القرى ، واستشهد في عين التمر وكان يقاتل مع خالد بن الوليد وذلك سنة اثنتي عشرة .

بلال بن رباح

حبشي من الموالي . كان عبدا لامية بن خلف ، فاسلم بلال بين السبعة الاولين ولقي العذاب من المشركين وبالأخص من أمية بن خلف فاشتراه ابو بكر واعتقه ، وكان خازنه ، ثم عمل بنفس الصفة لدى الرسول مع اشتغاله بالاذان . وشارك في عمليات الجهاد مع الرسول وكُتب له أن يقتُل في بدرٍ أمية بن خلف الذي ظل على شركه . وكان الصحابة يحترمونه . وهو الوحيد الذي دخل مع الرسول الكعبة بعد فتح مكة ، وواصل اعمال الجهاد

بعد الرسول الى ان توفي سنة عشرين بدمشق ودفن بمقبرتها ، وهناك من قال د
بغيرها .

ثابت بن قيس

هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي ، وامه من طيّئ ، اشتهر كخطي
وشهد أحدا وما بعدها وكان جهير الصوت ، وشارك في حروب الردة بعد الرسول
ولم يكن مرتاحا لطريقة القتال لدى المجاهدين فقال : (ما هكذا كنا نقاتل مع
(ص) ، بئس ما عَوَّدْتُكم اقرانكم ، اللهم اني ابرأ اليك مما جاء به هؤلاء ومما ء
وذلك ان المجاهدين كاثَرَهُم المرتدون فهزموهم وتقدم ثابت يقاتل حتى استشهد .

جعفر بن أبي طالب

ابن عم الرسول ، وكان اسنَّ من علي بعشر سنوات ، وكان الرسول يحب
وهو من السابقين الى الاسلام ، لقبه الرسول او كناه بابي المساكين لأنه كان
الضعفاء ، وهو من مهاجري الحبشة والمدينة . وكان النجاشي يعظم مقامه
هجرته الى المدينة الى السنة السابعة والرسول بخيبر . استشهد بمؤتة سنة 8
حملة الراية الاسلامية الثلاثة الذين استشهدوا جميعا .

حاطب بن ابي بلتعة

من لخم ، وهو حليف بني اسد بن عبد العزى وقيل هو من الموالي ،
وأُحدا ، وكان احد مبعوثي الرسول الى الملوك والامراء في دعوته اياهم الى الاس
بانه كتب الى قريش يخبرهم باستعداد الرسول لفتح مكة ونزل في ذلك قو
«يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء» . ثم اعتذر الى ا
ليس له بمكة من يحمي اسرته فعفا عنه ، وأثبتت هذه الآية ايمانه . وكان في ا
فرسان قريش وشعرائها ، توفي سنة 30 . وهو مبعوث الرسول الى المُقَوْقِس .
عبد البر في الاستيعاب إن ابا بكر بعثه ايضا الى المقرقس فعقد معه صلحا ال
الصلح فافتتح عمر مصر .

حسان بن ثابت

خزرجي انصاري من بني النجار ، واسلم بالمدينة ، كما اسلمت امه الفُرَيْعة . وكان من شعراء الانصار في العصر الجاهلي ، وانتدبه الرسول ليدافع عن الاسلام ورسوله . وهو ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، أبرز شعراء الحزب النبوي ، قبل العباس بن مرداس ، فنضاله هو قبل كل شئ بشعره ، ولذلك قال الرسول (ص) يدعو له : اللهم ايده بروح القدس . وكان يقول عن شعره : إن قوله فيهم اشد عليهم منْ وَقْع النَّبْل ، وقيل قصد الرسول شعر عبد الله بن رواحة .

واشتهر حسان مع هذا بِجُبْنِه في المعارك الحربية ، واعتبره الاصمعي من فحول الجاهلية في الشعر وأنه ضَعُفَ في الاسلام ، وعُمِّرَ طويلا ، وعاش نصف حياته في الجاهلية ونصفها في الاسلام . وظل بالمدينة حتى توفي بعد الخمسين من الهجرة .

حمزة بن عبد المطلب

عم الرسول (ص) ، أمه هالة بنت أُهَيْب بن عبد مناف ، وكان اخا الرسول من الرضاعة وأَسَنَّ منه بعامين ، أسلم في السنة الثانية بعد البعثة النبوية واعلن اسلامه بشجاعة امام عتاة قريش . وقاد اول سرية بعثها الرسول وحمل أول لواء عقده (ص) سنة اثنتين الى جُهَينة على ساحل القلزم ، وحضر بدرا وبارز عددا من المشركين فقتلهم ، ثم شهد أُحُداً فطعنه وحشي الحبشي غيلة ، فتوفي وسِنُّه حوالي تسع وخمسين أو دونها ، وبكى الرسول لموته حتى شهق بعد ان رأى جثته وقد مثلت بها هند زوجة ابي سفيان .

خالد بن سعيد

خالد بن سعيد بن العاص من البيت الاموي اسلم مع اخيه ابان من السابقين الاولين ، وبعد اسلامه منعه والده القوت وضيق عليه فهاجر الى الحبشة ثم الى المدينة حيث كان من كتاب المواسلات النبوية ، وقيل انه اول من كتب (باسم الله الرحمن الرحيم) ثم تولى بعض اقاليم اليمن بعد تقسيمها عند وفاة باذان واستُشْهِدَ بعد ذلك في اجنادين بالشام .

خالد بن الوليد

جده المغيرة بن عبد الله المخزومي القرشي وامه هلالية اسمها لُبابة اخت ميمونة

زوجة الرسول . وكان خالد يتولى خيل قريش في الجاهلية ، واسلم مع عمرو بن العاص في السابعة فولاه الرسول كتائب الفرسان . وحسب ابن عبد البركان اسلامه في السنة السادسة في ذي القعدة.والروايات في تَوْقيت اسلامه متضاربة . شهد فتح مكة ، وقاد احدى الكتائب النبوية في هذا الفتح ، وانقذ الجيش الإسلامي في مؤتة ، كما شهد حُنَيْناً والطائف . ويظهر خالد محاربا قِياديا سريع الحركة والمبادرة الى المواقف الفورية الحاسمة . وكان من قادة فتوح اليمن ثم تولى حروب الردة وقاد جيش المسلمين في الشام . ولما تولى عمر عزله عن القيادة فاستمريجاهد بقيادة ابي عبيدة ثم ظهر في فتح قِنَّسْرين وغيرها كما سبق ان فتح الحيرة . وكان يشبه عمر في طبعه وأوصافه . وهو خطيب فصيح . وروى اقل من عشرين حديثا نبويا . وتوفي سنة 21 بحمص او بالمدينة . وكان عمر ينتقد عليه في عهد الرسول وابي بكر تَسَرُّعَه في بعض التدابير وانه لم يكن يرفع الى ابي بكر حسابات عن الغنائم .

خديجة بنت خويلد

جدها أسد بن عبد العزّى بن قصي ، امها فاطمة بنت زائدة بن الاصم،دُعيت في الجاهلية بالطاهرة . كانت زوجا لابي هالة بن زرارة التميمي ثم لعتيق بن عائذ المخزومي ، وتزوجها بعده (بعد وفاته) الرسول عليه الصلاة والسلام،وهي بنت اربعين عاما،وعمره خمس وعشرون سنة ، وذلك بعد ان جرّبَتْهُ في تجارة لها الى الشام من طريق غلامها ميسرة ، ولم يتزوج عليها الرسول حتى ماتت ، وكانت اول من آمن برسالته ، وآزرته وواسَتْهُ في محنتـه مع المشركين . وكانت وفاتها حوالي ثلاث سنين قبل الهجرة في رمضان ، وعمرها خمس وستون .

دحية الكلبي

دِحية بن خليفة بن فروة الكلبي من قضاعة . كان من كبار الأنصار من الخزرج ، اشترك في غزوات الرسول منذ غزوة الخندق ، وقيل منذ احد ، ولم يشهد بدرا ، وهو مبعوث الرسول الى هرقل ، وقال بعض المحدِّثين ان جبريل كان ينزل على صورته ، وكان جميل الطلعة . توفي في خلافة معاوية .

الزبير بن العوام

جده خُويلد بن أسد . وهو ابن عمة الرسول ، وأمه صفية بنت عبد المطلب.عُرف بشجاعته ، وهو ابن اخي خديجة ، وهو ايضا من السابقين الاولين الى الاسلام ، وكان في الخامسة عشرة من عمره حين اسلامه ، وعندما آخى الرسول بين المهاجرين بمكة كان عبد الله بن مسعود أخاً له باختيار الرسول (ص)وهاجر الى الحبشة والمدينة ، وكان من العشرة الذين بشرهم الرسول بالجنة ، ودعاه بَحَوَارِيِّه عندما وضع الزبير نفسه رهن إشارته ليأتيه بخبر بني قريظة ، وحضر كل مغازي الرسول وقاد بعض السرايا ، وكان خفيف السمرة طريلا مع ميل الى الرَّبْعة . قتل في غزوة صِفّين بعد ان تخلى عن مواجهة علي ، وكان قتله على يد أحد انصار علي سنة 36 ، وقد زاد عن خمسٍ وستين سنة .

زيــد بــن ثـابــت

أنصاري خزرجي من بني النجار ، أمه النوار بنت مالك ، كان في الحادية عشرة من عمره عند قدوم الرسول الى المدينة رده الرسول في بدر لصغره ، وشهد مغازي الرسول منذ الخندق وكان ينقل التراب اثناء الحفر ، وهو من حفاظ القرآن وأعلم الناس بالفرائض كما وصفه الرسول ، وبرهن عن نبوغ عظيم في تعلّم اللغات فدرس القبطية والعبرية والسريانية وغيرها مع حداثته ، وكان من ابرز كتاب الوحي والمراسلات والعهود النبوية ، وبرزت شخصية بني النجار بشكل متنوع في هذا العهد المبكر من صدر الاسلام ، وقام بأول عملية لجمع القرآن في عهد ابي بكر بعد عملية مماثلة في عهد الرسول (ص).وكان يعد من اصحاب الفتوى ويُرجَع اليه في عصر الراشدين كما كان مرجعا في اواخر العــهد النبوي ، وتوفي في أول خلافة معاوية ، وكان ميله عثمانيا من الوجهة السياسية مع محبة لعلي ، ورثاه حسان بن ثابت ، وقال ابو هريرة : اليوم مات حِبْر هذه الامة .

زيد بن حارثة

جده شَرَاحيل الكلبي وامه سعدى بنت ثعلبة من طيئ ، اغارت بعض القبائل على ابيات اسرته وهو صبي فباعوه لحكيم بن حزام فسلمه لعمته خديجة بنت خويلد فلما تزوجت الرسول وهبته له فتبناه واصبح يدعى بزيد بن محمد، الى ان دخل الاسلام فمنع

القرآن نسبة الناس الى غير آبائهم ، وذُكر زيد باسمه في القرآن ، فأصبح مولى للرسول باختياره.وكان من أسبق الناس إسلاما ، وشهد بدرا وغيرها وكان يؤمره الرسول على الرايات ان استشهد في مؤتة ، وكان اول قائد بها ، فخلفه جعفر . ومات عن سن الخامسة والخمسين فلم يكن بينه وبين الرسول الا فارق محدود في السن .

سعد بن ابي وقاص

سعد بن مالك بن أهيب المعروف بسعد بن ابي وقاص من بني زهرة بن كلاب القرشي ، امه حمزة بنت سفيان بن امية ، من السابقين الاولين ، اسلم في سن السابعة عشرة ، وكان صلبا في ايمانه ، وعُدّ من العشرة الذين بشرهم الرسول (ص) بالجنة ، كان من حراس الرسول في غزواته ، وشهد بدرا وغيرها وكان في عدة سرايا ، وروى عن الرسول كثيرا ، وعلى يده تَم فتح العراق وهزم الفرس في القادسية وجَلُولاء . واسس الكوفة بامر عمر وتولى إمارتها ، توفي بالعقيق سنة خمس وخمسين ودفن بالبقيع .

سعد بن عبادة

سعد بن عبادة بن دُلَيْم ، أنصاري خزرجي ، امه عمرة بنت مسعود، واسرته اشتهرت بالفضل والسخاء ابا عن جده ، وكان من النقباء في بيعة العقبة ومن كتاب الرسول (ص). وهو الذي كان يحمل راية الانصار في غزوات الرسول ، وعرف بإكرامه لاهل الصُفّة الذين كان يطعم عددا كبيرا منهم في منزله كل عشاء ، وهو ممن رفضوا التنازل عن شطر تَمْر المدينة لغطفان في حرب الخندق بعد ان استشاره الرسول (ص) وقال ، والله لانعطيهم الا السيف ، وما طمعوا منا بذلك قط في الجاهلية فكيف اليوم وقد هدانا الله بك ؟ وكان ذلك ايضا كلام سعد بن معاذ ، وسر لذلك الرسول (ص) ، ولما قدمه الرسول على الانصار في فتح مكة هدد قريشا باستحلال دمائها ، فنزع الرسول منه لواء الانصار وسلمه الى ابنه قيس . وامتنع عن بيعة ابي بكر وتوفي بحوران سنة 14 او 15 هـ .

سعد بن معاذ

زعيم الاوس احدى قبيلتي الانصار ، وهو سعد بن مُعَاذ بن امرئ القيس الأشهَلي ، وامه كَبْشة بنت رافع . شهد بدرا وأُحُداً والخندق التي ضرب فيها بسهم ، وعاش شهرا حتى حكّمه الرسول في بني قُريظة فحكم باعدامهم ، ثم توفي بعد ذلك وقاتله حبان بن عبد

مناف ، وكان اسلام سعد علي يد مُصعب بن عُميْر بين العقبتين الاولى والثانية .

سلمــان الفـرسي

من موالي الرسول ، اصله اصبهان بفارس ، جرب المسيحية وغيرها قبل أن يعتنق الاسلام ، وقيل انه في سَيْره الى المدينة بقصد الاسلام وقع في الأسْر وبِيع بالمدينة قبل ان يسلم ويشهد الخندق (كأولِ) مشاهده ، وآخى الرسول بينه وبين ابي الدَّرْداء ، مات بعد الثلاثين عن السن عالية وتولى المدائن،وكان يتصَدَّقُ براتبه من عمل الخوص وكان قد تعلمه بالمدينة . وهو الذي اشار على الرسول بحفر الخندق في غزوة الاحزاب ، وعرف بسعة معارفه وزهده وتقشفه ووفائه لأخيه في الله ابي الدرداء .

شجـاع بـن وهـب الاسـدي

من السابقين الاولين ، هاجر الى الحبشة والمدينة وشهد بدرا وغيرها وأوفده الرسول الى الحارث الغساني أمير بُصْرى بخطاب يدعوه الى الاسلام . استشهد باليمامة في خلافة ابي بكر .

طلـحة بـن عـبـيد الله

طلحة بن عبيد الله التَّيْمي ينتمي الى لُؤَي بن غالب القرشي ، وأمه الصعبة بنت عبد الله الخزرجية الحضرمية ، من السابقين الى الاسلام على يد ابي بكر ، واحد الذين عينهم عمر للشورى ، عينه الرسول مع سعد بن زيد للتعرف على اخبار قريش في طريق الشام فصادف يوم بدر دون ان يشارك فيها واسهم لهما الرسول (ص) ، كما شهد طلحة أحدا وباقي الغزوات ودافع عن الرسول يوم احد حتى شُلّتْ اصبعه ، ونقل الرسول على ظهره حتى ابعده عن العدو . وصفه الواقدي بانه كان آدم كثير الشعر حسن الوجه دقيق العرنين سريع المشي ، وآخى الرسول بينه وبين الزبير في مكة،وبينه وبين ابي ايوب في المدينة ، وقام بعدد كبير من المَبَرَّات . شارك في يوم الجمل ، ورماه مروان بن الحكم بسهم فاحدث نزيفا هلك منه في جمادى الاولى سنة 36 عن سن الرابعة والستين .

عـائـشـة بـنـت ابـي بـكـر

زوجة الرسول وبنت ابي بكر الصديق ، امها ام رومان من سلالة مالك بن كنانة ،

ولدت بعد البعثة بأربع سنين أو خمس ، بَنَى بها الرسول وهي بنت تسع بعد موت خديجة بثلاث سنوات ، وتوفي عنها الرسول (ص) وهي بنت ثمان عشرة ، وكانت لها شخصية قوية في بيت الرسول والمجتمع الاسلامي ، وهي الوحيدة من نساء النبي التي تزوجها بكرا ، وهي التي مرَّضت الرسول في مرض موته وقبض عليه السلام بين يديها ، ومَكَثَتْ في بيته تسع سنين .

وتأثرت بشكل عميق بتعَاليم الرسول وكانت رَاوِيَةً للحديث ، يسألها الصحابة عن شؤون الدين والفقه والفرائض ، وممن روى عنها ابو هريرة وابن عباس وصفية بنت شَيْبة وعمر بن الخطاب ونجله عبد الله وآخرون كثيرون ، حكم القرآن ببرائتها في حادث الإفك ، وانشعلت بالدفاع عن قضية عثمان ثم انسحبت من الميدان السياسي بعد موقعة الجمل وتوفيت سنة 58 ودفنت بالبقيع .

عامر بن فهيرة

من الموالي السابقين الى الاسلام وهو مولّدٌ من الازد ، وكان اسود مملوكا للطُفيل بن عبيد الله فاشتراه منه ابو بكر فاعتقه ، وكان يعذبه الطفَيْل وهو عنده . وكان يرعى الغنم عند غار ثور حراسةً للرسول وهو في طريقه مهاجرا الى المدينة مع ابي بكر ، وليقدم اللبن اليهما . وقد شهد بدراً وأحداً ، وقتله عامر بن الطفيل في بئر معونة سنة اربعً .

عبادة بن الصامت

من القراء ومعلمي الصفة والجامعين للقرآن في العهد النبوي ، وهو انصاري خزرجي ، وامه قرة العين بنت عبادة العجلاني - وكان احد النقباء في بيعات العقبة الثلاث ، آخى الرسول بينه وبين المهاجر ابي مرثد الغنوي ، وروى الكثير من احاديث الرسول وتضلع في الفقهيات ونقل عنه الحديث كثيرون . شهد بدرا وسائر المغازي وتبرأ من حِلْفِ بني قينُقاع ، وفي عهد عمر وُلِّيَ الارشاد الديني وقضاء فلسطين وتوفي بالرملة سنة 34 عن اثنتين وسبعين سنة .

العباس بن عبد المطلب

عم الرسول (ص) واحد زعماء قريش ورئيس البيت الهاشمي بعد ابي طالب . كان له

عطف شديد على الرسول ويظهره لقريش قبل اسلامه ، وكان اسن من الرسول بعامين فقط ، وكانت اليه السقاية والعمارة ، أسر في بدر فافتدى عن نفسه وآخرين بامر الرسول ، وكان حضوره مع المشركين بغير رضاه ، وكان يرسل الى الرسول تقارير عن نشاط قريش وتحركاتها ، وهاجر الى المدينة قبل الفتح فاسلم وشهد فتح مكة وغزوة حنين ، وكان الصحابة يُجِلّونه ويشاورونه ، وتوفي بالمدينة سنة 32 .

العباس بن مرداس

الشاعر عباس أو العباس بن مرداس السلمي ، كان والده شريكا في التجارة لحرب ابن امية والد ابي سفيان وقُتلا معا في أحد مشركَين ، اسلم مع سبعمائة من قومه في "المُشَلَّل" في طريق المدينة الى مكة ، وكان الرسول متوجها لفتح مكة . ودافع ابن مرداس منذ اسلامه بقوة عن الرسول ورسالته . وسكن بعد وفاة الرسول ناحية البصرة .

عبد الرحمن بن عوف

يتصل نسبه بالرسول (ص) في كلاب بن مرة ، ولد بعد الفيل بعشر سنين وهو كابن مرداس وآخرين من الصحابة ، لم يتعاط الخمر في الجاهلية ، وكان من السابقين الى الإسلام ، أسلم على يد ابي بكر ، وكان اسمه عبد الكعبة فسماه الرسول عبد الرحمن ، امه الشِّفاء بنت عوف ، هاجر الهجرتين وآخَى الرسول بينه وبين عثمان ، وفي المدينة بينه وبين سعد بن الربيع ، اشتغل بالتجارة ، ونال منها مالا عريضا فلم يحتج الى مساعدة مادية من الانصار ، وشهد كل غزوات الرسول وقاد سرية الى دومة الجندل وتزوج ابنة أميرها بإذن الرسول (ص) ، تصدق بشطر ماله في سبيل القضية الاسلامية ثم بمبالغ ضخمة في جيش العسرة (تبوك) ، واشرف على شؤون اسرة الرسول بعده ، فكان يحج بنساء النبي ويتعَهدهن بالرعاية . وصف بانه كان ابيض مُشْرَباً بحمرة ، طويلا أعْيَن له جُمة اسفل أذُنيه ، وأوصى لكل من بقي على قيد الحياة من اهل بدر باربعمائة دينار لكل واحد،وكانوا مائة ، وتوفي سنة 31 او 32 ودفن بالبقيع ، وهو من اصحاب الشورى الستة ، وهم الذين قال عمر ان الرسول توفي وهو عنهم راض ، وقال فيه الرسول عليه السلام : عبد الرحمن ابن عوف امين في السماء وامين في الارض ، جرح في احد اكثر من عشرين جراحة وأعتق

يومَها ثلاثين عبدا .

عبد الله بن رواحة

انصاري من الخزرج واحد السابقين ، وكان من نقباء العقبة واحد كتاب الرسول وشعرائه الثلاثة البارزين،والآخران حسان والعباس بن مرداس ، وامه كبشة بنت واقد ، خزرجية ايضا ، آخى الرسول بينه وبين المقداد ، وشهد مغازي الرسول كلها الى ان استشهد بمُؤْتة سنة ثمان . وصف بانه كان عالما ، وكان اول من يتقدم للغزو وآخر مَنْ يعود منه ، انتدبه الرسول لقتل رَقْرام اليهودي بخيبر فنفذ فيه الاعدام لشدة عدائه للرسالة النبوية وصاحبها .

عبد الله بن سلام

كان من أحبار اليهود بالمدينة وهو من بني قيقناع ، وذكر انه من ذرية يوسف النبي عليه السلام ، وكان اسمه الحصين ، ثم اتصل بالرسول في المدينة وتتبع احواله واستمع اليه قبل ان يعلن اسلامه ، ثم سماه الرسول عبد الله ، ويظهر انه لزم المدينة بعد ذلك ، وكان اسلامه كسبا للرسالة المحمدية ، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : «**وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم**» . ولم يضبط تاريخ اسلامه ، وهو على اي حال بعد قدوم الرسول الى المدينة وعلى يده مباشرة . وروى عنه ابناه يوسف ومحمد وجماعة كبيرة من الصحابة منهم أبو هريرة وقيس بن عباد ، توفي بالمدينة ستة 43 هـ .

عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول

كان من الخزرج . اسلم ابوه نفاقا ، اما اسلامه هو فكان ثابتا ، حضر غزوات الرسول (ص) ، وعرف بالفضل والطيبوبة ، وكان غاضبا من موقف والده حتى انه استأذن النبي عليه السلام في قتله ، فقال : لا يتحدث الناس ان الرسول يقتل اصحابه ، ولكن بَرَّ أباك وأحسن صحبته . استشهد في موقعة اليمامة في عهد ابي بكر .

عبد الله بن مسعود

من بني سعد بن هذيل . حالف ابوه سعد بن غافل في الجاهلية عبد الحارث بن زهرة . من أوائل المسلمين ، انضم الى الرسول غلاما فكان يخدمه كأنس بن مالك واسلمت امه ايضا ، وهاجر الهجرتين وآخى الرسول بينه وبين الزبير ، وفي المدينة بينه وبين سعد بن

معاذ . لازم الرسول وروى عنه كثيرا ، وهو من القراء والفقهاء الكبار وكان قصيرا نحيفا ، وهو قاتل ابي جهل في بدر ، وقيل انه روى اكثر من ثمانمائة حديث . شهد بعد الرسول فتوح الشام ، وكان عمر في خلافته يجله ، وتولى عنه الارشاد الديني بالكوفة ثم عينه عثمان اميرا عليها قبل ان يستقدمه مرة اخرى الى المدينة ، وكانت بها وفاته سنة 32 ودفن بالبقيع ، وصلى عليه الزبير وقيل عثمان ايضا . وعندما قرر عثمان نشر المصاحف بقراءة موحدة حسب قراءة زيد بن ثابت غضب لذلك وقال : والله ما نزل من القرآن شئ إلا وانا اعلم في أي شئ نزل ، وما احدٌ أعلم بكتاب الله مني ، ولو أعْلَمُ أحداً تبلغنيه الإبل أعلم بكتاب الله مني لأتيته ، وما انا بخيركم . ولم ينكر عليه احد مقولته .

عتاب بن أسيد

من البيت الاموي ، استعمله الرسول على مكة وهو يزيد قليلا عن العشرين ، وكلفه ايضا بقضائها . وعاش الى اواخر عهد عمر وتولى بعض الاعمال عنه ، وكان شديدا على المتخلفين عن الصلاة ، وأنذر بضرب عُنُق من يتخلف . ويمثل عتاب نموذجا للاطارات الشابة التي تميزت بنقاوة اسلامها ولم تطمح الى شهوات الدنيا .

عثمان بن عفان

من البيت الأموي كأمه أرْوَى بنت عبد شمس ابنة عمة الرسول (ص) ، ولد بعد الفيل بست سنوات ، وكان من اوائل المسلمين على يد ابي بكر ، اشتغل بالتجارة ، وزوجه الرسول من ابنته رقية ثم ماتت في السنة الثانية فتزوج من اختها ام كلثوم ، ولقب ذلك بذي النورين ، وجهز جيش العُسْرة حسب بعض الروايات بألف راحلة منها خمسون فرسا ، وكان شديد التعلق بالقرآن يقرأه باستمرار حتى قام بتجميعه نهائيا ونشره بقراءة زيد بن ثابت في خلافته كما توفي وهو يقرأ في الصحف ودمه ينزف عليه . وقام بعدة مَبَرَّات كوقْف بعض الآبار العمومية بعد شرائها ، وذلك ايام الرسول (ص) وكان لَيِّن الطبع عفيفا عن سفك الدماء ، وهو الذي رُشح للخلافة من بين الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب للشورى ، وهو من ذوِي الهجرتين ، واسهم له الرسول في بدر ولم يحضرها لانه كان قائما على تمريض زوجه التي توفيت مباشرة بعد وصول خبر انتصار المسلمين الى بدره وشهد

مغازي الرسول وبعثه الى مكة لمفاوضة قريش خلال احداث الحُدَيْبِيَّة ، استشهد سنة 35 هـ وكان اسمر رَبْعة كبير اللحية ، ومدفنه بالبقيع .

عـدي بـن حـاتـم

كان اكبر شخصيات طَيئ قبل اسلامه ، وكان من كبار الشعراء . اسلم مع وفد من طيئ عند قدومه على الرسول في السنة العاشرة ، وكانت اخت له قد وقعت في الاسر على اثر قيام احدى السرايا النبوية بغزو طيئ ، وهي التي أوعزت اليه باعتناق الاسلام وكان نصرانيا . وبفضله اسلمت طَيئ التي تقع عند التخوم الشمالية لجزيرة العرب ، وكان معروفا بسخائه ، عينه الرسول عاملا على صدقات طيئ وأسد وثبت على إسلامه في الردة ، وطال عمره.وكانت جباية طيئ من اكبر الجبايات في العهد النبوي ، لم يحدد تاريخ وفاته ، وقيل كانت سنة 68 هـ .

عـلـي بـن ابـي طـالـب

والده عبد مناف ابو طالب هو عم الرسول (ص) والذي كَفَلَه بعد وفاة جده عبد المطلب . كان اول من اسلم من الصبيان وقيل اول من اسلم من الذكور . وكان مولده قبل البعثة بعشر سنين ، ورُبِّيَ في كفالة الرسول عليه السلام ، واظهر منذ حداثته نبوغا كبيرا وشجاعة فائقة في الغزوات والسرايا ، وشهد مغازي الرسول الا تبوك ، لان الرسول تركه يرعى شؤون اسرته بالمدينة ، وتزوج فاطمة في السنة الثانية وشرفه الرسول بأن آخى بينه وبين نفسه ، وعندما هم بالزواج من بنت ابي جهل رفض الرسول ان يجمع صهره بين بنت الرسول وبنت مشرك ، وتمسك علي بفاطمة.وظهر طول حياته صلبا في دِينه لا تهزم له راية مع تعلق بالرسول وملازمته له . واخذ عن الرسول كثيرا ، كما بثَّ التعاليم النبوية بين اسرته وعدد كبير من الصحابة والتابعين كَوَلَدَيه الحسن والحسين ، وابن مسعود ، والبَراء ابن عازب ، وابن عباس ، ومروان بن الحَكَم . وكان على اطلاع بالفقه ورجع الناس الى فَتَآويه بعد الرسول . وساند عثمان بصدق ودافع عنه باخلاص حتى آخر لحظة ، وكان يحمل غالبا راية المهاجرين في الغزوات النبوية ، وعُرف بروعة أسلوبه الخَطابي وفيما يُلقيه من تعاليم وتوجيهات ، وكان احد الستة من أهل الشورى وآخر الخلفاء الراشدين ،

واستُشْهِدَ على يد بعض الخوارج في رمضان سنة 40 ، وبرزت قوة شخصية علي في العهد النبوي طيله العهد الراشدي . وعُلُوُ كَعْبِه يبرز في سَعَة افقه في الميدان الديني وشخصيته النضالية اكثر مما يبدو في الميدان السياسي المحض .

عمار بن ياسر

عربي من مذحج اليمنيَّة . كان ابوه حليف بني مخزوم من قريش ، تزوج ابوه أَمَةً لِبني مخزوم واسمها سُمَية،فولدت له عمارا فكان مولى لبني مخزوم ، وأسلم مع امه وابيه فلقوا اشد العذاب بمكة حتى كان الرسول يتألم لحالهم ويخاطبهم : صبراً آل ياسر ، ان موعدكم الجنة . وهاجر الى المدينة ، وقيل هاجر قبلها الى الحبشة ، وشهد مشاهد الرسول ، وقالت عائشة رِوَايةً عن الرسول (ص) انه قال فيه : ان عمار بن ياسر حُشِيَ ما بين أخمص قدميه الى شحمة أذنيه ايمانا ، شهد بعد الرسول حرب اليمامة وثبت فيها ، ثم ولاه عمر الكوفة في خلافته ، وحارب مع علي في صفين حيث قتل سنة 37 وقد تجاوز تسعين سنة .

عمر بن الخطاب

يلتقي نسبه مع الرسول في كعب بن لؤي وامه حَنْتَمة بنت هاشم المخزومية . ولد بعد عام الفيل باكثر من عشر سنوات ، واشتغل بالتجارة . وكان شديدا على المسلمين . ثم اسلم ، فاعتزت به جماعة المومنين ، وكان طويل القامة ضخم الجثة ابيض ، وقيل شديد الحمرة اصلع خفيف العارِضين ، وكان اسلامه بعد حمزة في اسبوع واحد . وشهد مشاهد الرسول وسماه النبي (ص) بالفاروق ، وتميز بالصلابة في المواقف مع احترام كلي لتعاليم الرسول وعطف شديد على اسرته ، ويتردد اسمه كثيرا في المشاورات النبوية ، وروى عن النبي (ص) . وهو من ائمة الاجتهاد في الاسلام ، وربما كان اكثرهم اجتهادا ، وكان ابو بكر في خلافته يستشيره . ولما تولى الخلافة تمكن من فتح سائر الامبراطورية الفارسية وقسم كبير من الامبراطورية البيزنطية ، ونظم الادارة وطبق العدل بصرامة وأعطى من نفسه ومن اسرته المثل في الاستقامة والتقشف وحرم اهله ونفسه مُتَع الدنيا . اغتيل في مؤامرة فارسية سنة 23 هـ وكان نقش خاتمه : كفى بالموت واعظا يا عمر .

عمرو بن أمية الضمري

اسلم بعد أحد وشهد بئر معونة في السنة الرابعة وساهم في عدة سرايا وغزوات بعدها ، وعرف بشجاعته وجرأته . وهو الذي انزل جثة خُبيب من المكان الذي صلبته قريش فيه بمكة . وروى أحاديث عن الرسول كما روى عنه غيره . وبعثه الرسول الى النجاشي يدعوه الى الاسلام بحضور جعفر بن ابي طالب ، وتوفي بالمدينة في خلافة معاوية .

عمرو بن العاص

قرشي سهمي من سلالة كعب بن لُؤَيّ ، وامه النابغة بنت حرملة من سبي جلان من ربيعة ابن نزار . وأسلم بين الحُدَيْبِيَّة وخيبر ، وقيل في الثامنة حيث عينه الرسول على صدقات بني فزارة ، وهذا التاريخ الاخير هو الذي يرجحه ابن عبد البر . والحقيقة ان النجاشي دعاه في قصة معروفة الى الاسلام فاسلم بحضور جعفر بن أبي طالب ، وبذلك كان اسلامه قبل هذا التاريخ . وخلال احداث خيبر على وجه التقريب وجهه الرسول في عدد من السرايا ، منها واحدة يدعو أهل بَلِي بالشام من اخواله الى الاسلام وأخرى الى قضاعة . ولاه الرسول اقليم عمان وساهم بعده في فتوح الشام ، كما فتحت على يده مصر والجزء الاكبر من ليبيا الحالية ، ثم ساند خلافة معاوية واعيد لولاية مصر حيث توفي ودفن بالمقطم سنة 43 هـ .

وتميز عَمْرو بن العاص بدهائه وطموحه الى السلطة مع قدرة حقيقية على الضبط والتنظيم ، وظهرت هذه الصفات فيه من عهد الرسول ثم تَقَوّتْ بعده ، ودوره في قضية التحكيم معروف .

قيس بن سعد بن عبادة

والده كان كبير الخزرج وامه فكيهة بنت عم والده ، ووُصِفَ قيس بأنه كان طويلا ضخما حسن السَّمْت . وكان شبيها بعمرو بن العاص في دهائه وصواب رأيه ، ويتولى ما يوازي مسؤولية الشرطة في العهد النبوي . وخدم الرسول عشر سنين وحضر مَشَاهده ، وكان شديد السخاء حتى استدان للإنفاق على جيش العُسرة وغيره . وفي دخول الانصار الى مكة مع الرسول انتزع النبي (ص) الراية من يد والده سعد وسلمها اليه لسبب سبق ذكره . وفي عهد علي تولى إمرَة مصر ، ولم ينْخَدِعْ لإغراءات معاوية ولكن هناك من دسّ الى علي انه يتآمر مع معاوية ، فعزله ، ثم عرف اخلاصه بعد فوات الأوان . وتوفي في آخر خلافة معاوية .

مصعب بن عمير

من بني عبد الدار بن قصي بن كلاب . أسلم في دار الأرقم التي كان الرسول يدعو فيها الى الاسلام ، وكتم اسلامه عن اهله ثم اشعرهم به عثمان بن طلحة ، فأوثقوه وحبسوه إلى أن هرب الى الحبشة ثم عاد وهاجر الى المدينة فاسلم علي يده عدد من اهلها كأسيد بن حضير ، وتولى تلقين القرآن والتوجيه الديني بالمدينة منذ بيعة العقبة الثانية ، وكان اول من صلى بالمومنين الجمعة بالمدينة مباشرة قبل الهجرة الجماعية والنبوية ، وحمل راية المهاجرين في بدر واحد ، وفي هذه الغزوة استشهد عنْ سِنّ الاربعين .

معاذ بن جـــبل

أنصاري من الخزرج ، أسلم وهو ابن ثمانية عشر عاما ، وتولى جمع القرآن في عهد الرسول مع خمسة آخرين ، آخى الرسول بينه وبين عبد الله بن مسعود ، وهو اخد النقباء السبعين في العَقَبة ، ولاه الرسول قضاء اليمن والشؤون الدينية به ، كما تولى مدة التكوين الديني بمكة بعد فتحها ، ووُصف بانه المقدم على الحلال والحرام ، وكان أول من أذن له الرسول عَلانيةً بالاجتهاد في القضاء ، وتولى ايضا وربما لسنة واحدة في عهد الرسول جَمْعَ صدقات اليَمن مع مَشَاغله القضائية والعقائدية حيث اسلمت على يده بعض قبائل هذه المنطقة .

وصف ابو نعيم في الحلْية ، كما ذكر ابن حجر ، هذا الصحابي الشاب بانه إمام الفقهاء وكنز العلماء . وتميز بحِلمِهِ وحياته وسخائه ، وقال عمر بن الخطاب منوها بمعارفه : لولا معاذ لهلك عمر ، وروى قريبا من مائة وستين حديثا عن الرسول ، وعاد الى المدينة بعد وفاة ابي بكر واشترك في غزو الشام مع ابي عبيدة ، ثم استخلفه ابو عبيدة في طاعون عمواس سنة 18 وأقره عمر ، ثم ما لبث ان هلك من هذا الطاعون وسنُّهُ قريب من خمس وثلاثين ، ودفن بالغور من الأردن .

مصادر ومراجع

ابن الاثير علي بن محمد الجَزري الشيباني 630 / 1332 :

- الكامل ، تحقيق عبد الوهاب النجار ، ادارة الطباعة المنيرية القاهرة . 1358 هـ

ابن اسحق محمد المطّلبي ، 151 هـ / 768 .

- السير والمغازي ، تحقيق د . سهيل زكار ، دار الفكر بيروت 1389 هـ / 1978

ابن حجر العسقلاني احمد بن علي ، 852 هـ / 1448 :

- الاصابة في تمييز الصحابة (اربعة مجلدات) ، مكتبة المثنى ، بغداد (بالأوفسيت) ، عن طَبْعَة (السعادة) القاهرة 1328 / 1910

ابن خُرْداذبه عُبيد الله بن عبد الله ، 300 / 912 :

المسالك والممالك ، برايل ، هولندا ، تحقيق ذي خوية 1889 م

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، 808 / 1405 :

- تاريخ ابن خلدون المعروف بكتاب العِبر ، الخ ... تحقيق صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب ، بيروت ، 1956 م .

ابن سيد الناس اليعمري (انظر اليعمري) :

ابن عبد البر يوسف بن عبد الله النّمري القرطبي ، 463 هـ / 1970 :

- الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، على هامش الاصابة (انظر ابن حجر)

ابن فَرج القرطبي عبد الله بن محمد :

أقضِيه رسول الله (ص) ، مطبعة دار احياء الكتب العربية ، القاهرة 1346 هـ

ابن كثير عماد الدين ابو الفداء اسماعيل الدمشقي ، 774 هـ /1372 :

- مختصر تفسير ابن كثيرة ثلاثة مجلدات ، لمحمد علي الصابوني ، دار القرآن

الكريم ، بيروت ، 1402 هـ 1981

ابن هشام عبد الله المعافري 213 / 828 :

- السيرة النبوية ، تحقيق طه عبد الرؤوف ، مكتبة شقرون ، 1398 هـ / 1976

الأزرقي محمد بن عبد الله بن احمد
(اوسط قرن 4 هـ/10م) :

- السيرة النبوية ، تحقيق طه عبد الرؤوف ، مكتبة شقرون ، 1398 هـ / 1978
- اخبار مكة ، تحقيق رشدي الصالح ملحس ، دار الاندلس ، بيروت 1389 هـ / 1969 .

الاصطخري الكرخي ابو إسحق ابراهيم بن محمد
(أواسط قرن 4 هـ / 10) :

- المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر . وزارة الثقافة والارشاد القومي القاهرة 1381 هـ / 1961 .

بافقيه محمد عبد القادر :

- تاريخ اليمن القديم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1973 م

البخاري ابو عبد الله محمد بن اسماعيل ، 256 هـ / 869

- صحيح البخاري طبعة بالأوفسيت ، عن طبعة استامبول ، دار الفكر بيروت ، 1401 / 1981 .
- الأدب المفرد ، طشقند ، 1390 هـ / 1970

بروكلمان (كارل) .

- تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج 1 . ترجمة نبيه امين ومُنير البعلبكي ، دار العلم للملايين بيروت ، 1953 م .

البلاذري ابو العباس احمد بن يحيى 279 هـ / 892 :

- فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله انيس الطباع ، وعمر أنيس الطباع ، دار النشر للجامعين بيروت 1377 هـ / 1957 .

حركات ابراهيم :

- السياسة والمجتمع في عصر الراشدين ، الاهلية ، بيروت 1985

الزمخشري محمود بن عمر 528 هـ / 1957

- الكشاف (تفسير القرآن الكريم ، 4 مجلدات) ، مطبعة الاستقامة .
القاهرة 1373 هـ / 1953 .

سعاده (د. خليل) .

- ترجمة إنجيل برنابا عن الانجليزية ، مطبعة المنار ، القاهرة ، 1396 / 1908
مع مقدمة لرشيد رضا (العالِم السلفي)

سيد قطب :

في ظلال القرآن ، طبعة سابعة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت 1931 هـ / 1971 .

الصابوني محمد علي (انظر ابن كثير)

الصالحاني (الاب) انطوان اليسوعي :

- رنات المثالث والمثاني في روايات الاغاني ج . 2 المطبعة الكاثوليكية بيروت 1323 هـ / 1923 .

الطبري ابو جعفر محمد بن جرير ، 310 هـ / 922 :

- تاريخ الامم والملوك ، نسخة مصورة ببيروت ، عن طَبْعة المطبعة الحُسَينية ، القاهرة .

العمري ياسين بن خير الله 1232 هـ/ 1816 :

- مهذَّب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء ، تحقيق رجاء السامرائي ،
دار الجمهورية ، بغداد ، 1386 - 1966

عياض اليحصبي أبو الفضل بن موسى ، 544 - 1149 :

الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، تركيا ، 1325 هـ/ 1906 :

الغلامي محمد رؤوف :

اصحاب بدر ، شرح وتحقيق لِمنظومة الحاج حسين الغلامي (ت . 1206 هـ)
فيليب حتي :
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجي ،
دار الثقافة بيروت 1959 م
القلقشندي ابو العباس احمد بن علي 821 هـ / 1418 :
- صبح الأعشى ، نسخة مصورة عن المطبة الاميرية ، وزارة الثقافة القاهرة .
الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير :
- التراتيب الادارية (نظام الحكومة النبوية) ، دار الكتاب العربي بيروت (د . ت)
كحالة عمر رضا :
- معجم قبائل العرب . دار العلم للملايين ، بيروت ، 1388 هـ / 1968
المسعودي ابو الحسن علي بن الحسين ، 346 هـ / 957 :
- مروج الذهب ، دار المعرفة ، بيروت ، 4 اجزاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، 1402 هـ / 1982 .
المقدسي مطهر (اوسط قرن 4 / 10) :
- البدء والتاريخ ، نسخة مصورة عن طبعة باريز (المنشورة 1899 م)
ياقوت الحموي شهاب الدين بن عبد الله ، 626 هـ / 1957 :
- معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت 1376 هـ / 1957
اليعمري فتح الدين محمد بن محمد ، المعروف بابن سيد الناس ايضاً، نسبةً الى احد جدوده . توفي 734 هـ/ 1333 :
- عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، جزآن في مجلد .
دار الآفاق الجديدة - بيروت . 1400 هـ / 1980

De l'Andelyn (Ch) :
- Histoire universelle , Payot , Paris , 1958

Fleisch (Henri) :
- Introduction à l'étude des langues sémitiques , lib. Adrien
- Maisonneuve, Paris, 1947.

D'Haucourt (Geneviève) :
-La vie au Moyen Age, Collection (que sais-je),
Presses Universitaires de France, N° 132 , Paris , 1979

Larousse 3, Imprimerie D . M . C Aulin et Jaguar
Paris , 1980

Lemerle (Paul) :
- Histoire de Byzance Col, (que sais - je), N 107,
Presse Universitaires de de France , Paris , 1980

Ostrogorsky (Georges) :
- Histoire de l'Etat byzantin, Payot , Paris , 1956

Renard (Henri) et d'autres :
- La Sainte Bible, Ligue Catholique de l'Evangile, Paris , 1951

Vinson (Julien) :
-Les religions actuelles , lib. DeLahaye,et Emile,
lecrosnier, Paris, 1888.

فهرس الموضوعات

رقـم الإيداع القـانـوني 394 / 1990

مطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب)